الفتوحات الإلهية

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

تحقيق

عبد الرحمن حسن محمود

عفا الله عنه

عالم الفكر

موسى سيدنا الحسين . الأزهر الشريف ٥٩٢٦٦٠٩
ص . ب . الغورية ١١٦٣٩ رقم ٥٦ ٥٨٩٢٦٧١

الفتوحات الإلهية

في

شرح المباحث الأصلية

تاليف

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

راجعه وحققه وقدم له

خادم المسلمين

عبد الرحمن حسن محمود

ميدان سيدنا الحسين ـ الأزهر الشريف
هاتف ٩٣٦٦٠٩

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبعـــد :

يقول رسول الله ﷺ فى الحـديث الذى رواه الديلمى فى مســند الفردوس :

« الدنيا حرام على اهل الآخرة ، والآخرة حرام على اهل الدنيا ، والدنيا والآخرة حرام على اهل الله ..

(صدق رسول الله ﷺ)

المقصود من هذا الحديث ـ والله اعلم ـ ان راغب الدنيا لايمكن ان يكون راغبا فى الآخر ، لأن زخرف الدنيا وبهرجها قد اعمى عين قلبه عن رؤية الحقائق . فاصبح لا هم له إلا الجمع والمنع :

جمعها من حرام او حلال ، او منهما معا .

ومنعها عن مستحقيها الذين فرض الله لهم فريضة فى اموالهم .

فلذلك حرمت عليه الآخرة اى : الجنة ونعيمها وما فيها ، فلا يكون من المكرمين .

واما اهل الآخرة ، فإنهم ابتغوا الأجر من الله ، وعملوا على رضاه ولم يكن ديدنهم ولاهجّيراهم إلاّ رضا الله تبارك وتعالى .

فلذلك هانت عليهم الدنيا بحذافيرها فباعوها ، واشتروا ما عند الله من نعيم مقيم .

واما اهل الله ، فاولئك الذين لاشأن لهم بالدنيا ولا بالآخرة لأنهم أحبوا الله تعالى وشغلوا به .

ورد ان عبد الله بن محمد سمع امراة من المتعبدات تقول وهى تبكى والدموع على خدها جارية :

« والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه » .

قال : فقلت لها : فعلى ثقة انت من عملك ؟

قالت : لا ، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به ، افتراه يعذبنى وانا احبه ؟ » انتهى كلامها رضى الله عنها .

وقد اجاب على هذا السؤال رجل منهم ، التقى مع احد العلماء فظن العالم ان الرجل احد المجاذيب الذين لا يدركون شيئا ، فأخذ يوبخه ، فقال له الصوفى : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم قال : اين تجد فيه أن الحبيب لا يعذب حبيبه ، فوقف الرجل هنيهة ، ثم قال : لا أدرى ، فقال له :

« الم يقل الله تعالى » :

« وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق (١) » فبهت الرجل وذهب الى حال سبيله ، وعرف ان القوم على صلة بالله .

• • •

ورد ان من اهل الجنة اناسا لو حجب الله عنهم طرفة عين لاستغاثوا من الجنة ونعيمها كما يستغيث المستغيث من النار وعذابها .

وقال الثورى لرابعة العدوية : ما حقيقة إيمانك ؟

قالت : « ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فاكون كالاجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا اليه » .

تريد بالاجير السوء : الشخص الذى يستاجر لعمل ما . فإذا ما قضى عمله طالب بالاجر ، وهو لا يدرى ايقبل صاحب العمل عمله هذا ام يرده لعيب فيه ؟

---

(١) الآية : ١٨ من سورة المائدة .

وقد قال الإمام الشعرانى رضى الله عنه ما معناه : إن الله سبحانه وتعالى شرط شرطا لقبول العمل فقال : انا لانضيع اجر من احسن عملا(١) ولهذا يدعى انه احسن العمل حتى يطلب الاجر .

وقال الإمام الغزالى عن السيدة رابعة لما قالت :

احبك حبين ، حب الهوى ∴ وحبا لانك اهل لذاكا

قال : لعلها ارادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو اهل له : الحب لجماله وجلاله اذ انكشف لها .

وهو اعلا الحبين ولقواهما .

• • •

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى .

« العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء الى نفسه فمتى يبرىء غيره ؟ »

فى الواقع ان هذه الجملة « والدنيا داء الدين » هى عنصر التصوف الاصيل والاقوم ، ودائرة قطبه الأفخم إذ الدنيا والدين لا يجتمعان فى قلب عبد ابداً ... إما دنيا وإما دين ... لا ثالث لهما .

ولذلك قال رسول الله ﷺ فى ما رواه البيهقى فى شعب الايمان : « حب الدنيا راس كل خطيئة » يفيد ان حب الآخرة ورضى الله راس كل حسنة ، إذ بضدها تتميز الاشياء .

وقوله ﷺ : « من احب دنياه اضر باخرته » الى آخره واضح بين لاينكره إلا من طمس على قلبه والعياذ بالله .

• • •

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٣٠

قوله تعالى – ويطعمون الطعام على حبه – اى على حب الله – على احد التفسيرين ، وذلك اعلى مراتب الايمان والعبودية لله رب العالمين .

والتفسير الآخر – على حب الطعام – لحاجتهم إليه ، وهو صحيح ايضا ، إذ فيه الايثار فى وقت الحاجة ، الذى عبر الله تعالى عنه بقوله جل شانه :

– ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة –

ولما كان الايثار محبوبا لله تعالى عقب الآية بقوله تبارك وتعالى :
– ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون – .

والشح مضاد لحب الله ، لأن الدنيا لاتنخلع من قلبه حتى ياكله التراب ويذوب فى القبر .

• • •

تقول السيدة عائشة بنت ابى عثمان رحمها الله تعالى :

« من تهاون بالعبيد فلقلة معرفته بالسيد ، فمن احب الصانع احب صنعته » .

وهذا الذى ذكرته هذه المراة الصالحة له مغزاه الصحيح ، فالمسلم لا يبغض الا من يبغض الله تعالى .

ولم يدلك الله على انه يبغض شخصا بعينه ، إلا ماورد فى القرآن او صحيح السنة ، فانت مامور بأن تبغضهم باعيانهم ، لأن الله قال لك إنه يبغضهم ، والذى يبغضه الله هالك لا محالة .

واما غير ذلك ، فعواقب الناس معلومة لله وحده ، مجهولة لكل الخلق

ولذلك انت مطالب بان تحب كل مسلم ، لانه اسلم نفسه لله رب العالمين .

وان تبغض الكافر لكفره ، فإذا ما ذهب منه الكفر واسلم كان محبوبا لك .

وقد قيل « ابغض الصفة ولا تبغض الموصوف » فإن الموصوف بصفة الكفر والنفاق مثلا ربما زالت عنه هذه الصفة وختم له بالايمان ، ولذلك غضب رسول الله ﷺ لما قتل اسامة بن زيد الرجل الذى اسلم اثناء الحرب وذلك لأن الصفة التى حوربه من أجلها زالت عنه فى ظاهر الأمر .

فابغض صفة الكفر وحاربه عليها ، واحب صفة الإيمان وصادقه وآخه عليها .

واياك ايها العاقل ان تتكلم فى عواقب الخلق وخواتيم اعمالهم فإن الكلام فيه مهلكة اى مهلكة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ .

« من احب لله ، وابغض لله ، واعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

(رواه ابو داود)

فقوله عليه الصلاة والسلام « لله » توجب على المسلم ان يكون فعله كله مجردا لله وحسب ، وذلك هو قمة الاسلام والتصوف .

• • •

هذا الذى ذكرته لك ايها الأخ القارىء الكريم ، ليس هو اخلاطا من كلام شتى كما ستظن . ولكنه زهرات من بساتين قمة الاسلام « التصوف » وهو موضوع كتابنا الذى نقدم له .

هذه نتف من اخلاق القوم ، اخلاق اهل الحق رضى الله عنهم وارضاهم ، منها وعنها تعرف ان التصوف إن هو الا السير على خطا رسول الله ﷺ .

– وعندما اقول لك « التصوف » لا اقصد هذا التهريج الذى تراه – وإنما اقصد سلوك اهل الحق العارفين بالله .

• • •

من قال : إن التصوف مجانف للإسلام فهو المجانف للحق ، لأن التصوف كله من أوله الى آخره إن هو إلا التجرد لله فى كل اعمالك وذلك قمة الاسلام .

إذا تجردت فى كل اعمالك لله ، فانت متصوف ، سواء انتسبت إلى طريق معينة ام لا .

وعلى هذا الاساس يجب عليك الا تبغض الصوفية فتبغض ما يحب الله ورسوله ، فتقع فى الشرك .

• • •

قالوا ان كلمة « تصوف » لم ترد فى الإسلام :

رغم اننا نقول : ان اغلب المسميات المعروفة لنا الآن كعلم اصول الفقه وعلم اصول الحديث ، ومصطلح الحديث ، والمعقولات ، والمنقولات ، وما الى ذلك من مسميات كثيرة لم تكن فى عهد نزول الرسالة ، ولكنها وضعت فيما بعد لمقتضيات الحال .

رغم هذا نقول : إن التصوف له اصل كبير فى الإسلام ، اذ كان هو الحياة العملية لرسول الله ﷺ واصحابه ، ولا ينكر ذلك إلا من عمى عن طريق الحق واتبع طريق الضلالة والعياذ بالله .

وقد سبق أن ذكرت شيئا من اخلاق القوم ، وقلت لك إنهم ساروا على اثر قدم رسول الله ﷺ .

• • •

والآن قد آن الآوان لأن اسرد عليك بعض شىء من خلق اصحاب رسول الله ﷺ حتى تكون على بينة من امرك .

(١) لما هاجر المسلمون من مكة وغيرها الى المدينة المشرفة ، الم يتركوا اموالهم وديارهم ، واولادهم واحب شىء إليهم .

لم فعلوا ذلك ؟

الم يفعلوه حبا فى الله ورسوله .

هل من المنكرين على التصرف من يفعل من ذلك من شىء ؟ ام انهم الآن يهاجرون الى مواطن الاموال ليترعوا من حثالات الدنيا ومستنقعات البترول .

لذى يدعوا اليه التصوف : الهجرة لله إذا هاجرت ، لينتفع بك المسلمون ، « المسلم اينما وقع نفع » .

اما ان تهاجر لجمع المال وتزعم انك مهاجر لله ، فلا ، والف لا ، لا يجتمعان فى قلب : حب الدنيا وحب الله .

اننى لا ادعوك لأن تهاجر وطنك وولدك واهلك وتخرج منهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : « لا هجرة بعد فتح مكة » .

(رواه البخارى) .

ولكنى ادعوك لأن تكون هجرتك لله ... الله وحسب ، وعندئذ ستجد الدنيا بخذافيرها تحت قدميك .

يقول لك التصوف : اهجر اول ماتهجر : اخلاقك السوء ، فإذا فعلت فإنك مهاجر .

ولذلك قالوا : اذا اردت ان تهجر احدا من المسلمين ، فاهجر أنت اخلاقك السوء اولا .

وأول خلق سوء يجب أن تهجره هو : هجر المسلم .

(٢) الانصار : لما ذهب إليهم المهاجرون ، الم يشاركوهم اموالهم وديارهم ، وحتى بلغ بهم الأمر انهم كانوا إذا راو رجلا من المهاجرين غير متزوج طلق احدهم إحدى نسائه ليتزوجها اخوه المهاجر .

اليس هذا الإيثار هو قمة الإسلام .

لمن هذه الهجرة وهذا الايثار ؟ اليس هو لله رب العالمين حبا فى ذات الله .

كذلك الصوفية يفعلون . ، يحبون لله ، ويبغضون لله ، ويأمرون لله وينهون لله ، ويمشون لله ، ويقفون لله ، وينامون لله ، ويستيقظون لله ، ويسعون لقضاء حوائج المسلمين لله . ولا يسعون لقضاء شيىء فيه غضب من الله ابدا .

• • •

نظر النبى ﷺ الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قـــد تنطق به . فقال النبى ﷺ :

« انظروا الى هذا الرجـــل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعـــام والشراب . فـدعاه حب الله ورســوله الى ما ترون »

(رواه ابو نعيم فى الحلية)

فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون حديثا .

• • •

قال رسول الله ﷺ فى مارواه البيهقى فى شعب الإيمان :

« أنزل الله جبريل فى أحسن ما كان يأتينى فى صورة ، فقال : ان الله تعالى يقرئك السلام يا محمد ويقول لك :

إنى أوحيت الى الدنيا ان تمررى وتكدرى ، وتضيقى وتشددى على أوليائى كى يحبوا لقائى ، فإنى خلقتها سجنا لأوليائى وجنة لأعدائى » .

ومن ذلك قول النبى ﷺ :

« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »

رواه الإمام احمد ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن ابى هريرة . والطبرانى ، والحاكم عن سلمان ، والبزار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم جميعـــا

وقال رسول الله ﷺ :

« الدنيا سجن المؤمن وسنّته ، فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة»

(رواه الإمام احمد ، والطبرانى ، وابو نعيم فى الحلية ، والحاكم) .

وروى « ابن لال » قول النبى ﷺ :

« الدنيا لا تصفو لمؤمن ، كيف وهى سجنه وبلاؤه » !!؟

وهكذا وضعها التصوف ـ أى الدنيا ـ فى الموضع اللائق بها ، فإنهم لم يخلقوا لها ، وإنما خلقوا للعبادة تنفيذا لقوله تعالى : ـ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (١) .

• • •

الذين لايحبون التصوف ووضعوا حوله الأقاويل الملفقة إنما فعلوا ذلك لأن الدنيا ملكت عليهم كل شىء ، حتى كانت هى قلوبهم وافئدتهم : بهـا يمشون ، ويجلسون ، ويقومون ، ويقعدون ، وفيها ينامون ، وعليهـــا يتـكلون .

ضربت عليهم اطنابها من كل وجه فاحبوها من سويداء قلوبهم ، فكيف يترك الحبيب حبيبه ؟؟

ولكن الصوفية الملتزمين بسنة رسول الله ﷺ هربوا منها كما يهـــرب الإنسان من النار ، وهم يملكونها ولا تملكهم ، وهى الصفة التى احبهـا رسول الله ﷺ لاصحابه فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام :

« كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة ، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت اخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة . أنتم اليوم خير منكم يومئذ »

(رواه الترمذى)

على اننا لانقول ابداً إن الدنيا هى المال والكسب والسعى على الرزق، وانما نقول : ان الدنيا هى الكسب الخبيث الذى قلنا عنه آنفا : جمـــع المال من غير حله ، وانفـاقه على غير اهـله . اللهم اجعلهـا فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا .

• • •

اصول التصوف :

اصول التصوف خمسـة :

(١) تقوى الله فى السر والعلن

(٢) اتباع السنة : قولا وعملا

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦

(٣) الاعراض عن الخلق

(٤) الرضا من الله بالقليل والكثير

(٥) الرجوع الى الله فى السراء والضراء

التصوف والحديث الشريف :

قال الجنيد (سيد الطائفة) رحمه الله ورضى عنه :

« علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء : لا يقتدى به فى هذا الشأن » .

وقول إمام الصوفية أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لو غاب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين : يفيد مما يفيد : أنه مراقب لرسول الله ﷺ فى كل حركاته وسكناته ، وأنه لو لم يقتد فى لحظة برسول الله ﷺ لكان كما قال : أى إنه فى قلبه يقول : هذا أمر به رسول الله ﷺ وهذا لم يأمر به رسول الله ﷺ - وهكذا هو مراقب لحركات رسول الله ﷺ فى كل حياته .

يعنى انه يتصور امره ونهيه فى كل حين .

على ان الصوفية الحق فى رؤية رسول الله ﷺ بهذه الصفة اصناف :

منهم من يراه مباركا له ومحبا ، فهو يراه فى المنام كثيرا ، ويكون دليله فى طريقه الى الله .

ومنهم من يراه فى عين قلبه ، لأن قلبه لا يغفل لحظة عن الصلاة والسلام عليه ﷺ .

وهكذا جل أحوالهم مع الله ورسوله ﷺ ، ونسأل الله ان يرزقنا حسن الأدب .

• • •

التصوف واللغة

على أن أصل التصوف كلمة غير مجهولة لغة ، فمثلا :

(١) أخذ بصوف رقبته وبصافها : بجلده ، او بشعره المتدلى فى قفاه او بقفاه جمعاء او اخذه قهرا اهـ قاموس .

فالصوفى يمسك بدينه هكذا : يمسك بصوف رقبة نفسه وياخذها قهرا الى الله ويلزمها ذلك حتى تمرن وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مالوفة .

(٢) صوف : ابوحى من العرب كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج .

وكذلك الصوفى يخدم دينه ويجيز نفسه وغيره من عذاب الله تعالى .

(٣) قوم من أفناء القبائل تجمعوا وتشابكوا كتشابك الصوف .

كذلك الصوفية يتشابكون قلبا وقالبا كتشابك الصوف .

(٤) صاف الكبش فهو صَوِف : اذا كبر صوفه وحماه من البرد والحر

كذلك الصوفى يحميه دينه من المعاصى والذنوب ، لأنه تربى على الحمية الدينية والعزة الإلهية .

(٥) صاف السهم : عدل

وكذلك الصوفى يعدل عن القبائح والذنوب

(٦) اصاف عنى وجهه : أمال

وكذلك الصوفى يميل عن كل ما يغضب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(٧) اصاف الله عنى شره : أماله عنى

وكذلك الصوفى يصرف الله عنه كل سىء ويهيؤه لكل جميل

ويصرفه عن الذنب لأنه محبوب الله تعالى : لا يريد غير الله.

وفى بلاد الصعيد يستعملون كلمة « صاف القمح » إذا استوى استواء تاما وقارب السقوط .

وكذلك الصوفى يستوى قلبه من ذكر الله حتى لا يوجد فيه شىء غير الله ... والله تعالى اعلم .

التصوف الصحيح والادعاء

التصوف الحقيقى : التزام الطريق السوى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قلت لك واننا مطالبون أمام الله تعالى بدينه الذى شرعه لنا على لسان رسوله ﷺ ، ولن ينفعنا شيخ الطريقة اذا لم يكن هو نفسه ملتزما .

فإياك يا اخى وادعياء السوء ، الذين لاهم لهم الا ملء بطونهم وكروشهم وحسب فإنهم هم الذين جلبوا علينا هذا العار والنكد ، وكانوا السبب فى طول الألسنة بالباطل .

فحاول أيها المحب لدينك وعقيدتك أن تكون بعيدا عن الشبهات والاباطيل ، فإننا الآن فى ساحة الدنيا وسعتها ، وغدا فى ضيق الحشر وظلماته ، ولن ينجيك الا نور القرآن والاسلام والتدين الصحيح والسير على طريق الصوفية الأصلاء - ودع عنك مداخل السوء ومواقف البهتان .

ونعيدها مرة ومرة وألف مرة : التصوف الصحيح هو : الاسلام ، فلا تشوه وجه اسلامك أيها الأخ الصوفى الأصيل .

هذا الكتاب الذى قدمنا له .

وهذا الكتاب الذى قدمنا له هو نبراس التصوف الصحيح الذى لاشائبة فيه بإذن الله تعالى .

والحق ، أننى مهما قلت لك عنه فلن أوفيه حقه لأنك سترى فيه الكلام يبسط عن : المحبة والشوق ، والسلوك ، والانقياد ، والأخوة والتلمذة الطيبة ، والعلم ، والعمل ، وما الى ذلك مما يطول الكلام عنه .

وأخيرا أقول لك ما قال الأول :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الكبرياء فى السماوات والأرض

وصلى الله على صاحب الشفاعة العظمى والصغرى يوم القيامة والعرض .

ورحم الله امرءا دعى لنا ولمؤلفه وقارئه وناشره وسامعه والمستمعين جميعا بخير ، وجزاه الله عنا افضل الجزاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده
« قرآن كريم »

يقول العبد الفقير الى مولاه الغنى به عما سواه أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى لطف الله به وحباه :

الحمد لله بجميع المحامد الأصلية والفرعية ، فهو المحمود ، وهو الحامد ، لاختصاصه بنهاية الأحدية ، الغنى الكريم . الماجد القديم ، الأزلى بلا بداية ولا أولية ، الفرد الصمد ، الواحد الباقى بلا نهاية ولا آخرية .

نحمده تعالى ونشكره على ما خوله وأولاه من أياديه الأبدية

ونستعينه سبحانه ونستنصره على سلوك طريق حضرته القدسية

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المنزه عن الشريك والغيرية ، المقدس عن الحلول والاتحاد وثبوت السوية

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً رسوله ومصطفاه ، المختص بالنزاهة الأصلية ، من غير معاناة تخلية ولا تحلية ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه ، المنزهين عن الأخلاق الدنية ، الموصوفين بمحاسن الأخلاق السنية .

أما بعـــد كل شيء وقبله : فأعظم الوسائل إلى الله سلوك طريق الأدب والتربية ، وأقرب ما يوصل العبد إلى مولاه صحبة العارفين ذوى الهمم العالية والتربية النبوية ، والتأدب بين يدى المشايخ : أهل النزاهة والتصفية ، على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم من : عبّاد ، وزهاد ، وفقراء ، وصوفية ، والبحث عن سيرهم وأحوالهم ، والتأدب بآدابهم المرضية ، والتحقق بأخلاقهم وشيمهم الزكية ، وأجل من بحث عن سننهم الدارسة ومآثرهم السنية ، الفقيه الصوفى ابن البنا السرقسطى فى « مباحثه الأصلية » ، فلله دره ، لقد حرر فيه المعنى ، وبين فيه المبنى ، فبلغ فيه غاية القصد والمنى ، بلفظ مختصر بديع ، ونظم سلس رائق رفيع ، بين فيه أصول الطريق ، وأظهر فيه معالم التحقيق ، فأردت بعون الله أن

أصع عليه شرحاً متوسطاً ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل يبين المعنى ، ويحقق المبنى ، حتى عليه أمر شيخنا العارف الواصل المحقق الكامل سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسنى ، فأجبت رغبته ، وأسعفت طلبته ، عسى أن ينتفع به الخاص والعام ، فيكون معراجاً وسلماً لارتقاء درجة المعرفة على التمام ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وحسبى الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وسميته « الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية » ، سائل الله تعالى أن يفتح على من كتبه أو طالعه أو حصله أو سمعه أو اعتقده أو انبسط بما فيه ، فتحاً مبيناً ، ظاهراً وباطناً ، بمنه وكرمه وبجاه سيد الخلق سيدنا ومولانا محمد نبيه وحبيه آمين .

وهذا أوان الشروع فى المقصود ، مستمداً من بحر الكرم والجود ، صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء المعقود ، سيدنا ومولانا محمد المرسل إلى كل موجود ، منبع العلوم والأنوار ، ومفتاح خزائن المواهب والأسرار .

فإنه من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ففتح على العارفين من المواهب والأسرار ، إذ رشحات من رشحات النبى المختار ، إذ منه اشتقت الأسرار ، واستمدت الأنوار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأبرار .

وبعد هذا ، فصاحب الكتاب هو : الشيخ الفقيه الصالح الولى الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف اللجيى ، المعروف بابن البناء السرقسطى ، بضم القاف : نسبة إلى سرقسطة ، بلدة بتخوم الجزيرة ، كان أصل نسبه منها ، ثم تغرب بفاس ، وبها توفى ، قال الشيخ زروق رحمه الله : لم أقف على تاريخ وفاته ، غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد ، قال : ولم يكن مشهوراً بالعلم ، مع ما له فيه من القدم الراسخ الذى دل عليه كتابه ، فعد من عجائب مدينه فاس ، إذ كان من علمائها وأئمة ، كابن أبى زرعه صاحب التاريخ .

كذا ذكر لى بعض عدول بلدنا عن صاحب له عدل اه .

قلت : وكم من معروف كبير بقى تحت أستار الخمول ، حتى لبى الله تعالى ، بل كلما عظم قدر العارف عند الله ، خفى أمره على الناس ، لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة ، فإذا ظهرت تهيت وتشتت أمرها وذهب سرها ، وابن البناء هذا غير صاحب الحساب ، فإنه ابن البنا الصوفى ، توفى بمراكش سنة إحدى وعشرين من القرن الثامن ، كما ذكره صاحب « الجذوة »

ثم ابتدأ صاحب الكتاب كتابه ببسم الله تبركا وامتثالا ، فقال :

بسم الإله فى الأمور أبدا إذ هو غاية لها ومبدا

قلت : مازالت أكابر الكتاب والمصنفين يبتدءون فى أول كتبهم ببسم الله ، اقتداء بالكتاب العزيز ، فإن الصحابة أجمعت على افتتاح المصحف ببسم الله الرحمن الرحيم ، على اختلاف بينهم فى كونها آية أو غير آية ، فذهب بعض الصحابة إلى أنها آية ، وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه ومن تبعه حتى أفتى ببطلان صلاة من تركها ، وذهب آخرون إلى أنها غير آية ، وبه أخذ مالك ومن تبعه ، واحتج الشافعى بأن الصحابة من شدة تحفظهم وتحريهم لا يدخلون فى المصحف إلا ما هو منه ، واحتج مالك بقول كثير من الصحابة ممن صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فكان يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين ، ولم يقل بسم الله الرحمن الرحيم ، والخلاف مذكور فى كتب الفقه .

وكان الإمام المازرى يقرؤها سراً ، خروجاً من الخلاف ، وفى الحديث :

« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر » وفى رواية « فهو أقطع » وفى رواية « فهو أجذم »[1] وحاصلها أنه مقطوع البركة ممحوق من كل خير ، غير كامل حساً أو معنى ، وفى رواية « بذكر الله » فيعم البسملة وغيرها ، وبها جرى العمل ، وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد أن يحيى سعيداً ويموت شهيداً فليقل عند ابتداء كل شىء بسم الله » ، وقوله « فى الأمور » يتعلق بقوله أبدا بمعنى أشرع و « أل » عوض من المضاف ، أى أشرع فى أمورى كلها مستعيناً بالله إذا قلنا الاسم عين المسمى أو مقحم ، أو أشرع فى الأمور التى أحاولها متبركا باسم الله ، ولا شك أن من استعان بالله كان معانا فى جميع أموره ، ومن لم يستعن به كان مخذولا فى كل أموره . ولله در القائل :

إذا لم يعنك الله فيما تريده فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك ضللت ، ولو أن السماك دليل

ومن تبرك باسم الله كانت البركة مصحوبة معه ، فلا يلحقه نقص ولا خلل ،

---

(١) رواه عبد القادر الرهاوى فى الأربعين .

وقوله، إذ هو غاية لها ومبدأ، تعليل لافتتاحه باسم الله، أى إنما أبتدىء فى أمورى بالله لأنه مظهرها أولا، ومبطنها ثانيا، فظهورها منه، وانتهاؤها إليه، ومبدؤها منه وغايتها إليه، وإنما قدم الغاية مع تأخرها فى العمل، للوزن، ولما اختلفت روايات الحديث المتقدم، فبعضها «لايبدأ فيه بسم الله» وفى بعضها «لايبدأ فيه بحمد الله»، وفى بعضها زيادة «ولا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم»[1]، جمع الشيخ بينها فبدأ بالرواية الثانية فقال :

الحمد لله ولى الحمد هدى إلى الحق ونهج الرشد

الحمد فى اللغة هو : الوصف بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل، سواء تعلق بالفضائل، وهى الأوصاف اللازمة، أو بالفواضل، وهى الأوصاف المتعدية والأفعال السنية، ولا بد أن يكون الباعث عليه أمراً اختيارياً، وإلا كان مدحاً، فالحمد يكون على الأوصاف الاختيارية أو ما فى معناها، كالعلم والكرم والشجاعة، سواء كان بالاختيار أو غيره، والمدح يكون على الأوصاف اللازمة، كحسن الخد ورشاقة القد، سواء كان باللازمة أو غيرها، والخاصل «أن السبب الحامل على الحمد لا يكون إلا اختيارياً، والسبب الحامل على المدح لا يكون إلا لازما».

وأما الحمد فى العرف، فهو : فعل يشعر بتعظيم المنعم، كان باللسان أو بالأركان، أو بالجنان، فمورد الحمد فى اللغة خاص، وهو اللسان، لأن الثناء لايكون إلا باللسان، ومتعلقه عام، وهو النعمة وغيرها، ومورد الحمد فى العرف عام، وهو اللسان وغيره، ومتعلقه خاص، وهو صدور النعمة من المحمود.

وأما الشكر فى اللغة فهو : فعل ينبىء بتعظيم المنعم، فهو مرادف للحمد العرفى لغة.

وأما الشكر فى العرف، فهو : صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من : السمع، والبصر، وغيرها إلى ماخلق لأجله، فهو أخص من الجميع

---

(١) أخرجه الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة، ونصه : «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علىّ، فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة».

والكلام على الحمد والشكر يطول، فلنقتصر على ماذكرنا، إذ ليس للفقير[1] حاجه إلا فى معرفة الشكر، وأحسن ما قيل فيه قول إمام الطائفة «أن لايعصى الله بنعمه» وإذا لم يعص بنعمه فقد صرفها فى طاعته، وقوله «ولى الحمد» أى متوليه وفاعله، فهو الذى تولى حمد نفسه بنفسه، إذ هو الغنى بذاته عن أن يحتاج إلى من يحمده، بل هو الحامد والمحمود، إذ لا فاعل سواه، وقيل «وليه» مستحقه، وقوله «هدى إلى الحق» أى هوى خلقه إلى معرفة الحق من الباطل، قال تعالى :

«فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ»[2].

فكما تولى حمد نفسه بنفسه، تولى هداية عباده إلى معرفته

أو تقول : كما حمد نفسه بنفسه، عرّف نفسه بنفسه، ولذلك حذف مفعول «هدى» ليدل على العموم، فيصدق بالشريعة والحقيقة، أى هدى خلقه إلى الحق على صدقه بالشريعة، أو هدى مظاهره وأنواره إلى الحق على صدقه بالحقيقة، وهذا كقول الششترى :

أنتم دللتم عليكم منكم ولكم ديمومة عبرت عن غامض الأزل

والنهج والمنهاج، هو : الطريق الموصل إلى الحق، والرشد هو : مصادفة الحق والصواب، لأن الرشد بالضم، والرشد بالفتح هو الصواب، والصواب هو مصادفة عين الحق، وكأنه قال : هدى خلقه إلى معرفته وإلى الطريق الموصلة إليه، فقوم هداهم إلى معرفته من غير سلوك طريق، وهم المجاذيب، سواء رجعوا للسلوك أم لا، وهم الذين أشار إليهم بقوله «هدى إلى الحق» أى هداهم إلى معرفة الحق، وقوم هداهم إلى طريق معرفته، ثم عرفهم به، وهم أهل السلوك أو لا، ثم الجذب ثانياً، وهم المشار إليهم بقوله «ونهج الرشد» أى هداهم إلى طريق الصواب، ثم فتح فى وجوههم الباب، فبعوا مية الألباب، والله أعلم بالحق والصواب.

ثم أشار إلى الرواية الثالثة فى الحديث، وهى : الأمر بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الابتداء، فقال :

---

(١) أى الصوفى السالك على طريق الله.

(٢) سورة يونس : الآية : ٣٢.

ثم صـــلاة الله والـسلام على النبى ما انجلا الظلام

قلت : الصلاة من الله على حبيبه ، هى : محبته وعطفه عليه ، وتقريبه واجتباؤه إليه ، والسلام هو طيب تحية وإكرام ، وتمام إحسان وإنعام .

والناس فى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام : قسم يصلون على صورته البشرية ، وهم أهل الدليل والبرهان ، فهم يشخصونها فى قلوبهم فى حال الصلاة عليه ، فإذا أكثروا من الصلاة بالحضور تبدت الصورة الكريمة فى قلوبهم ، فيرونه فى المنام كثيراً ، وربما تشكل روحه الكريمة على صورة جسده الطيب ، فيرونه يقظة

وقسم يصلون على روحه الروحانية ، وهم أهل الشهود من السائرين ، فهم يصلون على نوره الفائض من الجبروت ، فيشاهدونه فى عالم أرواحهم على قدر حضورهم وشهودهم .

وقسم يصلون على نوره الأصلى ، الذى هو نور الأنوار ، وهم أهل الرسوخ والتمكين من أهل الشهود والعيان ، وهؤلاء لا يغيب عنهم النبى صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « لو غاب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما أعددت نفسى من المسلمين » إشارة إلى رسوخه وتمكنه فى الحضرة ، ورجوعه إلى البقاء بشهود الواسطة ، وهؤلاء أفكارهم تجول فى الملكوت ، وأرواحهم متصلة بالجبروت ، فقد اجتمع فيهم ما افترق فى غيرهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام « كل الصيد فى جوف الفرا »(1) و« الفرا » هو حمار الوحش ، وهو أسمن الصيد ، فمن ظفر به فكأنما ظفر بالصيد كله ، وكما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقوله : « ما انجلا الظلام » « ما » ظرفية ، أى مدة انجلاء الظلام حساً ومعنى ، وانجلاؤه إما بظهور النور الحسى على الطلعة الحسية ، وهذا مستمر إلى يوم القيامة ، وإما بظهور نور الهداية على ظلمة الغواية ، أو نور اليقظة على ظلمة الغفلة ، أو نور شموس العرفان على

---

(1) قال فى المقاصد الحسنة : رواه الرامهرمزى فى الأمثال ، وعند العسكرى قال : فى « جوف » أو « جنب » ، وله قصة طويلة فارجع إليه ص ٣٢٣ .

ظلمة الأكوان ، أو نور الفرق فى المواهب والأسرار على ماقبله من المقامات والأنوار ، وهذا الأخير لا ينقطع أبداً ، وكلام الناظم محتمل ، والله تعالى أعلم .

ثم شرع فى المقصود فقال :

« يا سائلا عن سنن الفقير سألت ما هو عن التحرير »

قلت : السنن بالضم جمع سنة ، وهى الطريقة ، والسنن بالفتح مفرد ، بمعنى الطريق ، ويصحان هنا ، والفقير فى الاصطلاح هو المتوجه إلى الحق على بساط الصدق

وقال سهل رضى الله عنه : الفقير الذى لا يملك ولا يملك(1) ولا يرى غير الوقت الذى هو فيه ، وقال السهروردى : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، وقال غيره : الفقر صفة مهجورة تنفر منه الطباع وتفر منه النفوس ، وهو من الأسباب التى تجلس العبد بين يدى الله على بساط الصفا

واختلف : هل الفقير أبلغ من الصوفى ، لأن الفقير لم تبق فيه بقية ، بخلاف الصوفى ، أو الصوفى أبلغ ، لأن الصوفى من صفت أحواله ولم يبق فيه كدر أصلا ، بخلاف الفقير .

والتحقيق أن الفقير هو : المتوجه إلى الله بأنوار التوجه ، والصوفى له أنوار المواجهة ، فالصوفى أبلغ من الفقير ، لأن الصوفى واصل ، والفقير راحل ، الصوفى صفت له النزول ، والفقير بين الطلوع والنزول ، الصوفى لا يرى فى الدارين غير الله ، ولا يشهد مع الحق سواه ، قد سخر له كل شىء ، ولم يسخر هو لشىء ، يأخذ نصيبه من كل شىء ، ولم يأخذ منه النصيب شيئاً ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه من الأوصاف الكاملة ، بخلاف الفقير ، فهو فى طريق المجاهدة ، فنهاية الفقير بداية الصوفى ، والله تعالى أعلم .

وقيل : هما شىء واحد ، وهو ظاهر المصنف فى مواضع من هذا الكتاب ، وسنن الفقير هى : طرقه التى يسلكها ، وآدابه التى يتأدب بها ، وعلى نسخة فتح السين يكون المعنى : يا سائلا عن طريق الفقير التى يسلكها حتى يصل إلى ربه ، ونسخة الضم أحسن ، ويكون أشار بالسنن إلى شروط الفقير وآدابه ، لأنها من طرقه التى يسلكها ويمر عليها .

أما شروطه فثمانية : قصد صحيح ، وصدق صريح ، وآداب مرضية ، وأحوال زكية ، وحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، ورفع الهمة ، ونفوذ العزيمة .

---

(1) أى هو الذى لا يملك شيئاً ولا يملكه شىء .

وآدابه خمسة : خلع العذار ، والذل والانكسار ، والبذل والإيثار ، وصحبة العارفين الأبرار ، وبذل المجهود فى الطاعة والاذكار .

أما القصد الصحيح فهو : أن يكون مراده بالدخول فى صحبة الشيخ : تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية دون كرامات ولا تحصيل مقامات ، ولا إدراك درجات ، ولا طالب حظوظ نفسانية

وأما الصدق فالمراد به هنا التصديق بسر الخصوصية عند من يصحبه ، وهو أساس الطريق ، فمن لا صدق له لا سير له ، ولو بقى فى حوز الشيخ ألف عام ، فالصدق هو : معرفة السر ، فكل واحد يعرف من سر الشيخ على قدر صدقه فيه ، وهو أيضاً الثمن الذى ينفق به الفقير على روحه وقلبه وسره ، فمن لا صدق له فى الشيخ لا ينفق من سره شيئاً ، وإليه أشار الشيخ الشرقى رضى الله عنه بقوله :

من لا صدق ما عند باش ينفق من لا حقق ما جلب أمارا يا بابا

وأما الآداب فهى مفتاح الباب ، فمن لا آداب له لا دخول له ، ومن أساء الآداب مع الأحباب طرد إلى الباب ، ثم إلى سياسة الدواب .

وقد كان بعض الأولياء يأمر من يريد الدخول معه بصحبة أهل المخزن حتى يتأدب ، وسيأتى الكلام على الآداب فى محله إن شاء الله ، فمن لم يتأدب مع الشيوخ والإخوان لا يريد صحبتهم إلا الحرمان

وأما الأحوال الزكية فهى أن تكون موافقة للشريعة ، بحيث لا يؤذى أحداً من الناس ، فالفقير الذى ليست له أحوال ، لا يباع مقامات الرجال أو السير إلى حضرة القدوس إلا بمخالفة النفوس ، ولولا ميادين النفوس (أى محاربتها) ما تحقق سير السائرين ، فالمراد بالأحوال هنا هى خرق عوائد النفس ، وتخريب ظاهرها بتعاطى ما يسقط جاهها وعزها من الأمور المباحة ، وهذه هى الأحوال المرضية الصافية ، وأما الأحوال التى تخالف الشريعة ، وهى الأحوال الظلمانية ، فلا يثمر صاحبها ، بل لا تزيده إلا ظلمة ، فكما لا يصح دفن الزرع فى الأرض الرديئة ، كذلك لا يجوز الخول بحالة غير مرضية ، فالأحوال الصافية هى التى لا ضرر فيها لأحد ، ولا تخالف أمر الشريعة .

وأما قصة لص الحمام ، فهى حال غالبة عليه ، لا يقاس عليها

وأما حفظ الحرمة فتصدق بحرمة الشيخ حاضراً ، أو غائباً ، حياً أو ميتاً ، فلا يجلس فى موضع يذكر فيه بسوء أو ينتقص منه ، ويصدق بحرمة الإخوان ، فيتحمل أذاهم ، ويصبر على جفاهم ، ويعظم كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، فمن كسره الإخوان لا يجبره الشيخ ، ومن كسره الشيخ قد يجبره الإخوان ، ويصدق بحرمة جميع المسلمين ، وخصوصا العلماء والصالحين ، فلحومهم سموم .

وقد قالوا : أركان التصوف مجموعة فى أربعة أشياء ، وهى : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، وترك الدنيا بالكلية .

وأما حسن الخدمة ، فتصدق أيضاً بخدمة الشيخ ، وخدمة الإخوان ، وفى الحديث « سيد القوم خادمهم »(١) وتصدق بخدمة الحق ، وهى المقصود الأعظم .

وأما رفع الهمة فهو : أن لا يكون قصده طلب الدنيا والآخرة ، بل يكون قصده معرفة مولاه ، كما تقدم فى القصد الصحيح ، وربما يفنى عنه

وأما نفوذ العزيمة فمعناه : أن تكون عزيمته دوام السير إلى تحقيق الوصول إلى معرفة مولاه ، لا قصد التبرك والحرمة ، وإذا عزم على شىء أنفذه

وأما خلع العذار ، فهو خلع الأوصاف المذمومة وإبدالها بالأوصاف المحمودة ، وقيل : هو خلع لباس العز والاشتهار ، وإبداله بلباس الذل والانكسار .

وقيل : هو خلع الرجل من نعل الكونين ، فيرجع إلى رفع الهمة

والعذار فى اللغة هو : ما يزين به وجه الفرس ، ففى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه أبو عبد الرحمن السلمى فى « آداب الصحبة » عن عقبة بن عامر مرفوعاً ، والخطيب ، وأبو نعيم والحلية فى ترجمة إبراهيم بن أدهم ، والديلمى فى مسنده ، وعده ابن دريد فى المجتبى أنه من الأقوال التى تفرد بها النبى صلى الله عليه وسلم .

« الفقر أزين بالعبد من العذار الجيد على خد الفرس » ذكره التجيبي(١) .

وأما الذل والانكسار فهو الخضوع لله ، ولا يتحقق إلا بالخضوع لعباد الله ، فلا يتحقق ذل الفقير حتى يظهر بين أبناء جنسه

والحاصل : أنه لابد من الذل : قلباً وقالباً ، كما قال ابن الفارض :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل ... إذا رضي المحبوب : صح لك الوصل

وقال آخر :

وما رمت الدخول عليه حتى ... حللت محلة العبـــد الذليل

وأغضيت الجفون على قذاها ... وصنت النفس عن قال وقيل

وأما البذل والإيثار فرجعه إلى سخاوة النفس ، وهو شرط فى الفقير ، فقد قالوا : « من أقبح القبيح ، صوفى شحيح » وعلامة خروج الدنيا من القلب : بذلها عند الوجد ، والصبر عنها عند الفقد

والزهد عند المحققين : إذا وجدوا آثروا ، وإذا فقدوا شكروا

وأما صحبة العارفين فهى من الأمور المؤكدة ، وذكرها مع الشروط أليق ، « فالمرء على دين خليله(٢) » ، وفى الحكم : لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وليست طريق السلوك بطريق العمرلة ، بل هى طريق الصحبة والاجتماع والاستماع والاتباع ، « فالجماعة رحمة والفرقة عذاب »(٣) وفى الحديث:

---

(١) ورواه الطبرانى عن شداد بن أوس ، وابن عدى فى الكامل ، ومحمد بن عدى ، فى « شرف الفقر » . بلفظ « الفقر أزين بالمؤمن » بدل « بالعبد » .

(٢) هذا لفظ حديث شريف بقيته : « ... فليظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود ، والترمذى وحسنه ، والطيالسى ، والبيهقى ، والقضاعى ، والعسكرى .

(٣) « الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » هذا لفظ حديث شريف ، رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، ولفظه : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب » .

« يد الله مع الجماعة(١) »

أى الدالين على الله - أو ما يقرب إلى الله

وأما بذل المجهود فى تعمير الأوقات فى الطاعات والأذكار ، فهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقق ، فكل ساعة يأتى على الفقير لا يذكر الله فيها كانت عليه حسرة فى الدنيا والآخرة ، فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ، أو مذاكرة ، أو فكرة : أو نظرة .

أو تقول: الفقير ليس له فكرة ولا هدرة،(٢) إلا فى الحضرة ، أو ما يوصل للحضرة ، وما سوى هذا بطالة وفترة ، وبالله التوفيق . وقوله : « سألت ماعز » ، أى غلب وامتنع تحريره ، أى فتحه واستخراج المقصود منه ، وإنما امتنع تحريره لما دخله من التخليط الذى ألحقه به أهل التوسم فى هذه الأزمنة ، مع خفاء مراده ومداركه ، لأن هذا العلم ليس هو لقلقة اللسان . وإنما هو أذواق ووجدان ، فمن سأل تحريره بعبارة اللسان فقد سأل عن شىء عزيز الإتيان ، ممنوع البيان ، وسيأتى الكلام عليه عند قوله « إياك أن تطمع أن تحوزه من دفتر أو شعر أو أرجوزة » ثم بين وجه عزته ، فقال :

إن الذى سألت عنه مات ... وصار بعد أعظما ورفات

فطمست أعلامه تحقيقاً ... فلم تجد بعد لها طريقاً

يعنى أن الطريق الذى سأل عنه السائل مات بموت أهله ، واندرس خبره ، وصار كأنه شخص مات ورمم ، وصار عظاماً ورفاتا ، وفى الحديث :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالا فسئلوا ، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا(٣).

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ كثيرة منها ماروواه الترمذى : يد الله على الجماعة ، اتبعوا السواد الأعظم ، فإنه من شذ شذ فى النار ، ومنها عند الطبرانى : « يد الله على الجماعة، فإذا شاذ منهم اختطفته الشياطين ، وهذا الحديث الذى ذكره الشيخ رواه الطبرانى أيضاً مرفوعاً، وتمامه « ... فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض » .

(٢) الهدرة : الصوت ، تقول : هدر الحمام : صوت .

(٣) رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله .

ولا فرق بين العلم الظاهر والباطن فى كونه يذهب بذهاب أهله

وقوله « فطمست أعلامه » أى مايدل عليه ويوصل إلى تحصيله ، فأعلام الشىء مادل على وجوده ، ومنه سمى الكون عالما ، لدلالته على صانعه ، فكأن علم التصوف قد طمست طرقه الموصلة إلى تحقيقه . فلم تبق له طريق توصل إليه ، وهذا معنى قوله « فلم تجد بعد » أى بعد طمس أعلامه « لها » أى لتلك الأعلام والآثار التى توصل إليه « طريقا » لتسلكها حتى تبلغك إلى تحقيق ما سألت عنه .

ومضمن كلامه : أن الصوفية المحققين السالكين على منهاج المتقدمين قد قلوا جداً ، حتى كأن علومهم ماتت وبليت . وصارت رسما ، وطرقهم قد طمست ، وأذواقهم قد اندرست ، ولم يبق على مناهجهم إلا القليل ، ومثل ماقاله الناظم قاله من قبله فى كل عصر يقول أهله : قد ذهب التصوف ، وذهب أهله . لما يرون ما انكب عليه الجاهلون وما استجلبه المدعون .

قال الجنيد رضى الله عنه : علمنا هذا الذى نتكلم فيه قد طوى بساطه منذ عشرين سنة ، وإنما نتكلم فى حواشيه .

وكان أيضاً يقول : قد كنت أجالس قوماً سنين يتحاورون فى علوم لا أفهمها ولا أدرى ماهى ، وما بليت بالإنكار قط ، كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها .

وكان أيضاً يقول : كنا نتجارى مع إخوانا قديما فى علوم كثيرة ما نعرفها فى وقتنا هذا ، ولا سألنى عنها أحد ، وهذا باب كأنه أغلق وردم اه

وقال فى « قوت القلوب » : قال بعض علمائنا : أنا أعرف المتقدمين سبعين علما كانوا يتحاورونها ويتعارفونها فى هذا العلم ، لم يبق منها اليوم علم واحد ، قال : وأعرف فى زماننا هذا علوماً كثيرة من : الأباطيل ، والغرور ، والدعاوى ، قد ظهرت وسميت علوماً ، ثم قال : وكان إمامنا سهل يقول : بعد سنة ثلاثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا . يعنى لقلة أهله ، لأنه يحدث قوم يستعملون الحلف ويتزينون بالكلام ، تكون مواجيدهم لباسهم ، ومعبودهم بطونهم ، وحليتهم كلامهم .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى صدر رسالته : « اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم . ولم يبق فى زماننا من هذه الطائفة إلا آثارهم ،

وفى معناه قيل :

لا والذى حجت قريش بيته ... مستقبلين الركن من بطحائها
ما أبصرت عينى خيام قبيلة ... إلا بكيت أحبتى بفنائها
أما الخيام فإنها كخيامهم ... وترى نساء الحى غير نسائها

قال ابن العربى الحاتمى رضى الله عنه : « قال هذا فى زمانه حيث أدرك من تزيا بزى القوم وحالهم فى باطنه . وأما اليوم فلا خيام ولا نساء » ثم قال الأستاذ رحمه الله : حصلت لهمة فى الطريقة ؟ لا ، بل قد اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضت الشيوخ الذين كان لهم اهتداء ، وظل الشباب الذين لا لهم بسمتهم وسيرتهم اقتداء ، زال الورع وطوى بساطه ، وقوى الطمع واشتد رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة . فعدوا قلة المبالاة أوثق ذريعة ، رفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستحموا بأداء العبادة ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميادين الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة » إلى آخر كلامه .

وكذلك قال أبو مدين فى رائيته رضى الله عنه :

واعلم بأن طريق القوم دارسة ... وحال من يدعيها اليوم كيف ترى؟[1]

وكذلك قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى الله عنه : من تونس إلى وادنون ، لا تجد من يتكلم فى هذا العلم : إلا رجلا أو رجلين ، كناية عن قلة وجود المحققين ، ولا يدل هذا على انقطاعهم ، ففى كل زمان رجال يرحم الله بهم عباده . فالعدد المعلوم لا ينقطع حتى ينقطع العين .

قال فى لطائف المنن : وسئل بعض العارفين عن أولياء العدد : أينقصون فى زمن ؟ . فقال : لو نقص منهم واحد ما أرست السماء قطرها ، ولا أبرزت الأرض نباتها

وفساد الوقت : لا يكون بذهاب أعدادهم ؛ ولا بنقص أمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم ، فإذا كان أهل الزمان معرضين عن الله عز وجل ، مؤثرين لما سوى الله ، لا تنجح « أى لا تنجح » فيهم الموعظة ، ولا تميلهم إلى الله التذكرة ، لم يكونوا أهلا لظهور أولياء الله فيهم .

---

(١) فكيف ، لو رأى أدعياء التصوف اليوم ... لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

ولذلك قالوا : أولياء الله عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون ، ثم قال : وقد قال صلى الله عليه وسلم :

«إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه : فعليك بخويصة نفسك»(١) :

فسمعوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآثروا الخفاء ، بل آثره الله لهم ، مع أنه لابد أن يكون منهم فى الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة ، سالكون المحجة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة»(٢) .

وقد قال على كرم الله وجهه فى مخاطبته لكميل بن زياد : «اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجتك ، أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى عباده وبلاده ، آه . آه . واشوقاه إلى رؤيتهم» اه

وروى الإمام الربانى محمد بن على الترمذى ، يرفعه إلى ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره»(٣)

---

(١) عن أبى أمية الشعبانى قال : سألت أبا ثعلبة الخشنى قال : قلت : يا أبا ثعلبة كيف تقول فى هذه الآية - عليكم أنفسكم - قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

«ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك أمر العوام . فإن من وراءكم أيام الصبر : الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» رواه ابن ماجه ، والترمذى وحسنه ، وأبو داود . وزاد فيه : «قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ ! قال : بل أجر خمسين منكم» .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد ، والبيهقى ، وابن حبان ، وأبو داود ، والحاكم بألفاظ مختلفة ، والمعنى واحد .

(٣) ورواه أيضا الإمام أحمد ، والترمذى عن أنس بلفظ : «أمتى أمة مباركة ، لا يدرى أولها خير أو آخرها» ، ورواه ابن عساكر .

وروى أيضاً بإسناده إلى أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خير أمتى أولها وآخرها ، وفى وسطها الكدر»(١) اه

قلت : وقد ظهرت هذه الطائفة ، أعنى الصوفية المحققين ، فى زماننا هذا وانتشرت معى والحمد لله انتشاراً كثيراً منذ قدم شيخ شيخنا مع شيخه إلى «بنى زروال» ففاض بحرهما ، ثم انتشر فى البلاد ، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها عارفون وأولياء محققون ، إلا قليلا من بعد منهم ، فقد جددا الطريقة بعد دروسها وأشرقت على يديهما شموس الحقيقة بعد خمودها ، وكثر الموج بذكر الله ، وانقلب كل العباد إلى الله ، فجزاهما الله عن المسلمين خيراً ، فقد صدق الله بهذه الطائفة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خير أمتى أولها وآخرها» .

وفى حديث آخر : «مثل أمتى مثل حديقة قد قام عليها صاحبها ، فاجتاب راكبها وهيأ مسالكها ، وحلى سمطها ، فطعمته عاماً فوجاً ، ثم عاماً فوجاً ، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنوانا ، وأطولها شماريخاً ، والذى بعثنى بالحق ليجدن ابن مريم من أمتى ، خلفاً من حواريه» .

قلت : قال شيخ شيوخنا الحدوب : على مائتا تقوم الساعة ، وذكر سيدى على : فى كتابه أن رجلا سأل سيدى العربى بن عبد الله فقال له : يا سيدى طريقكم هذه لا نعرفها ، فأى طريق هى؟ ! فقال له : يا ولدى طريقنا هذه هى التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : الزهد فى الدنيا ، والانقطاع إلى الله ، وعليها تقوم الساعة اه

فتحقق أنها هى التى يجد عيسى بن مريم منها خلفا من حواريه ، والله أعلم .

ثم بين الشيخ ما بقى من طريق القوم بعد اندراسها فقال :

إلا رسوما ربما لم تعف ... وذاك ما نثبته ونقف
وهبك أن تظفر بالأوطان ... ما السر والمعنى سوى القطان

---

(١) رواه الحكيم عن أبى الدرداء .

وقال آخر : وإنما يتنافس بالأوطان من لا عشق عنده فى السكان ، أو لم يظفر بصحبة القطان .

ولا يتأنس بكتب القوم ويقنع بذلك إلا من لم يذق شيئاً من أذواقهم ، ولا نهض للالتحاق بهم ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر استصعاب ما سئل عنه من سنن الفقير لغرابتها فى زمنه ، فقال :

وهـــذه مسئلة معتاصه ... لم يجد الخبر لها خلاصه
لأنها مسئلة غريبـــه ... حقيقة الجواب عنها ريبه
وقلّ ما تلقى لها مساعدا ... بل منكراً أو ناقداً أو جاحدا

قلت : الاعتياص من العصيان . واعتاص الشىء : إذا عصى ولم ينقد ، والخبر بكسر الخاء وفتحها هو : العالم التحرير ، وخلاصة الشىء تخليصه وتحريره ، والريبة والريب هو : الشك ، يعنى أن هذه المسئلة وهى طريق الصوفية الذوقية مسئلة معتاصة . أى عويصة التحرير يصعب تخليصها على العالم التحرير ، لأنه إن عبر عنها بعبارة اللسان فاته الذوق والوجدان ومن أشار إليها بالتلويح لا يفهمها أهل التصريح ، فصعب أمرها على كل حال ، إلا على من أسعده الله بصحبة الرجال أهل الهمة والتربية والحال ، فيعبرون عنها بالمقال ، ثم ينهضون إليها بالذوق والحال . وأما من لم يصحب الرجال ، فلا يطمع أن ينالها بالمقال ؛ لأنها مسئلة غريبة وأهلها غرباء ، فـــلا يأوى الغريب إلا إلى الغريب ولا يفهم حال الغريب إلا مثله . وإذا كانت مسئلة غريبة فتحقق الجواب عنها ريبة ، أى فيه شك وريبة لمن عبر عنها من غير ذوق ولا وجدان ، وأيضاً حقيقتها بعيدة عن مدارك العقـــول القياسية والعقول العلمية .

وقد در ابن الفارض حيث يقول :

ولا تك ممن طيشته طروسه ... بحيث استقلت عقله واستقرت
فثم وراء النقل علم يدق عن ... مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته منى ؛ وعنى أخذته ... ونفسى كانت من عطائى عدتى

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا

قلت : الرسوم والحدود هى أمارات وعلامات تدل على حقائق الأشياء ومعانيها ، وعفا المكان : اندرس وتعطل ، وعفا الشىء : ذهب ، وقد يطلق على الزيادة والكثرة كقوله تعالى ، حَتَّى عَفَوْا ، (١) ومعنى « نقف » : نتبع ونذهب ، هنا بمعنى : أجعل وقدر ، فهى للتصيير ، والأوطان : محل السكنى ، و« القطان » بضم القاف جمع قطن ، بمعنى ساكن ، والمعنى : إن علم التصوف ومعانيه وأذواقه قد ذهب بذهاب أهله ، واندرس وخفى ، وما بقى إلا رسوم وعلامات فى كتبهم تدل على سيرهم وأخلاقهم ، فربما لم تعف ولم تندهب ، وهـذه الرسوم التى لم تعف هى ما كانوا عليه من المجاهدة والمكابدة والمشاهدة ، وما اتصفوا به من محاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، وما شاهدوه من الكرامات والخوارق ، وما نطقوا به من جواهر الحكم ، وما استخرجوه أفكارهم من بوادئ العلوم ومخازن الفهوم ، فهـذه الأمور قد دونت فى الكتب ، فلما كانوا بقيت فى أيدى الناس ، فهى التى يتبعها الناس وليسا كون على طريقهم ، وليس لسر فى مشاهدة سيرهم وخاستهم ، ولا فى سماع كلامهم وعلومهم ، وإنما السر ما كان فى بواطنهم ، وما اشتملت عليه قلوبهم وأسرارهم ، ولا يؤخذ إلا منهم فى حال حياتهم ، فلو كان التصوف يؤخذ من الكتب لاختص به أرباب الأموال والغنى أهل الظاهر ، ولكن التصوف إنما هو أذواق ، لا يؤخذ إلا من أهل الأذواق ، وهيهات ، أى صير نفسك وقدرها أنها ظفرت بالأوطان . وهى محاسنهم ومآثرهم التى كانوا عليها وسكنوا فيها ، ثم رحلوا عنها وتركوها ، ما لسر والمعنى إلا فى صحبتهم والأخذ عنهم والاقتباس النور الذى كان فى باطنهم ، وقد ذهب ذلك بذهابهم ، إلا من أسعده الله بلقاء من أحد ذلك منهم فى حياتهم ، وهذا قد ظفر بالأوطان والسكان . ولا تخلو الأرض من هذا النوع كما تقدم ، بخلاف من طمع أن يأخذ ذلك من كتبهم . فإنه ظفر بالأوطان وفاته صحبة السكان . وما زالت العامة تقول : « السر فى السكان » ، أى دون المسكن ، وقال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليـــلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

وقال آخر :

فما المنازل لولا أن تحل بها ! ؟ ... وما الديار ؟ وما الأطلال والخيم ؟!
لولاك ما شاقنى ربع ولا طلل ... ولا سمت بى إلى نحو الحمى قدم

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٥ .

العلماء بالله ، فإذا نطقوا به ، لا ينكره إلا أهل الغرة بالله»(١) . قال بعضهم هي أسرار الله يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص . فإذا سمعها العوام أنكروها . ومن جهل شيئاً عاداه ، ومن يكن ذا فم مريض يجد مرارة الماء الزلال .

ويرحم الله البوصيري حيث يقول :

قد ينكر العين ضوء الشمس من رمد ويـنكر الفم طعم الماء من سقم

وقال مشايخ الطريقة : المنكر كالعنين : ينكر شهوة الجماع ، والمزكوم : ينكر رائحة المسك الأذفر ، والمحموم : ينكر حلاوة السكر .

وفي مثلهم قال الشاعر :

وكم عائب ليلى ولم يروجيها فقال له الحرمان : حسبك ما قلتا

وأيضا هـذه المسئلة إذا نظرت إليها من حيث العلم والتحقيق احتاجت إلى وجوب البحث والتدقيق ، وإذا نظرت إليها من حيث الحال ، وجدتها مبنية على التسليم والتصديق ، فإن أخذت بالأول ظهر لك من وجوه الإنكار ما لا اختفاء فيه ، مع ابتنائه على أصل لا تعرفه ، وإن نظرت إلى الآخر ظهر لك من موجبات التسليم ما يقتضي لك عدم الكلام بالكلية ، فلا وجه لاستخلاص الخلاصة إلا بمعرفة مبدأ الأمور ومنتهاها ، وقد ذكر منه جملة فيما يأتي .

وأما كونها مسئلة غريبة فإنها غير مألوفة للنفوس ولا متداولة بين الناس ، ولا معروفة الحقيقة في الجملة ، فلذلك اعتقدها المعتقد من غير معرفة أصل ، وأقبل المنتسب إليها على أي وجه كان ، وانتقدها المنتقد وشانها(٢) ولم يعرف ما انتقد وشان ، فادعاها من ليس من أهلها ،

---

(١) ونص الحديث الذي بأيدينا : «إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً منه . فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه» رواه أبو عبد الرحمن السلمي في «الأربعين في التصوف» عن أبي هريرة . (٢) من الشين .

وأدخل عليها ما ليس من شأنها . كل ذلك بسبب الجهل بها والحرص على الانتساب إليها ، وعطست في النفوس لما نفرت من جـــلالتها ، والله تعالى أعلم . (قاله الشيخ زروق رضي الله عنه) .

وإنما كان الجواب عنها ريبة لأن المقام قد يعبر عنه المستشرف عليه والواصل إليه ، ولا يفرق بينهما إلا ذو بصيرة ، فهذه المسألة قد يعبر عنها من وصل إليها وذاقها ، وقد يعبر عنها من استشرف عليها بالعلم ، فلا يحلو الجواب من ريبة ، هل صدر من صاحب ذوق وصاحب حال ؟ لكن كلام العارف لا يخفى على أهل الفن أبداً ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجته

فما قاله الناظم ليس على عمومه ، فقد يتحقق الجواب عنها من العارفين ، ولا ريبة فيه ، ولا شبهة ، والله تعالى أعلم

ولما كان من كتم العلم مذموماً ويلجام من النار ملجوماً(١) خاف الشيخ أن ينخرط في سلك من كتم علماً ، فأجاب السائل بما هو في ذوقه حاصل ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولذلك قال :

وإذ تهديت إلى الصواب ولم يمكن بد من الجواب
فهو على الجملة والتفصيل منحصر في خمسة فصول

قلت : تهديت إلى كذا واهتديت إليه واحد ، ومعناه : سلكت الطريق إلى الوصول إليه ، ومنه قوله تعالى : «أمَّن لا يَهِدِّي»(٢) على قراءة ورش ، «والصواب» : الحق البين . «والبد» : الفرار والهروب ، ويقال : لابد أن تفعل : أي لا فرار لك ولا هروب من الفعل ، أو لا محالة منه (قاله في القاموس) بمعناه ، و «الجملة» : ما كان مجموعاً ، و «التفصيل» : ما كان مفرقاً . و «الفصول» : جمع فصل . وهو القطعة من الكلام ، وهو في كلام الناظم بدل من خمسة بالتنوين ، لا مضاف ، لإخلاله بالوزن

---

(١) لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجاماً من نار» رواه ابن عدي عن ابن مسعود .
(٢) سورة يونس : ٣٥

يقول رحمه الله : وأنت أيها السائل حين اهتديت إلى الصواب بتوجهك إلى طلب الوصول إلى رب الأرباب فسألت عن تبيين الطريق والوصول إلى عين التحقيق ، لزمني أن أجيبك ، ولم يكن لي بد ولا مهرب من الجواب ، لأن الله تعالى أخذ على العلماء أن لا يكتموا العلم ، فقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا »(١) - الآية ، وقال تعالى : « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »(٢) ولقوله عليه الصلاة والسلام :

« من سئل عن علم نافع فكتمه ألجمه الله بلجام من النار(٣) ، وهذا لمن كتمه مع توفر الشروط ، وهو استحقاق ذلك وأهليته ، فإن لم تتوفر الشروط فلا يجب إظهاره ، لاسيما علم السر ، وقد اختلف المشايخ : هل لا يبذل عنهم إلا لأهله ، وهو مذهب أبي الحسن النوري ، أو يبذل لأهله ولغير أهله ، والعلم أحمى جانباً من أن يصل إلى غير أهله ، وهذا مذهب إمام الطائفة أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه ، إذ قيل له : كم تنادي على الله بين يدي العامة ؟ فقال له : لكنني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى اهـ

قلت : وفي كلامه رضي الله عنه إلغاز وتستر ، ومعناه : لكنني أنادي على عامة من حضرني من مظاهر الحق بين يدي الله .

قلت : وممن سلك مذهب الجنيد ، شيخ أشياخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه ، حتى كان يسمى في زمانه : المبذر . ولذلك تجد أهل فاس - كثيراً منهم - يخوض في علم الحقيقة من غير عمل ولا ذوق ، وأخذ الجمهور بمذهب أبي الحسن النوري ، فكانوا لا يتكلمون في الحقيقة وعلم السر إلا مع أهله ، في موضع حال ، وربما سدوا الأبواب : غيرة منهم على سر الربوبية أن يبتذل وينادى عليه بلسان الاشتهار ، وفي الحكم ، عبارتهم إما لفيضان وجد أو قصد هداية مريد ، فالأول معذور لغلبة وجده ، والثاني مأمور لهدايته من هو أهله ، والله تعالى أعلم

---

(١) سورة البقرة . الآية : ١٥٩

(٢) سورة آل عمران . الآية : ١٨٧

(٣) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ « من كتم علماً نافعاً » إلى آخره ، وروى الإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة : « من سئل عن علم نافع فكتمه ألجم بلجام من النار يوم القيامة » .

ثم ذكر برنامج الكتاب ، وأنه محصور في خمسة فصول ، فبينها بقوله :

أولها في أصله ، والثاني ... في فضله على مدى الأزمان
وثالث الفصول في أحكامه ... وحين يستوي على أقدامه
والرابع الرد على من رده ... وليس يدري شأنه وقصده
وخامس يعلم كيف صيرا ... حتى غدا بين الأنام منكرا

قلت : أصل الشيء : قاعدته وأساسه التي يبنى عليها ، ومدى الشيء : غايته ونهايته .

يقول رحمه الله : قد ذكرت في هذا الكتاب من مبادىء علم التصوف أربعة أمور ، وهي موضوعه ، وواضعه ، وفضيلته ، وفائدته

أما الموضوع والواضع فيؤخذان من ذكر أصله

وأما فضيلته وثمرته فتؤخذ من ذكر فضله ، فإن فضيلة الشيء لا تكمل إلا بحصول ثمرته ، وبقي من المبادىء ستة مجموعها عشرة ، وهي جارية في كل فن من فنون العلم ، فالحذاق من أهل العلم يقدمون ذكرها قبل الشروع في ذلك الفن ، وقد نظمها بعضهم ، فقال :

الحد والموضوع ، ثم الواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
تصور المسائل ، الفضيله ... ونسبة ، فائدة جليله
حق على طالب علم أن يحيط ... بفهم ذي العشرة ، ميزها ينيط
يعلمها قبل الشروع في الطلب ... لكي يكون مبصراً بما طلب

وقد ذكرتها بتمامها في أول شرحنا على الحكم فلينظره من أرادها ، والمراد بالأحكام ما يلزم المريد من الآداب في معاملته وتصرفاته ، وقد حصرها في تسعة على ما يأتي إن شاء الله .

وقوله : « وحين يستوي على أقدامه » معناه : أنه ذكر في ذلك الفصل أحكام التصوف ، وآدابه من أوله إلى نهايته ، وإذا عرف ذلك فقد علم التصوف ، « ونهض على أقدامه » كناية عن معرفته .

وقوله : « وخامس إلى آخره » يعني أنه ذكر في الفصل الخامس : كيف تغير التصوف حتى صار منكراً بين الناس بعد أن كان معروفاً مشهوراً .

وباقي الكلام واضح ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر تسمية الكتاب ، لأنها من مقدماته ، ومن الأمور المهمة ، فقال :

وبعد ما فصلته فصولا ... وعاد بتّ حبلها موصولا
سميتها المباحث الأصلية ... عن جملة الطريقة الصوفية

قلت : « والبت » بالمثناة : القطع وفى الحديث « المبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[1] أى المنقطع ، وهو هنا استعارة لتمزق المسائل قبل جمعها فى هذا الكتاب ، ويؤخذ منه أن تسمية الكتاب مؤخرة عن كمال التأليف ، أو بكون جمعها فى ذهنه وعزم على تأليفها ، « والمباحث » جمع مبحث ، وهو : ما يبحث عنه او فيه ، فهو اسم مكان ، لأن كاتبه جعله محلا للبحث والتفتيش عن أحوال الصوفية وسيرهم .

يقول رحمه الله : وبعد ما فصلت هذا الكتاب فصولا خمسة ، وصار حبل تلك الفصول بعد قطعه موصولا ، بحيث نظمت جواهره فى سلك عقده ، فصارت جواهر فصوله ، ويواقيت تراجمه موصولة فى سلك واحد ، سميته حينئذ « المباحث الأصلية » لأنها تبحث عن أصول الطريقة وتحقق مبناها ، وهـــذه الطريقة هى : طريقة الصوفية ، وهى : الموضوعة لكيفية تهذيب القلوب وتصفيتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، لتتهيأ بذلك لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية ، التى هى معرفة العيان بطريق الذوق والوجدان .

واختلف فى اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة أحسنها : أنه من الصفا ، لأن مداره على التصفية ، وإليه أشار بعضهم بقوله :

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا ... وكلهم قال قولا غير معروف
ولست أمنح هـذا الإسم غير فتى ... صافى فصوفى ، حتى سمى الصوف

قال أبو حمزة البغدادى : علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفى الكذاب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء .

وقال بعضهم : لابد للصوفى أن يتحقق بمعانى حروفه ، فالصاد صفاؤه ، والواو وفاؤه ، والفاء فناؤه ، والياء بقيه ، وكذلك الفقير يتحقق بمعانى حروفه ، فالفاء فناؤه ، والقاف قربه ، والياء يقينه ، والراء رحمته ورأفته ، وبالله التوفيق .

ثم دعا لمن قرأ كتابه أو طالعه ، أو شرحه ، أو اعتقد كله ، فقال :

فحى يا رب امرءًا حياها ... وزكه يوماً متى زكاها

---

(١) بهذا اللفظ رواه البزار ، والحاكم ، والبيهقى فى السنن ، وفى لفظ : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وله ألفاظ أخرى ، انظر المقاصد الحسنة للسخاوى .

قلت « والتحية » فى الأصل دعاء بطول الحياة ، كانت العرب إذا لقوا كبيراً قالوا : أطال الله حياتك وأبقاك الله ، أو أطال عمرك ، ثم انتقل إلى السلام ، وهو تحية أهل الإسلام ، وهو أيضا تحية أهل الجنة ، والتزكية : التطهير ، أو التنمية والترفيع

يقول رحمه الله : « اللهم حيى » أى سلم أمرءاً حيا كتابنا بالقبول والتعظيم والترفيع ، وطهره من دلس الذنوب ودرن العيوب وغبش الحس وغين الاغيار وظلة الأكوان ، يتجدد ذلك التطهير متى مازكى كتابنا بقوله أو العمل بما فيه ، أو الثناء عليه ، أو البحث عن معانيه

وقد كان الشيخ لتباع يربى أصحابه بهذا الكتاب

وكان الغزوانى يربى أصحابه بالشريشية ، يعنى « الرائية » .

ولكن المباحث أفيد لأهل القلوب ، والله تعالى أعلم

ثم شرع فى المقصود فقال رحمـــه الله :

الفصل الأول فى أصله

قلت : ذكر أصله من جهتين : من جهة الذوق والوجدان ، ومن جهة دليل الشرع والبرهان ، حتى لا يجد المكر له مقالا ، ولا الطاعن فيه مساغا ، وقدم الأول فقال :

واعلم بأن هـــذه الطريقه بحث عن التحقيق للحقيقه

قلت : والبحث، هو : التفتيش، يقال : بحث عن كذا : فحص عنه ، وبحث فى الأرض أخرج ترابها ، والتحقيق : إدراك الشيء من أصله ، والحقيقة : ذات الشيء وأصله ، وحقيقة الإنسان : ماهيته ومادته

وأما اصطلاح الصوفية فهى : كشف رداء الصون عن مظهر الكون ، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل ، وهى عدهم نتيجة التصفية التى هى الطريقة ، والطريقة : نتيجة الشريعة ، فالشريعة هى : إصلاح الجوارح الظاهرة ، وهى تدفع إلى الطريقة التى هى إصلاح السرائر الباطنة ، وهى أيضا تدفع إلى الحقيقة التى هى كشف الحجاب ومشاهدة الأحباب من داخل الحجاب ، فالشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهده

يقول رضى الله عنه : واعلم بأن هـــذه الطريقة التى سألت عنها : وهى : طريقة الصوفية هى بحث وتفتيش عن تحقيق الحقيقة وإدراكها : ذوقا وحالا ، والام فى والحقيقة، لام التعدية ، كقوله هذا تحقيق لهذا ، أى تحقيقه فى الحقيقة ، وها أنا أقدم لك مقدمه يسهل بها فهم ما يذكره الناظم فى هذا الأصل ، فنقول وبالله التوفيق ، ومن الله الإمداد والتسديد :

اعلم أن الحق جل جلاله واحد فى ملكه ، لا شريك معه ولا ضد له ولا ند له ، كان ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه ، كان فى أزل أزليته لطيفاً خفيا ، حكيما قديراً لطيفا لا يدرك ، خفياً لا يعرف ، قائما بذاته ، متصفا بمعانى أسمائه وصفاته ، فأراد سبحانه أن يعرف بذاته ، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته ، فأظهر قبضة من نوره اللطيف ، فتكثفت بقدرته ليتهيأ بها التعريف ، ثم تنوعت على عدد أسمائه وصفاته ، فلما ظهرت تلك القبضه النورية تجلى فيها باسمه الباطن ، فبطنت فى ظهورها ، وكمنت فى مظاهرها ، فالأشياء كلها مظاهر الحق ، لكن لابد للحساء من نقاب ، وللشمس من سحاب ، فنسجت تلك الحرة اللطيفة الأزلية بقدرتها رداء ، واكتست بحكمتها إزاراً ، فقالت: «العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما قصمته»(1) ثم اختلفت تلك الحكمة فى نسجها وغزلها، فنها ما رق غزله ولطف نسجه، فكان فيه النور وقريباً من الظهور، ومنها ما غلظ غزله وكثف نسجه ، فى النور لأجل غلظ الستور ، ثم إن الذى رق غزله ولطف نسجه منه ماهو نور محض ، وهم للملائكة ، ومنه ماهو نور وظلمة ، وغلب عليه النور ، وهم بنو آدم . ومنه ماهو نور وظلمة وغلب عليه ظهور الظلمة ، وهى الجمادات ومالا يعقل من الحيوانات ، ونعنى بالنور المعنى ، وبالظلمة ، الحس ، فالكون كله باطنه نور وظاهره ظلمة ، باطنه قدرة وظاهره حكمة ، باطنه لطيف ، وظاهره كثيف ، وإليه أشار صاحب العينية بقوله :

وما الكون فى التمثال إلا كثلجة وأنت لها الماء الذى هو نابع

ثم إن الحق سبحانه خص مظهر هذا الآدمى بخصائص لم تكن لغيره

منها : أن جعل روحه اللطيفة النورانية فى قالب كثيف ، ليتأتى له منه غاية التصريف

ومنها : أن جعل ذلك القالب فى أحسن تقويم ، وأبدع فيه من بدائع حكمته وعجائب صنعته ما يليق بقدرة السميع العليم

ومنها: أنه جعله حاكما على المظاهر كلها ، مالكا لها بأسرها، خليفة عن الله فيها ، ثم فتح له من فنون العلوم ومخازن الفهوم ما لم يفتحه على غيره مما هو معلوم ، وقال تعالى ـ إنى جاعل فى الأرض خليفة ـ وقال فى تلك الخليفة ـ وعلم آدم الأسماء كلها ـ

ومنها أن أعطاه سبحانه وتعالى سبعاً من الصفات تشبه صفات المعانى الأزلية ، إلا أنها ضعفت بإحاطة القهرية ، وهى: القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، فحصل له بهذا أنموذج وشبه بالصمدانية الربانية .

ومنها : أنه سبحانه جعله نسخة الوجود ، يحاكى بصورته كل موجود ، فإن عرف الحق كان الوجود نسخة منه ، وإلى بعض هذه المعانى أشار بقوله :

وهـذه حقيقة الإنسان حيث لها أنموذج ربانى

---

(1) وفى رواية: «الكبرياء ردائى فمن نازعنى ردائى قصمته» رواه الحاكم عن أبى هريرة ، وفى رواية : «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار» رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه)

قلت : حقيقة الإنسان هى روحانية ، وهى لطيفة نورانية لاهوتية جبروتية ، ثم احتجبت ببشرية كثيفة ناسوتية ، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بإظهار الربوبية فى مظاهر العبودية

والأنموذج ، قال فى القاموس : والنموذج بالفتح : الشبه ، وبالهمز : لحن ، وفى نسخ المناظم كلها بالهمز ، فانظره مع ما قال فى القاموس ، وفى بعض النسخ « إذ كان فى المدرج الربانى » وسيأتى معناه ، فالنموذج هو الشبه ، وهذا الشبه الذى حازه الإنسان دون غيره هو اتصافه بشبه أوصاف الحق سبحانه ، حيث جعل الله فيه : قدرة ، وإرادة ، وعلماً ، وحياة ، وسمعاً ، وبصراً ، وكلاما ، وجعله نسخة من الوجود بأسره ، وخليفة عن الله حكمه : يتصرف فى الأشياء باختياره فى ظاهر أمره ، ولذلك ورد فى الحديث :

« إن الله خلق آدم على صورته »(١)

وفى رواية على « صورة الرحمن » ومعناه خلق آدم وأعطاه من الصفات ما يشبه صفات الرحمن ، وهى صفات المعانى والمعنوية ، وخصه أيضاً لجعله خزانة لسائر أسمائه ، فإن الإلهى تسعة وتسعون اسما ، كلها كامنة فى سره ، ثم يظهر على ظاهره ما سبق له فى علم الغيب ، « لبعض يظهر عليه اسمه الكريم ، والبعض اسمه الرحيم والبعض اسمه الحليم والبعض اسمه المنتقم ، والبعض اسمه المتكبر ، والبعض اسمه : القهار ، والبعض اسمه . القابض ، والبعض اسمه : الباسط ، وقد يتعاقب عليه أسماء كثيرة فى وقت واحد ، وإذا فنى عن حسه وغاب عن نفسه ظهرت عليه أنوار الألوهية ، فيطلق بالأنانية غلبة ووجدا ، وبهذا قتل الحلاج .

وقد ورد الترغيب فى التخلق بأخلاق الرحمن ، قال صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الرحمن »(٢)

---

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد ، والحديث طويل وفى تفسيره كلام كثير ، وكلام الصوفية فيه كلام إشارات .

(٢) وفى حديث آخر : « إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة » رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس .

ورغب فى الصيام لما فيه من شبه الصمدانية ، وقد رغب أيضاً فى التقرب إليه سبحانه حتى يكون سمعه وبصره ويده ورجله ، ومعناه تنبيه على صحة الحدوث بشهود أنوار القدم وفى ذلك يتحقق له هذا الأنموذج الصمدانى

وفى الحكم : « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، وإلا فجل ربنا أن يتصل شىء أو يتصل به شىء » وسيأتى الكلام إن شاء الله على هذا المعنى عند قول الشيخ :

متى ارتقيت عن قبيل الحس ... أدركت فى نفسك معنى النفس
يامن على القشر غدا يحوم ... حتى عن اللب : متى تصوم ؟

إلى آخر الأبيات ، وعلى النسخة الثانية « فالمدرج الربانى » هو : السر المكنون الذى برزت منه الروح ، ونفخت فى هذا الجسم ، وهى الخزة الصافية ، أى هذه حقيقة الإنسان حين كان فى جملة السر الربانى المندرج فى الخزة الأزلية ، وفى بعض أدعية الشاذلى : « وادرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك ، وأفعالى تحت أفعالك » : درج السلامة وإسقاط الملامة ، والله تعالى أعلم .

ثم بين أن حقيقة الإنسان وسره سر من أسرار الله ، لا يجوز أن يوضع فى الكتب على وجه التصريح ، وإنما يذكر على وجه الإشارة والتلويح ، وعلمنا كله إشارة ، فقال :

ووضعه فى الكتب لا يجوز ... بل هو كنز فى النهى مكنوز
إياك أن تطمع أن تحوزه ... من دفتر أو شعر او أرجوزه

قلت : النهى جمع نهية ، وهو اسم للعقل ، والدفتر : اسم للكتاب ، وقال فى القاموس : الدفتر ، وقد تكسر الدال : جماعة الصحف المضمومة ، والجمع . دفاتر ، والشعر : كلام موزون ، والأرجوزة بمعنى القصيدة . وهى ذات أبيات

يقول رضى الله . وضع هذا السر وهو النموذج الربانى الذى اختص به الإنسان فى الكتب لا يجوز إذا كان ذلك على وجه التصريح ، وإنما منع وضعه فى الكتب لأمرين . أحدهما أن العبارة لا تقوم به ، لأن علم الإشارة مهما صار عبارة خفى ، وقد يؤدى التعبير عنه لتكفير القائل وتبديعه وتفسيقه ، وربما أدى لتلفه ، كما قال بعضهم :

فمن فهم الإشارة فليصنها ... وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت ... له شمس الحقيقة بالتدانى

وقال زين العابدين رضى الله عنه :

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

وفى السر أسرار دقاق لطيفة ... تراق دمانا جهرة لو بها بحنا

الأمر الثانى : أن وضع ذلك فى الكتب يؤدى لابتذاله وإظهاره ، مع عدم استيفاء المراد منه ، فيكون قطعاً للمريد عن التحقق به ، وموجباً لوجود الحيرة فيه ، ولا يفهمه فى الحقيقة إلا من اطلع عليه وعرف معناه ، كحال الطرب فى السماع ، لا يتأثر به إلا من عنده ذوق وحرقة ، ثم ذكر أن هذا السر كنز مدفون فى صدور مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، بقوله « بل هو كنز مكنوز » أى مدفون « فى النهى » : أى العقول السكاملة والقلوب الصافية ، ومن كلها وحريتها كتمها للأسرار ، كما قال بعضهم : « قلوب الأحرار قبور الأسرار » وقال آخر :

لا يكتم السر إلا من به ثقة ... فالسر عند خيار الناس مكتوم

وقال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

ادفن سرك ودكوا ... فى الأرض سبعين قاما
وخل الخلايق يشكوا ... إلى يـــوم القيـامه !

ثم حذرك من أن تطمع أن تحوز هـذا السر من كتب القوم ، أو من أشعارهم أو من قصائدهم ، لأنه أدق ، لا يؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من صحبة أهل الأذواق ، بل لا تزيده مطالعة الأوراق إلا تقتيراً وتعطيلا .

علم الأذواق لا يؤخذ من الأوراق . قالوا : وحقائق المعارف مطبعة فى الأرواح من يوم الميثاق ، فلذلك دامت بها الحجة فيما لا يزال ، فوصول العبد إلى ما عنده منها بواسطة أمداد التجلى ، لا لأمر زائد على ذلك .

قال بعض المشايخ : إياك وطلب الدليل من خارج ، فتفتقر إلى المدارج ، واطلب الحق من ذاتك لذاتك ، تجد الحق أقرب إليك من ذاتك

وقال فى الحكم : « نور مستودع فى القلوب ، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب » .

وقال فى موضع آخر : « أشهدك من قبل أن استشهدك ، فطفقت بالحقيقة الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر ، وما هو إلا كما قال الحق سبحانه فى شأن الإخلاص « وهو سر من اسرارى أودعته قلب من أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده[1] » وكذلك سر الربوبية الذى أودعه الله فى الإنسان ، لا يعلم حقيقته على الكمال إلا هو سبحانه ، وإذا كان كذلك فالتعليم والتعلم لا يفيده ، وإنما يفيده العرض لنفحات الحق لشواهد الصدق : قولا وعملا وحالا ، « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[2] وكان عمله من ربه لقلبه ، وهو أتم العلوم وأجلها ، فافهم واطلب الشىء منك إليك (منى علىّ دارت كئوسى) .

قال بعضهم : علما لا يؤخذ بالقياس ، ولا بالفهم وقوة الذكاء والاقتباس ، بل هو نكتة من الحق ، ينكشف عن القلب قناعه ، ونور منه ينبسط فى عوالم الحقيقة شعاعه ، حتى يصير الغيب فى عين العيان ، ولا يفتقر المشكل لشىء من البيان ، بل لو كشف الغطاء ما ازداد صاحبه يقيناً ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « لم يفتكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بشىء وقر فى صدره »[3] . ومع هذا فالشىء الموقور فى صدره معلوم الأصل ، الذى هو التحقيق فى اليقين ، والإيمان إلى حد المواجهة والعيان ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

ثم بين قدر ما يعرفه الإنسان من السر بالوصف ، فقال :

وإنما تعرف منه وصفا ... لست تراه ، وهو ليس يخفى

قلت : لما كان معرفة النموذج الربانى الذى خص به الإنسان من الكتب ، ذكر هنا مقدار ما تعرفه يا ست من الكتب ، فقال : وإنما تعرف من ذلك النموذج ، وهو سر الربوبية المندرج فى الحمرة الأزلية ، وصفاً ظاهراً ، يقال باللسان ولا يرى بالعيان ، لأنه إنما يدرك بالبصيرة ، فإن كنت من أهل البصيرة أدركته بالذوق والوجدان ، وإن لم تكن

---

(١) رواه العراقى فى جزء من مسلسلات القزوينى عن حذيفة ، ورواه القشيرى فى رسالته

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس .

(٣) ذكره بمعناه فى الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

من أهل البصيرة ، فحظ رأسك لأهل البصيرة حتى تذوق ماذاقوا أو تموت ، فالمعرفة التى تكتسبها من الدفاتر أو الأشعار أو الأراجيز لذلك الوصف لست تراها بعينك ، فإذا قال لك الشاعر مثلا :

« ألا كل شىء ماخلا الله باطل .

« أو ما فى الكون غيركم .

لا تعرف ذلك ولا تدركه بعقلك ، مع كونه ظاهر لا يخفى ، لكن لا يدركه إلا أهل الأذواق ، أهل البصائر النافذة ، لا أهل العقول المقيدة بالخيالات الوهمية ، فإن هذا أمر خارج عن مدارك العقول ، ولا يحيط بكنهه العلم المنقول .

قوله : « لست تراه وهو ليس يخفى » ؛ أى لست تراه ببصرك الحسى ، لما كساه من رداء الغيرة وحجب الحكمة ، وهو : ليس يخفى على أهل البصيرة النافذة ، فلست تراه لأنه باطن ؛ وهو ليس يخفى لأنه ظاهر . فاسمه الباطن يقتضى أن لا تدركه الأبصار ؛ واسمه الظاهر يقتضى انطواء ما سواه من الأغيار ، وانفراده بالوجود وظهور الأنوار ، وفى ذلك قال بعض العارفين :

أقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ... وكيف يعرف من بالعزة استترا

وفى الحكم : «أظهر كل شىء بأنه الباطن، وطوى وجود كل شىء بأنه الظاهر» فاسمه الباطن يقتضى ظهور الأشياء ليكون باطنا بالنسبة إلى ظهورها .

واسمه الظاهر : يقتضى بطون الأشياء وانطواءها ؛ إذ لا ظاهر سواه لما يقتضيه الحصر الذى فى الآية الكريمة . وهـذا من عجائب الربوبية التى بهرت العقول ، وحيرت الأذهان، بحيث صار ظاهراً فى حال بطونه ، باطناً فى حال ظهوره ، ظاهراً باعتبار قدرته باطنا باعتبار حكمته . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر المصنف أنه شرح لك من ذلك الوصف البعض بقدر مايفهمه عقلك، فقال :

وما أنا أشرح منه البعض ... بقدر ما تفهمه فلترض

أى تنبه لما أقول لك بعد . فأنا أشرح لك بعض ذلك السر بقدر مايفهمه ويدركه عقلك فلتقنع بذلك ولترض به ، إذ لا يمكن شرح الكل ، لأنه من السر المكنون الذى لايحيط به إلا علام الغيوب ، وأيضا إذا عبرت لك عن كنه السر تعرضت للهلاك ، وقد قال تعالى ـ « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً »(١) ـ ثم ذكر ذلك البعض الذى وعد به ، فقال :

فهذه الحقيقة النفسيه ... موصولة بالحضرة القدسيه
وإنما يعوقها الموضوع ... ومن هنا يبتدأ الطلوع

قلت : المراد بالحقيقة النفسية هو: الروح اللطيفة السارية فى الأشباح الكثيفة القائمة بها ، والحضرة القدسية هى العظمة الأزلية القديمة اللطيفة الخفية المعبر عنها بعالم الجبروت، وهى التى فسرها ابن الفارض فى خمريته حيث قال رضى الله عنه وأرضاه :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها ... خبير : أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقـدم كل الكائنات حديثها ... قديما ، ولا شكل هناك ولا رسم ،
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة ... بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فالأشياء التى قامت بالخمرة الأزلية هى: الموضوعات التى تكثفت وظهرت، فقد وضعها الله أوانى حاملة المعانى ، ومنها أشباح بنى آدم ، فإنها موضوعات للسر الربانى، الذى هو الروح ، والروح متصلة بتلك الخمرة الأزلية ، وإنما يعوقها ويمنعها من اللحوق بأصلها، هذا الموضوع الذى وضعه الله لها وأسكنها فيه ، فهو كثيف، وهى لطيفة ، فمن غلبت كثافته على لطافته ؛ أو تقول : بشريته على روحانيته ، بقى دائما مسجونا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، ومن غلبت لطافته على كثافته ، أو تقول : روحانيته على بشريته اتصلت روحه بالحضرة القدسية ، ورجعت إلى أصلها ، فلم يحجبها عن أصلها أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسى حتى قال بعضهم: «العرش والكرسى مندفنان فى ترسى» وقال آخر: « لو أن العرش فى زاوية من زوايا قلب العارف ماأحس به» . وفى الحكم العطائية : «الكائن فى الكون ولم تصح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته ، مفهومه إذا فتحت له ميادين الغيوب لم يحصره هيكل ولا كون ، بل يترقى إلى فضاء الشهود ، وتتصل روحه بالملك المعبود ،

---

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء .

اتصالا يعرفه أهل الأذواق ، ويسكره أهل الأوراق ؛ وقد ضرب عز الدين ابن عبد السلام مثلا ربما يزيل ذلك الإشكال ؛ ويوضح لك المثال إن لم تذق ماذاقت الرجال .

قال في « حل رموزه وفتح كنوزه » فاعلم أن القلب غيب ، والرب غيب ، فاطلع الغيب على الغيب ؛ فكان اطلاعه نزولا لا حلولا ؛ واعلم أن لطيفة ذلك : أن لقلب حسي كامل الوصف ؛ وله وجهان : ظاهر وباطن ؛ فظاهره ترابي أرضي ؛ مظلم طبيعي جثماني ، وباطنه سماوي علوي ، نوراني روحاني ، فكثافة ظاهره لمباشرة القوى الطبيعية البشرية ، ولطافة باطنه لمواجهة الملكوتيات العلية الربانية الروحانية ، فعلى قدر مواجهته لها ومقابلته إياها انعكست عليه أشعة أنوارها ، وتجلت لأسراره بأسرارها ، فشاهدها بالأنوار التي وقعت عليه ، وأدركها بالأسرار التي أبدتها إليه ، وهذا معنى العكس والمقابلة ؛ فهو يشهد جماليه محبوبه في مرآة قلبه من غير حصر ولا تحيز ، ولا حلول ، ولا انفصال ولا اتصال : فهو في المثال كمرآة لها وجهان : ظاهرها كثيف مظلم ، وباطنها لطيف مضيء ، فلو قابلها من المكونات ما قابلها من صغير أو كبير أرته مثلا فيها مع صغر جرمها وكبر المرئي فيها ، ولو كان جملا أو جبلا أرته بكل أجزائه فيها من غير حلول فيها ، ولا اتصال بها ، ولا تحيز في شيء منها ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى : إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين قلبه ، ويجتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ، ولا اتصال ولا انفصال .

وأوضح من هذا المثال ما أشرحه في هذه الأبيات :

ولما تجلى من أحب تكرما ... وأشهدني ذاك الجناب المعظما
تعرف لي حتى تيقنت أنني ... أراه بعيني جهرة ، لا توهما
وفي كل حال أجتليه ولم يزل ... على طور قلبي حيث كنت مكلما
وما هو في وصلي يتصل ولا ... بمنفصل عني ، وحاشاه منهما
وما قدر مثلي أن يحيط بمثله ... وأين الثرى من طلعة البدر ، إنما
أشاهده في صفو سري فأجتلي ... كلانا : تعالى عزه أن يقسما
كما أن بدر التم يظهر وجهه ... بصفو غدير ، وهو في أفق السما

واعلم أن هذه الخصوصية إنما هي لابن آدم دون الملك ، وإنما كان كذلك لما ذكرنا أن الآدمي مخلوق من العالمين : اللطيف والكثيف ، فينزل القلب فيه بمنزلة المرآة في لطفها وكثافتها ، فلذلك انطبع فيها ما يقابلها من المرئيات ، ولا كذلك الملك ، فإنه مخلوق من لطيف فقط ، وهو كله نور يشف ظاهره وباطنه ، فهو كالزجاجة الشفافة ، نورها خارق ، فلا يتمثل فيها ما يقابلها لعدم التكثيف الذي يعكس ما يقابلها إليها ، فهذا سر العكس والمقابلة ، انتهى كلامه رضي الله عنه .

ومن هنا يبتدأ الطلوع ، وحاصله : أن الآدمي كالمرآة التي من خلفها الظلام وهو البدن الذي يحمل فيه ، والملائكة كالمرآة التي لا ظلام خلفها ، لكن الملائكة فيهم الخواص والعوام وفيهم العارفون وغيرهم ، والله تعالى أعلم .

وقوله : « ومن هنا يبتدأ الطلوع » : الإشارة تعود إلى الموضوع الذي جعله الله محلا للروح ومستقرا لها في هذا العالم السفلي ، أي ومن هذا المحل السفلي الذي تقررت فيه الروح يبتدأ طلوعها وعروجها إلى محلها الأصلي ، الذي هو عالم الملكوت أو الجبروت ، وطلوعها بقدر تعلقها عن هذا الموطن وغيبتها عنه ، فبقدر ما تغيب عن موضوعها تفارقه ، وتبرح عنه إلى أصلها ، وبقدر ما تتعلق به وترتهن معه تستقر فيه وتسجن في هيكله .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : « أيها الشائق إلى سبيل نجاته ، التائق إلى حضرة حياته ، أقبل النظر إلى ظهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك » .

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى : « عبدي إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها ، فإن أدعيتها سلبتك الولاية ، ولم أسلبك صفاتي ، ياعبدي أنت صفتي ، فارجع إلي أرجع إليك . ياعبدي فيك العلوم بباب مفتاحه أنا ، وفيك الجهل بباب مفتاحه أنت ، فاقصد أي البابين شئت ، ياعبدي قربي منك بقدر بعدك عن نفسك ، وبعدي عنك بقدر قربك من نفسك ، فقد عرفتك الطريق ، فاترك نفسك تصل إلي في خطوة واحدة ، ياعبدي كل ما جمعك علي فهو مني ، وكل ما فرقك عني فهو منك ، فجاهد نفسك تصل إلي ، وإني لغني عن العالمين ، ثم قال . ياعبدي إن منحتني نفسك رددتها إليك راضية مرضية ، وإن تركتها عندك فهو أعظم بلية فمن أعدى الأعادي إليك ، فجاهدها تعد بالفوائد إليك » .

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول : إن شئتم أن أقسم لكم : أنه لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علاقة .

وقال الششتري رضي الله عنه : ليس يدرك وصالي كل من فيه بقيا .

وقد أوضح الناظم هذا ، يعنى فيما يأتى حيث قال :

لم يتصل بالعالم الروحانى ... من عمره على الفضول عانى
ليس يرى من المعانى دان ... من قلبه فى عالم الأبدان ،

والبيت الآخر : تفسير لما ذكره ها بقوله ، ومن هنا يبتدأ الطلوع ، ويأتى زيادة بيان وتوضيح عند شرحها إن شاء الله ، والله تعالى أعلم .

ثم بين كيف كان اتصال الروح بالحضرة فقال :

فلم تزل كل نفوس الأحيا ... علامة دراكة للأشيا
وإنما تعوقها الأبدان ... والأنفس النزغ والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده ... أطهر القواعد خرق العاده

النزغ هو : النخس والتحريك ، نزغه الشيطان : أى نخسه وحركه . والأنفس النزغ هى : التى تحرك صاحبها للمعاصى والشهوات . والنفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر : شىء واحد عند محققى الصوفية ، وما ثم إلا اللطيفة الربانية حين اشتبكت بهذا البدن وسجنت فى هذا الهيكل : اختلفت تسميتها باعتبار تطورها وترقيها ، فادامت مطلة بالشهوات والمعاصى سميت نفساً ، فإذا انزجرت وانتقلت عن المعاصى سميت عقلا . فإذا سكنت إلى الطاعة لكنها تتقلب فى التدبير والاختيار والاهتمام بأمر البدن سميت قلباً ، فإذا اطمأنت بالله وسكنت إليه ، وفتحت بصيرتها بشهود نور أصلها سميت روحاً ، فإذا تصفت من الحس وصارت معنى محضاً سميت سرا ، وهذا كان أصلها سراً من أسرار الله ، قال تعالى : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »(١) أى سر من أسراره ، فكانت فى الأصل علامة لما كان ومايكون ، دراكة لدقائق الأشياء على ماهى عليه ، ولما أدخلها الحق فى هذا الهيكل الكثيف إظهاراً لحكمته ، وإعلاما بعظمة قدرته ، وإشعاراً بقهريته احتجبت عن أصلها وغاب عنها ذلك العلم والإدراك ونسيت معاهدها ومعالمها اشتغالا بتدبير هذا الهيكل الطينى ، فهو يميل بها إلى أصله ، وحبها إلى أرض الشهوات التى نشأ بالحكمة منها ، وهى تتعشق إلى أصلها وتحن إلى وكرها ، وإنما

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥

طارت وارتفعت إلى وكرها وجدت قفص البدن محيطا بها ، فربما شطحت ورقصت من وراء أردية العز والكبرياء .

وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

يحركنا ذكر الأحاديث عنكم ... ولولا هواكم فى الحشا ماتحركنا
فقل للذى ينهى عن الوجد أهله ... إذا لم تذق مما شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا ... نعم ترقص الأشباح ياجاهل المعنى
أما تنظر الطير المقفص يافتى ... إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاده ... فيطرب أرباب العقول إذا غنى
ويرقص فى الأقفاص شوقاً إلى اللقا ... فتضطرب الأعضا فى الحس والمعنى
كذلك أرواح المحبين باقتى ... نهرها الأشواق للعالم الأسنى
أنارها بالصبر وهى مشوقة ... وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

إلى آخر كلامه

ثم أعلم أن تطورات الروح من : النفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر : كل طور له حد ينتهى إليه فى العلم والإدراك ، أما النفس فحد علمها وإدراكها زينة ظاهر الكون اغترارا بمتعة ظاهره ، وغفلة عن عبرة باطنه ، واشتغالا بحظوظها وهواها ، وأما العقل فحد علمه وإدراكه افتقار الصنعة إلى صانعها ، فهو يقرر الصنعة ويردها إلى صانعها ، معقولا عن غير ذلك ، وأما القلب فى علمه وإدراكه التوجه إلى خالقه بترك الأغيار وطلب الأنوار فقد انطلق من العقال وشد فى طلب مولاه الرحال .

وأما الروح : فحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت . طالبة أسرار الجبروت ، قد استراحت من تعب السير ، لكنها لم تتمكن من السر ، وأما السر فحد إدراكه أسرار الجبروت ، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت ، وهذا منتهى السير ، قال تعالى : « وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ »(١) .

(١) سورة النجم : الآية : ٤٢

وفى هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه :

ولو عاينت عيناك يوم تزلزلت أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها يوم التزلزل ، والرجال رجال

قال : « والأرض » : أرض النفوس ، « والجبال » جبال العقل اهـ

أى لو غبت عن نفسك ولم تقف مع عقلك لرأيت أنوار ربك .

قوله : إنما تعوقها الأبدان أى يمنعها من الرجوع إلى أصلها فتكون علامة دراكة للأشياء كما كانت فى أصلها ، الأبدان التى هى كالأقفاص لها حصرا ، وكالقفص والأردية لها سترا ، وإنما منعها البدن من الرجوع إلى أصلها ، لأنه ظلمانى طينى صلصالى ، لا يميل بطبعه إلا لما صفا من الشهوات الجسمانية ، مأكلا ومشربا وملبسا ، وكلما تعمق فى ذلك تكثفت بشريته وقويت دائرة حسه ، فعظم حجاب الروح ، وتوغلت فى هذا القفص ، وكذلك النفس الناطقة الحركة إلى الحظوظ الذميمة ، كحب العلو والجاه والمدح والثناء ، وحب الدنيا والنساء وغير ذلك مما يستتبع هذا من : الكبر ، والحسد ، والبغض ، والغضب ، والقلق ، والحقد وخوف الفقر ، وهم الرزق ، وحب الأغنياء : طمعا وحرصا ، واحتقار الفقراء ، وغير ذلك من عيوبها ، فهى التى حجبت الروح ومنعتها من العروج إلى وطنها ، ولدواء هذه الأمراض وضع علم التصوف ، وكذلك الشيطان بوسوسته ونزعه وتزيينه ، لأنه حسن فيزين لها الكفر ، ثم المعاصى ، ثم التثبط عن الطاعات ثم إدخال الرياء فيها ، ثم العجب إذا تخلصت من هذه العوائق رجعت إلى أصلها من علم الحقائق ، وإلى ذلك أشار بقوله

فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العادة

فجهاد البدن بقطع مواده ، من : تقليل الطعام ، والشراب ، واللباس ، والمنام ، فلا يأكل ولا يشرب ، إلا ليتقوى على طاعة الله ، ولا يلبس إلا ما يحفظ به البدن ، لأنه معرفة سواه ولا ينام إلا ما يرد به العقل ونشاط لطاعة الله ، وكذلك لا ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله ولا يجلس إلا حيث يأمن غالبا من معصية الله ، ولا يصحب إلا من يستعين على طاعة الله ، ولا يتبع إلا من يتحقق وصلته بالله ، فيكون فى كل حال عاملا لله ، بالله وجهاد النفس بقطع مألوفاتها ، وبخرق عوائدها بتحميلها ما تكره ، وإبعادها عما تحب وأعظمها ثلاث : حب الجاه ، وحب الدنيا ، وحب النساء ، وجهاد الشيطان بالاشتغال به

والغيبة عنه ، فعداوة العدو حقاً هى اشتغالك بمحبة الحبيب حقا قال تعالى « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »(١) - يعنى ، وأنا لكم حبيب فاتخذونى حبيباً أكفكم عداوة عدوكم .

وبقى من العوائق : الناس ، فإنهم أكبر العوائق وأقبح القواطع لمن وقف معهم واشتغل بمقابلتهم ، وأما من غاب عن حسهم وغرق فيهم ، فقد صاروا له عوناً على الترقى إلى معرفة خالقهم ، وإلى هذا المعنى أشار شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه بقوله :

الخلق نوار وأنا وعيت فيهم هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم

وقال فى الحكم : إنما أجرى الأذى عليهم كى لا تكون ساكناً إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شىء ، حتى لا تكون ساكناً إلى شىء ، وقال فى شأن الشيطان والنفس « إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده ، إنما جعله لك عدواً ليحوشك به إليه ، وحرك عليك النفس ليديم إقبالك عليه » .

فتحصل أن هذه العوائق الأربعة ، إنما هى عوائق لمن وقف معها وحجب بها ، وأما من لم يقف معها ، فإنما هى فى حقه معونات وموصلات ، حركتهم إلى الله ، ودفعتهم إلى حضرته وبها ثبتت خصوصيتهم وتحقق سيرهم ، لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، فسبحان من جمع بين الضدين ، شىء واحد حبيب من وجه عدو من وجه ، وفى الحقيقة ما ثم إلا الحبيب أوقف على بابه حراسا ليظهر الصادق فى محبته من الكاذب فيها ، والله عليم حكيم .

وقوله : « أظهر للقاعد خرق العادة » يعنى أن من نهض إلى مجاهدة هذه الثلاث أو الأربع قد يكرمه الله بظهور الكرامات وخرق العادات ، إما حسية أو معنوية ، فيظهر عليه بحسب كل مقام خارق يليق به على قدر حاله ، فمن مجاهدة البدن تظهر الكرامات الحسية ، أما من جهة العبادة الحسية كحلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة لقوله صلى الله عليه وسلم « من غض عبادة الله رزقه عبادة يجد لذتها(٢) » ، وإما من جهة خرق العادة الحسية كالمشى على الماء والطيران فى الهواء ، وطى الأرض ، وتسخير السباع ، وجلب الطعام والماء من الغيب ، وغير ذلك .

---

(١) سورة فاطر : الآية : ٦

(٢) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » .
رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة .

ومن مجاهدة النفس : تظهر الكرامات المعنوية ، من : فهم العلوم ، واتساع الفهوم ، وتحقيق اليقين ، وشهود رب العالمين . وتسخير النفوس ، وقهرها . وظهور الجلالة والمهابة للخلق ، لحديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »(١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام « من خاف من الله خافه كل شيء »(٢) الحديث ، ونحو ذلك .

ومن مجاهدة النفس والشيطان تظهر الكرامات الحقيقية بالكفاية . والهداية . والحفظ من الضلال والغواية ، لقوله تعالى

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »(٣) وقوله .

« لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »(٤) .

ثم بين أهل هذه الخوارق ، فقال .

وهي من النفوس في كمون ... كما يكون الحب في العصون

قلت : الكمون هو : الخفاء والستر ، والضمير في « وهي » يعود على ما تضمنه قوله « خرق العادة » من العلوم والإدراكات والخوارق والكرامات ، يعني : أن العلوم والإدراكات والاقتدار على خرق العادات ، هي كامنة خفية في النفوس ، أي الأرواح ، لأن الأرواح أصلها قبضة من نور الجبروت ، فهي : عالمة ، قادرة ، مريدة ، سميعة ، بصيرة ، متكلمة ، فحيث سجنت في هذه الهياكل الكثيفة كمن فيها ذلك السر وخفي ، ولم يظهر منه إلا نموذج ضعيف ، فسمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وقدرته وإرادته وحياته ، بقية من تلك الصفات ظهرت على العبد واستتر أصلها في النفوس ، كاستتار الحب والثمار في الغصون ، حين تكون

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن جرير ، وفي حديث آخر : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) ولفظ الحديث الشريف : « من خاف الله خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء » رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أبي أمامة ، وابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦٥

(٤) الآية : ٩٩ من سورة النحل .

حاليه من الثمار ، فإذا نزل المطر وأرعد الرعد أخرجت أوراقها وأزهارها وثمارها ، ولى هذا أشار بقوله :

حتى إذا أرعدت الرعود ... وانسكب الغيث ولان العود

وجال في أعضائها الرياح ... فعندها يرتقب اللقاح

قلت : السكب هو : الصب ، يقال : انسكبت الدموع والمطر : انصب ، والإلقاح هو حمل الأشجار بالثمار ، وألقحت النخل ثمارها إذا حملت به ، والفتاح بالفتح كسحاب ما يعلق على النحل من طلع الذكر ، والمناسب في البيت أن يكون الإلقاح بالهمز مصدراً وهو الحمل بالثمر ، وما ذكره هنا كله استعارة ، فالمراد بالرعود مجاهدة الجوارح الظاهرة في خدمة الشريعة ، ككثرة الذكر ، والصلاة ، والصيام ، والسهر ، والجوع ، وغير ذلك من مجاهدة الحس ، وأوكدها : الذكر والصمت ، والعزلة .

ولقد سمعت شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول : بقيت أربع سنين غائباً في الاسم لا أفتر عنه ، لا ليلا ولا نهاراً ، حتى كان البدن كله يهتز به وحده ، فإذا قبضت على إحدى رجلي اهتزت الأخرى ، فهكذا ينبغي ذكر الله ، والفناء فيه ، والمراد بانسكاب الغيث : نزول الأحوال والواردات على القلوب من شوق مقلق أو خوف مزعج ، ووصول أثرها إلى الباطن من : الشفقة ، والرحمة ، والحلم ، والصبر ، والزهد ، والورع ، والتوكل ، والرضى والتسليم ، والمحبة ، والطمأنينة ، والمراقبة والتكرم ، والسخاء ، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة التي تلين الطباع وتحسن الأخلاق ، وهو المراد بقوله « ولان العود » فكما أن العود يلين بسريان الماء فيه ، كذلك القلب يلين بسريان الحال الناشيء عن العلم .

والمراد بجولان الرياح : النفحات التي تهب على القلوب من حضرة علام الغيوب ، بصحبة العارفين ، والحك معهم(١) ، وفي حكمة لقمان عليه السلام كان يقول لولده : « يا ولدي جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله ينبت الحكمة في القلوب بصحبتهم كما تنبت الحية في الأرض الطيبة » والمراد بالعلماء : العلماء بالله ، فإن صحبتهم تلقح العلوم والمعارف والأسرار في القلوب كما تلقح الرياح الثمار في الأشجار ، قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »(٢) قيل تلقح الأشجار وقيل تلقح الأمطار في السحاب ، ثم تصبه حيث أراد الكريم الوهاب ، وهذا معنى قوله « هنالك يترقب الإلقاح » أي إلقاح العلوم والمعارف في القلوب ، ولأجل هذا المعنى قال بعض العارفين . والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح .

(١) الحك هنا : الاحتكاك .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الحجر .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : المراد بالرعود المواعظ المذكرات ، ونزول غيث الواردات ، المليئة لأفنان شجرة القلب ، وجولان رياح الأحوال المتوجهة منها فى نواحى القلب ، حتى يسرى ذلك للجوارح فتتأثر به ، قال الله تعالى « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ »[1] .

وما شرحت به أنسب لطريق التربية ، والله تعالى أعلم .

وقد ضرب فى القوت مثلا لهذا السر الكامن فى الفرس بالزبد الكامن فى اللبن ، فإذا ضرب بالمحض خرج زبده ، ثم إذا ذوب صار سمنا صافياً ثم بين الناظم مايكون بعد الإلقاح من بدايته إلى نهايته فقال :

فعندما أزهرت الأغصان ... واعتدل الربيع والزمان
يكون إذ ذاك أوان العقد ... وانتظم الأغصان نظم عقد
حتى إذا أينع للعيان ... وأمنت جوائح الزمان
باكرها زارعها والغارس ... يقطفها ، أوالغير منها آيس

قلت : العقد الأول بفتح العين ، وهو عقد الثمار من الأزهار ، والعقد الثانى بكسر العين وهو : سلك الجوهر المنظوم .

يقول رضى عنه : فإذا جالت رياح الهداية ، وهب نسيم الولاية ، وجال فى أغصان الأبدان ، ثم سرى إلى سويداء الجنان ، أنفتحت فيه أزهار الحكم ، وفنونا من نوار العلوم ، وفتقت أكمام الهموم مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، فعندما أزهرت أغصان الجوارح الظاهرة بالأعمال والعوالم الباطنية بالأحوال ، واعتدل ربيع الشريعة باظهار زهر جماله فى رياض الملكوت ، مع زمان هيجان بحر الحقيقة فى حياض الجبروت ـ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ـ فعند ذلك يكمل عقد معرفة الشهود والعيان ، وتنتظم استقامة الجوارح فى مقام الإسلام والإيمان ، نزولا إلى بستان سماء الحقوق أو أرض الخطوط بعد الإذن والتمكين ، وبالعناية لذلك العارف ملحوظ ، حينئذ يتحقق بكمال العبودية ، ويقوم بوظائف الربوبية ، لا يحجبه فرقه عن جمعه ، ولا جمعه عن فرقه ، قد اعتدل فيه الميزان : يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، فإذا ظهرت عليه آثار العناية ،

(١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .

ولاحت له أسرار الولاية تعجبت الناس من أحواله ، وما خصه الله به من عظيم نواله ، من معتقد وناقد ، ومن مسلم وحاسد ، يريد أن يشاركه فى مقامه بدعوى اللسان ، ومن ادعى بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان ، كما أبان ذلك كله الناظم حيث قال :

هاى من مر بها مساء ... وأبصر الطلل والأفياء
ونزه الأبصار والعيونا ... حيث رأى الأنهار والعيونا
واشتم منها الروح والريحانا ... وظل فى بهجتها حيرانا
فقال : نحن إذاً سواء ... فعندها يجمعنا المساء

قلت : المساء هو آخر النهار : من الزوال إلى الغروب ، والفيء : الظل إذا أخذ فى الزيادة فهو باعتبار ما قبله من عطف الخاص على العام ، والروح قال فى القاموس : الروح بالفتح الراحة والرحمة ، ونسيم الريح اه ، والمناسب هنا هو الأخير ، وقال فى تفسير الريحان : نبت طيب الرائحة ، أو كل نبت كذلك ، أو أطرافه أو ورقه ، والولد ، والرزق اه والمناسب هنا : النبت ، على حذف مضاف ، أى واشتم من تلك الأغصان نسيما طيباً ، ورائحة تلك الرياحين .

يقول رحمه الله ورضى عنه : فأى شخص من البطالين مر فى بساتين العارفين ورياض الواصلين فى وقت زوالهم واعتدالهم وعند زيادة ظلال أنوارهم وعلومهم ، وأبصر ظلال أنوارهم قد ظهرت على وجوههم من أثر خشوعهم أو بهجة سرورهم ، كما قال :

إن عرفان ذى الجلال لعز ... وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء ... وعليهم من المحبة نور
فهنيأ لمن عرفك إلهى ... هو والله دهره مسرور

ونزه أبصاره فى أنهار علومهم الزاخرة ، وفى عيون حكمهم الفاخرة ، واشتم منها نسيم القرب والوصال ، حين قرب من جنة الجمال ، وريحان الكمال ، فبقى سائر نهاره فى بهجة زهرتها ونضرتها حيران ، فاستغرب ما اتحفهم به مولاهم المنان ، بعد ما كانوا مثله فى النقصان ، وغاية الجهالة والخذلان ، فلما علم بأحوالهم وتحقق بعظيم نوالهم ، ترامى بالدعوى على مقامهم ، فقال هانحن معكم سواء ، فنشترك معكم فى تلك البساتين عند المساء ، فما دام نهار البسط

والجمال استووا جميعاً بلسان المقال ، فإذا جن ليل القبض والجلال ، ظهرت الجبناء من الأبطال ، وتميزت الشمائت من الرجال(١) :

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار ؟

وفى الأمثال بلسان الحال : إن شجرة القرع تصاعدت مع النخلة ، وقالت : إنى شجرة مثلك ، فقالت النخلة : ستعلم الشجرة منا عند هبوب رياح الخريف .

وكذلك المدعون للخصوصية بالتشبه بأهل الطريق إذا اختبرهم الحق تعالى وعبرهم بمحك التحقيق ، فأرسل عليهم قاصفاً من رياح الفتن ، وضربهم بزلازل المحن ، إما فى المال أو فى البـــدن ، نكصوا على أعقابهم مدبرين ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ، خسروا الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

قال فى التنوير : وإنما يفتضح المدعون بزوال الأحوال وعزولهم عن مراتب الإنزال ، هنالك يبدو العوار وتنتهك الأستار ، فكم من مدع الغنى بالله وإنما غناه بطاعته ، أو بنوره أو بفتحه ، وكم من مدع العز بالله ، وإنما عزه بنسبته وصولته على الخلق ، معتمداً على ما ثبت عندهم من معرفته ، فكن عبد الله لا عبد العلة ، فكما كان لك رباً ولا علة ، فكن عبدالله ولا علة ، لتكون كما كان لك ، ثم تمم حال المدعين وما آل إليه أمرهم حين ظهر عوارهم وانكسفت أنوارهم ، واشتدت عليهم ظلمة أغيارهم ، فقال :

حتى إذا هجمه الظـــلام واحتوشته الوحش والهوام
ولم يجد للفوز من أسباب أقام حيران أمام الباب
فقيل من بالباب ؟ قال: طارق فقيل كلا، لا ، ولكن سارق

قلت : هجم عليه هجوما : دخل بغتة ، قاله فى القاموس ؛ وضمنه الناظم معنى جن : أى جنه وغطاه ، ولذلك عداه بنفسه ، واحتوش القوم الصيد: نفروه ، ومعناه صاخوفته وأفزعته والوحش حيوان البر ، والهوام ، بشد الميم : حشرات الأرض ، والطارق : الآتى بالليل ، وكلا : حرف زجر وردع .

يقول رضى الله عنه : إن ذلك المدعى الذى ترامى على مراتب الرجال ، بمجرد التشدق والمقال وادعى الوصول إلى مقام الراحة والجمال ، قبل أن يتأدب بصدمات الجلال لما هجم عليه ليل القبض والجلال ، وغربت عنه شمس نهار البسط والجمال افتضح ، وتبين أنه دجال

(١) مقصود العبارة : يظهر من البطل الحقيقى ، ومن الجبان . أى يتميز هذا من ذاك إذ يعرف كل شىء من ضده ـ والله تعالى أعلم ـ .

فأفزعته وحوش الشكوك والخواطر ، وأحاطت به هوام جرائمه الصغائر والكبائر ، فهى تلدغه وتلسعه كلسع العقارب والزنابير ، فلما لم يجد منها مسلكا ولا مهرباً التجأ إلى باب الأكابر ، فأقام خلف الباب حيران ، يريد أن يضموه معهم إلى حصون ماشيدوه خلف بساتين العرفان ، من غير أن يحط رأسه إلى تقبيل أقدام الرجال ، ولا أن يسمح بنفسه فى عز ولا جاه ولا مال ، فنادوه بأفصح لسان الحال : أيها الطارق لباب الرجال ، ماذا تريد وأنت على هذا الحال ؟ فقال : هـذا طارق يريد الدخول إلى حضرة المحبة والوصول ، فقالوا له : كلا ، ليس حالك حال الطارق ، ولكنك متطفل سارق فإذا انكسر وذل نفسه نال مطلبه وحصل أنسه وإن بقى على ماهو عليه كان عاقبته الحرمان .

أو يقول : حتى إذا هجم (على(١)) هذا المدعى المتكبر ظلام الجهل والغفلة واحتوشته وحوش المساوى والعيوب ، وأحاطت به هوام المعاصى والذنوب . ولم يجد للفوز والخلاص منهما سبباً أقام خلف باب العارفين ، يستمطر الرحمة والعفو من رب العالمين ، فى حال الدهش والحيرة ، ينتظر من سعة كرمهم لحظة أو نظرة ، مع ماهو عليه من زى أهل الغفلة والفترة ، فقالوا له : من هـذا الذى وقف بالباب يريد الدخول مع الأحباب من غير أن يغفر خده بالتراب ؟ فقال : طارق يريد الوصول ، فقالوا : لا سبيل للسارق إلى الدخول .

وإنما سمى المدعى : سارقاً لأنه يسرق كلام القوم وينسبه لنفسه ، أو يدعيه حالا ومقاما وليس له فى ذلك إلا التطفل عليهم دون ذوق ولا وجدان ، فإذا أراد الله به خيراً ألقى فى قلبه الصدق والتصديق وذل وانكسر لأهل التحقيق ، فوقف ببابهم منكسراً ، وإلى ماعندهم من المعارف والأنوار مفتقراً ، لأنهم باب الله الأعظم ، كما نبه على ذلك الناظم رحمه الله ، حيث قال :

فقال : مهلا صاحب الجنات لحائر قد ضل فى الفلاة
فقيل : هلا كنت ذا بستان ؟ فقال : كنت قاعداً ووان
فقال : يا قوم ألا تشرون ؟ قالوا : جهلت ثمن المثمون

قلت : المهل ، هو التأخر والتأنى ، وهو مصدر حذف عامله ؛ أى أمهلنى مهلا ، وضل تلف ، والفلاة هو : الموضع القفر الخالى من العمارة ، والوانى هو : المتأخر والمتمهل .

يقول رضى الله عنه : إن ذلك المدعى المتطفل لما عرف الحق وأهله ، وتحقق عيبه وجهله ، أقر بكمال أهل الكمال ، وعرف مقالات الرجال ، فحين طرق الباب ، وطرد من

(١) فى الأصل : « هجم هذا » فوضعنا (على) لإصلاح سياق الكلام

ذلك الجناب تهمة له ، أنه لم يبق السلاح ، ولم ينزع عن فعاله القباح . قال لهم ، مهلا على يا أصحاب الجنات ، هنيئاً لكم بما أسلفتم فى الأيام الخاليات . ألا ترقوا لحائر قد ضل فى الفلاة واستوحشته هوام الذنوب والسيئات . ولسعته حيات الحظوظ والشهوات . ولدغته عقارب الشكوك والخطوات ، فقالوا : أين كنت وقت ريح السموم وبرد الليالى ؟ حين غرست الرجال أشجار المعارف فجنت ثمار المعانى ؟ قال : كنت عند كانون الكسل وغار البطالة قاعداً ووانى .

فقالوا له : لا تظن أن بساتين المعارف رخيصة . كل معشوق غال . ماجنيت ثمار المعارف إلا ببرد الليالى .

فقال : ياقوم أنتم أهل الكرم والجود . ألا تبيعوا لى شيئاً من ثماركم المنضود ، وتأوونى إلى سعة ظلكم الممدود ؟

قالوا له : جهلت ثمن ثمارنا المحمود . فلا تناله ولو بذلت فيه نفس المجهود . فليس ينال بالدراهم والفلوس ، وإنما ينال ببذل الأرواح والنفوس ، كما نبه عليه الناظم بقوله :

فهـــذه فواكه المعارف ... لم تشر بالتالد او بالطارف
ما نالها ذو العين والفلوس ... وإنما تباع بالنفوس

قلت : التالد هو المال الذى نتج عندك وطال فى ملكك ، قال فى القاموس : التالد كصاحب والتلد بالفتح والضم والتحريك والتلاد والإتلاد والتلد : ماولد عندك من مالك . والطارف : الحادث من المال أى الذى تجدد ملكه ، ضد التالد ، يقول رضى الله عنه : فواكه المعارف ، وأذواق الواجدين وأنوار الراحلين والواصلين لا تنال ولا تشترى بالأموال القديمة ولا الحادثة ولا بالكسب والاكتساب . وإنما هى فضل من الكريم الوهاب يخص بها من يشاء بأسباب وبغير أسباب ، وفاعل السبب هو فاعل المسبب . من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك . فثبوت الخصوصية إنما هو منح إلاهية ومواهب اختصاصية ما نالها صاحب الدراهم والفلوس . إنما تنال ببذل المهج والنفوس . يغيب أولا عن فلسه وجنسه ثم يفنى عن وجوده ونفسه ، ثم يفنى عن فنائه ويبقى ببقائه . وما ثم فى ذلك كله إلا فضل ربه وعظيم عطائه ، وأنشدوا :

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى ... بنفائس الأموال والأرباح

وظننت جهلا أن حبك هين ... تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبى وتخص من ... تختاره بلطائف الإمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلة ... فلويت رأسى تحت طى جناحى
وجعلت فى عش الغرام إقامتى ... فيه غدوى دائما ورواحى

ومعنى بيع النفوس ، هو أن لا يبقى لها حظ ولا لحظ ، إذ المؤمن يشغله الثناء على الله ، عن أن يكون لنفسه شاكراً ، ويشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ، وذلك لا يكون مع وجود النقيض ، مع التأخر والتشمير ، وكمال البقاء فى عين الفناء المطلق ، وقد تضمن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ »(1) الآية ، إذ المبيع لا يبقى لبائعه حق فيه ولا حظ ، ولا تدبير مع مشتريه ، ولا نسبة له فى وجوده مع مالكه ، وإنما جاء سياق الآية بذلك إظهاراً للرحمة ، وتبييناً للكرامة وتتميماً للنعمة ، إذ لا رحمة ولا نعمة أعظم من إكرام السيد عبده بإظهار النسبة له فى وجوده بوجوده ، مع عزله عن وجوده وموجوده بطريق الرحمة والكرامة ، لا بطريق القهر والقوة ، والله تعالى أعلم . (قاله الشيخ زروق رضى الله عنه) .

ولما كانت جنة الزخارف مشتملة على بساتين وأنهار ، وعيون وقصور وحور ، شبهت الصوفية بما جنته المعارف ، فجعلوا فيها بساتين الأسرار والأنوار التى هى محل نزهة الأرواح ، وجعلوا فيها أنهار العلوم وعيون الحكم ، وقصور الحضرة ، وحور مكنى المعرفة وبحائر تفكه البسط والجمال ، واجتناء فواكه الأحوال ، وطرق مقامات الإنزال ، فقد ذكر الناظم ما يتعلق بالبساتين والأنهار والعيون ، وتكلم على ما بقى من القصور والبحار ، فقال :

وقيل : ليست هذه المقاصر ... مأوى لكل قاعد وقاصر
وقيل : ليست هذه البحائر ... لحائر ضل فظل حائر

قلت : المقاصر : جمع مقصورة ، والمقصورة هى الدار الواسعة المحيطة ، قاله فى القاموس ، والبحائر جمع بحيرة وهى المقنات .

يقول رضى الله عنه : ليس للسكنى فى قصور الحضرة والإقامة فى دار المعرفة حاصل لكل قاعد بطال ، ولا لكل مقصر كسلان ، وليس التفكه من بحائر البسط والجمال لمن

(1) سورة التوبة ، الآية : ١١١

كان فى حيرة وضلال وأقام فى تلمه راضيا بذلك الحال ، إنما نالها أهل الجد والاجتهاد ، وبصحبة الأفراد السالكين على منهاج الحق والسداد ، وفى ذلك قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطال ... ولا يحوزه فى الحال محتال
والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة الله عمال

ولا يمكن السكنى فى قصور المعارف ، والتمكن من بحائر الأذواق ، إلا بإفراد الوجهة الواحد الخلاق ، فيجعل الهموم هما واحداً ، والقصد قصداً واحداً ، والمحبة محبة واحدة ، والقلب مفرداً لله ، فبذلك ينال القرب من الله ، ويسكن فى حضرة الله . وفى الحديث « من جعل الهموم هما واحداً كفاه الله هم دنياه »(1)

قلت : وجعل جنة المعارف مأواه ، وفى حضرة القدس منقلبه ومثواه .

قيل للجنيد رضى الله عنه : كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى ، قال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يزيل التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإجابة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل .

قيل له : بم يصل العبد إلى هذا ؟ قال : بقلب مفرّد ، فيه توحيد مجرد .

قال الشيخ زروق : وهذا الأمر لا سبيل إليه سوى الضراعة لمن بيده القلوب وعنده مفاتيح الأمور .

ثم نبه على أن ما قدم من العبارة ليس المقصود منها ظاهرها ، وإنما هو إشاره ، كما قال بعضهم : علما كله إشارة ، فقال :

فافهم فتحت هذه العبارة ... إشارة وأيمـا إشارة

قلت : فليس المقصود من ذكر الرعود ، والغيث وزهر الأغصان ، واعتدال الزمان ، ولا من ذكر الطلل والأفياء ، والأنهار ، والعيون ، والروح ، والريحان ، والطارق والسارق ، والستار ، مايفهم من ظاهر العبارة ، وإنما ذلك إلغاز وإشارة ، فتحت كل عبارة إشارة

(1) وفى رواية : « من جعل الهموم هما واحداً (هم المعاد وملاقاة الله) كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا ، لم يبال الله فى أى أوديتها هلك » رواه ابن ماجه عن عبدالله بن مسعود .

دقيقة ومعان رقيقة ، وقد تقدم التنبيه على ذلك كله فى محله ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم ذكر أصل التصوف من جهة دليل الشرع ، فقال :

ولترجع الآن لباقى الفصل ... إذ فى تمامه ثبوت الأصل

قلت : الفصل معقود لثبوت أصل التصوف ، فذكر أصله من جهة الذوق والوجدان ، وبقى ثبوته من طريق الشرع ، وبه تمام ثبوت أصله على الكمال ، فأشار إليه بقوله :

فقادة الصوفى أهل الصفه ... فى زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضيافى الله والإسلام ... وجلساء سيد الأنام

قلت : القادة ، والقدوة ، ما اقتديت به ، واتبعت طريقته .

يقول رضى الله عنه : فمتبوع الصوفية ، وقدوتهم فى طريق التجريد وترك الأسباب والانقطاع إلى رب الأرباب ، هم أهل الصفة (موضع بناه عليه الصلاة والسلام فى طرف مسجده لفقراء أصحابه) كانوا يجتمعون فيه : إذا كثروا بلغوا أربعمائة . وإذا قلوا كانوا ثمانين أو سبعين ، وبه سموا الصوفية (على قول) وكانوا يعرفون بضيافى الله ، وبضيافى الإسلام ، آثروا التجريد للعبادة ، ومجالسة سيد المرسلين ، وفيهم نزل قوله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ـ (1) كما يأتى ، فأقرهم عليه الصلاة والسلام على التجريد وترك الأسباب ، حيث علم منهم عدم التشوف للأسباب ، والرضى بما قسم الله لهم ، وبما يواجههم به سبحانه من سعة أو ضيق ، ومن تشوف منهم أمره بالأسباب ، مثل حكيم بن حزام رضى الله عنه ، فإنه سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ، ثم قال له يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، ثم قال له : لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه »(2) الحديث ، فدله عليه الصلاة والسلام على التسبب لما تشوفت نفسه للأسباب ، بدلا عن المسئلة ، إذ هى آخر كسب المؤمن ،

(1) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢
(2) رواه أحمد ، والترمذى ، والنسائى بألفاظ متقاربة .

بخلاف غيره ، إذ لم يتشوف ، ولذلك قال الخواص رضى الله عنه : مادامت الأسباب فى النفس قائمة ، فالتسبب أولى ، والأكل بكسب أحل له ، لأن القعود عن المكاسب لا يصلح لمن لم يستغن عن التكليف .

ثم وصف حالهم ليقتدى بهم ، فقال :

كانوا على التجريد عاملين ... وعن سوى الرحمن معرضين

قلت : التجريد هو : التعرية عن الشىء ، يقال: فلان جرد ثوبه: أزاله ، وجردت الجلد: أزلت شعره ، هذا باعتبار اللغة .

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام : تجريد الظاهر فقط ، أو الباطن فقط ، أو هما معاً ، فتجريد الظاهر هو : ترك الأسباب الدنياوية وخرق العوائد النفسانية الجسمانية ، وتجريد الباطن هو : ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية ، وتجريدهما معاً هو : ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية .

أو نقول : تجريد الظاهر هو : ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن هو: ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريدهما هو: إفراد القالب والقلب لله ، والتجريد المكامل فى الظاهر هو : ترك الأسباب ، وتعرية البدن من معتاد الثياب ، وفى الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم ، وتحليته بكل وصف كريم ، فأشار الناظم إلى الأول وهو : تجريد الظاهر بقوله «كانوا» أى أهل الصفة «على التجريد» الظاهر «عاملين» ورفعوا همتهم إلى رب العالمين ، فتسموا بما تيسر من القوت ، وما يستر العورة من الثياب ، ومنها ما يمنع الركبة ، ومنها دون ذلك ، كانوا يقولون للنساء فى الصلاة : لاترفعن رءوسكن حتى يستوى الرجال قعوداً ، خشية أن يرين عورة أهل الصفة من قصر الثياب ، ومنهم من لبس إهاب كبش : أى جلده ، وهو مصعب بن عمير ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام : بكى وقال: «انظروا إلى هذا الذى نور الله قلبه فقد رأيته بمكة بين أبويه يختال فى حلة قد اشتريت له أو اشترها بمائتى درهم فما زال به حب الله ورسوله حتى صيره إلى ما ترون» رواه البيهقى كما فى المنذرى ، ورواه فى كتاب الزهد عن الترمذى أيضا ، فهذه كانت أحوال أهل الصفة ، خيار هذه الأمة ، وهذه كانت سمة نبينا صلى الله عليه وسلم .

فقد دخل سيدنا عمر رضى الله عنه عليه صلى الله عليه وسلم فرأى الشريط قد أثر فى جنبه صلى الله عليه وسلم ، فبكى عمر رضى الله عنه لما رأى - كما فى البخارى - ومات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى واليوم صار هذا بدعة عند الناس ، وصار التأنق فى اللباس وتكبير العمائم وجمع المال سنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ويرحم الله القائل :

يا حسبى الله ما لناس أكثرهم ... قد أنكروا الزهد والتجريد والورعا

صاروا طريق أولى التوفيق صعلكة ... وسنة لقبوا الأهواء والبدعا

و «سنة» مفعول مقدم للقبوا .

وقول الناظم «وعن سوى الرحمن معرضين» أى وكانوا عن سوى الرحمن معرضين ، لا ينعتون إليه ، ولا يتعلقون به ، اكتفاء بالله واستغناء بعلمه رضى الله عنهم ونفعنا بهم ، ثم أشار إلى الثانى وهو التجريد الباطنى ، فقال :

تخلقوا بخلق النبى ... يدعون بالغداة والعشى

قلت : تخلق بكذا : تطبع به ، والخلق بضمتين : السجية والطبع .

يقول رضى الله عنه : إن أهل الصفة رضى الله عنهم ، تخلقوا بخلق النبى صلى الله عليه وسلم ، يعنى قاربوا من خلقه عليه الصلاة والسلام ، وإلا فلا يمكن المخلوق بخلقه عليه الصلاة والسلام على الوفاء والتمام ، كيف والله تعالى يقول - وإنك لعلى خلق عظيم -(1) فقد حاز عليه الصلاة والسلام مراتب الكمال على الوفاء والتمام ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها «كان خلقه القرآن» واحتشمت أن تقول : «كان خلق الرحمن» أدبا مع الحضرة ، ووقوفاً مع الحكمة ، فذكرت ما يليق بآداب العبودية ، واحتشمت من أخلاق الربوبية ، فقد أعطى عليه الصلاة والسلام الغاية من : الزهد ، والورع والخوف ، والرجاء ، والصبر والتوكل ، والتسليم ، والمحبة ، والرحمة ، والشفقة ، والحلم ، والكرم ، والشجاعة ، وكمال العقل ، وتمام المعرفة ، إلى مالا يحصى ، وكان أهل الصفة أشبه الناس به فى هذه الأخلاق .

وقوله - يدعون ربهم - أشار به إلى قوله تعالى فى حقهم لرسوله صلى الله عليه وسلم - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم -(2)

---

(1) سورة القلم ، الآية : ٤

(2) سورة الكهف ، الآية : ٢٨

وسبب نزول الآية أن الكفار قالوا ، لا نرضى أن نجالسك مع هؤلاء ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم مجلسا يخصهم به ، ثم يجالس الفقراء بعد ذلك ، فنزلت الآية .

قال بعضهم : هو أمر إرشاد وتزكية ، ونهى تنبيه وترقية ، ليكون محجة لقوم ؛ ومحجة على قوم . وهذا كنهى البار عن العقوق . وأمره بالبر ، ليكون أثبت وأوفى وأتم فى الحجة وإظهاراً لتشريف قدر هذه الجماعة ، ومباهاة عليه من محامد الخلال ، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام ، لا يعمل إلا ذلك قبل الأمر وبعده . ثم ما وصفهم به مولاهم من الدعاء بالغداة والعشى غير معلل بعلة سوى إرادة وجهه الكريم ، أى معرفة ذاته المقدسة . لا يعرجون عن ثواب ولا جزاء ولا قصور ، ولا حور ، وبهذا كله تحققت الصوفية رضى الله عنهم ، كما فهموا ذلك من أخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم . وما كان يدل عليه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

قد فهموا مقتضيات الشرع فصيروا الفرق لعين الجمع

قلت : مقتضى الشىء ، مطلوبه ، واقتضى دينه : طلبه والشرع ، والشرعة ، بالكسر ، ماشرعه الله لعباده من الأحكام . والفرق عند الصوفية ، هو : شهود حق بلا خلق . وجمع الجمع هو : شهود خلق بحق

الفرق شريعة ، والجمع حقيقة ، الفرق شهود الحكمة . والجمع شهود القدرة ، وجمع الجمع : شهود حكمة وقدرة .

يقول رضى الله عنه فى وصف أهل الصفة : إنهم تركوا الدنيا لأهلها ، وانقطعوا إلى الله بالكلية ، وقد فهموا ذلك من مطلوبات الشرع ومقتضياته ، إذ قد سمعوا كلام ربهم وأحاديث نبيهم صلى الله عليه وسلم فى ذم الدنيا والاشتغال بها ، ومدح الفرع للعبادة والاجتهاد فيها ، وما أعد الله فيها للزاهدين والقانتين . فتركوا الأسباب التى هى شريعة الضعفاء ، وتمسكوا بالتجريد الذى هو شريعة الأقوياء . وحقيقة الأصفياء ، فصيروا الفرق الذى هو الاشتغال بالأسباب لعين الجمع ، الذى هو الاشتغال بمسبب الأسباب . فالنظر للأسباب فرق . والنظر لمسبب الأسباب جمع . وهذا كقول الشيخ أبى العباس رضى الله عنه : للناس أسباب ، وسببنا الإيمان والتقوى . قال الله تعالى ـ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا ـ(1) فمقتضى الشرع للعبد

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٩٦

أن يكون جامعاً بين حقيقة وشريعة ، أعنى شريعة الخواص التى هى لب الشريعة . لا شريعة العوام التى هى القشر ، وإذا كان جامعاً ، فيكون فى ظاهره ممتثلا لأمره ، وفى باطنه مستسلما لقهره بدعوه لكونه لا يرى الأمر إلا منه وله ، ويقوم بواجبات وقته لكونه مطلوبا بوظائف حكمته ، عاملا بقوله ـ إياك نعبد وإياك نستعين ـ فإياك نعبد فرق ـ وإياك نستعين جمع ، وشهود الجمع فى عين الفرق ، هو جمع الجمع ، وهو الصراط المستقيم الذى طلب الهداية إليه . وبالله التوفيق ، فهو الهادى إلى سواء الطريق .

ولما ذكر أن أهل الصفة صيروا الفرق عين الجمع . ذكر ما يترتب عليه من الخروج عن كل شىء ، والغنى بالله فى كل شىء . فقال :

قد خرجوا لله عما اكتسبوا فكل صوفى إليهم ينسب

قلت : لا شك أن أهل الصفة رضى الله عنهم كانت لهم أموال وعبيد وإماء وديار وعقار وأهل وعيال ، فلما هاجروا إلى الله ورسوله ، خرجوا عن ذلك كله ، وتركوه لله . فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شىء ، فنى لهم عليه الصلاة والسلام صفة فى طرف المسجد فنزلوا فيها : يصلون بالليل ويصومون بالنهار ، ويجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الجيش ، فقتل أكثرهم فى الجهاد ، ومن بقى منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته الدنيا .

فمنهم من لم يقبلها ولم يأخذ منها شيئاً ، كأبى ذر ، وأبى الدرداء ، وأبى عبيدة ، ومعاذ وغيرهم ممن لا يحصى .

ومنهم من أخذها بالله ، ودفعها لله . فكان فيها كالأمين ينظر العزل من مولاه ، يقوم فيها بواجب الحقوق دون تقصير ، ولا تعريج على مخلوق . وكذلك كانت الصوفية المحققون لا يملكون مع سيدهم شيئاً ولا يملكهم شىء .

وقد سأل بعض الفقهاء أبا بكر الشبلى رحمه الله اختباراً له فى العلم . فقال : يا أبا بكر : كم فى خمس من الإبل . فقال : أما الواجب فشاة ، وأما عندنا فكلها لله ، قال : وما دليلك قال : أبو بكر حين خرج عن ماله كله لله ورسوله . فمن خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر ومن خرج عن بعض وترك بعضاً فإمامه عمر رضى الله عنه ، ومن أعطى لله ومنع لله ، كان إمامه عثمان رضى الله عنه ، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه على رضى الله عنه ، وكل علم

لا يدل على ترك الدنيا ، فليس بعلم اهـ .

وقوله « فكل صوفى إليهم ينسب » يعنى أن كل من اتصف بأوصافهم من الخروج عما كسب الله ، أو أخذه بالله وأعطاه لله فهو منسوب إليهم ، فيقال له صوفى ، إما نسبة إلى الصفة على غير قياس ، وإما لأنه صفت أحواله كما تقدم فى الاشتقاق .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : كل من اتصف بأوصافهم فهو منسوب إليهم ، سواء كان غنيا أو فقيراً ، لأن الله عز وجل لم يمدحهم بالعدم ، وإنما مدحهم بكونهم يدعونه بالغدو والعشى يريدون وجهه ، فمن اتصف بهذا كان على طريقتهم : غنياً كان أو فقيرا ، ودليل ذلك أنه كان منهم بعد ذلك : الأمير ، والحقير ، والمكسب ، والمتجرد ، ولم ينقل ذلك وصفهم عما كانوا موصوفين به ، ولا نقصهم عما هم فيه من العمل بالحق والحقيقة ، بل شكروا على الدنيا حين وجدت ، كما صبروا عليها حين فقدت ، فكانوا لمولاهم فى الحالتين ، ومن كان بهذه الصفة فهو تابع لهم ، فاعرف ذلك .

وإذا كان أمر التصوف حال أهل الصفة . فهو أمر ثابت عن الشارع بتقريره . ولم يبق البحث إلا فى التسمية ، وهو أمر اصطلاحى لا مدخل للإنكار فيه ، إذ هى من عوارض الألفاظ ، والله تعالى أعلم اهـ .

وقوله : « إن هو » يشير إلى أن القياس أن يقال فيه : الصفى « بالشد » ، لكن كثيراً ما يأتى النسب على غير قياس . وهذا منه ، ثم بين أن طريق التصوف ليس محدثا ، بل هو مقرر من الشارع ، فقال :

إذن فشأن القوم ليس محدثا بل كان أحوى فوجدناه غثا

قلت : الأحوى : الذباب الضارب للسواد من شدة الخضرة ، قاله فى القاموس ، والغث هو : لذباب اليابس الهشيم .

يقول رضى الله عنه : إذا تقرر ما تقدم من حال أهل الصفة ، وما كانوا عليه من التجريد وقد أقرهم النبى صلى الله عليه وسلم على ما كانوا عليه ، فليس شأن الصوفية محدثا ، بل هو أمر شرعى ، إذ لا يقرر عليه الصلاة والسلام إلا ما هو مباح أو مطلوب ، وكيف يكون محدثا ومدار الشريعة عليه ، إذ هو لبها وصفاؤها ، إذ مقصوده التصوف تصفية البواطن حتى يكون العبد على حالة يرضاها الله ورسوله ظاهراً وباطنا ، وإذا كان أمره هكذا ، فكل علم يتوقف عليه إما من باب الشرط أو الكمال ، إذ مداره على صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى لا من حيث يرضى ، فكل علم لا يصحبه صدق التوجه إلى الله ، فليس بشىء إذ الإخلاص شرط فى الجميع ، وأيضاً مقام التصوف هو مقام الإحسان الذى فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١) وذلك لا يصح بدون ما تقع به العبودية والتعبد من عقائد الإيمان وأعمال الإسلام ، فهما ظاهره وهو باطنها . فلا قيام لهما إلا به ، ولا صحة له بدونهما ، فهو كالروح ، وهما كالجسد ، فالروح لا تقوم بغير جسد ، والجسد لا يقوم بغير روح ، ولذلك قال مالك رضى الله عنه : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه وتصوف فقد تحقق ، فالمتفقه من غير تصوف جسد بلا روح ، والميت لا عبرة به ، والتصوف من غير فقه ما يلزم الإنسان فى نفسه لا يصح . إذ لا يدخل للحقيقة إلا من باب الشريعة ، وإلا فهى زندقة . فالمتكلم فى أحكام الإسلام يسمى فقيها . والمتكلم فى أحكام الإيمان يسمى أصوليا ، والمتكلم فى أحكام الإحسان يسمى صوفياً ، ويسمى علمه تصوفا ، فغاية التصوف ومداره : تحصيل مقام الإحسان ، لأنه دال بأوله على خشية الله ، وبأوسطه على معاملته ، وبآخره على معرفته .

أو تقول : مداره على مراقبة بعد مشاهدة ، أو مشاهدة بعد مراقبة ، وهو مقام الإحسان .

وأما إنكار بعض الناس هذا اللفظ ، بأنه لم يسمع فى صدر الصحابة والتابعين ، فهو مردود ، إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة ، واستعملت ولم ينكر ، كالنحو ، واللغة ، والمنطق .

وأيضاً فقد ذكر التجيبى : أنه سمع فى صدر السلف ، فقد قال الحسن البصرى رضى الله عنه : لقيت صوفيا فى الطواف ، فأعطيته شيئا ولم يقبله والحسن من كبار التابعين ، أدرك كثيراً من الصحابة ، فهو حجة على استعمال هذا الإسم فى زمانه ، والله تعالى أعلم .

وقوله « بل كان أحوى فوجدناه غثا » يعنى أن التصوف كان فى الصدر الأول غضا طريا جديداً ، لقربه من نور النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان أول شىء مه ينهض صاحبه ، ثم طال أمره وقل وجوده ، فوجدناه غثا : يابسا متهشما ، لكنه يصلح للرعى ، كالأول ،

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأغلب كتب السنة ، وهو حديث جبريل المشهور .

مع أفضلية الأول ، يعني أن حقائقه لم تتغير . وإن تغيرت أعيانه ، فالعمل به لم ينقطع ، لكنه صار غريبا وأهله غرباء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « طوبى للغرباء »(1) وإذا تقرر أن حقائقه لم تتغير وجب العمل به كما أبان ذلك بقوله :

فاسلك طريق القوم تلق يمنه ... إذ الكتاب قيده والسنه

قلت : « اليمن » هو البركة والخير ، يشير إلى أن طريق القوم ميمونة مباركة ، فكل من سلكها بالصدق والمحبة ، والجد والاجتهاد : وجد بركتها ويمنها ، وبركتها هي ثمرتها ، وثمرتها : ما ينتج منها من مكارم الأخلاق ومعرفة الخلاق ، وقيل : ثمرتها سخاوة النفوس وسلامة الصدور ، وحسن الخلق .

وقوله : « إذ الكتاب قيده والسنه » أشار به إلى قول الجنيد رضي الله عنه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه .

وقال سهل بن عبد الله : بنيت أصولنا على ستة أشياء : كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

وقال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا : نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة اهـ .

وقال أبو القاسم الدمرياذي رضي الله عنه : أصل التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورقيه أعذار الخلائق ، والمداومة على الأوراد ، وترك الرخص والتأويلات .

قلت : حرر أبو إسحاق الشاطبي هذه المسئلة ـ حسبما نقله في « العدة » ـ فرأينا نقله بطوله ، لما فيه من الفوائد . . فقال رضي الله عنه :

« كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن ، يعني كالجنيد وأمثاله لا يخلو : إما أن

---

(1) ومن ألفاظه : « طوبى للغرباء : أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير : من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

يكون قد ثبت له أصل في الشريعة ، فهم خلفاؤه ، كما أن من الصحابة والتابعين خلفاء بذلك ، وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه ، لأن السنة حجة على جميع الأمة ، وليس من أحد حجة على السنة ، لأن السنة معصومة من الخطأ ، وصاحبها معصوم ، وسائر الأمة لم تثبت لهم عصمة أصلا ، إلا مع اجتماعهم خاصة ، وإذا اجتمعوا : تضمن إجماعهم دليلا شرعيا ، فالصوفية كغيرهم ممن لم تثبت لهم العصمة ، ويجوز عليهم : الخطاء ، والنسيان ، والمعصية ، كبيرها ، وصغيرها ، والبدعة : محرمها ومكروهها ، وكذلك قال العلماء : كل كلام هو مقبول ومردود ، إلا ما كان من النبي عليه الصلاة والسلام .

قال : وقد قرر القشيري رحمه الله ذلك أحسن تقرير ، قال : « هل يكون الولي معصوما ؟ قال : أما وجوبا كما يكون في الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظا حتى لا يصر على الذنوب وإن حصلت منه هفوات أو زلات أو آفات فلا يمتنع ذلك في وصفهم » .

قال : وقد قيل للجنيد : العارف يزني ، فأطرق رأسه ملياً ، ثم رفع رأسه ، وقال ـ وكان أمر الله قدرا مقدورا (1) .

قال : فهذا كلام المصنف ، فكما يجوز على غيرهم المعاصي والابتداع وغيره ، كذلك يجوز عليهم البدع ، فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ ، ونقف عن الاقتداء بمن يجوز عليه إذا ظهر في الاقتداء به إشكال ، بل يعرض ما جاء عن الأمة على الكتاب والسنة فما قبلاه قبلناه ، وما لم يقبلاه تركناه ، وما علينا إذا قام لنا الدليل على اتباع أقوال الصوفية وأعمالهم إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة ، وبذلك وصى شيوخهم ، وأن ما جاء به صاحب الوجد والذوق من العلوم والأحوال والفهوم يعرض على الكتاب والسنة ، فإن قبلاه ، وإلا لم يصح .

ثم قال : إذا نظرت في رسومهم التي حدوها ، وأعمالهم التي امتازوا بها عن غيرهم بحسب تحسين الظن والتماس أحسن المخارج ، ولم تعرف له مخرجا ، فالواجب التوقف عن الاقتداء والعمل ، ولئن كانوا من جنس من يقتدى بهم ، لا رداً له ولا اعتراضاً عليه ، بل لأنا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره .

ثم قال ـ بعد كلام ـ فوجب بحسب الجريان على رأيهم في السلوك أن لا نعمل بما رسموه

---

(1) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٨ .

وبما فيه معارضة لأدلة الشرع ، ويكون فى ذلك متبعين لآثارهم ، ومهتدين بأنوارهم خلافا لمن يعرض عن الأدلة ويصمم على تقليدهم فيما لايصح تقليدهم فيه على مذهبهم ، فالأدلة الشرعية ، والآثار المقبولة : ورسوم الصوفية تذمه وترده ، وتحمد من تحرى واحتاط وتوقف عن الاشتباه ، واستبرأ لدينه وعرضه ، انتهى كلامه .

هذا آخر فصل أصله عقلا ونقلا .

وموضوع هذا العلم : الذات العلية ، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها : ذاتاً وصفاً وأسماء : تعلقاً وتخلقا وتحققاً .

وواضعه الرسول صلى الله عليه وسلم وحياً وإلهاماً .

وحده : صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى ، بما يرضى .

واستمداده من الكتاب والسنة ، وإلهامات الصالحين ، وفتوحات العارفين .

واسمه : التصوف ، وتقدم اشتقاقه واستعماله .

وثمرته : تصفية البواطن بالتخلية والتحلية : تنبيهاً لواردات الأنوار الإلهية والفتوحات الربانية .

وقد وقع فى بعض نسخ الناظم هنا زيادة أبيات تضمنت هذه المعانى ، لكن لم توجد فى جل النسخ ، وليس عليها رونق ولا طلاوة مثل ما للناظم . ولا أطنها إلا زيادة من بعض الكتاب . والله تعالى أعلم .

وأما فضيلته فأشار إليها فى هذا الفصل بقوله :

الفصل الثانى فى فضله

اعلم أن شرف الشىء وفضيلته ، إما أن تثبت بالعقل أو بالنقل أو بظهور ثمرته فى الخارج ، وقد اجتمعت هذه الأمور فى علم التصوف على الكمال :

أما ثبوت شرفه بالعقل ، فلا شك أن الشىء يشرف بشرف موضوعه وواضعه ، وقد تقدم : أن موضوع هذا العلم ، الذات العلية ، وهى أشرف وأفضل على الإطلاق ، وواضعه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أفضل الخلق بالإجماع ، وأيضاً العقل السليم : يستحسن الكمالات ، ولا شك أن التصوف ماوضع إلا لتحقق الكمالات : علما ، وعملا ، وحالا ، فهو موضوع لتكميل العقائد وتطهير النفوس وتحسين الأخلاق .

وأما ثبوت شرفه بالنقل ، فلا شك أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة وردت بمدح جزئياته ومسائله ، كالتوبة ، والتقوى ، والاستقامة . والصدق ، والإخلاص ، والطمأنينة ، والزهد ، والورع ، والتوكل ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة ، وغير ذلك من مسائله .

وقال الجنيد رضى الله عنه : لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه ما تبلغ إليه المطى ، وفى رواية « ولو حبوا » .

وقال الشيخ الصقلى رضى الله عنه فى كتابه المسمى « بأنوار القلوب فى العلم الموهوب » : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه ، فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لا يدرك والبحر الذى لا يرتقى اه .

وما من علم إلا وقد يستغنى عنه فى وقت ما ، إلا علم التصوف ، فلا يستغنى عنه أحد فى وقت من الأوقات .

وأما شرفه باعتبار ظهور ثمراته ، فهو الذى تكلم عليه الناظم فى هذا الفصل ، وحصره فى ستة أمور :

الأول : ماظهر على أهله من شدة الاقتداء وقوة الاتباع .

الثانى : ماظهر عليهم من وفاق مذهبهم ، وحسم الخلاف والنزاع بينهم .

الثالث : ما ظهر عليهم من الكرامات الحسية والمعنوية .

الرابع : ماظهر عليهم من تطهير جوارحهم من الذنوب ، ونفوسهم من العيوب فى العالب

الخامس : ماظهر عليهم من تحقيق عقائد الإيمان ، وترقيهم فيها إلى مقام الإحسان، مع صحة اليقين والثقة برب العالمين .

السادس: ماكوشفوا به من العالم الروحانى ، وما ترقوا إليه من عالم الملكوت ، وحضرة الجبروت ، وهذا مضمن هذا الفصل ، فأشار إلى الأول بقوله :

حجة من يرجح الصوفيه على سواهم حجة قويه

قلت : وإنما كانت حجة من يرجح الصوفية على غيرهم حجة قوية ، لأنهم أحرزوا الكمالات : عقداً وعملا، وحالا ، أما اعتقادهم فترقوا فيه إلى الشهود والعيان ، وأما علمهم فهم يأخذون بالأحسن والأحوط ، فهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وأما حالهم فهى : ربانية ذوقية ، فهم على بينة من ربهم .

ثم ذكر ترجيحهم وشرفهم باعتبار ماظهر عليهم من ثمرات عليهم ، وهى ستة كما تقدم - فأشار إلى الأول ، وهى شدة الاقتداء والمتابعة فقال :

هم أتبع للناس لخير الناس من سائر الأنام والأناس

قلت : الأنام ، والأناس : شىء واحد ، وهم الناس ؛ سموا الأنام ، لعلبة النوم لهم ؛ وسموا الناس ، لأنس بعضهم ببعض .

يقول رضى الله عنه : وهم أى الصوفية أتبع الناس ، وأكثرهم اقتداء بسيد الناس ﷺ ، ودل ذلك على أنهم أحب الخلق إلى الله .

قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم(١) الله - وقال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وماله ، وولده ، والناس أجمعين(٢) ، وعلامة المحبة الاتباع .

وقال بعضهم : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١

(٢) رواه أحمد ، والبيهقى ، والنسائى ، وابن ماجه ؛ عن أنس .

ثم ذكر وجه كونهم أشد الناس اتباعا ، فقال :

تبعه العالم فى الأقوال والعابد الناسك فى الأفعال

وفيها الصوفى فى السياق لكنه قد زاد بالأخلاق

قلت : الناس ثلاثة : عالم ، وعابد ، وعارف صوفى ، وكلهم قد أخذوا حظا من الوراثة النبوية ، فالعالم ورث أقواله عليه الصلاة والسلام تعلما وتعليما ، بشرط إخلاصه ، وإلا خرج من الوراثة بالكلية ، إذ الأعمال بلا إخلاص ، أشباح بلا أرواح ؛ ومن ورث من أبيه جارية ميتة ، فليس بوارث ، والعابد ورث أفعاله عليه الصلاة والسلام ، من ؛ صيام وقيام ، ومجاهدة ظاهرة ، فقد قام عليه الصلاة والسلام حتى تورمت قدماه ، وكان يصوم كثيراً ، ويفطر كذلك ، والصوفى العارف ورث الجميع ، فأخذ فى بدايته مايحتاج إليه من العلم ، وقد يتبحر فيه ، ثم ينتقل إلى العمل على أكمل حال ، ثم زاد عليهما بوراثة الأخلاق التى كان عليها باطنه صلى الله عليه وسلم من : زهد ، وورع ، وخوف ، ورجاء ، وصبر ، وحلم ، وكرم ، وشجاعة ، وقناعة ، وتواضع ، وتوكل ، ومحبة ، ومعرفة ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، ولذلك قال سهل رضى الله عنه : الصوفى : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله دون البشر ، واستوى عنده المدر والذهب .

وقد خص الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصائص لم يشاركه أحد فيها ، فكان له القوة فى الجهتين ، فمن نظر فى عبادته وجده لا يطاق ، ومن نظر فى أخلاقه الباطنة وجده لا يدرك ، ومن نظر فى معرفته وجده لا يلحق . ولا يقرب أحد حول حماه ، فكان عليه الصلاة والسلام على مقام : لا يدرك ، ولا يلحق ، ولا يعرف .

وانظر قول الشيخ القطب ابن مشيش رضى الله عنه : وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، وأن يبال أحد من العلماء والعباد والصوفية من علم عليه الصلاة والسلام أو عمله أو خلقه إلا رشفة أو رشه ، ولله در البوصيرى فى بردة المديح ، حيث يقول :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

ثم ذكر الأمر الثانى ، وهو : اتفاق مذهبهم ، واتحاد غاية طريقهم .

ثم بشيئين تقوم الحجه ... وأنهم قطعا على المحجه
مذاهب الناس على اختلاف ... ومذهب القوم على ائتلاف
وما أتوا فيه بخرق للعاده ... إذ لم تكن لمن سواهم عاده

قلت : الحجة هى الدليل والبرهان . والمحجه هى الطريق المستقيم . والائتلاف هو الاتفاق

يقول رضى الله عنه : ثم تقوم الحجة الدالة على أنهم على المحجـــة والطريق المستقيم بشيئين : أحدهما أن مذاهب الناس على اختلاف كثير ، فقد كانت مذاهب الفقهاء فى الفروع اثنى عشر مذهبا ، ثم تقررت فى أربعة .

كانت مذاهب القراء خمسة وعشرين رواية ، ثم تقررت فى عشرة ، وكانت مذاهب النحاة على مذهبين ، بصرى ، وكوفى . بخلاف مذهب الصوفية ، فهى متفقة فى المقصد والعمل وإن اختلفت المسالك ، فهى راجعة إلى صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى وعبارة كل واحد على قدر مانال منه ، إذ كل عبارة فيه إنما هى مخبرة عن صدق توجه صاحبها ، وكل من له نصيب من صدق التوجه : له نصيب من التصوف ، إذا كان توجهه رضاء الحق ، ومن حيث يرضاه ، وإلا فهو زندیق ، واسم التصوف عليه لا حقيقه له ، فلذلك قيل ، من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحق ، وإنما تزندق الأول لرفضه الحكمة والأحكام ، وتفسق الثانى لخلوه من صدق التوجه فيما هو فيه ، وتحقق الثالث لقيامه بكل فى محله . فمرجع كلام الصوفية فى كل باب لاحوالهم ، وإلا فلا تناقى بين أقوالهم لمن تأملها ، وذلك خلاف مذهب غيرهم ، والوجه فيه أن الحق واحد وطريقه واحدة ، وإن اختلفت مسالكها . فالنهاية واحدة ، والذوق واحد ، وفى معنى ذلك قال قائلهم :

الطرق شتى وطريق الحق منفردة ... والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تسلك مقاصدهم ... فهم على مهل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم ... لجلهم عن طريق الحق حياد

فإن قلت : قد ورد مدح الاختلاف وذم الائتلاف فقـــد ورد فى بعض الآثار

« اختلاف أمتى رحمة »(١) ـ وقال بعضهم : مادامت الصوفية بخير ماتنافروا ، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم .

قلت : أما مدح الاختلاف فهو محمول على الاختلاف فى الفروع ، كاختلاف الأئمة فى المذاهب ، فإن فى ذلك توسعة على الأمة ، إذ كل من تمسك بمذهب فهو ناج ، مالم يتبع الرخص ، وكذلك اختلاف الروايات فى القراءة ، فهى توسعة أيضاً على القارىء ، بخلاف الاختلاف فى الأصول ، فهو مذموم ، كاختلاف القدرية والجبرية والحشوية وغير ذلك من الاختلاف فى التوحيد ، ومذهب الصوفية هو الاتفاق فى الأصول والفروع .

أما الأصول فنهايتهم الشهود والعيان ، وهم متفقون فيه ، لأنه أمر ذوقى لا يختلف .

وأما الفروع فهم يأخذون بالأحوط ، والأكابر منهم يخرجون عن التقليد ، ويتمسكون بالكتاب والسنة فى نفسه . وإن كان جلهم قلدوا فى الفروع ، فمكان الجنيد على مذهب أبى ثور ، والشبلى : مالكيا ، والجيلانى ، حنبلياً ، إلى غير ذلك .

وأما قول من قال : « مادامت الصوفية بخير ما اختلفوا » فمراده اختلاف تنبيه وإرشاد فكل واحد يرشد صاحبه وينبهه إذا رأى فيه نقصاً وعيباً . فإذا اتفقوا وسكتوا على عيوبهم فلا خير فيهم ، وقد يحمل ذلك على حال مذاكراتهم فى العلوم ، فقد قالوا فيهم : « ألسنتهم حادة ، وقلوبهم سالمة » ولا شك أن حال المذاكرة لاينفى فيها التسليم فى كل شىء ، إذ لاتخرج العلوم إلا بالحك والبحث والتفتيش .

قال بعضهم ، نحن فى حال المذاكرة بحال من قال : « حك لى تربل لك » لا بحال من قال : « سفح لى : تسل لك » هكذا سمعتها من شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه ، وكان يقول لى : لا تسلم لنا فى حال المذاكرة ، وكان أيضاً يقول : المستحى ، والمتكبر ، والخواف ، لا يأخذ من طريقتنا شيئاً ، والله تعالى أعلم .

وأما الأمر الثانى الذى تقوم به الحجة فهو خرق العادة التى ظهرت على أيديهم ، وتسمى : الكرامة ، وقد تقدم تنويعها إلى حسية ومعنوية ، وأن المعتبر هى الكرامة المعنوية ، وهى الاستقامة ، وأما الكرامة الحسية فإن صحبتها الإستقامة فهى كرامة شاهدة على صدق صاحبها مع الله ، وإن لم تصحبها استقامة ، فهى : استدراج ومكر .

---

(١) رواه نصر المقدسى فى كتابه « الحجة » ، والبيهقى فى الرسالة الأشعرية

قال بعضهم : خرق العادة كرامة للمبتدع ، والمبتدع هو المعروف فى الدنيا وأشغالها إلى عنقه ، ولو كثرت صلاته وصيامه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة وترك الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهـــو مغتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على الرضى ، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى .

وكرامة الأولياء قد بلغت مبلغ التواتر ، فلا تحتاج إلى دليل ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى الأمر الرابع ، وهو تطهير جوارحهم من الذنوب ، وقلوبهم من العيوب فقال :

قد رفضوا الآثام والعيوب وطهروا الأبدان والقلوب

قلت: لاشك أن الصوفية رضى الله عنهم قد رفضوا الذنوب ، أى نبذوها وراء ظهورهم ورفضوا العيوب ، أى : طهروا قلوبهم منها ، وسبب تطهيرهم من الذنوب والعيوب تطهيرهم من أصلها ورأسها .

أما أصلها ، فالخلطة مع الغافلين الجاهلين ، فمن خالط العوام وظن أنه ينجو من الآثام فقد رام المحال ، كمن خلط الحطب مع النار ، وظن أنه ينجو من الاحتراق .

وأما رأسها حب الدنيا الساكن فى القلوب .

فى الحديث وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، رواه البيهقى فى الشعب من مراسيل الحسن[1].

وقيل هو : من كلام مالك بن دينار[2] .

وقيل : من كلام سيدنا عيسى عليه السلام[3] .

وقيل : من كلام على كرم الله وجهه[4] .

وعده بعضهم فى الموضوعات ، ورده ابن حجر ، فالله تعالى أعلم .

وعلى كل حال فهو كلام صحيح فى المعنى مجرب مذوق فمن طهر قلبه من حب الدنيا ورياستها ومدحها واعتزل عن الحسد فالغالب سلامة قلبه من العيوب ، وطهارة جوارحه من الذنوب ، وما تشعبت عيوب القلوب إلا منها ، إذ عنها يقع الحسد والبغض والغل والخصام والفجور ، وبها يقع الكبر ، وحب الرياسة ، والنفاق ، والتصنع للخلق ، وبها أيضاً يقع :

(١) وإسناده حسن ، ورواه البيهقى أيضا فى الزهد. (٢) ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان .
(٣) أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة الثورى . (٤) الديلمى فى مسنده بلا إسناد .

البخل ، والشح ، والجبن ، وغير ذلك من العيوب ، وكذلك الذنوب ، كالكذب والأيمان الفاجرة ، وسوء الخلق وغير ذلك[1] ورحم الله الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث قال :

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسيق إلى عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها
وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلما لأهلها وإن تجتذب بها نافستك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قعر بيتها منلقة الأبواب مرخى حجابها

وقوله « وطهروا الأبدان والقلوب » تفسير لما قبله على طريق اللف ، والمعنى وطهروا الأبدان من الآثام والذنوب ، وطهروا القلوب من المساوىء والعيوب ، فلما حصل لهم هذا التطهير المجيد لاح لهم فجر التوحيد ، فأسلموا الأمر إلى مولاهم ورجعوا إلى من قد تولاهم عملا بقوله تعالى : « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »[2]. فلما تحققوا بذلك وقفوا فى رياض الإحسان ، وأشرقت عليهم شموس العرفان ، وأضاءت لهم أنوار المواجهة والعيان .

هذه المنازل الثلاث هى التى ينزلها المريد ويرتحل عنها .

منزل الإسلام ، وهو محل تطهير الجـــوارح الظاهرة من الذنوب وتحليتها بطاعة علام الغيوب .

ومنزل الإيمان ، وهو محل تطهير القلوب من المساوىء والعيوب ، وتحليتها بمقامات اليقين ، لتتهيأ لحمل معرفة رب العالمين .

ومنزل الإحسان ، وهو محل الشهود والعيان .

قال بعض العارفين رضى الله عنه : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى ، وإلى هذه المراتب أشار بقوله :

وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان

(١) ومما يؤيد الحديث السابق ما رواه الديلمى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعظم آفات أمتى : حبهم الدنيا ، وجمعهم الدنانير والدراهم ، لا خير فى كثير من جمعها ، إلا من سلطه الله على هلكتها فى الحق » .
(٢) سورة لقمان : الآية : ٢٢

قلت : وهذا هو الأمر الخامس الذى ظهر به شرف أهل التصوف وفضيلتهم ، وأنهم بلغوا إلى حقيقه الإيمان وصريحه ، بتحقيق دعائمه وأركانه ، التى من جملتها الإيمان بالقدر: خيره وشره ، حلوه ومره ، فقد استوى عندهم وقت الخير ووقت الشر ، ووقت الحلو مع وقت المر قد استوى عندهم الذل والعز ، والذم والمدح ، والمنع والعطاء ، والقبض والبسط وغير ذلك من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ، وذلك لأجل ماحصل لهم من مقام الرضى والتسليم ، وكمال المعرفة وخلوص اليقين .

وقوله ، وانتهجوا مناهج الإحسان ، أى سلكوا طريق الإحسان الموصلة إلى الشهود والعيان ، ولذلك افتقروا إلى دليل يكون عارفا بالمنازل والمداخل ، قد سلك الطريق وعرفها حتى يوصلهم إلى مطلوبهم ، ويقول لهم ها أنتم وربكم ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله .

ثم أشار إلى الأمر السادس ،وهو ترقيهم من عالم الملك إلى عالم الملكوت ، أو تقول من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، فقال :

وعلموا مراتب الوجـــود كالام والوالد والمولود
واستشعروا شيئاً سوى الأبدان يدعونه بالعـــالم الروحانى

قلت مراتب الوجود هى : العوالم الثلاثة : الملك ، والملكوت ، والجبروت ، وذلك أن الوجود له ثلاثة اعتبارات .

وجود أصلى أزلى ، وهو الذى لم يدخل عالم التكوين ، ويسمى عالم الأمر ، وعالم الغيب ، وهو المسمى بعالم الجبروت .

ووجود فرعى ، وهو النور المتدفق من بحر الجبروت ، وهو كل مادخل عالم التكوين : لطيفاً كان أو كثيفاً ، ويسمى عالم الشهادة وعالم الخلق ، وهو المسمى : بعالم الملكوت لمن غرق فيه وجمعه بأصله .

ووجود وهمى ، وهو محل ظهور التصرفات الإلهية ، ومقتضى الأسماء الجلالية والجمالية ويسمى عالم الحكمة ، وهو عالم الملك .

وقال بعضهم : العوالم أربعة : عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت فالأول كالكثائف المحسوسة ، والثانى كاللطائف الغيبية ، كالجن والملائكة والأرواح ، وهذا كله داخل فى عالم الملك ، والثالث وهو عالم الملكوت ، هو جمع لهذه الأشياء ، وضمها

إلى أصلها ، وتحقيق الشهود فيها ، والرابع الذى هو الجبروت ، هو العظمة الأصلية اللطيفة الأزلية قبل ظهورها ، وفى هذه المراتب يقع الترقى للسائرين ، فيترقون من عالم الملك الذى هو وهمى طلسانى حسى ، إلى عالم الملكوت الذى هو نورانى ملكوتى ، ثم يترقون إلى عالم الجبروت الذى هو أصل أزلى ، فإذا ضموا الأصول إلى الفروع صار الجميع جبروتا ، وهذا هو العالم الروحانى الذى أشار إليه بقوله ، واستشعروا شيئاً سوى الأبدان » .

وقوله « كالام » الخ يعنى أنهم عرفوا مراتب الوجود الثلاث ، وفرقوا بين : الملك والملكوت ، والجبروت ، تفريقاً ضروريا كما يفرق الرجل بين ولده ، وأمه ، وأبيه ، ويحتمل أن يكون التشبيه من حيث الإيجاد والظهور ، فإن عالم الجبروت سبب فى ظهور عالم الملكوت ، فهو أشبه شىء بالوالد ، وعالم الملكوت هو محل استقرار الصفات ، كالقدرة والإرادة ، والعلم ، والحياة ، التى هى سبب فى إظهار آثارها لعالم الملك ، فهو أشبه بالأم فى تربية الولد قبل الظهور وبعده ، وعالم الملك هو محل ظهور التصرفات الإلهية وآثار القدرة الأزلية ، فهو أشبه شىء بالولد لظهوره بينهما ، وربما يلوح حديث ـ الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ـ رواه أبو يعلى ، والبزار ، عن أنس ولفظه « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أحبهم وأنفعهم لعياله(١) » ، والله تعالى أعلم بالصواب .

وقوله « واستشعروا شيئاً سوى الأبدان » الخ .

أعلم أن عالم الأشباح هو عالم الملك ، وعالم الأرواح هو عالم الملكوت ، ومحلهما واحد ، إذ ليس لنا إلا وجود واحد ، لكن النظرة تختلف باختلاف الترقى فى المعرفة ، فادام العبد محجوبا بمحيطات حسه ، محصوراً فى هيكل نفسه ، فهو مقيم فى عالم الأشباح ، محصور فى عالم الملك ، لم تفتح له ميادين الغيوب ، لم يفرق بين روحانية وبشرية ، ولا بين حسه ومعناه فاذا فتح الله بصيرته وغاب عن حسه ونفسه ، وفلسه وجنسه ، ورأى نور الملكوت قد فاض من بحر الجبروت ، فحجب شهود ذلك النور عن ظلمة الحس ، وعن رؤية الكون ، بشهود المكون . فالكون أصله كله نور ، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه أو قبله أو معه ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بحسب الآثار ، فإذا ضم النور إلى أصله صار الجميع نوراً واحداً ، وهو نور الجبروت ، أو سر اللاهوت ، فقد علمت أن الملك ، والملكوت ، والجبروت ، محلها واحد ، وكذلك عالم الأشباح وعالم الأرواح ، محلهما واحد ، فأهل الحجاب لا يرون إلا عالم الأشباح ،

(١) ورواه الطبرانى عن ابن مسعود .

وأهل العرفان ، وهم أهل مقام الإحسان لا يرون إلا عالم الأرواح ، مع أن المحل واحد لكن لما رق حجابهم ، وتلطفت بشريتهم ، استشعروا شيئاً زائداً على عالم الأشباح ، وهو عالم الأرواح ، ويسمى عالم المعانى ـ والعالم الروحانى ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله عند قوله :

لم يتصل بالعالم الروحانى ... من عمره على الفضول عانى

وعند قوله :

مهما تعديت عن الأجسام ... أبصرت نور الحق ذا ابتسام

والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أن هذه المعانى لا تدرك بالعقول ، وإنما هى أذواق يلمز إليها بإشارات العقول ، فقال :

ثم أمام العالم المعقول ... معارف تلغز فى المنقول

قلت : أعلم إن النفس ، والعقل ، والروح ، والسر ، كل واحد منها له حد ينتهى إليه فى العلم والإدراك ، على مايأتى بيانه إن شاء الله عند قوله :

ياجاهلا أقصى الكمال وقفا ... على عقول وهمها لا يخفى

فشهود أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وهى علوم المعارف ، أمر خارج عن مدارك العقول ، فهو أمام العالم المعقول ، أى وراءه وقدامه : لا مطمع له فى إدراكه ، وقد تقدم قول ابن الفارض .

ثم وراء النقل علم يدق عن ... مدارك غايات العقول السليمة

وقال أبو العباس رضى الله عنه :

فلو عاينت عيناك يوم تزلزلت ... أرض النفوس وزلزلت الأجبال

لرأيت شمس الحق يسطع نورها ... يوم التزلزل ، والرجال رجال

قال : والأرض : أرض النفوس ، والجبال : جبال العقل .

وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى ـ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ـ أى تجلى لجبل العقل جعله دكا أى مضمحلا ـ وخر موسى(١) صعقاً ـ أى زال وجوده بوجود خالقه ، والمتجلى فيه .

والحاصل : أن شموس العرفان لا تدرك بعقل ولا حدس ولا برهان ، وإنما تدرك ببيع النفوس وبذل الأرواح ، وبالخروج عما تعهده النفوس وتحيط به العقول ، فإذا صح منك هذا الخروج ، أدركت أنوار الملكوت متصلة ببحر الجبروت وصرت لا يحجبك عن الله أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسى ، ولا أفلاك ولا أملاك ، وصرت أنت قطب الوجود تدوره بيدك كيف شئت ، خليفة الله فى أرضه ، ونقطة دائرة كونه ، والله ذو الفضل العظيم

وإلى هذه المعارف أشار بقوله :

ثم أمام العالم المعقول ... معارف تلغز فى المنقول

وأشار بقوله « تلغز » إلخ إلى أن هذه المعانى ليست صريحة فى كلام الله ، وإنما هى من باب الإشارة واللغز . وكذلك قيل فى قوله تعالى ـ إذا زلزلت الأرض زلزالها ـ أى أرض النفوس ، وأخرجت الأرض أثقالها ـ أى مافيها من العلوم والحكم والأسرار ـ وقال الإنسان ـ متحيراً من حال تلك النفس ـ مالها . يومئذ تحدث أخبارها(٢) ـ تظهر أسرارها ومواهبها ، وهذه كلها إشارات وألغاز ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى تفسير الإحسان « أن تعبد كأنك تراه فإن لم تكن » وقف بعضهم هنا وجعل « تراه » جوابا(٣) ، أى فإن تحقق زوالك ، ولم تكن شيأ تراه ، وهذه الأمور كلها إلغازات وإشارات لا يسلبها أهل الظاهر ، وإنما يسلبها أهل الباطن ، ويلغزون بينهم بها ، وقد قالوا : علمنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خبر ، ثم إن هذه الأمور إنما هى كشوفات تشرق على الأرواح والأسرار ، تكون لوائح ثم لوامع ، ثم يتصل الشروق ، ويدوم النور ، حتى يقع الرسوخ والتمكين ؛ وإلى ذلك أشار بقوله :

وعلموا أن لهم تمكينا ... يرقى بهم عرق المكاشفينا

قلت قد علموا أن دوام السير قطعاً يؤدى إلى الوصول ، وحال التلوين لابد يوصل إلى التمكين ، فإذا ترقوا إلى مقام التمكين فقد وصلوا إلى مقام لو كشف الغطاء ماازدادوا يقينا

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣ (٢) سورة الزلزلة ، الآيات : ١ ـ ٤

(٣) فيه خروج على قواعد اللغة وأساليب النحو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالعربية . وهذا التأويل فيه تكلف وتعسير على أفهام الناس ، وقوله عليه الصلاة والسلام فصل لا التواء فيه إذ لم يأت عليه الصلاة والسلام ليخاطب الناس بالألغاز والمعميات ، وإنما جاء بها بيضاء نقية .

بل قد انكشف الغطاء ، لكن مراتب الكشف لا نهاية لها ، — وقل ربي زدني علما(١) — و علموا بمقام التمكن ، علموا أن لهم موانع تمنعهم من الوصول إليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله

ثم رأوا أن دون ذلك مانع	كدفتر نيط عليه طابع
فالقوم حين علموا بذاكا	وميزوا القطاع والاشراكا
سلوا من العزم لهم قواضب	فأنبت كل قاطع وحاجب
فاحتزموا للطعن والنزال	وابتدروا ميادين القتال

قلت الدفتر: الكتاب ، وأراد به هنا الحرز والتميمة ، ونيط : أي ألف ، وغشي الطا بفتح الباء كالقالب والكاغد والخاتم ، والعالم والنابل والطابق ، وألفاظ أخر تبل خمسة وعشرين لغة ، كلها بفتح عين الكلمة ، نظمها ابن مالك ، والاشراك جمع شرك وه الشبكة ، والقواضب ، جمع قضب ، وهو السيف الصارم ، والنزال هو: شدة الحرب ، وذ أن العرب إذا اشتد بينهم الحرب نزلوا عن خيولهم ليقاتلوا بالسيوف ، والميادين مجال الح استعير هنا لمجاهدة النفوس ومحاربتها .

يقول رضي الله عنه : إن القوم لما شعروا بالحقيقة كامنة في نفوسهم ، وكوشفوا ب علموا أنهم إن تمكنوا من الوصول إليها والرسوخ فيها حصل لهم كشف الغطاء ، وارتف الحجب عن قلوبهم ، فكانوا على بينة من ربهم ، ثم رأوا أن مقام التمكين دونه مو وقواطع ، تمنعهم من الوصول إلى ذلك المقام ، وهذه الموانع هي التي غطت القلوب وغ وحجبت الأرواح عن الكشف عن أصلها ، فصار القلب والروح كحرز مكتوب : لف غشاء وطبع عليه طابع ، فلا يظهر ما في باطنه حتى يخرق ذلك الطابع والغشاء الذي عليه ، وهذا الطابع الذي جعله الله بحكمته وعدله حجباً للقلوب عن أسرار الغيوب ، هو الطبيعة ، وهي شهوات النفوس وعوائدها التي امتزجت معها ، وعجنت بطينتها في أصل ا وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله — زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين(٢) — ا فاشتغلت الروح بتدبير هذا البدن لجهلها ، فصرفت همتها لمأكله ومشربه وملبسه وم ومسكنه ، وما يتبع ذلك من الشواغل والشواغب ، فعميت عن أصلها ، ومنعت من ش أنوار ربها ، إلا من أسعده الله بولايته ، وسبقت له سابقة عنايته ، فلما علم القوم

(١) سورة طـــه ، الآية : ١٤
(٢) آل عمران ، الآية : ١٤

القواطع التي قطعتهم عن الوصول إلى ربهم ، وميزوا هذه القطاع والشباكات التي حبستهم في قيودها ، وهي علائق الدنيا وعوائقها ، سلوا من هممهم العالية سيوفا ، وعزموا على قطع تلك العلائق ، ورفضوا تلك الشهوات ، فلما علقوا هممهم بالله ، وانقطعوا بكليتهم إليه ، انقطعت تلك العلائق ، وارتفعت تلك الحجب ، فاحتزموا وشمروا للطعن في تلك العلائق ، ونزلوا لمحاربة النفوس وردها إلى حضرة الملك القدوس ، حتى ألقت السلاح ، وأذعنت لطاعة الكريم الفتاح :

قال بعضهم : انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا ، وهذه عبارة كلام الناظم ، وفيه تقديم وتأخير ، فإن قطع العلائق ورفع الحجب مؤخران عن محاربة النفوس ، فقول الناظم ، فأنبت كل قاطع وحاجب ، مرتب على ما بعده من الطعن والنزال ، وابتدار ميادين القتال ، والأمر قريب .
ولو قال لكل قاطع وحاجب بلام التعليل كان أحسن ، والله تعالى أعلم .

ثم بين بعض تلك القواطع ، فقال :

وعلموا أن ليس شيء قاطع	كبدن كاس وبطن شابع

قلت : يعني أنهم تحققوا أن أعظم القواطع هو الاشتمال بهم الظهر والبطن ، فمن أراد الله تعالى أن يتركه محجوبا بنفسه يشغل قلبه بتزيين الملابس والمآكل ، وهذا هو الذي حجب جل الناس ، فمن قنع من اللباس بما يستر العورة من خشن اللباس ، وقنع من الطعام بما يسد الجوع من مطبق الطعام ، كان قلبه مجموعا مع الله ، إن توجه بهمته إلى الله ، ومن كان همه ما يدخل بطنه ، كان قيمته ما يخرج منها ، وفي الحديث .

« من ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله حلة الكرامة يوم القيمة(١) » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم .

« إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مسالكه(٢) بالجوع » .

(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عبقري الجنة » رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية ، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس .
(٢) رواه أحمد ، والبيهقي ، وأبو داود ، وابن ماجه .

والمقصود من ذلك كله صرف الشواغل التى تحجب عن الله ، سواء كانت من قبل الملابس أو الطعام أو غيرهما ، ولذلك عم الباطم فى البيت ابنى بعد هذا ، حيث قال :

ونظروا الحجاب فى البواطن فوجدوه فى النفوس كامن
فعملوا على جهاد النفس حتى أزالوا ما بها من لبس

قلت : هذا الحجاب الذى هو كامن فى النفوس ، هو حب الهـــوى ، ومرجعه إلى حب الدنيا .

فمنه : مايكون متعلقاً بالظواهر ، كحب المال وتزيين الملابس والمآكل والمراكب والمساكن

ومنه مايكون متعلقا بالبواطن ، كحب الخصوصية ، وطلب الكرامة ، وحب المدح والثناء ، وحب الرياسة والظهور ، وما ينشأ عن ذلك من الحسد ، والكبر ، والمل ، والعجز والغضب ، والقلق ، والحرص ، والطمع ، وغير ذلك من العيوب الباطنية ، فكل من جاهد نفسه فى التخلية من هذه المساوىء ، والتحلية بأضدادها ، من : التواضع ، والحلم ، وسلامة الصدر ، وسخاوة النفس والحلم ، والأنى ، والصبر والرضى ، والتسليم ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة زال عن نفسه حجاب النفس والتخليط ، واكتسى لباس الصفا والوفا ، فكان من المقربين الذين يشربون من عين التسنيم المختوم ، ويمزج لغيره من أهل اللبس والتخليط فى صعاصنى له ومن خلط كدر عليه ، فمن شرب اليوم كأس محبة المولى صافياً من الهوى : شرب من عين التسنيم صافيا ، ومن مزج اليوم بمحبة الهوى ، شرب مع العوام من السلسبيل ، ولاحظ له عند الملك الجليل .

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه : واضر ما ابتلى به العبد فى دينه ، وأشد ما يحجبه ضعف يقينه ، لما وعد بالغيب أو توعد عليه .

قال(١) : وقوة اليقين أصل كل عمل صالح .

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجاهدة النفوس وتصفيتها بقوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد

(١) أى أبو طالب المكى .

نفسه وهواه »(١) وقال أيضا عليه الصلاة والسلام « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب(٢) » وفى معناه قيل :

ليس الشجاع الذى يحمى فريسته يوم الزحام ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدما عن المحارم ذاك الفارس البطل

وفى الخبر « جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر(٣) » يعنى جهاد النفس .

قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه ، فى شأن النفس : هى التى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها

وفى الحكم :

« لو كنت لاتصل إليه إلا بعد محو مساويك وترك دعاويك ، لاتصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه » .

ثم أشار لاختلاف الفرق فى المجاهدة ، فقال :

والقوم فى هذا على فرقين وحكمهم فيه على ضربين
ففرقة طريقهم مبنيه على العقائد وحسن النيه
قالوا : فالنفس كالمرآه ينطبع الماضى بها والآت
وإنما يعوقها أشياء ترك المحاذاة أو الصداء
قالوا : وإن العين قد تغور وإنما يخرجها الخفير

قلت أشار إلى أن الناس فى الوصول إلى الله تعالى على فرقتين : الفرقة الأولى : نظروا

(١) « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » رواه مسلم عن جابر و « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » رواه أحمد والترمذى والحاكم ، والنسائى ، وابن حبان والطبرانى ، و « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » رواه البخارى وأبو داود والنسائى . « والمجاهد من جاهد نفسه فى الله » رواه الترمذى وابن حبان ، واللفظ الذى ذكره الشيخ رحمه الله رواه أغلب كتب السنة .

(٢) رواه أحمد ، والبيهقى عن أبى هريرة .

(٣) رواه البيهقى فى الزهد من حديث جابر .

إلى أصل الروح وما كانت عليه من الصفاء والجلاء كالمرآة الصقيلة ، ينطبع فيها كل ما يقابلها من الماضى والآتى .

لكن لما اتصلت بهذا البدن انطبع فيها : صور الأكوان ، وغبش الحس ، فحجبت عن أصلها .

أمران أحدهما : تركك المحاذاة (أى القرب والاتصال بالحضرة) باشتغالها بالعلة .

يعنى : أن الروح لما تركت القرب إلى الله ، ولم تصرف وجهتها بالكلية إليه تدنست وحجبت عن أصلها .

فلو اشتغلت بذكر الله على الدوام ، وفنيت عن غيره على التمام ، لانصقلت مرآتها ، وتجلت فيها حقائق الأشياء : ماضية وآتية .

وفى الحديث : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، وإن الإيمان ليخلق (أى يبلى) كما يخلق الثوب الجديد(١) » .

وفى حديث آخر « لكل شىء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر الله(٢) » .

وهذا الذكر الذى يصقل القلوب ، لا بد أن يكون ذكراً واحداً ، بقلب واحد ، وهم واحد ، وإلا فلا يجدى شيئاً .

الأمر الثانى الذى يعوق الروح عن أصلها : الصدأ الذى ينطبع فيها ، وهى صور الأكوان التى تنطبع فى القلب حين يتعلق بها : اعتقاداً ، أو استئناساً ، أو اهتماماً .

وفى الحكم : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

---

(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان فى قلوبكم » (رواه الطبرانى ، والحاكم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص) .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شىء صقالة ، وإن صقالة القلوب ذكر الله ، وما من شىء أنجى من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع » (رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى) .

وقال بعض الحكماء : لا تطمع أن تصفو وبك عيب ، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب

وقالوا أيضاً : إن السر الذى ما كان فى النفوس ، هو كالماء العيون ، إذا غفل عن تخميلها وتجريتها : غار ، وتعطى بالتراب ، فلا يخرجه إلا الحفير عليه بالنفوس ، كذلك سر الحقيقة كان ظاهراً فى الأرواح حين كانت طاهرة من دنس الحس ، أرأيت يوم الميثاق : كلها عرفت الحق وأقرت به ، فلما اتصلت بهذا العالم الحسى الكثيف ، وتراكمت عليها طلمة الغفلات والشهوات والعوائد وألفت هذا العالم الحسى ، وركنت إليه : حجبت عن ذلك السر ، فلا يخرجه إلا الحفير عليه بنفوس المجاهدة والرياضة ، وانجماع القلب بالله ، والمؤانسة به ، ذكراً أو فكرة أو نظرة ، وإلا غار السر وغاب وذهب كالسراب .

قيل للجنيد : كيف الطريق إلى الحقيقة ؟ قال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل ، فقيل له : بماذا يصل إلى هذا ؟ فقال : بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد .

ثم بين كيفية العلاج فى ردها إلى أصلها فقال :

وأجمعوا أن علاج الأصل	أقرب للبرء معاً والنيل
فما إليه أبداً نشير	هو علاج النفس والتطهير

قلت : العلاج : محاولة إبراء(١) الداء بالدواء لتذهب العلة ، ولا ينجح فى العالم إلا بعد معرفة العلة وسببها ، والمراد بالأصل : هو علاج الروح ، والنيل هو : التحصيل .

يقول رضى الله عنه : أجمع الصوفية أن علاج الروح وليل شفائها من مرضها : أقرب من علاج البدن وشفائه إذا تمكن منه الداء .

قلت : وهو كذلك بلا شك ، فقد رأيت كثيراً من المرضى : أعنى مرض البشرية ، يدفع أموالا عريضة ، ويمتمى أزمنة طويلة ، ولا تنقطع علته ، ولقد رأيت كثيراً ممن كان مريض الروح بالمعاصى والذنوب والشكوك ، والخواطر ، حين ألقاه الله إلى الطبيب شفاه الله فى أقرب مدة وأقل حيلة .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأصل كل داء جسمانى إنما هو فساد المزاج إلى أن يصير فعله وانفعاله على غير المجرى الطبيعى ، وأصل كل داء قلبى : إنما هو فساد القصد الذى

---

(١) وضعناها لإصلاح الكلام فإنها ليست بالأصل الذى راجعنا عليه ، والله أعلم .

عنوانه : الرضى عن النفس ، حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعى والتحقيق ، بل على وفق الهوى والأوهام الباطلة التى شأنها : ضعف اليقين ، ورقة الديانة ، وتفصيل ذلك يطول ، وسيأتى منه إن شاء الله تعالى فى باب التربية .

وقوله : « فما إليه أبداً نشير » هو : تصريح بعلاج الأصل المتقدم ، يعنى : أن هذا العلاج الذى نشير إليه هو علاج النفس من : غفلاتها ، وشكوكها ، وخواطرها ، واهتمامها بالرزق ، وأمر الخلق ، وتدبيرها ، واختيارها ، وإنكارها ، وجهلها ، وسوء أدبها ، فإذا برئت من هذه الأمراض ، وتطهرت من هذه الأخلاق صلحت للحضرة ، ومتعت بالنظرة فى سرور ونضرة .

ثم ذكر استمرار هذه الطريقة إلى انقراض الدنيا فقال :

وهذه طريقة الإشراق كانت وتبقى ما الوجود باقى

قلت : ذكر أن هذه الطريقة التى ذكرها فى هذه الأبيات تسمى : طريق الإشراق ، وتسمى أيضاً طريق الجلاء والتصفية ، لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر ، بتخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، فإذا تخلت من الأغيار والأكدار ، أشرقت عليها شموس المعارف والأسرار ، فرع قلبك من الأغيار ، تملأه بالمعارف والأسرار ، ثم ذكر أن هذه الطريقة لا ينقطع مادام الوجود باقيا ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون(١) » .

والتحقيق أن هذه الطائفة هى مؤلفة من العارفين بالله ، والعلماء العاملين الصحيين ، والمجاهدين فى سبيل رب العالمين ، فلا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ظاهرة وباطنة .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى « قوله كانت وتبقى » يعنى أنها لا ترتفع أبداً ، لكنها تارة تجرى باصطلاح الخلوات والتربيات ونحوها ، وتارة بحفظ الأصول فقط ، وتارة بحفظ الحرمة ، وتارة بعلو الهمة وقوة الحزم والعزم ، وتارة بمجرد التلقى والإلقاء ، وهذه الأمور لا تزول أبد الآبدين ، غير أن الاصطلاح قد انقرض فى هذه الأزمنة ، وارتفع إنتاجه حسبما دلت عليه العلامات ، ويشهد به الاستقراء .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد عن معاوية ، وابن ماجه عن أبى هريرة ؛ ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، وللحديث ألفاظ أخرى ورواة آخرون كلها تدور على هذا المعنى .

قال بعض مشايخنا رضى الله عنه : ارتفعت التربية بالاصطلاح فى سنة ٨٢٤ هـ أربع وعشرين وثمانمائة ولم تبق إلا الإفادة بالهمة والحال فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان ، يعنى الجادة مع التزام الصدق ، والله ولى التوفيق .

قلت : وبعض مشايخه الذى ذكر هو : الخضرى .

وفيما قاله نظر من وجهين : أحدهما أن الاستقراء الذى ذكره متعذر فى جميع أقطار الأرض ، وشيوخ التربية الغالب عليهم الخفاء ، لأنهم كنوز لا يظهر بهم إلا من أسعده الله .

والثانى : أن دائرة الأولياء لا تنقطع أبدا ، من : أقطاب ، وأبدال ، وأوتاد ، حسبما ذكره غير واحد ، وبلوغه إلى مقام القطبانية لا يكون من غير تربية أبداً .

فإن قلت : يكفى فيه الهمة والحال ، قلنا : لا نسلم ذلك ، لأن تربية الهمة والحال دون اصطلاح المقال ، لا يترقى صاحبها من مقام إلى مقام ، ولا من حال إلى حال ، فلا يخرج من السلوك إلى الساه ، ولا من الفناء إلى البقاء ، إلا بتربية المقال ، وهى الاصطلاح ، وإن أراد بالاصطلاح : الخلوة ، وترتيب الأوراد ، فلا نسلم أيضا أنه انقطع ، إذ من بلغ إلى درجة التربية يربى كيف شاء ، فمن تصلح به الخلوة رباه بها ، ومن تصلح به الخشنة رباه بها ، فشيخ التربية لا ينقطع أبداً ، وأما تربية الهمة والحال والمقال والاصطلاح ، وإذا كان الخضرى تكلم على ما ظهر له فى زمانه ، فلا يلزم عمومه فيما بعده ، قال الله تعالى ـ ويخلق ما لا تعلمون ـ (١) .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى عنه ، فى قوله تعالى ـ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ـ (٢) قال : ما نذهب بولى نأت بخير منه أو مثله ، وكلامه عام فى كل زمان وعصر ، وقال عليه الصلاة والسلام « أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره »(٣)

---

(١) سورة النحل الآية : ٨

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٦ . وما قاله الشيخ من باب الإشارة والاستئناس وليس تفسيراً لها . والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

(٣) وفى لفظ آخر رواه ابن عساكر مرسلا : « أمتى أمة مباركة لا يدرى خير أولها أو آخرها » .

وقال: «خير أمتى أولها وآخرها وفيها بينهما الكدر»[1] وفى حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام: «إذا لقيتم إخوانى فأقرءوهم منى السلام؟ قيل من إخوانك يا رسول الله؟ نحن إخوانك، فقال: أنتم أنصارى وأصحابى، إخوانى قوم يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى، للعامل منهم أجر سبعين، قالوا: يارسول الله أجر سبعين منا أو منهم؟ قال: بل أجر سبعين منكم، قيل: لماذا يارسول الله؟ قال: إنكم وجدتم على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً[2]».

والحاصل أن نور النبوة فى الزيادة لا فى النقصان، وقد وجد بعد الحصرى، وفى زمانه رجال اتفق الناس على تربيتهم، كالعزوانى، والتليدى، والمجطى، والمخذوب، والشرق وسيدى يوسف الفاسى، وسيدى عبد الرحمن الفاسى، وسيدى محمد بن عبد الله، وغيرهم ممن لا يحصى، فإنكار كمال هؤلاء وتربيتهم: مكابرة وخذلان والعياذ بالله من الطعن فى أولياء الله.

وقد أدركنا - والحمد لله - فى زماننا هذا رجالا قد توفر فيهم شروط التربية على الكمال ذوو همة وحال ومقال: عارفين، راسخين كاملين، تخرج على أيديهم خلق كثير، وانتفع بهم جم غفير، ولكن من كان خفاشاً لا يستطيع أن يبصر شعاع النور؛ ويرحم الله البوصيرى حيث قال:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقال آخر:

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها ... فقال له الحرمان: حسبك ما قلت

ثم ذكر الطريق الثانية فقال:

وفرقة قالت بأن العلما ... من خارج بالاكتساب اسما

---

(١) ورواه الحكيم عن أبى الدرداء بلفظ: «خير أمتى أولها وآخرها، وفى وسطها الكدر».

(٢) هذا من ناحية الأجر فقط، أما شرف الصحبة وملازمة النبى صلى الله عليه وسلم فذلك هو الفضل الذى لا ولن يصل إليه أحد، اقرأ قوله تعالى: «محمد رسول الله والذين معه» إلى آخر سورة الفتح، وقف أيها المسلم عند حد الأدب، ولا تحترق أسوار اختيار الله لهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن الصحابة رضى الله عنهم لهم أجرهم وأجر كل مسلم عمل بعدهم بعملهم إلى يوم القيامة، والحديث صحيح وله معنى دقيق، فتنبه.

وشرطوا العلوم فى اصطلاحه ... إذ لا غنى للباب عن مفتاحه

فليس للطامع فيه مطمع ... ما لم تكن فيه علوم أربع

وهى علوم: الذات والصفات ... والفقه، والحديث، والحالات

وهذه طريقة البرهان ... وهى لكل حازم يقظان

قلت: حاصل هذه الطريقة أنها شرطت اصلاح الظاهر أولا وعلاجه، وعلاجه قبل علاج الباطن، فقلت: إن اكتساب العلم من خارج أسمى، أى أرفع وأعظم، لأنه دواء وشفاء للعلل الظاهرة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «العلم إمام والعمل تابعه» وأول الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا العلم، فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث فيه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة، تقتص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتهم تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء» اه ذكر المنذرى.

فشرطت هذه الفرقة الثانية تحصيل العلم الظاهر لأنه مفتاح العلم الباطن، لأن الشريعة باب والحقيقة بيت، ولا مدخل للبيت إلا من بابه، قال تعالى - وأتوا البيوت من أبوابها - (1) فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة، ومن أتى الباب بلا مفتاح لا يطمع فى دخوله فلا يطمع أحد فى علم الحقيقة والاطلاع على السر إلا بعد تحصيل أربعة علوم:

علم الذات العالية، ويكفيه أن يعتقد فيها أنها موجودة قديمة، باقية، منزهة عن النقائص، متصفة بصفات الكمالات.

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٨٩

وعلم الصفات ، ويكفيه أن يعتقد أن الذات العالية متصفة بالقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

وإن زاد براهينها من الكتاب والسنة ، فهو كمال ، وإن أسعده الله بلقاء شيخ كامل رقاه إلى علم الأذواق ، وصار توحيده فى مقعد الشهود والعيان .

العلم الثالث : علم الفقه ، ويكفيه مايتقن به طاعته ، وصلاته ، وصيامه ، وإن كان له مال تعلم ما يجب عليه فيه ، ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه .

العلم الرابع : علم الأحوال ، والمقامات ، والمنازلات ، ومخادع النفوس ، ومكايدها ، وما يجرى مجرى ذلك من آداب ومعاملات ، وهذا الذى يختص به أهل هذا الفن .

والناس فيه طريقان :

طريق رؤية الحق من أول قدم ، والعمل على ذلك بالانحياش إليه ، وهو طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم .

وطريق رؤيه النفس واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك . وهى طريق الغزالى ومن جرى مجراه ، وكل منهما مستنده لحديث : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك »(1) فتمسكت الشاذلية بصدر الحديث والغزالية بآخره .

وقوله : « فهذه طريقة البرهان » يعنى أن هذه الطريقه تسمى طريقة البرهان ، لأنه طريقه الترقية ، لأنها أولا تستدل بالأثر على المؤثر ، ثم ترتقى إلى معرفة العيان ، بخلاف الطريقة الأولى ، إنما اشتغلت بتصفية الروح ، فإذا تصفت وتطهرت زال عنها الحجاب

قلت : وطريق الشاذلية الحقيقية من تأملها وجدها جمعت بين الطريقين : طريق الإشراق وطريق البرهان ، لأن أشياخها الكمل يدلون أولا على إتقان الشريعة ، والفناء فى العمل بها ، ثم على إتقان علم الطريقة ، ثم على الحقيقة .

قلت : وأنا « عبد الله » كنت إذا لقنت أحداً الورد : علمته ما يلزمه من إتقان طهارته

(1) هذا الحديث ذكرته كل كتب السنة تقريباً ، وهو الحديث الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ... هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقد سبق الاشارة إليه ص٥٣

الصغرى والكبرى ، وعلمته التيمم وإتقان الصلاة وإذا كان أميا علمته ما يلزمه من عقائد التوحيد إجمالا . فأصحابنا كلهم والحمد لله على بصيرة فى دينهم ، مع مازادهم الله تعالى من التنوير والأذواق ، وهى طريق الإرشاد ، فأصغرهم يناظر نجباء طلبة العلم الظاهر ، حسبما استفرياه من أحوالهم ، وما اطلعنا عليه من أسرارهم ، والحمد لله رب العالمين .

قوله : « وهى لكل حازم يقظان » يعنى أن هـــذه الطريقة التى جمعت بين العلم الظاهر والباطن ، لكل حازم مشمر فى تحصيل دينه « يقظان » أى منتبه من غفلاته ، قد أتى البيت من بابه ، وحصل الأمر بشروطه وأسبابه ، فليس لأحد فيه مطعن ، ولا لإخلاله فيه مدخل ، لكن لا يدرك هذه الطريقة على الكمال إلا فحول الرجال ، وبالله التوفيق .

ثم وصف الصوفى وحاله وشأنه فقال :

ونسبوا الصوفى الكمال	وضربوا معناه فى المثال
فهو كالهـــواء فى العلو	ثم كمثل الأرض فى السفو
ثم كمثل النار فى الضياء	ثم كمثل الماء فى الإرواء
فهو إذاً للكائنات حاصر	إذ صار فى معناه كالعناصر

قلت : لا شك أن الصوفى المحقق قد حاز مرتبة الكمال على التمام ، فما من مرتبة إلا حاز أكملها وأشرفها :

فأخذ من مقام الإسلام كمال التقوى والاستقامة على التمام .

وأخذ من مقام الإيمان تمام الطمأنينة وكمال الإيقان .

وأخذ من مقام الإحسان : أعلى المراتب ، وهى الشهود والعيان .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان .

وأخذ أهل الظاهر من الأعمال ـ أعمال الجوارح الظاهرة .

وأخذ الصوفى أعمال القلوب الباطنة ، والدرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، كما قاله الشيخ ابن عباد وغيره .

وفى الحديث « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »(1) .

وعبادة القلوب هى : الفكرة والنظرة ، والرضى بما يبرز من عنصر القدرة ، فعباد العارفين كلها مضعفة إما بسبعين أو بألف أو بأكثر ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى

(1) وفى مسند الفردوس بلفظ « ثمانين سنة » .

رضى الله عنه : أوقاتنا كلها ليلة القدر : يعنى كلها خير من ألف شهر من عبادة العامة ، وفى ذلك قال الشاعر :

كل وقت من حبيبى قدره كألف حجة

أى سنة .

وفى الحكم (ماقل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب)

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ركعتان من عالم زاهد ، خير وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً .

وهذه المراتب موجودة فى الصوفى الكامل على التمام .

وقد ضربوا له المثال بالعناصر الأربعة التى قامت بها الموجودات الحسية باعتبار العادة ، وهى : الهواء ، والثرى (أى التراب) والماء ، والنار ، وتسمى الطبائع الأربعة ، وقد نظمها ابن سينا الحكيم ، فقال :

وقول بقراط بها صحيح نار وماء وثرى وريح

واراد بالريح الهواء .

فالصوفى قد اجتمعت فيه العناصر الأربعة ، فهو كالهواء فى رفع الهمة وعلو القدر ، وأيضاً الهواء حار رطب ، فهو معتدل محيط بالأبدان ، به يقع كمالها ونقصها ، والصوفى : معتدل فى حركاته من غير إفراط ولا تفريط ، بل متوسط فى كل شىء ، وخير الأمور أوسطها ، وبحسب هذا جميع الوجود ، يأنس به ويرجع إليه ، ويقع له منه الفعل والانفعال بإذن الله سبحانه ، مع ارتفاعه عن أبناء جنسه فى عين مجالسته لهم ، كما ارتفع الهواء عن التراب والماء مع مخالطته لهما ، وهو أيضاً كالأرض فى الدنو والتواضع ، والسهولة ، يناله البر والفاجر ، والصغير والكبير ، كما أن الأرض يطأها البر والفاجر ، والصغير والكبير .

وقال بعض أشياخنا : نحن كالرقاق ، أى الطرق ، يمر علينا البر والفاجر ، والطائع والعاصى ولا نفرق بينهم ، وأيضاً طبع الأرض بارد يابس ، فببرودتها يقع لها الملابسة ، إذ لو كانت حارة والهواء حاراً لاحترق ما عليها ، وبسبب يبوستها يقع لها المماسة ، والصوفى كذلك ، لبرودة حركاته وليونتها يلابسه الخلق وينتفعون به ، ولوقوفه مع الحق وصلابته فيه صح له

الصدق ، فيكون له قلب مثل الأرض يطرح عليه كل قبيح ، ولا يخرج منه إلا كل مليح ، وكلما زيد فى زبلها زيد فى خيرها .

وكذلك الصوفى كلما زدت فى البحث معه زادك فائدة وحكمة .

وقد قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه أين تنبت الحبة ؟ قالوا : فى الأرض قال ؟ فكذلك الحكمة ، لا تنبت إلا فى قلب كالأرض ، وقال سهل رضى الله عنه : طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كست بأرواحهم المزابل ، وهو أيضا كالنار فى إحراق الأوصاف الخبيثة الذميمة ، وفى اقتباس الأنوار واشتعال مصابيح القلوب ، وأيضا طبع النار حار يابس ، مضىء محرق ، كذلك الصوفى لا تفارقه الحرارة الباطنية ، وهى قوته وسخانته الناشئة عن شهود حريته الباطنية ، ويحرق كل ما والاه من أوصاف نفسه ، ويرى ما وراءه من المعارف وحقائق الوجود ، وهو أيضا كالماء فى الإرواء وإزالة عطش الجهل ، وحرارة التعب الناشئة عن وجود الحجاب ، وأيضا طبع الماء بارد رطب ، والصوفى كذلك ، فمن برودته لا ينتصر لنفسه ، ومن رطوبته لا يتكبر على غيره ، مع إروائه من احتاج إليه ، وهذه العناصر الأربع هى التى اجتمع منها وجود العالم باعتبار الحكمة ، وهى أركانه فالصوفى كلية العالم بمعانيه ومبانيه ، ولذلك قال فيه بعضهم : « الصوفى من لا يعرف فى الدارين أحداً غير الله ، ولا يشهد مع الله سواه ، قد سخر له كل شىء ، ولم يسخر هو لشىء ، وسلط على كل شىء ، ولم يسلط عليه شىء ، فأخذ النصيب من كل شىء ولم يأخذ النصيب منه شيئاً ، يصفو به كدر كل شىء ، ولا يكدر صفوه شىء ، قد شغله واحد عن كل شىء ، وكفاه واحد من كل شىء » ثم كمل ما بقى من فضله إجمالا فقال :

وفضله أشهر من أن يجملا وقد ذكرنا منه نزراً مجملا
وفى بيان أصله دليل يعلم منه الشأن والتفضيل

قلت : أشار رحمه الله إلى أن فضل التصوف مشهور ، وشهرته أعظم من أن يجهله أحد وقد ذكر من فضله نزراً : أى شيئاً قليلا مجملا غير مفصل ، إذ تفصيله يؤدى إلى التطويل الممل ، وفى بيان أصله الذى ذكره فى الفصل الأول دليل على تعظيم شأنه وتفضيله على سائر العلوم .

قلت . ولم نسمع أحداً قط طعن فى علم التصوف أو عابه أو نقصه ، بل القلوب كلها مجبولة على حبه ومدحه ، وإنما وقع الإنكار على أهله والمنتسبين إليه : إما غيرة عليه أن

يدخل فيه من ليس منه ، وهذا معذور وإما حسدا لأهله ، وهذا هالك مثبور ، والأول على خطر ، فإن المنكر على المنتسبين كمن يدخل يده فى الغيران فيدخل يده فى المار ، الأول والثانى ، فيقول : لا شىء ثم يدخل يده فى عار آخر فيصادف حية تلسعه ، فيهلك من ساعته ، وإذا فاتته بركة الاعتقاد ، فأول أحواله ترك الانتقاد ، ولذلك قال الشاذلى : تسليم طريقتنا ولاية ، واعتقادها عناية .

وقالوا أيضاً : التسليم ولاية ، والاعتقاد عناية ، والانتقاد جناية .

وقد يكون الإنكار من عدم الفهم وقلة الإدراك ، ويرحم الله القائل :

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وسيأتى بقية الكلام فى الفصل الرابع إن شاء الله ، فى الرد على من أنكره .

ثم ذكر الناظم هنا أحكامه فقال :

الفصل الثالث فى أحكامه ، وهى تسعة

يعنى المراد بأحكامه : ما يحكم به على المريد ، وما يلزمه من الآداب ، وما يكون عليه المريد من أعمال وأحوال ، وحصرها فى تسعة .

الأول : فى حكم الشيخ وما يترتب عليه .

الثانى : فى حكم الاجتماع .

الثالث : فى حكم اللباس

الرابع : فى حكم الأكل .

الخامس : فى آداب الاجتماع .

السادس : فى حكم السماع .

السابع : فى حكم السفر وآدابه .

الثامن : فى حكم السؤال وأسبابه .

التاسع : فى حكم التربية وتدريج المريد إلى أوان ترشيده .

واعلم أن مذهب الصوفية : الأخذ بالأحسن فى كل شىء ، عملا بقوله تعالى ـ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ

وأحسن المذاهب فى الاعتقاد مذهب السلف ، من اعتقاد التنزيه ، ونفى التشبيه ، وهجر التشابه ، والوقوف مع ما ورد كما ورد ، ما لم يحتج إلى تقييد ، فيقيد بما ينفى التشبيه من غير زائد ، وبهذا تمسكت الصوفية فى بدايتهم .

ثم يطلعهم الله تعالى على أسرار من مكنون علمه ، فتتسع لهم دائرة العلوم وتنحل لهم قيود المتشابه ، فيطلعون على أسرار تنكشف بها غوامض المتشابه ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه : المتشابه ما استأثر الله بعلمه ، وقد يطلع عليه بعض أصفيائه ، وهم الراسخون فى العلم يقولون أولا ـ آمنا به كل من عند ربنا ـ ثم يطلعهم الله على أسرار غيبه فيتكلمون عليه وهذا توسعوا فى العبارة حتى أنكرت عليهم ، فوجب التحفظ ، فلا يتكلم العبد إلا مع أهله ، شفقة على الضعفاء ، وحماية من سوء الظن بأهله ، ولما فى بعضه من

سقوط الحرمة ، فوجب تجنبه أبداً وإن فهم على الصواب ، مع حسن الظن بقائله ، أصل المذهب حسن الظن حتى يأتى المناقض ، وحرمة التشريعة واجبة الحفظ فى الأ كوجوبها فى المعانى والأفعال .

وأحسن المذاهب فى الأحكام مذهب الفقهاء المرجوع إليهم ، كالأئمة الأربعة ، فا بمذهب واحد أجمع للحقيقة ، وأقرب للتيسير وأدعى للتحقيق وأسهل تناولا ، وعلى م درج سلفنا وأشياخنا ، فمكان الجنيد : ثوريا[1] والشبلى : مالكيا . والحاسبى شافع والخرزى : حنفيا ، والجيلانى . حنبلياً ، والشاذلى وشيخه : مالكيين ، لكن لا لم نخرج فى العلم من الصوفية أن يرضى بربقة التقليد ، ويجمد على قول إمامه من غ يعرف أصله ، بل ينبغى له أن يأخذ الأحكام من أصولها ، ويعلم مأخذها وعللها .

وقد قال بعضهم : قف حيث وقفوا ، ثم سر .

وقال آخر : من أخذ عليه فى خصوص كان نوره وفتحه مهم ، ومن أخذ نصوص الكتاب والسنة كان نوره وفتحه منهما ، وعلى قدرهما .

ودأله فى القواعد : التقليد أخذ القول من غير استناد لعلامة فى القائل ، ولا وجه القول ، وهو مذموم مطلقا لاستهزاء صاحبه بدينه(٢) .

والاقتداء : الاستناد فى أخذ القول لديانة صاحبه وعلمه ، وهذه رتبة أهل المذه أئمتها ، وإطلاق التقليد عليها مجاز .

والتبصر : أخذ القول بدليله الخاص من غير استبداد بالنظر والإعمال للقول ، ولا انتزاع للقول من نفسك ، وهى رتبة مشايخ المذهب وأجاويد طلبة العلم .

والاجتهاد : افتراح الإحكام من أدلتها دون مبالاة بقائل ، ثم إن لم يعتبر أصل فمطلق ، وإلا فمقيد .

وأحسن المذاهب فى فضائل الأعمال : مذهب المحدثين ، إذ لا يأخذون إلا بم

---

(١) متبعا للإمام الثورى رضى الله عنه .

(٢) هذا ليس على إطلاقه ، وإنما هو خاص بأهل الغواية من العلماء ، وأما فيكفيهم التقليد فى المذهب ، وذلك فى الطريق والفقه وغيره ، والله تعالى أعلم .

أو قارب الصحيح ، فلا يأخذون بموضوع ولا بما قوى ضعفه ، وقد حذروا من تتبع المسائل وتتبع الرغائب ، كصلاة الأيام والليالى ، وغير ذلك .

قلت : وحسب المريد الصادق من النوافل ما يحفظ فرضه من الخلل ، فإن قوى جمع قلبه حتى أمن من الخواطر كملت الصلوات الخمس ، مع عمارة وقته بذكر مفرد ، أو فكرة أو عبرة ، أو مذاكرة ، أو ما يلزمه من ضروريته ، فهذه عبارة العارفين والصديقين من المريدين ، مع الزهد التام ، والتفرغ التام ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ها بدأ به من التسعة الأحكام فقال :

الأول : فى حكم الشيخ والمشيخة ، ومعنى الشيخ .

قلت : جعل هذه الثلاثة فى حكم واحد لقرب بعضها من بعض .

فالأول فى حكم الشيخ : يعنى هل هو شرط صحة ، أو شرط كمال .

والثانى : فى حكم المشيخة ، أى حكمة الشيخوخة ، وما يراد بها ،

والثالث : فى معنى الشيخ ، يعنى المعنى الذى يكون بها شيخا ، ويصح الاقتداء به ، وهو أن يكون جامعا بين حقيقة وشريعة ، بين جذب وسلوك ، ماهراً بعلل النفوس ومخادعها ، والله تعالى أعلم .

ثم شرع فى شرح الأمر الأول ، وهو : حكم الشيخ فقال :

وإنما القوم مسافرون	لحضرة الحق وظاعنون
فافتقروا فيه إلى دليل	ذى بصر بالسير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد	ليخبر القوم بما استفاد

قلت : السفر إلى الله مجاز ، عبارة عن قطع العلائق ، وعن الخروج عن الشهوات ، والعوائد ، ليتصل بالأنوار والحقائق ، وهى المعبر عنها بحضرة الحق .

وإن شئت قلت : السفر هنا عبارة عن الانتقال عن المقامات ، والارتحال فى أخرى ، كالانتقال من مقام الإسلام إلى الإيمان ، ثم من مقام الإيمان إلى الإحسان .

أو عبارة عن الانتقال من شهود عالم الملك إلى عالم الملكوت ، ومن الملكوت إلى الجبروت ، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو من شهود الكون إلى شهود المكون ،

أو من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، أو من السلوك إلى الجذب ، ثم من الجذب إلى السلو
أو من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات ، ثم إلى توحيد الذات ، ولا يتحقق السفر
يظهر السير إلا بمحاربة النفوس ومخالفتها فى عوائدها وقبيح مألوفاتها وشهواتها ، ثم
مبادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، إذ لا سير ولا سلوك إلا فيها ، ولا جذب ولا ل
إلا عنها ، ولذلك قال بعض المحققين ، لا يصح أن يقال فى الأنبياء عليهم الصلاة : سالكو
ولا مجذوبون ، لأن الجذب لا يكون إلا عن نفس ، والسلوك لا يكون إلا فى قطع عقبا
وهم عليهم الصلاة والسلام مطهرون من آثار النفوس بأول قدم ، فهم مقيمون فى بس
الحضرة قديماً وحديثاً ، وقوله « لحضرة الحق » يعنى دائرة ولايته ، وهى عكوف القر
فى شهود الرب ، بحيث يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل .

أو تقول : الحضرة عبارة عن كشف رداء المنون عن أصل نور الكون ، فتلوح أنو
القدم على صفحات العـــدم ؛ فيتلاشى الحادث ويبقى القديم ، و « الطاعن هو المرتح
وهو المسافر .

وقد ضرب الساحلى مثلا للسفر المعنوى ، الذى يوصل إلى الحضرة ، وحاصله باختصار
أن مثل الحضرة كذلك كبير ظهر بالمشرق مثلا ، وأرسل رسلا يعرفون به ويشوقون النا
إلى حضرته ، بذكر محاسنه ومكارمه ، فمن الناس من أعرض عن طاعته وهم الكفار مثلا
ومن الناس من أذعن وأطاع وعجز عن السير إليه : إما لثقله أو لضعف محبته ، وهم عوا
المسلمين الذين يؤمنون بالغيب ، ومن الناس من تشوق إلى السير إليه وبذل مهجته وروح
فى الوصول إليه ، فقالت له الرسل أو من ناب عنهم : ها نحن نسير بك ونعرفك الطريق
ثم إن الملك بنى ديارا فى الطريق ينزلونها ، وجعل فيها : مياهاً ، ورياضا ، وأزهاراً ، وكل
منزل ما بعده أعظم منه ، فإذا سارت الرسل أو نوابهم بالناس ، ونزلوا فى بعض تل
المنازل ، أراد بعضهم أن يسكن فيها ويقيم ثم ، فيقول له الرسول : المطلوب أمامك ، و
زالوا يرحلون بهم من مرحل إلى مرحل ، ومن مقام الى مقام ، حتى يشرفوا بهم ع
الملك ، فإذا شاهدوا الملك على نعت الرضى والتكريم ، كان ذلك مقامهم ومسكنهم ، انتهى

ذكرته بالمعنى لطول العهد به .

وقال ابن عطاء الله فى الحكم فى هذا المعنى ، فالعاقل من كان بما هو آيل أفرح منه بـ

هو يفنى ، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره ، فصدف عن هذه الدار منحنيا ، وأعرض
عنها مولياً ، فلم يتخذها وطنا ، ولا جعلها مسكنا ، بل أنهض الهمة عنها إلى الله ، وصار به
مستعيناً فى القدوم عليه ، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما بتسيارها ، إلى أن أناخت
بحضرة القدس ونساط الأنس ، فى محل المفاتحة والمواجهة ، والمجالسة والمحادثة ، والمشاهدة
والمطالعة ، فصارت الحضرة معشش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون الخ .

وقوله « فانقروا فيه إلى دليل » يعنى أن من تشوف إلى الحضرة لا بد له من دليل يدله
عليها ، ويسلك به طريقها .

قال فى « شرح الشريشية » : اعلم أن سلوك الطريق ، وخصوصاً لمريد الكشف والتحقيق ،
لا يكون من غير التزام الطاعة والانقياد لشيخ محقق مرشد ، لأن الطريق عويص ، وأدنى
زوال يقع عن المحجة يؤدى إلى مواضع فى غاية البعد عن المقصود .

قال الشيخ أبو الحسن الششترى رضى الله عنه : ولا بد أن يتحكم لمن يأمره وينهاه ،
ويبصره فإن الطريق عويص : قليل خطاره ، كثير قطاعه ، وقد يظن السالك أنه على جادته
وهو قد ولى ظهره لموضع توجهه منه ، فإنه إذا خرج منه أنمة فقد خرج وانقطع ،
وانصرف سيره على أشعة تلك الأنملة ، فإنه طريق دقيق ، ونفس متصرفة فى البدن ، وهى
الراحلة عنه ، وعادة مألوفة ، وشيطان هذا الطريق فقيه بمقاماته ونوازله .

قال أبو عمرو الزجاجى رضى الله عنه : لو أن رجلا كشف له عن الغيب ، ولا يكون له
أستاذ لا يجىء منه شىء .

وقال إبراهيم بن شيبان رضى الله عنه : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف
الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدب ناصح ، ومن
لم يأخذ أدبه عن آمر له يريه عيوب أعماله ودعوات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى
تصحيح المعاملات .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : من لم يأخذ أدبه من المتأدبين : أفسد من يتبعه .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل من لا يكون له فى هذا الطريق شيخ
لا يفرح به ، ولو كان وافر العقل مقاد النفس ، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط ،
لا يكمل كمال من تقيـــد بالشيخ المربى ، لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب ، عظيمة

الأشراك[1] ، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها ، ولا يزول عنها ذلك بالكلية إلا بالانقياد للغير ، والدخول تحت الحكم والقهر ، حسبما ذكر الشيخ أبو عبد الله بن عباد رضي الله عنه .

وكذلك لو كان سبقت له من الله عليه ، وأخذه الحق إليه ، وجذبه إلى حضرته ، لايؤهل للشيخة ، ولو بلغ ما بلغ .

وقال في لطائف المنن : من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع ، ويكشف له عن قلبه القناع ، فهو في هـــذا الشأن لقيط : لا أب له ، دعي : لا نسب له ، فإن يكن له نور ، فالغالب غلبة الحال عليه ، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه ، لم ترضه سياسة للتأديب والتهذيب ، ولم يعده زمام التربية والتدريب .

وقال الشيخ أبو عثمان الفرغاني رحمه الله : « المجذوب : المتدارك الراجع من عالم الحق إلى عالم الخلق ، لا يكمل ولا يصلح للاقتداء ، إذا لم يكن له مرشد يهديه إلى دقائق المقامات ، وإن كان على بينة من ربه وبصيرة في سلوكه ، فإن في المقامات الإسلامية الإيمانية دقائق لاتدرك إلا من حيث الحقية ، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من اطلع عليها بنظر خليقته ، فلا يكتفي بالبينة الحقيقية التي للمجذوب ، فكان محتاجا إلى المرشد .

وكلام الشيوخ في الحض على اتخاذ الشيخ الرباني ، والتحذير من صده كثير .

وروى عن أبي يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وقال الشيخ أبو علي الدقاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس ، فإنها تورق ولا تثمر .

قال القشيري : وهو كما قال ، ويجوز أن تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم ، فاكهة البساتين والمرض إذا نقل من موضع لآخر ، يكون أحسن وأكثر ثمرة ، لدخول التصرف فيه ، ثم قال: وسمعت كثيرا من المشايخ يقول : من لم يرحل فلحا لا يفلح .

وقد وقعت مشاجرة ومناظرة في آخر المائة الثامنة بين فقراء الأندلس ، حتى تضاربوا

(١) الأشراك : جمع شرك (بفتح الشين والراء) وهو ما ينصب للصيد .

بالنعال ، وذلك : هل يكتفي بمشاهدة الرسوم ، ومطالعة الكتب في طريق الصوفية ، أهل التوحيد الذوقي والمعرفة الحقيقية الوجدانية ، أم لابد من الشيخ ؟! فكتبوا للبلاد ، فأجاب فيها كل أحد على قدر نظره : كالشيخ أبي عبد الله ابن عباد رضي الله عنه ، وكالشيخ أبي عبد الله ابن خلدون رحمه الله ، وأفرد لهذه المسئلة تاليفا ، وقد ذكر حاصل ذلك الشيخ زروق في « عدته[1] » ، فقال بعد كلام : وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ ، فكتبوا للبلاد ، فكل أجاب على حسب فتحه .

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة :

أولها : النظر للمشايخ ، فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب حاذق . يعرف موارد العلم . وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لدين عاقل ناصح .

قال شارح « بداية السلوك » : وقل أن يوجد لعلة الهوى .

وشيخ الترقية ، يكفي عنه اللقاء والتبرك ، وأخذ كل ذلك من وجه واحد ، يعني أن أخذ ذلك عن الشيخ في الأوجه الثلاثة أتم للنجح وأبلغ للمراد .

الثاني : النظر لحال الطالب ، فالبليد لابد من شيخ يربيه ، واللبيب تكفي الكتب في ترقيه ، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه ، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه .

الثالث : النظر للمجاهدات ، فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها ، والاستقامة تحتاج للشيخ في بيان الأصلح منها ، وقد يكتفي عنه اللبيب بالكتب ، ومجاهدة الكشف ، والترقية لابد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها ، كرجوعه عليه الصلاة والسلام في عرضه على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ، ومبادىء ظهورها حين فاجأه الحق ، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها ، والله تعالى أعلم . انتهى

قلت : وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب ، والله تعالى أعلم .

وقوله : « فر بصر بالسير والمقيل » إشارة به إلى شروط الشيخ ، وأنه لابد أن يكون بصيراً بأحوال السير ، فيسير كل واحد على قدر طاقته وجهده ، فليس القوي كالضعيف ، وليس الراكب كالراجل ، وليس سير الصديق كالصادق ، وليس الصادق كالمتردد ، وليس المتردد كالمنكر ، فيحمل الصديق من المجاهدة والخراب والأذكار مالا يحمل الصادق ،

(١) « عدة المريد الصادق » .

ويحمل الصادق من ذلك مالا يحمل المتردد ، ويحتال على المنكر بالسياسة حتى يربي له الصدق وهكذا يسير مع كل واحد من القاصدين .

قال بعض المحققين : المريد على قسمين : مراد حقيقي ، ومجازي .

فالمريد الحقيقي ، هو من كملت فيه أهلية الإرادة ، فصمم عزمه من أول مرة على الالتزام بصحبة الشيخ ، والتحكيم في نفسه ، وعمل على معانقة الأهوال ، وتحمل الأثقال ومفارقة الأشكال ، ومعالجة الأخلاق ، وممارسة المشاق ، وتحمل المصاعب وركوب المتاعب .

والمريد المجازي ، هو : الذي ليس قصده إلا التحول مع القوم ، والتزيي بزيهم والانتظام في سلك عقدهم ، والتكثير لسوادهم ، وهذا لا يلزم بشروط الصحبة ، وإنما يؤمر بلزوم حدود الشرع وملازمة الطائفة حتى تشمله بركتهم ، وينظر إلى أحوالهم وسيرهم ، فيسلك مسلكهم ، ويؤهل لما أهلوا له .

وقوله : « قد سلك الطريق » ثم عاد ، أشار به إلى أن الشيخ لا بد أن يكون سلك طريق السلوك ، ثم خاض بحار الجذب ، ثم رجع إلى السلوك ، فلا يصلح للتربية سالك محض ولا مجذوب محض ، وإنما يصلح من تقدمه سلوك ثم تداركه الجذب ، أو تقدمه جذب ثم رجع للسلوك ، والأول أكمل . وقيل : الثاني أكمل . وكلاهما يصلحان للتربية دون ما قبلهما .

أما السالك المحض ، وهو الظاهري ، فلأنه لا يخلو من بقية فيه من هذا العالم : أعني عالم الأشباح ، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم »(١) والعبد المملوك لا يمكنه التصرف في نفسه فكيف يتصرف في غيره .

وأما المجذوب قبل أن يرجع إلى البقاء ، أعني قبل أن يرجع من عالم الحق الذي هو عالم القدرة ، وارتفاع الوسائط وخرق حجاب الأسباب إلى عالم الخلق ، الذي هو عالم الحكمة ، وتحقيق الوسائط والأسباب ، وإلى الاشتغال بالسلوك والتحقق بالمقامات ، فهو أيضاً عبد

(١) هذا لفظ حديث شريف صحيح رواه أبو داود ، والبيهقي عن عبدالله بن عمرو ابن العاص ، ذكره الشيخ استطراداً .

مؤهل للشيخة والاقتداء به ، لاشتغاله بحاله عن حال غيره ، وعدم تحققه بالمقامات ، إلا أنه يربي من هو دونه إلى بلوغ مقامه ، وقد يتمكنان معاً : إن كان الأول مقتدياً بشيخ يسيره ، والله تعالى أعلم .

وقوله : « ليخبر القوم بما استفاد » المراد بالقوم : المريدون ، يخبرهم بما استفاده من علوم الأذواق وأنوار الشهود ، ولذلك قالوا : لابد للشيخ أن يكون له علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وسيأتي الكلام على بقية شروطه إن شاء الله .

ثم تمم أحوال الشيخ ومعارفه فقال :

وجاب منها الوهد والآكاما ورَاض منها الرمل والرغاما

قلت : أصل « جاب » في اللغة بمعنى : ثقب وقطع - قال تعالى - الذين جابوا الصخر بالواد(١) - أي ثقبوها واتخذوا فيها بيوتاً ، وأطلقه الناظم هنا على الدخول والسلوك ، و « الوهد » المكان المنخفض ، « والآكام » : المكان المرتفع ، جمع أكمة ، وهو التل ، والتل هو جبل صغير ، « وراض » المكان : اختبره وعرف ما فيه ، والرمل بالراء : معلوم ، والمراد هنا : الرقيق الذي يمنع من سرعة السير ، « والرغام » : التراب ، والمراد هنا الصلب اليابس .

يقول رضي الله عنه : إن شيخ التربية يكون قد سلك من طريق القوم ما كان منها منخفضاً ، كالخمول ، والذل ، والعزلة ، والفاقة ، وذاق حلاوة ذلك ، ومرارته ، وعرف منافعه ودسائسه ، فيسير غيره فيها كما سار هو ، وعرف أيضاً ما كان منها مرتفعاً كالظهور والعز ، والخلطة ، والغنى ، فيكون قد سلك ذلك وعرف ضرره ونفعه ، وذاق حلاوته ومرارته ، فيسير فيه كما سار هو ، لكن الناس مختلفون ، فكم من واحد تأنس بالخمول والعزلة ، متركن نفسه لذلك ويشق عليه ظهوره وخلطته ، فالواجب على الشيخ إخراجه من ذلك ، فيأمره بالخلطة والظهور ، إذ لا تموت النفس إلا بما يثقل عليها ، وكم من واحد كان مبتلى بالظهور ، والعز ، والغنى ، والخلطة ، فالواجب إخراجه من ذلك كله الأمر بضده .

قال في شرح « الرائية الشريفية » : وإذا أردت الخروج من العلائق ، فأولها : الخروج من المال ، فإن ذلك الذي يحيل به عن الحق ، فلم يوجد مريد دخل في هذا الأمر ومعه

(١) سورة الفجر ، الآية : ١١

علاقة من الدنيا ، إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى ما منه خرج ، فإذا خرج من المال ، فالواجب عليه الخروج من الجاه ، فإن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة ، وما لم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم ، لا يجيء منه شيء ، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس له بعين التعظيم والتبرك به لإفلاس الناس من هذا الحديث ، وهو بعد لم يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، فخروجه من الجاه واجب عليه ، لأن ذلك سم قاتل له ، فإذا خرج به من ماله وجاهه ، فيجب أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، لا يخالف شيخه في كل ما يشير به عليه ، فإن الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضرر ، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره . انتهى .

قوله : « وراض منها الرمل والرغاما » يعني : أن الشيخ يكون قد اختبر الطريق : صعبها وسهلها فينظر في حال المريدين ، فمن كان قوياً حمله على الصعبة ، ليطوي عنه مسافة البعد ، ومن كان ضعيفاً حمله على السهلة ، لئلا ينفره[1] فيرجع من حيث جاء ، فالرمل الرقيق يصعب السير فيه ، بخلاف الرغام الصلب ، فإنه يسهل فيه السير ، فكنى به الناظم عن مشاق النفس ، وما يخف عليها ، ولا شك أن الطريق إذا كانت قريبة مختصرة لا تجدها إلا صعبة معقبة ، وإذا كانت طويلة مسلوكة : لا تجدها إلا طويلة بعيدة ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وجال فيها رائحا وغاديا وسار كل فدفد وواديا

قلت : الفدفد : المكان الغليظ ، ذو حصباء ، قاله ابن الأنباري ، وقال أبو زيد : الفدفد : الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع ، والوادي معلوم ، وجمعه ، أودية ، وهو مواضع المياه .

يقول رضي الله عنه : يشترط في الشيخ أن يكون ماهراً بالطريق ، قد جال فيها مراراً ، قد راح فيها آخر النهار وغدا فيها أول النهار ، وكنى بها عن علم البدايات والنهايات ، فيكون عالما بها ، يربي به المريد في بدايته وفي نهايته ، فلكل واحد حكم يخصه ، فعمل البدايات عمل الجوارح ، وعمل النهايات عمل القلوب ، ويكون أيضاً قد سلك مسالك الجمال والجلال ، فالجمال محل العلو والظهور ، كالفدفد ، والجلال محل الانخفاض والخفو ، كالأودية ، وفيه إشارة إلى أن شرب المريد من منهل الجلال أكثر من شربه من محل الجمال ، لأن الأودية الغالب فيها وجود الماء ، بخلاف الفدفد ، والله تعالى أعلم .

(١) نفر الجرح : امتلأ قيحا وصديدا .

ثم قال :

وعلم المخوف والمأمونا وعرف الأنهار والعيونا

قلت : يعني أن الشيخ يكون عالما بالمكان المخوف والمأمون ، والمكان الجدب الذي لا ماء فيه ، والمكان الذي فيه الماء ، فيكون علاما بالأمور التي يخاف على المريد فيها فيأمره بالبعد عنها كالركون إلى العز والتعظيم ، أو إلى الدنيا والميل إلى شيء منها ومن أسبابها ومخالطة أهلها وسماع حديثها ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول « لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم » ، وكصحبة علماء الفروع المتجمدين على ظاهر الشريعة ، لأنهم يزعمون أن السنة محصورة فيما علموا منها ، وكمخالطة القراء المداهنين ، والمتفقرة الجاهلين ، فهؤلاء كلهم قطاع ، يخاف على المريد في صحبتهم .

والمواضع المأمون هو : الزهد في الدنيا والبعد منها ، ومن أهلها .

وفي الحديث : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس[1] » .

وفي حديث آخر « الزاهد يريح بدنه وقلبه في الدنيا والآخرة[2] » .

وقيل لأبي الحسن : مالي أرى الناس يعظمونك ، وليس لك كبير عمل ، قال بسنة واحدة افترضها الله على عباده ، تمسكت بها .

قيل : وما هي ؟ قال : الإعراض عنكم وعن دنياكم .

ومن المواضع المأمونة : صحبة الصوفية من المريدين والعارفين ، والميل إلى الفاقة ، والقناعة من الدنيا ، والعزلة ، والصمت ، والموضع الذي لا ماء فيه ، وهو محل الجدب ، وهو الموطن الذي تكثر فيه الشهوات والعوائد ، ويجد فيه المريد راحته وجماله ، ويظهر فيه عزه وجاهه ، فهذا الموطن إن طال فيه إقامته قحط قلبه ، ومنع من مدد الزيادة .

قال في الحكم : « إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك » ، وربما تجد من المريد في الفاقة ما لا تجده في الصوم والصلاة ، ولذلك كانت الفاقة أعياد المريدين ، لأنها سد ومعراج للرسوخ والتمكين في مقامات اليقين .

(١) رواه ابن ماجه ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن سهل بن سعد .

(٢) ويقرب منه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه وأنطق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام » ، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الدنيا » .

وقد قال بعضهم : « بقدر الامتحان يكون الامتكان ، واختبار الماء يقطع المياق ، وكل محمة تريد مكنة ، والموضع الذى فيه المياه من عيون وأنهار هو ما فتحه آنفاً من مواطن الشدة كالفاقة وكل ما يمحص على النفس ويؤلمها ، فالأنهار ، هى : علوم الطريقة ، والعيون هى : أسرار الحقيقة .

أو تقول : الأنهار ، هى : العلوم ، والعيون هى : الأذواق ، فلا بد للشيخ أن يكون عارفا بالعلوم التى يحتاج إليها ، ويذوق أسرار الأحوال والمقامات ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

قد قطع البيداء والمفاوز وارتاد كل حابس وحاجز

قلت : « البيداء » هى الصحراء ، « والمفاوز » جمع مفازة ، وهى : المسافة البعيدة ، وارتاد ، أى اختبر البلد ، وعرف ما يصلح وما لا يصلح .

فالرائد هو : الذى يتقدم أمام القوم ليختبر لهم البلد الذى يصلح للنزول ، والحابس هو الذى يحبسك عن بلوغ المراد ، والحاجز هو الذى يحجز بينك وبين مرادك .

يقول رضى الله عنه : إن الشيخ لا بد أن يكون قطع مهامه النفوس ، وجال فى ميدان محاربتها فى قطع شهواتها وعوائدها ، وما تجنح إليه من رعونتها ومألوفاتها ، وقطع أيضاً مفاوز البعد الذى بينها وبين خالقها الناشىء عن وهمها وجهلها ، وذلك بقطع ركونها إلى الكرامات وخوارق العادات ، أو طلب الخصوصية أو غير ذلك من الحروف القاطعة عن مقام الإخلاص ، والتحوق بخواص الخواص ، ويكون أيضاً اختبر وعرف كل ما يحبس عن السير من الوقوف مع المقامات والقناعة بظهور الكرامات .

وفى الحكم : « ما أرادت همة عارف أن تقف مع ما كشف لها إلا وناداه واقف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تعرجت ظواهر المكونات إلا وناديته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر » ، وعرف أيضاً ما يحجز ويمنع من الوصول إلى صريح العرفان ، على وفق المشاهدة والعيان ، وهو أمران . إما الملل من المجاهدة والسير والركون إلى الراحة والكسل ، وإما الاستغناء عن الشيخ والخروج عنه قبل الترشيد ، وإن ذلك يحجز بينه وبين التحقيق ، ويخرجه عن سواء الطريق ، ويرجع إلى مقام العدوم ، فنسئل الله السلامة من السلب بعد العطاء . آمين .

ثم قال :

وحل فى منازل المناهل وكل شرب كان فيه ناهل

المناهل : جمع منهل ، وهو : الموضع الذى ينزله الركب ، بشرط أن يكون فيه الماء والأخذ ، والناهل هو الشارب .

يقول رضى الله عنه : يشترط فى الشيخ أن يكون حل فى منازل السائرين ، وهى مقامات اليقين ، بحيث سلكها وعرفها : ذوقاً وحالا ومقاماً ، كتصحيح التوبة بشروطها وأركانها ، وتحقيق الورع والزهد ، والخوف والرجاء ، والتوكل والصبر ، والرضى والتسليم ، ومحبة والمراقبة ، والمشاهدة ، وحصل له الفرق بين الروحانية والبشرية ، والسلوك والجذب والمحو ، والبقاء ، وأحكم أحكام التخلية والتحلية ، وكل شرب ، من مشارب القوم ، وأذواقهم ، كان فيه ناهلا وشاربا ، فإذا حصل هذه المراتب ، وذاق هذه الأذواق : استحق أن يكون شيخاً مربياً ، كما أشار إليه بقوله :

فعند ما قام بهـذا الخطب قالوا جميعاً : أنت شيخ الركب

قلت : « الخطب » هو الشأن ، يعنى فعند ما قام بهذا الخطب الجسيم ، وتحقق فيه هذا السر العظيم ، استحق التقديم للتربية والترقية ، وقالوا له : أنت شيخ الركب ، حيث سلكت السبل وعرفت المناهل ، وحققت الطريق ، ووصلت إلى معالم التحقيق وعلمت المخوف والمأمون والمحذور منها ، وما اشتمل على أنهار وعيون ، فقد شهدت لك الأرواح بالتقديم ، والأسرار بالتعظيم ، وقد أشار الشريشى إلى شروط الشيخ ، فقال :

وللشيخ آيات إذا لم تكن له فما هو إلا فى لبالى الهوى يسرى
إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن ، فاضرب به لجج البحر

« علم الظاهر هو : علم الشريعة ، والعلم الباطن هو : علم الطريقة والحقيقة ، فإذا لم يحصل شيئاً من هذين العلمين ، ثم ادعى مرتبة الشيخوخة ، فأخرجه من سفينة دائرة الشيخوخة وألقه فى لجج بحر الفساق .

قال صاحب العوارف : ومن شرائط أهل الولاية أن يكون عالماً بالأوامر الشرعية ، عاملا بها ، واقفاً على آداب الطريقة ، وسالكا فيها ، وكاملا فى عرفان الحقيقة وواصلا إليها ، ومحصلا لجميع ذلك ، حتى يتم له السلوك ويشرف بعالم الوصال ، فالله الله أيها الطالب ، الحذر من صحبة الأشرار ، فإنهم قطاع الطريق واعتصموا بحبل القرآن والأحاديث النبوية .

وقال أبو الحسن الششترى رضى الله عنه : لا يقتدى فى طريقنا هذه بظاهر ولا بباطن » .

وإنما يقتدى بمن جمع بينهما مع الزهد الظاهر والإيثار والورع والعلم بالمنازلات والأحوال والمقامات والخواطر .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « من لا يكتب الحديث ، ويحفظ القرآن لا يقتدى به فى هذا الأمر » فيجب على المريد ألا يقتدى إلا بالعالم المتجرد عن الدنيا العامل بما يعلم . ثم قال . ولا يتخيل لطالب هذا الأمر أنه يبلغه بذكائه أو ينظر فى كتب الصوفية أو الحكماء ويعمل ويجتهد ويصلى . لا والله ما الأمر هين .

واعلم أن ما شرطه الشيخ الشريشى فى شيخ التربية من العلم الظاهر والباطن صحيح .

أما العلم الظاهر ، فالمطلوب منه تحصيل ما يحتاج إليه فى نفسه فقط ، ويحتاج إليه المريد فى حال سيره ، وهو القدر الذى لا بد منه من أحكام : الطهارة ، والصلاة ، ونحو ذلك ، إذ كثير من العلوم الظاهرة لا مدخل لها فى السير والسلوك إلى ملك الملوك ، كالدماء ، والحدود ، والطلاق ، والعتاق ، فإلا يرم الخط من رتبة كثير من فحول الطريق وأعلام الوجود ، والتحقيق ، فقد كان كثير منهم متضلعين بعلوم الشريعة ، وكثير منهم ليس عنده إلا ما يخصه من القدر الذى لا بد منه .

قلت إذا عرفت هذا عرفت بطلان قول من قال : إن شيخ التربية لا بد أن يكون جامعا للعلوم كلها ، بحيث لو انقطعت العلوم كلها لأحياها ، كيف وقد وجد كثير ممن اتفق الناس على تربيته وهو أمى :

قال فى العوارف : لما قال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه ، صحبت أبا على السندى (بالسين) ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وهو يلقنى التوحيد والحقائق صرفا .

ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد رضى الله عنه لم يفتح له إلا على يد رجل أمى ، وكذلك العراقى .

ومن المعلوم أن العزوانى لم تكن له يد فى العلم الظاهر ، فكان إذا جاءته فتيا فى علوم القوم أرسل بها لتلميذه الحبطى .

وكذلك شيخ شيوخنا . سيدنا عبد الرحمن المجذوب ، لم يكن له معرفة بالعلم الظاهر ، وكثير من الأولياء الأكابر كانوا أميين ، وفى أسرار الولاية راسخين .

وأما العلم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام ، إذ المقصود بالذات هو الشيخ المطلع عليه عند القوم هو هذا العلم ، لأن المريد إنما يطلب الشيخ ليسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة ، فيكون عنده علم تام بالله ، وصفاته ، وأسمائه ، ومتعلقاتها ، وأحكامها ، وتفاصيلها ، وفوائدها وحكمها ، وأسرارها ، وعلم تام بآفات الطريق ومكايد النفس والشيطان ، وطارق الفوائد ، وتحقيق المقامات ، قد حصل له ذلك على سبيل الذوق والوجدان ، بحيث إذا استخبر عن آفات الطريق وعلاماته ، وعن حقيقة المقصد يخبر بحقيقة الأمر على ما هو عليه وحصلت له مع ذلك قوة وتمكن من دفع الموانع ، وقطع العلائق الظاهرة والباطنة ، وبصيرة نافذة ينظر بها فى قابلية المريدين والمسترشدين ، واستعداداتهم بحسب كل أحد على ما كان قابليته ، ويعين له طريقاً قريباً يفضى منها إلى ربه (قاله العامى) .

وقال الساحلى : من الشروط التى لا بد منها فى الشيخ أن يكون عنده من الكتاب والسنة ما يقيم به ما لا بد منه فى الرسوم الشرعية ، وما يبنى عليه وظائف سلوكه ، وإذا اضاف إلى ما يمنح الله به عبده من الحكمة فى باطنه ، فإنه يكون له فى ذلك نور يمشى به فى الناس ، ويهديه إلى فهم خطابات الكتاب والسنة ، إلى آخر كلامه .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه كل شيخ لم تصل إليك الفوائد منه من وراء حجاب ، فليس بشيخ .

قلت : ولعله يشير إلى أن الشيخ الكامل يمد تلميذه ولو كان بعيداً عنه فى الحس .

وقال أيضاً : والله إنى لأوصل الرجل إلى الله من نفس واحد .

وقال : الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته .

قلت : وقد لقينا والحمد لله فى زماننا هذا من يعنى بالنظر ، صحبناهم وعرفناهم على قدم الشاذلى ، والمرسى رضى الله عن جميعهم ، ونحرط فى سلكهم آمين .

ثم إذا توفرت فيه شروط الشيخوخة ولم اتباعه فى طريق الخصوص ، وإلى ذلك أشار بقوله :

واصدقوا من حوله يمشون وكلهم إليه يوزعون

قلت : أصدق القوم بالشىء : داروا به ، ويوزعون ، أى يضمون ويحشرون

يقول رضي الله عنه : لما تحقق الناس بوجود شرط الشيخوخة فى هذا الولى ، واطلعوا على وجود السر عنده أحدقوا به وداروا من خلفه ، يقتدون به ويهتدون بهديه ، ويمشون على سننه ، وكلهم يضمون إليه ويقربون من حضرته ، لعل نفحات تهب من ناحيته فوالله رجالا من نظروا إليه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وهم العارفون بالله .

وقال فى العوارف : إن نظر العلماء الراسخين والرجال البالغين ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستنشق بنفوذ بصيرته ، حسن استعداد الصادق واستنهاله مواهب الله تعالى الخاصة ، فيقع فى قلبه محبة الصادق المريد ، وينظر إليه نظرة محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى ، فيكسبون بنظرهم أحوالا سنية ، ويهبون آثاراً مرضية ، وماذا ينكر المكر من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكما جعل فى بعض الأفاعى من الخاصية إذ نظر إلى الإنسان يهلكه بنظره ، هو قادر بأن يجعل فى بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالا وحياة . اه .

وقال فى لطائف المنن : إنما يكون الاقتداء بولى دلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته ، وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد ، يعرفك بمعونات نفسك وكمائنها ودفائنها ، ويدلك على الجمع على الله والفرار مما سوى الله ، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله : يوقفك على إساءة نفسك ، ويعرفك بإحسان الله إليك ، فيفيدك معرفة إساءة نفسك : الهرب منها ، وعدم الركون إليها ، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه ، والدوام على ممر الساعات بين يديه .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه .

الشيخ : من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك بالتعظيم .

الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه ، وأنار باطنك بإشراقه .

الشيخ : من جمعك فى حضوره وحفظك فى مغيبه .

وقال أيضاً (فى لطائف المنن) : ليس شيخك من أخذت عنه .

وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذى سرت فيك إشارته .

وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب .

وليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك من نهض بك حاله .

شيخك هو : الذى أخرجك من سجن الهوى ، ودخل بك على المولى .

شيخك هو : الذى مازال يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله ، فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بينه وبينه ، فرح بك فى نور الحضرة ، وقال : ها أنت وربك .

هالك على الولاية من الله ، وعواطن الأمداد من الله ، وبساط اللقى من الله .

ثم ذكر كيفية تسييره للمريدين ، فقال :

فرتب القوم على مراتب ... ما بين ماش : راجل وراكب

قلت : ينبغى للشيخ أن يكون ماهراً بالسير ، عارفاً بأحوال السائرين ، فيرتب القوم على مراتب ، فمن كان ضعيفاً فى السير عالياً من الحال الحاملة له : جعله فى وسط الركب يمشى خلف من سبقه ، ويسيره من خلفه ، ومن كان قويا فى سيره محمولا على نجيب حاله ، قدمه مع المتقدمين ، ليسير خلفه المتوسطون والمتأخرون .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : الماشى عبارة عن صاحب الأحوال والحركات الجسمية ، والراكب : إشارة إلى الحصول بحال أو عمل أو ذكر أو فكر ، توجه له على بساط معرفة ، وربما يفعل بهم ذلك ، لأن قوة الناس معينة لصاحبها على مراده ، والله تعالى يضع العبد بحيث على قدر همته ، فلذلك تجد المسالك واحداً ، والفتح مختلفاً ـ تسقى بماء واحد ، وتفضل بعضها على بعض فى الأكل ـ هذا فى شأن الأشجار النابتة ، فكيف بالحقائق المعنوية ، وما صحب أحد قط وليا إلا نال منه ما تقضى همته فإن وافقت نيته همته حصل الانتظام ، وإلا وقع الاختلاف .

قلت : يعنى أن نية المريد : إن وافقت همة شيخه ، وقع الانتظام فى سلك الشيخ ولحق به ، وإن كانت نية المريد مخالفة لهمة الشيخ بأن تكون نية المريد التبرك فقط ، أو دخل معه على شرف من الدنيا ، وهمة الشيخ فيه الوصول ، فإنه يقع الاختلاف ، ولا ينال

عنه الا ما نوى ، إلا إن سبقت له من الله سابقة ، فلا بد أن تنهضه همة الشيخ إلى ما سبق له ، والله تعالى أعلم .

ثم إن دوام السير يوجب الملل ، فلا بد لاستعمال ما يوجب الراحة ، ليحصل النشاط فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أريحوا القلوب : ساعة بساعة[1] » ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه « إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا إليها طرائف الحكمة » .

وإلى ذلك أشار الناظم بقوله :

وحيث كلت نجب الأبدان ... قال : احدها يا حادي الأظعان
فمن هنا يلقب القوال ... حادي الأجل حدوه الرجالا

قلت : الكلال هو الاعياء ، وعبد كل : أي ثقيل ، وكلت الأبدان : عيبت ، والنجب جمع نجيب ، وهي الناقة الجيدة ، وحدا يحدوا حدواً بمعنى : غنى بالإبل ليسيرها ، فهو حاد أي مغن ، والأظعان : جمع ظعينة ، وهي الناقة المرحلة ، وتطلق على المرأة الراكبة عليها مجازاً ، واللقيب هو : إحداث اسم يشعر بالمدح أو الذم ، وقد نهى الله تعالى عن اللقب المشعر بالذم ، فقال ـ ولا تنابزوا بالألقاب[2] ـ وأطلقه الناظم هنا على مجرد التسمية أي : وسموا القوال الذي يغني حادياً للأجل حدوه بالرجال السائرين ، وحقه أن يقول حدوه لأنه منصوب ، لكنه جرى على لغة من يقدر الإعراب كله في المنقوص .

يقول رضي الله عنه : وحيث دوام السير ، وحصل الملل ، وكلت الأبدان في الخدمة أو القلوب في الفكرة ، أو الأرواح في النظرة ، أو الأسرار في المكوف في الحضرة وخيف عليها حصول الفترة ، قال الشيخ ، أو نائبه ، لمن يحسن الغناء : أحد بهذه القلوب أيها الحادي ، وذكرها معاهدها الأصلية ، ومواطنها القدسية ، فيغني بما يليق بكل واحد في محله ، ولهذا المعنى اتخذوا قوالا في حلقة الذكر ، لأنه يهيج وينشط ، ويحسن أيضا بعد تمام الذكر خشية أن يكون حصل شيء من الملل ، فيروح لذلك .

والحاصل أن من سياسة الشيوخ إعانة المريد بما يقتضيه حالها على ما هو المراد منه

(١) رواه أبو داود في مراسيله ـ وأبو بكر بن المقرئ في فوائده والقضاعي عن ابن بلفظ : « روحوا القلوب ساعة فساعة » .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١١

ثم إن الطباع مختلفة وأحوال السالكين مفترقة ، فمنهم من تنتعش قواه بالمعارف والعلوم ، فيذكر له منها ما يقوى حاله بوجه يشوق ولا يشوش .

ومنهم من ينتعش حاله بالتذكير والوعظ ، فيكون تذكيره عوناً له على سلوكه ، ورضاً لهمته .

ومنهم من ينتعش قواه بالمذاكرة في العلوم واستخراج دقائق المفهوم ، فيكون ذلك منهضا له في حاله ، فيؤتى كل أحد بما يعشه ، وإليه تشير الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى ـ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن[1] ـ فأهل الصدق يكفي فيهم الدعاء إلى الله بالحكمة ، وهي الهمة القوية .

وأهل الاعتقاد والتسليم يكفي فيهم الدعاء بالموعظة الحسنة .

وأهل الانتقاد يجادلهم بالتي هي أحسن ، فإن سبقت لهم سابقة نفعهم التذكير ، وإلا فإنما أنت نذير .

ومن الناس أيضا من ينتفع بالحكايات وذكر الكرامات .

ومنهم من يتأثر بالشعر والسماع .

ومنهم من يتأثر بنغم الأوتار وآلات الطرب .

ومنهم من يتأثر بسماع الزمارة والكبر ، ومنهم من يتأثر بسماع الطبور والبندير وغير ذلك من آلات اللهو .

وفي ذلك يقول الشاذلي رضي الله عنه فيما نسب له :

ومنا من يهيم على سماع ... ببندير وعود وقرطار
ومنا من يهيم على علوم ... وقرآن وذكر وافتكار

قال بعض الحكماء : من سار الى الله بطبعه كان وصوله أقرب إليه من طبعه ، ومن سار الى الله بأبعد من طبعه كان وصوله على قدر بعده من طبعه ، وذلك يقتضي له الاستهلاك قبل الوصول ، فلا يقسم برؤية الحق إلا في آخر نفس من وجوده ، إن وجد ، وإلا فهو عبد في دعواه ، ومحجوب برؤية نفسه .

قلت : وطريق الشاذلية من سار إلى الله بطبعه ، فكان وصولها أقرب إليهم من طبعهم ، لأنهم بنوا أصولهم وطريقهم على رؤية الحق والفناء فيه بأول قدم ، حسبما استقرى من

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٥

أحوالهم ، فهم يتعمون برؤية الحق فى أول قدم . ولذلك قال القطب ابن مشيش رضى ا عنه : « من دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على ا فقد نصحك » فالدلالة على الله هى الغناء فيه والانحياش ، والعيبة هما سواء ، وعلى هذا م الشاذلية طريقهم ، حققنا الله بمعرفتهم . آمين .

ثم بين حقيقة هذا السفر فقال :

والسفر المذكور بالقلوب ... والشيخ فى منزلة الطبيب

قلت: السفر هنا هو سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، وهو من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن :

يسافر أولا من موطن الذنوب والغفلة إلى موطن التوبة واليقظة .

ويسافر ثانيا من موطن الحرص على الدنيا والانكباب عليها إلى موطن الزهد فيها والغيبة عنها .

ويسافر ثالثاً من موطن مساوىء النفوس وعيوب القلوب إلى موطن التخلية منها والتحلية بأضدادها .

كما قال فى الحكم : اخرج من أوصاف بشريتك من كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق مجيباً ، ومن حضرته قريبا .

ويسافر رابعاً من عالم الملك إلى شهود عالم الملكوت ، ثم إلى شهود الجبروت ، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو من عالم الأشباح الى شهود عالم الأرواح ، أو من شهود الكون الى شهود المكوّن .

وهذا السفر إنما هو معنوى ، كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها فى ردها عن عوائدها ومألوفاتها ، وفى تخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل .

وفى الحكم : لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، لا مسافة بينك وبينه ، حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك .

وقال أيضا : كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ، إلى آخره .

وكما أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب فى معرفة الطريق ، هو أيضا بمثابة الطبيب للذوات

فهو طبيب القلوب بما علم وعرف من أحوالها ، وعالج من أمراضها ، وبما شاهد وذاق من أنوارها وأسرارها .

وقد أشار الفضيل رضى الله عنه إلى هذا حيث قال : العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرىء غيره ، وأنشدوا :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال آخر :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا ... ومن الضنى وجواه أنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا ... نصحاً وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه ، فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ولما كان علم الطب مركباً من علم وعمل ، هو صنعة العقاقير ، أشار الناظم إلى بعض ذلك بقوله :

يعلم منها الغث والسمينا ... ويدرك الصلب منها واللينا

قلت : الغث اللحم الهزال ، وهو ضد السمين ، والصلب هو الشديد اليبوسة ، وهو ضد اللين .

يقول رضى الله عنه : إذا كان الشيخ بمنزلة الطبيب ، فلا بد أن يكون له اطلاع على القلوب ، واستشراف على النفوس يعلم ما كان منها غثا ضعيفاً من العلم والعمل والحال ، خاليا من اليقين ، خرابا من النور ، فيعامله معاملة الجائع الهزال ، فيعطيه من الأذكار ما يقويه على حاله ، ومن الأعمال ما ينميه عن أشكاله ، ويمد باطنه من مدد الهمة ما يسد به فقره ويجبر به كسره .

ويعلم أيضاً ما كان منها سمينا بعلم أو عمل حال ، أو بنور يقين أو معرفة أو غير ذلك ، فيعامله بالترقية والتربية اللائقة به ، وإذا كان سمنه مفرطا رده إلى الوسط ، فخير الأمور أوسطها .

وقد رد رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص عن صيام الدهر وقيام الليل : لـكنه غلبت عليه القوة فتمسك بذلك ، ثم ندم .

ويكون أيضاً حال هذا الشيخ الطبيب يدرك القلب الصلب ، وهو القاسى من كثرة الذنوب والغفلة ، فيحمله على التوبة ، ويوقظه من الغفلة ، ويأمره بما يلين قلبه ، كالصيام وصحبة الفقراء وقيام آخر الليل ، وغير ذلك مما يزيل علته وقساوته .

ويدرك القلب اللين بالخشوع والخضوع ، فيأمره بالترقى إلى مقام الإحسان ، ويطوى عنه مساعة أعمال الجوارح ، من أعمال أهل الإسلام والإيمان . وهكذا يعامل كل قلب بما يناسبه .

قال فى العوارف : ينبغى للشيخ أن يتفرس فى المريد ويعامله على حسب صلاحيته واستعداده ، ثم قال : ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ، ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ، فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض ، وأعمال القوالب وطريق الأبرار ، ومن المريدين من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ، ولـكل من الأبرار والمقربين نهايات وبدايات ، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البـــواطن ، يعرف كل شخص وما يصلح له ، ومن العجب أن الصحراوى يعرف الأرضين والفرس ، ويعلم كل فرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعرف قطنها وما يتأتى منه من الغزل : دقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح .

فمنهم من أمره بالإنفاق .

ومنهم من أمره بالإمساك .

ومنهم من أمره بالكسب .

ومنهم من أقره على ترك الكسب ، كأصحاب الصفة ، فـكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لـكل أحد .

فأما فى رتبة الدعوة فـكان يعمم الدعوة ، لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة ، يدعوا على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ثم تمم أوصاف الشيخ الطبيب ، وهو العلم والعمل ، فقال :

ويعلم البسيط والمركبا وما بدا منها عليه واختبا
والطبع والمزاج والتركيبا والكون والتحليل والتوطيبا

قلت : البسيط هو المفرد الذى لم يتركب من جواهر ، والمركب ضده ، وبدا الشىء ظهر ، واختبا (بالباء) : بمعنى استتر ، ومنه الخبء فى قوله تعالى — يخرج الخبء فى السموات(١) — أى المستتر والمخبأ فيها ، والطبع ما جبل عليه الإنسان من خوف أو شجاعة أو بخل أو كرم ، أو غير ذلك .

والمزاج : ما ركب منه بدنه كالحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة ، وغير ذلك .

والتركيب : إضافة الشىء إلى غيره كتركيب العقاقير والأدوية .

والكون : ما كان عليه الجسم من صحة أو مرض .

والتحليل : هو تذويب ما تجمد ، كتحليل ما انعقد فى جوف الإنسان من العلل بدواء ونحوه .

والتوطيب : تليين ما صلب ويبس .

يقول رضى الله عنه : لا بد للشيخ أن يكون عالماً بأحوال القلوب ، عارفاً بعللها ، عالماً بعلاجها ، يعلم ما كان منها بسيطاً ، أى مفرداً من حب الأشياء ، ليس فيه إلا قصد واحد ، وهم واحد ، ومحبة واحدة ، وهو الذى أشار إليه الجنيد رضى الله عنه حين قالوا له : كيف يصل العبد إلى التحقيق ؟ فقال : بقلب مفرّد ، فيه توحيد مجرد ، بعد تحصيل أمور ذكرها قبل ، فهذا القلب سهل العلاج قريب الصحة ، لأن المرض إذا كان مفرداً قرب علاجه ، وهذا القلب حين سلم من تشعيب الهموم ، ولم يبق له إلا هم واحد ، لم يبق فيه إلا مرض واحد ، وهو حجاب الوهم ، فعلاجه فى ترقيته ورفع حجابه ، بخلاف القلب الذى تشعبت فيه الهموم ، فهو أصعب فى العلاج لتركيب أمراضه وتراكم علاجه ، وهو المراد بالمركب .

---

(١) سورة النمل الآية : ٢٥

وقد قال بعضهم : القلب كالمعدة ، والمعدة بيت الداء ، فإذا كثرت عليها الأخلاط مرضت وفسدت ، وعلاجها الحمية من الأخلاط ، وكذلك القلب إذا كثرت عليه الهموم والخواطر ، فسدت فكرته ، وانطمست مرآة بصيرته ، وإذا قلت عنه الهموم والخواطر سلمت فكرته ، وانصقلت مرآته .

وفى الحديث عنه ﷺ « من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال به الله فى أى أودية الدنيا هلك »(١) .

وعلاج هذا بالعزلة والصمت ، وإخراج الدنيا من يده ، إلا قدر ضرورته .

ويحتمل أن يريد بالبسيط والمركب : نفس العيوب التى هى مرض القلب ، فيعلم الطبيب الذى مرضه بسيط ، وهو الذى فيه مرض واحد ، والقلب الذى مرضه مركب ، وهو الذى كثرت علله وأمراضه ، فيعالج كل واحد على قدر علله وأمراضه ، ويدل على هذا الاحتمال قوله : « وما بدا منها عليه واختبرا » فإن المراد به المرض الظاهر ، كعاصى الجوارح الظاهرة ، والمرض الخفى كعاصى القلوب الباطنة ، وهى أصعب فى العلاج كالرياء والعجب ، والكبر ، وحب الجاه ، والرياسة ، والمدح ، وغير ذلك من الأمراض .

وفى الحكم : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومدارة ما يخفى صعب علاجه .

وقال أيضاً : تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال .

وقال أيضاً : لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ، فدواء الأمراض الظاهرة التزام التوبة والتقوى والاستقامة ، فإن صعبت عليه فيلزم صحبة الشيخ ومداومة الجلوس بين يديه ، أو تكرار المجىء إليه ، فإن نظر الشيخ ترياق ، فإن صحبه ولم يشف من مرضه فليعلم أن صدقه ضعيف ، أو شيخه ضعيف ، فإن الشيخ إذا كان له

---

(١) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود . ولفظه — كما فى الفتح الكبير — « من جعل الهموم هما واحداً : هم المعاد : كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك » .

يمشى به فى الناس جامعاً بين جذب وسلوك ، لا يمكن أن يصحبه العليل بالصدق ولم يشف من ساعته .

وقد قالوا : سيدى ابن سيدى هو : الذى يحل عن قيودى .

وقال شيخ شيوخنا سيدى العربى بن عبد الله : طريقنا كالسكين الماضية ، يأتيها الرجل مكبلا بشهواته فتقطع يده من ساعة ، فكل من صحب شيخاً بالصدق ولم يفك عنه كبل المعاصى ، فلينظر شيخاً آخر ، والله تعالى أعلم .

والفرق بين الاحتمالين : أن الأول جعل البسيط والمركب من صفة القلب ، والثانى جعله من صفة المرض ، وهو أليق بما بعده ، ويعلم أيضاً هذا الشيخ الطبيب : طبع المريد ، وما جبل عليه من قبض أو بسط ، أو شح أو كرم ، أو سخاء أو خوف ، أو شجاعة ، أو غير ذلك من الطبائع ، فيعالجه بما يصلح لطبيعته ، فإن كان مقبضاً أمره بشىء من البسط ، وإن كان بخيلا أمره بالبذل والإيثار ، وهكذا يقابل الأشياء بأضدادها ، ويعلم أيضاً مزاج المريد ، هل هو بارد الهمة ، قليل الطلب أو هو حار متعطش ، السخانة غالبة عليه ، أو هو معتدل ، فإن رآه بارداً أمره بصحبة الفقراء والحك معهم ، أو دوام صحبته وإن رآه حاراً متعطشاً أمره بالقصد والتوسط فى الخدمة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا »(١) ، وقال أيضاً ﷺ : « لا يكن أحدكم كالمنبت ، أى المقطع ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »(٢) .

وإن رآه معتدلا سيره كذلك ، ويعلم أيضاً كيفية تركيب العقاقير والأغذية ، فمن رآه يليق به ذكروا حد : لقنه له بسيطاً ، ومن رآه يليق به ذكران أو ثلاثة ، لقنه كذلك ، ومن رآه يصلح للفكرة ، أمره بها ، ومن رآه يصلح للفكرة والنظرة ركبها له ، وكذلك

---

(١) ولفظ الحديث كاملا : « اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا ، وإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها .

(٢) هذا معنى حديث شريف لفظه : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » رواه البزار عن جابر .

الذكر مع الفكرة يركبهما لمن يقدر عليهما ، وهكذا ، ويعلم أيضاً كون القلب : هل هو سليم أو سقيم ، وهل هو أهل للخدمة أو للمحبة ، فإن القلب الذي لا يطيق أنوار المعرفة لا يصلح لصاحبه إلا اشتغاله بالخدمة ، ويعلم أيضاً تحليل العلل الجامدة ، وتذويبها ، كمن تمكنت فيه الرياسة والجاه ، فلا يحللها إلا الخراب الكبير والذل الكبير ، وكل ما يسقط من أعين الناس ، وكذلك من تمكن فيه حب الدنيا وجمعها ، لا يحلله إلا الزهد الكبير ، وكذلك من تمكن فيه الشح والبخل ، لا يحلله إلا العطاء والبذل ، وهكذا .

ويعلم أيضاً ترطيب العلل اليابسة كقسوة ، وغفلة ، وجمود العين ، وقبض النفس ، فيأمره بما يعالج كل داء على حدته ، فالقسوة تذهب بالذكر والتلاوة والتدبر والصيام والتضرع آخر الليل ، وقس على هذا ، والغفلة تذهب بملازمة الذكر ، ومراقبة الوقت ، وجمود العين تنفع فيه المواعظ والزواجر ، وقبض النفس تنفع فيه مذاكرة ما يقوى الرجاء ويوجب الفرح ، وهكذا .

وهذا الذي قلته ليس هو عين الدواء وحده ، إنما نبهنا على الأصل المهم ، وليقس ما لم يقل ، ثم كمل أحوال الشيخ الماهر ، فقال :

قد أحكم التشريح والمفاصل وصار علم الطب فيه حاصل

قلت : علم التشريح هو : علم الطب ، وسمى علم التشريح لأنه يشرح بواطن الحيوانات ويعلم دواخلها وأسباب عللها وصحتها ، وفسادها ، ويعرف طبائعها وأمزجتها ، فهو يشرح ذلك شرحا بالتجربة والاطلاع ، حتى إن أطبة العجم يشقون على جوف الميت وينظرون علته ، التي أعضلتهم فيعالجونها بالأمور المحللة ، حتى تنحل ، ليعرفوا كيفية علاجها في غيره .

وعلم المفاصل هو : ما يتعلق بعلاج الجوارح الظاهرة ، كالوجع الذي يكون في مفاصل اليدين ، والرجلين وسائر الجوارح .

وقد قيل : إن في الإنسان ثلاثمائة وستة وستين مفصلا ، على عدد أيام السنة ، كل مفصل قائم بحكمة الله وقدرته ، نصفها متحرك ونصفها ساكن ، فإذا سكن المتحرك أو تحرك الساكن [illegible] فيحتاج إلى علاج ، فيكون الطبيب عالماً بما يعالجه .

وعلم الطب هو : العلم بالطبيعات السبعة ، والضروريات الستة ، والأمور الخارجة عنها وهي ثلاثة ، والعلم بخواص العشب وتركيب الأغذية والعقاقير .

يقول رضي الله عنه : يشترط في الشيخ أن يكون قد أحكم علم تشريح القلوب ، واطلع على أسباب فسادها وصلاحها وصحتها وسقمها ، عارفاً بعلاج أمراضها وعللها ، علم ذلك ببصيرة نافذة ومكاشفة عينية قد عالج نفسه وطهرها ، وطهر قلبه من صدإ الحس وصفا مرآته من صور الأكوان ، فإذا كان فعل ذلك ، فإن قلبه يصير كالزجاجة الصافية ، فينطبع فيه بواطن المريدين ، فيعالجهم بما يتجلى فيه من أمورهم ، بإذن الله .

يقع الشفاء بمجرد المواجهة والمقابلة ، وهذا الذي شهدناه من أشياخنا ، ولذلك قال بعضهم : إن تربية الشاذلية إنما هي بالهمة والحال ، يعني أن الغالب فيها نهوض الهمة والحال أكثر من نهوض الاصطلاح والمقال ، وإلا فالجميع موجود والحمد لله .

هذا معنى كلامه ، والله تعالى أعلم .

ويشترط فيه أيضاً أن يكون أحكم علم المفاصل ، ويعني به ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، فيكون جامعاً بين علم الشريعة وعلم الحقيقة ، وقد تقدم أنه إنما يحتاج منها لما يلزمه في خاصة نفسه ، أو ما يتوقف السير عليه من إتقان ما كلف به الإنسان ، (راجع ما تقدم) .

ويشترط فيه أيضاً أن يكون علم الطب (أي طب القلوب) صار حالا فيه راسخاً في معرفته ، قد شفا الله على يديه خلقا كثيراً ، وجما غفيراً .

وأما من لم يعرف بالتداوي والشفاء ، ففيه غرر ، وفي صحبته خطر .

قال الإمام أبو حامد رضي الله عنه : وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة ، حتى إن الطبيب لا يعالج العليل ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، هل هي ضعيفة أو قوية ، فإذا عرف التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمن ، وصناعة المريض ، وسنه وسائر أحواله ، فيعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغي ألا يهجم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وطريق مخصوص ، ما لم يعرف أفهم خلا وأمراضهم .

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، لقتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ ، لو أشار [illegible]

قلت : فينبغى للشيخ أن يتفرس ببصيرته فى حال المريدين ، فمن رآه يصلح للتجريد لقوة يقينه أو خفة مؤونته ، جرده ومن رآه لا يصلح له تركه فى الأسباب ، ومن كان أهلا للخرقة ألبسه إياها ، ومن كان غير أهل لها : تركه فى لباسه ؟ ومن كان أهلا للعزلة أمره بها ، ومن كان قد استأنس بها أمره بالخلطة لقوة حاله ، ومن كان ذا جاه ورياسة أمره بالخرابه والسؤال(١) ونحوه ، ومن كان عاملا أمره بما يليق به ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

ثم تمم أحوال الشيخ فقال :

وكل عشاباً وصيدلانى قدحا وكحّالا ومارستانى

قلت : العشاب هو الذى يعرف أعيان العشب ومنافعها وخواصها ، وهو من شأن الأطباء ، والصيدلانى هو : الذى يعرف أنواع العطريه التى تتركب منها المعاقير : منسوب إلى صيدلة وهو : العطر ، قاله فى القاموس .

والقدح وهو : إخراج الماء الفاسد من العين ، ويقال الفاعل : قداح ، والكحال هو الذى يعرف أدوية العين ويعالجها بأنواع الكحل ، والمارستانى هو الذى جمع أنواع الطب فيعالج أنواع المرض فى أشخاص مختلفة ، والمارستان : دار كبيرة معدة للمرضى ؛ والقائم عليها يسمى المارستانى ، ولا يكون إلا ماهراً بالطب ، عالماً بأنواعه ، وقد أخبرنى من أثق به أن الروم عندهم مارستان كبير ، وعليه طبيب ماهر ، يداوى كل من يأتيه ، ولهذا المارستان عندهم أحباس عظيمة ، يقوم بها على المرضى ، والمراد هنا هو طب القلوب .

يقول رضى الله عنه : يشترط فى طبيب القلوب ما يشترط فى طبيب الأبدان ، فيشترط فيه أن يكون عارفا بتركيب أدويه القلوب وأشربتها ، وأغذيه الأرواح واستنشاقها ، عالما بمنافع الأذكار وأدويتها ، ونتائج الأفكار ومعارفها ، فالأذكار كالأغذية للقلوب ، والعلوم كالأشربة لها ، والمذاكرة كالأغذية للأرواح ، والفكرة والنظرة كالأشربة لها . وصحبة العارفين والجلوس بين أيديهم فيه مدد كبير للقلوب والأرواح والأسرار ، هو عذاؤهم وشرابهم ، وفيه دواؤهم وشفاؤهم ، كل على قدر صدقه ومحبته ، وعلى قدر مقامه ومرتبته — قد علم كل أناس مشربهم — قال محى الدين بن عربى رضى الله عنه . ومتى لم يكن الطبيب يميز أعيان الأعشاب والعقاقير ، عارفا بتركيب الأدويه فإنه مهلك للمريض ، وبين العلم من غير العين لا يفيد ، فلا بد من عين اليقين ، ألا ترى لو كان للمشترب عرض فى إهلاك المريض ،

وإذا وصف الطبيب الدواء من جهة كونه عالماً به ، وهو لا يعرف شخص الدواء ، وقد اشترب فى ذلك فأعطاه الشاب ماقيه هلاك العليل ، وهو يقول : هذا مطلوبك ليسقيه الطبيب للمريض فيهلك ، فانه لا يداوى إلا بما يعرف شخصه وعينه ، فكذلك الشيخ إذا لم يكن صاحب ذوق ، وأخذ الطريق من الكتب لا من أفواه الرجال ، وقصد بين المريدين طالباً الرياسة ، فانه يهلك من تبعه ، لأنه لا يعرف مورد الطالب ولا مصدره ، فلا بد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء ، وتدبير الأطباء ، وسياسة الملوك ، وحينئذ يقال له : أستاذ ، وقوله ، قدحا ، على حذف مضاف ، أى ذا قدح أو يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل ، حالا ، أى قادحا ، كقولك جاء زيد ركضا أى راكضاً ، والمراد أن الشيخ لا بد أن يكون عارفا بادوية مرض البصيرة ، فان كانت فاسدة بشك ، أو كفر ، أو نفاق قدح عليها وأخرج ما فيها من فساد الإتيان(١) وأبدلها بالطمأنينة وصريح الإيقان ، وهذا الدواء يكون لأهل النور الكبير ، والعناية الكبيرة ، الذين ينظرون بالنظرة ، وإن كانت صحيحة الناظر ، إلا أنها مسدودة بمرض الحس والوهم ، أو مطموسة بالحرص والجزع والهلع ، وعلامة ذلك اجتهاد صاحبها فيما ضمن له ، وتقصيره فيما طلب منه ، عالجها له بكحل توحيد الأفعال ، حتى يتيقن أن الذى انفرد بالخلق والتصوير ، هو الذى انفرد بالحكم والتدبير ، وأن الذى غرس الشجرة هو ساقيها ، وأنائم عليها فيذهب عنه الهم والجزع ، والخوف ، والهلع ، والحرص ، والطمع ، ويصير قلبه واثقاً بمولاه ، غنياً به عما سواه وإذا فتحت البصيرة وظهر لها شعاع النور حتى أبصرت قرب الحق منها إلا أنها لضعفها لا تستطيع مقاومة شهود النور ، كحلها بكحل توحيد الصفات ، فاذا فتحت عينها وقويت على شهود النور المحيط بها ، لكنها لم يقو نورها حتى تتصل بالنور المحيط بها ، كحلها بكحل توحيد الذات ، وصل نورها بنور الحيرت ، فلا تشهد إلا النور ، فحينئذ يكمل شفاؤها وينجح دواؤها ، وهذا شرح قول ابن عطاء الله ، شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده ، لا عدمك ولا وجودك ، لكونه لا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان »(٢) .

وقوله : ومارستانى : أراد أن الشيخ لا بد أن يكون جامعاً لعلوم المعاملة ، عارفاً بأدويه

---

(١) أى يخرج ما يفسده

(٢) هذا لفظ حديث شريف صحيح .

الأمراض على اختلاف أنواعها وأصنافها قد قدمه أهل وقته ، وشهد له بذلك أهل فنه ؛ وهذا قد لا يشترط لعلية الخفاء على أهل هذا الفن ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ما بقي من أحوال الشيخ فقال :

أمهر في الأعراض والأخلاط ... من أسقلا جالينوس أو بقراط

قلت : التمهر في الشيء هو : التوسع في علمه ، والماهر هو : الواسع العلم ، وفي الحديث « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة(١) » ، أي الواسع في حفظه أو علمه ، والأعراض جمع عرض ، وهو ما يعرض للبدن من : أسقام ، وأوجاع ، وحرارة ، وبرودة ، وما يدل على وجود المرض ، هذا في علم الطب ، وهو عند المتكلمين أعم من هذا ، والأخلاط ما اجتمع في المعدة من العلل المتضادة الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة ، وأسقلا جالينوس (بفتح الهمزة وسكون السين وفتح القاف ولام مفتوحة ممدودة وجيم مفتوحة ممدودة ولام مفتوحة وياء ساكنة ثم نون مضمومة ممدودة ثم سين ساكنة) اسم حكيم من اليونان ، وكذلك بقراط (بضم الباء وسكون القاف) فيلسوف حكيم ، وكانا ماهرين بعلم الطب ، و « أمهر » اسم تفضيل معطوف على خبر كان منصوباً ، وأو بمعنى الواو .

يقول رضي الله عنه : يكون هذا الشيخ أمهر في علم القلوب من هذين الطبيبين الحكيمين ، وأراد بالأعراض كل ما يعرض للمريد في حال سلوكه من القواطع والشواغل ، كميله للرياسة والجاه ، وتقدمه للمراتب قبل كمالها ، وكميله لبدليا واشتغاله بالأسباب قبل توحيده ، وكمال بقائه ، وغير ذلك مما يقطع عن السير .

وأراد بالأخلاط : الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة ، فيكون الشيخ عارفاً بالخواطر النفسانية والشيطانية ، والملكية ، والربانية ، ويكون أيضاً عارفاً بالمقاصد السنية والدنية ، والهمم العالية والسفلية ، فيعالجه من الأخلاط بجمع قلبه على الله ، والغيبة عما سواه ، وبالصمت الدائم وتفرغ القلب على الدوام ، ويعالجه من المقاصد الدنية كحب الحظوظ وطلب الحروف ، بالدلالة على تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية الذي هو مطلب العارفين ، والله تعالى أعلم .

---

(١) ولفظه كاملا : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه ويتتعتع

وإذا تكاملت في الشيخ هذه الخصال : صح أن يقصده الرجال لشفاء ما فيهم من العلل ، كما أبان ذلك بقوله :

فقد ما صح له التحصيل ... يمنحه السقيم والعليل
فكان يبريهم من الأمراض ... والساخط القلب يعود راض

قلت : يريد فقد ما صح له تحصيل هذه الخصال على التمام والكمال ، فقصده السقيم ، وهو الذي خف مرضه ، والعليل وهو الذي : تناهت علته ، وقيل هما سواء ، فيكون من عطف التفسير ، فكان يبريهم من أمراض القلوب ، وأعظمها هم الرزق وخوف الخلق ، ثم التدبير والاختيار ، ثم الحسب والقنط عند نزول الأقدار ، فيعالجه بهمته ونور بصيرته ، ويلاحظه بنظرته حتى يمتلىء قلبه بنور اليقين ، فيستغني بالله عن كل ما سواه ، وتشرق عليه أنوار التوحيد ، فيستريح من كد التدبير والاختيار ، فحينئذ يذوق حلاوة الإيمان ، ويرضى عن الله في كل حال وأوان

وقد قال عليه الصلاة والسلام « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً(١) » .

قال في النور : فمن رضي بالله ربا استسلم له ، ومن رضي بمحمد ﷺ رسولا اتبعه ، ومن رضي بالإسلام ديناً عمل به .

قلت : ولا شك أن القلب إذا كان عليلا لا يذوق حلاوة الإيمان ، ولا يجد الطاعة ولا المناجاة لذة ، فمن السقيم لا يجد الطعام ولا الشراب لذة ، فإذا صح القلب ذاق حلاوة الإيمان ، ومن أركانه الإيمان بالقدر : خيره وشره ، حلوه ومره ، فيستحلي ما يبرز من عنصر القدرة كيفما كان ، إذ كل ذلك من عند الحبيب ، ولله در القائل حيث قال :

إذا كانت الأقدار من مالك الملك ... فسيان عندي ما يسر وما يبكي
رضيت بما يقضي الإله فأمره ... يقابل بالإقبال عند ذوي الفك
وإن ضل الإنسان نار مشقة ... فما الذهب الإبريز إلا أخو المسك

---

(١) رواه الإمام مسلم ، وأحمد ، والترمذي عن العباس بن عبد المطلب .

أخو الصبر لا يخشى أموراً وإنما ... يهنأ في الحالين من غير ما شك

قوله: «والساخط القلب يعود راض» هذا علامة الشفاء، فما دام العبد ينقبض عند الجلال والشدة، وينبسط عند الجمال والرخاء ففيه بقية من مرض القلب، فإذا استوت عنده الأحوال، فذلك علامة الصحة على الكمال، ويتصل بمقامات الرجال.

سئل ذو النون المصري رضي الله عنه عن وصف الأبدال، فقال: «سألت عن دياجي الظلام، لأكشف لك عنها، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم، لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله تعالى النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال بإرادته. وأفرغ عليهم من مخافته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللا من شبح مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي متعلقة بمواصلته، فهممهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فقدي فداووه، أو مريض من فراقي فعالجوه، أو خائف مني فانصروه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فمنوه، أو راحل نحوي فزودوه، أو جبان في متاجرتي، فشجعوه أو آيس من فضلي فرجوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواصلوه، أو معظم لقدري فعظموه، أو مسيء بعد إحساني فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه» انتهى كلامه رضي الله عنه.

ثم نبه على المقصود بهذا العلم، فقال:

وليس هذا طب جالينوس ... وإنما يختص بالنفوس

قلت: نبه رحمه الله على أن هذا الطب الذي ذكر ليس هو طب الأبدان الذي كان يعرفه جالينوس الحكيم، وإنما هو طب النفوس لتصلح لحضرة القدوس، وطب القلوب لتصح من الأمراض والعيوب، وتتهيأ لدخول حضرة علام الغيوب، فتخرط في سلك — من أتى الله بقلب سليم — ويكون — في مقعد صدق عند مليك مقتدر — في جوار الكريم، متعنا الله بالسكنى في حضرته في الدنيا والآخرة

ثم ذكر قلة هذا الطب في زمانه، فقال:

فهكذا الشيوخ قدماً كانوا ... يا حسرتي إذ سلفوا وبانوا

قلت: الإشارة تعود على ما ذكر في الفصل في أحكام الشيوخ، من معرفتهم بالطرق ومسالكها: سهلها ووعرها، ومعرفتهم بطب القلوب وأنواع الأدوية والعقاقير، وعلمهم بعلل النفوس وأمراضها، ثم تأسف وتحسر على ذهابهم، أي فراقهم دار الدنيا، وسكناهم دار البقاء، ولكن لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه.

وقد وردت أخبار في مدح مقام الشيوخ والتنويه بقدرهم عند الله.

قال في العوارف: ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالنصيحة(١)».

وهذا الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة والدعوة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحبب عباد الله إلى الله لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال الله تعالى — قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله(٢).

ووجه كونه يحبب الله تعالى إلى عباده، لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس: انجلت مرآة القلب، وانعكس فيها نور العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى — قد أفلح من زكاها(٣) — وفلاحها بالظفر

---

(١) وورد في الحديث: «إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده» رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن مرسلا. وقال عليه الصلاة والسلام: «حببوا الله إلى عباده يحببكم الله» رواه الطبراني والضياء المقدسي.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ٣١

(٣) سورة الشمس: الآية: ٩

بمعرفة الله ، وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة بنفاستها بكنهها وغايتها ، فيكشف البصيرة حقيقة الدارين ، وحاصل المنزلين ، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية ، فالشيخ من جنود الله تعالى ، يرشد به المريدين ، ويهدى به الطالبين .

ثم قال : فعلى المشايخ وقار الله ، وبهم يتأدب المريد ظاهراً وباطنا ، قال الله تعالى — أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[1] — فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة المتقين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه عز وجل : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى ، جعلت همته ولذته فى ذكرى ، فاذا جعلت همته ولذته فى ذكرى ، عشقنى وعشقته ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سهى الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم » . انتهى .

ثم أشار إلى الحكم الثانى من أحكام التصوف فقال : (الحكم الثانى فى حكم الاجتماع) .

أعلم أن الاجتماع عند القوم هو أعظم الأركان وأهمها ، حتى قال بعضهم : التصوف مبنى على ثلاثة أركان : الاجتماع ، والاستماع ، والاتباع ، فكل من انفرد عن الإخوان واشتغل بنفسه لا يجىء منه شىء ، والمؤمنون كالشياه ، فاذا انفردت شاة عن الغنم ، كانت من سهم الذئاب ، وقد رغب الله فى الاجتماع ، قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان — وقال صلى الله عليه وسلم « يد الله مع الجماعة[2] » .

وعن معاوية رضى الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا ، قال : والله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما إنى لم

(١) سورة الأنعام : الآية : ٩٠

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عباس .

استحلفكم تهمة لكم ، ولكنه جاءنى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيآتكم حسنات » .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس : إن لله سرايا من الملائكة تجول وتقف على مجالس الذكر فى الأرض ، فارتعوا فى رياض الجنة ، قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا فى ذكر الله ، وذكروا أنفسكم : من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه »[1] .

وقوله عليه الصلاة والسلام « وذكروا أنفسكم » أى ليذكر بعضكم بعضا ، فالمذاكرة هى أعظم الذكر ، لأن فيها علماً وذكراً لله ، ومجالس الذكر تصدق بمجالس العلم ، والذكر والمذاكرة ، وما زال الأشياخ رضى الله عنهم يوصون أصحابهم بالاجتماع ، ويحضون عليه .

وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إذا رأيتم أحداً انقطع عنكم فتداركوه قبل أن يموت ، ومعناه رجوعه عن الطريق .

وكان للشاذلى رضى الله عنه تلميذ يحضر مجلسه ، ثم انقطع عنه ، فلقيه ذات يوم ، فقال : مالك انقطعت عنا ؟ فقال له : قد استغنيت بك عنك ، فقال له رضى الله عنه : لو استغنى أحد بأحد ، لاستغنى الصديق عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه حتى مات ، فانقطاع الفقير عن الاجتماع ، أو عن الشيخ من أعظم القواطع ، والله تعالى أعلم .

وذكر الشيخ فى هذا الفصل سبب الاجتماع ، وبدايه ، ووقته ، وأهله ، وثمرته ، فأشار الى الأول بقوله :

فكان إذ ذاك اجتماع القوم ... له بعلم عمل عن علم

قلت : لما كان الاجتماع على الشيخ مرتباً على معرفته والتحقق به ، استتبع الفصل بقاء

(١) ويؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس » إلى آخر الحديث ، وهو طويل رواه الترمذى ، والبخارى ومسلم ، والإمام أحمد .

السببية ؛ والإشارة تعود على شروط الشيخ المتقدمة ، أى فمكان حين حصل ذلك الأمر المتقدم فى الشيخ ، وتحقق العلم به ، بعلامة شواهد اجتماع القوم له ، وحضورهم بمجلسه لتعلم علم العمل ، أى لتعلم إتقان العمل بالعلم الذى كان عندهم واستمادوه منه .

والحاصل : أن فائدة الشيخ هى تحقيق الإخلاص ، وإتقان العمل ، إذ العلم عند الناس كثير ، والعمل به قليل ، وعلى تقدير وجود العمل : لا يخلو من طلب الحظوظ وقصد الحروف ، وذلك مناف للإخلاص ، والأعمال صور قائمة ، وروحها وجود سر الإخلاص فيها ، وأيضاً الإنسان لا يخلو من دعوات نفسه ، فتوقعه فى إفراط أو تفريط ، أو تحرج به لخلل المقصود ، فإذا رجع فرأى من هو أعلم منه وأنصح له ؛ لم تبق فيه بقية تفرقه عن الوصول إلى الحق .

وقوله « عن علم » راجع للاجتماع ، أى فمكان اجتماعهم عليه بسبب إتقان العمل بالعلم الذى حصلوه على علم ويقين منهم أنه على بينة من ربه ؛ وأنه أهل للتربية ، بحيث شهدت له أرواحهم بالتقديم ، وسرهم بالتعظيم ، ولم يكن اجتماعهم عليه على جهل به وتقليد وشك وترديد .

ثم الأليق بالشيخ إذا اختلط الفقراء : وأهل بدايات ونهايات ، أن يفرقهم فى المذاكرة على ما قاله الناظم وأشار إليه بقوله :

ولم يكن ذلك عن رويّه بل يحضر القوم على السويه

قلت الروية والتروى هى : المشاورة فى الأمر والاتفاق عليه ، يعنى أن القوم لم يكن اجتماعهم عن اتفاق ورويه على أن يحضروا فى مجلس واحد ووقت واحد ، ويكون أهل البدايات وأهل النهايات على السوية فى مجلس واحد ، كما يفعل أهل التدريس للعلم الظاهر ، بل كانت الشيوخ تذكر كل فرقه على حدتها ، وتخاطب كل واحد على قدر فهمه ، فينبغى للشيخ أن يكون له مجلسان : مجلس يخص به أهل النهايات ، ومجلس يعم به أهل البدايات والنهايات ، وينبغى له أيضاً ألا يلتزم مجلساً واحداً لا يتعداه ، بل مهما اتفق اجتماعهم ذكرهم فى أى وقت كان ، ومهما قدم عليه قوم ذكرهم ، فقد يكون منهم من يحب الاستعجال فى سفره ، ومنهم من يريد المقام ، ولا ينبغى للشيخ أن يحتجب عن الفقراء حتى يتضرروا بانتظاره ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يحتجب عن أصحابه ، ولم يكن له

وما ذكره الناظم من تفريق المذاكرة إنما يتأتى مع قلة الفقراء ، وأما مع كثرتهم فيجعل لهم مجلساً واحداً ، ويذكر فيه فى البدايات ، والوسط والنهايات ، وكل واحد يشرب من منهله — قد علم كل أناس مشربهم — هذا ما أدركنا أشياخنا عليه حين كثرة الأتباع .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ويجعل مجلساً يتضرع فيه إلى الله فى إصلاح شأنه وشأن من تعلق به ، ليكون ناصحاً لهم فى الباطن كما نصح لهم فى الظاهر .

ولما ذكر سبب الاجتماع وآدابه أشار إلى وقته ، فقال :

ولم يكن أيضاً لدى العشاء إذ فيه نهى وهو للإغفاء

قلت الإغفاء هو : النوم ، يعنى أن اجتماع القوم لم يكن عند وقت العشاء ، لأن ذلك الوقت جعله الله للنوم والراحة ، قال تعالى — وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا(١) فيه — وقال تعالى — وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً(٢) — وذلك ليقوم للصلاة ناشطا ، ولا سيما عند قصر الليل .

وقد نهى سيدنا عمر رضى الله عنه عن النوم قبلها والحديث بعدها ، يعنى العشاء ، وكذلك أيضاً لا ينبغى أن يكون عند أوقات الصلاة ، لأن ذلك يؤدى إلى خروج وقتها ، ولا ينبغى تطويل المجلس ، فقد قال الزهرى : إذا طال المجلس كان فيه حظ للشيطان .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وحق المريد أن يدخل على الشيخ بالهمة ، ويقعد عنده بالحرمة ، ويخرج من عنده بالخدمة والعزيمة ، ثم أشار إلى حكمة الاجتماع ، فقال :

وافتقروا فيه للائتلاف ليعلم المستوفى حال الوافى

قلت : الائتلاف هو : الاجتماع ، وتألف القوم اجتمعوا ، قاله فى القاموس .

يقول رضى الله عنه : وافتقروا أيضاً للاجتماع لأمور ، منها : معرفة حال الإنسان فى العلم ، والحال ، والمقام ، فإن النفس قد تغلط فى نفسها ، فتظن أنها أدركت مقام الأكابر ،

---

(١) سورة يونس صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٦٧

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٤٧ .

وهي مقيمة مع الأصاغر ، فإذا اجتمع مع من هو أنهض منه حالا وأكثر منه علما ؛ علم حاله وعرف مقامه ، فيجد في سيره ، ويتحقق بقدره .

وفي بعض الآخبار : « عاش من عرف قدره » ، وكذلك الفقير الكامل إذا رأى من هو دونه في الحال أو المقام حمد الله وشكره وطلب الزيادة من مولاه ، وهذا معنى قوله « ليعلم المخوفي حال الوافي » ، فالمتوفي الذي هو : الناقص ، تنشه رؤية الكامل الذي هو الوافي في العلم والحال ، لاستشعاره نقصه وقصوره عن رتبة صاحبه الوافي ، فينهض في العمل ؛ وينافسه في الحال قال تعالى — وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(١) والوافي يعرف قدر منة الله عليه فيما أدركه فيشكره ، فيزيده الله تعالى على ما أعطاه ، ويتشوف إلى مقام أعلى فيوصله الله إليه ، إذ السير لا نهاية له .

قال الشيخ أبو هادي رضي الله عنه لأصحابه يوما : بم يرتفع المريد إلى رتبة هي أعلى من رتبته؟ فقالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، فقالوا : من عند الشيخ ، قال : يخلق الله له همة هي أعلى من همته ، فيرتفع بها إلى رتبة أعلى .

ومنها ، أي ومن الأمور الداعية للاجتماع : حصول النشاط والقوة ، فإن دوام الوحدة تبرد صاحبها ، وتقوى عليه الحس والكسل إن كان في محل البدايات .

وقد تحصل له فترة أو وقفة ، فإذا اجتمع مع الإخوان قوي حاله وزال كسله ، ولذلك قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى(٢) — .

ورغب عليه الصلاة والسلام في حضور مجالس الذكر كما تقدم .

قال بعض المتقدمين : كنا إذا فترنا نظرنا إلى محمد بن واسع ، فعملنا عليه أسبوعا ، أي بقي نشاطنا فعمل عليه أسبوعا ، فمشاهدة الأخيار ترفع الهمة وتقوي العزيمة ، والمؤمن مرآة أخيه ، فما في المحاذي ينطبع في المحاذي ، وقد قال أنس رضي الله عنه : « ما نفضنا أيدينا من التراب من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى فقدنا قلوبنا » .

ومنها استفادة العلم والمعرفة ، وأما العلم فمن المذاكرة ، وأما المعرفة فمن المشاهدة .

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة المطففين . (٢) سورة المائدة ، الآية : ٢

قال بعض الحكماء : « فهم سطرين ، أفضل من حفظ وقرين ، فضل ومذاكرة اثنين أفضل من مائتين ، أي أفضل من فهم بسطرين وحفظ وقرين ، والنظر إلى العلماء ومجالسة الحكماء عبادة كبيرة ، وبالله التوفيق .

ثم استدل على فضل الاجتماع بالحديث ، ورواه بالمعنى ، فقال :

لا خير فيمن لم يكن ألوفا ولم يكن لغيره مألوفا

قلت لفظ الحديث : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف(١) :

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا الموطئين أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » .

فقوله عليه الصلاة والسلام « الموطئين أكنافا » معناه المأمون جانبهم بحيث لا يخاف منهم خيانة ولا جناية الذين يألفون الناس ويألفهم الناس ، وهو معنى قول الناظم « لا خير فيمن لم يكن ألوفا » بغيره ولم يكن مألوفا لغيره ، أي يألفه غيره .

وفي رواية أخرى : « ألا أنبئكم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيمة : أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون »(٢) .

قلت وينبغي التفصيل في أحوال الناس : أما العارفون الراسخون ؛ فلا يليق بهم إلا التآلف بالناس والتصبر لهم ، لأنهم يأخذون نصيبهم من كل شيء ، وقد وجههم الله تعالى لنفع عباده ، فينبغي لهم أن يألفوا الناس ويألفهم الناس ، وكذلك الصالحون المتوجهون لإصلاح الناس بالتبرك والدعاء ؛ والعلماء المتوجهون لتعليم العباد ، فلا بد من صبرهم على جفوة المتعلمين والسائلين ، ومن تعلق بهم من المسلمين .

وأما المريدون السائرون ، فلا ينبغي لهم أن يألفوا الناس كلهم ، فإن ذلك يقطعهم عن

---

(١) وفي لفظ آخر : « المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس » رواه الدارقطني في الأفراد .

(٢) رواه الطبراني في الأصغر والأوسط عن أبي هريرة والطبراني في مكارم الأخلاق بلفظ « إن أقربكم مني مجلساً . . . » عن جابر .

دهم ، وكل فقير مال للرياسة والسياسة ، وتوجه للناس قبل كماله ، فلا يجيء منه شيء ، وإنما يألف الفقير من ينهضه حاله ، ويدل على الله مقاله .

وفى الحديث : قالوا : « من نجالس يارسول الله ؟ قال: من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله » .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ، أوصانى حبيبى ، فقال : لا تقبل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجالس إلا حيث تأمن عالماً من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا ، وقليل ما هم ، وبالله التوفيق ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله :

ومن يكن يصحب غير جنسه فجاهل والله قدر نفسه

قلت : وإنما كان من يصحب غير جنسه جاهلا بقدر نفسه ، لأن النفس ، وهى الروح : ياقوتة رفيعة ، جعلها الله فى صدف بشريتك ، فإذا صحبت بها من هو أخس فقد صغتها ورفعتها واعتنيت بشأنها ، لأن صحبة الأبرار تصيرك من الأخيار ، وإذا صحبت بها من هو أسوأ منك وأخسر منك فقد بخستها وحططت قدرها ورميت بها فى المزابل ، لأن الطباع تسرق الطباع ، والمرء على دين خليله ، وصاحب المرء رقعة من ثوبه ، فلا يصح أن يكون من غير نوعه ، ويرحم الله النائل حيث قال :

عليك بأرباب الصدور فى غدا مضافا لارباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط فتخط قدراً من علاك وتحقرا

• • •

وقال غيره :

لا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
قياس العقل بالعقل إذا ماهو حذاه يقاس المرء بالمرء إذا ماهو ماشاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وقال سهل بن عبدالله : أحذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبارة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله : قلت لذى النون المصرى رضى الله عنه : من أصحب ؟ فقال : من لا تكلفه شيئاً يعلمه منك .

وقال حمدون القصار رضى الله عنه : اصحب الصوفية ، فإن قبيح عندهم وجوها من المعاذير ، وليس لحسن عندهم كبيرهم ، إشارة إلى أن العجب بالعمل عندهم منتف فى صحبتهم .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء .

وقال سيدنا على رضى الله عنه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة ، والجأك إلى الاعتذار .

وقال أيضاً : شر الأصدقاء من تتكلف له ، وأنشدوا :

أحب من الإخوان كل موات وفى غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أحبه ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا : ليتنى قد وجدته فقاسمته مالى من الحسنات

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : يا ابن عمران كن يقظانا ، واتخذ لنفسك إخوانا وكل أخ لا يوافقك على مسرتى فهو لك عدو يقسى قلبك ويباعدك منى .

قال الشيخ أبو عبدالله بن عباد رضى الله عنه : والحاصل من هذا أن صحبة الصوفية هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين للدين والعلم ، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها أحد ، وسريان ذلك إلى الصاحب من المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب ، فقد قيل : من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة ، هذا فى الحضور والمجالسة ، فما بالك بالصحبة والمؤانسة ، ثم قال : وبصحبة هؤلاء يحصل للمريدين من المزيد ما لا يحصل لهم بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات ، حتى يبلغوا بذلك إلى أمر لا يدعه عقل عاقل ، ولا يحيط به علم فاقل .

ولذا قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه : ماذا أصنع بالكيمياء ، والله لقد

صحبت أنواعا يبر أحدهم على الشجرة اليابسة فتثمر وقتا ما ، فمن صحب هؤلاء الرجال ما يصنع بالكيمياء .

وقال أيضاً رضى الله عنه : والله ما سار الأولياء من قاف إلى قاف إلا حتى يلقوا واحداً مثلهم ، فإذا لقوه كان بغيتهم .

وقال أيضاً : الولى إذا أراد أغنى .

وقال أيضاً رضى الله عنه : والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته .

وقال فيه شيخه سيدى أبو الحسن رضى الله عنه : أبو العباس هو الرجل لكامل ، والله إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه ، فلا يمسى عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله . ثم أشار لحديث ورد فى الجليس فقال :

أفضل المرء جلوس وحده ولا يكن جليس سوء غده

قلت : أشار إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح مثل العطار : إن لم تنل من طيبه أصابك من ريحه ، والجليس السوء مثل الحداد إن لم تصب من شرره أصابك من نتنه »(١) ، وفى معنى ذلك قيل :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : الجلوس مع الأمراء أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام ، ولا شىء أضر على المريد من الجلوس مع المتفقرة الجاهلين .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : الجليس السوء هو الذى جمع ثلاث خصال :

---

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ... » إلى آخر الحديث ، رواه البخارى عن أبى موسى .

الأولى : الرضى عن نفسه ، بحيث يرى له حقاً على الناس ، ويرى الناس كلهم دونه ، وهذه صفة الجبابرة العاقلين :

الثانية : الاسترسال فى الغيبة ، وتزكية النفس وتعظيم ذنب الغير واحتقار ذنب نفسه ، فلا يقيل عثرة ، ولا يغفر زلة ، وهذه صفة الفقراء المداهنين .

الثالثة : وجود الدعاوى ، والطمع ، وحب الرياسة ، والبدع ، وهذه صفة المتصوفة الجاهلين .

وقيل : الإخوان ثلاثة .

أخ لآخرتك ، فلا تراع فيه إلا الإيمان .

وأخ لدنياك ، فلا تراع فيه إلا حسن الخلق .

وأخ للناس ، فلا تراع فيه إلا السلامة من شره .

وهو كلام جامع مفيد . انتهى ، وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى الاجتماع ونتيجته فقال :

قد يرتجى الشفاء السقيم مهما يكن ملازم الحكيم

قلت : لا أعظم شفاء لأمراض القلوب وعللها من صحبة العارفين ، والدخول تحت جناح تربيتهم ، وملازمة خدماتهم بالصدق والمحبة ، والله ما أفلح من أفلح الا بصحبة من أفلح ، وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : من لم يصحب الفحول يبق فى الوهم موحول ، وانما اشترطت الملازمة ودوام الصحبة ، لأن بذلك يعرف صدقه فى طلب دوائه ويظهر حاله فى وجه الشفا من دائه لمعرفة وجه العلة وسببها الذى لا يعرف غالباً إلا بالملازمة ، وأيضاً بذلك يقع العطف عليه ، فينهضه بهمته ودعائه .

وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

وراقب الشيخ فى أحواله فعسى يرى عليك من استحسانه أثراً
ففى رضاه رضى البارى وطاعته يرضى عليك ، فكن من تركها حذراً

هكذا فى بعض النسخ ، وفى بعضها ترك هذا البيت ، والمراد بالحكيم فى كلام الناظم : شيخ التربية ، لأنه طبيب حكيم كما تقدم ، ثم رد على من أنكر على الفقراء الاجتماع فقال :

ومن ينازع فاطرح نزاعه فالدين مبنى على الجماعة

قلت : يريد من نازع الفقراء وأنكر عليهم اجتماعهم فلا تسمع لقوله ، بل انبذه وراء ظهرك ، فالدين مبنى على الجماعة ، قال صلى الله عليه وسلم .

« الجماعة رحمة والفرقة عذاب[1] » .

وقال عليه السلام :

« يد الله مع الجماعة[2] » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

« من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة[3] جاهلية » .

إلى غير ذلك من الأحاديث المرغبة فى الاجتماع ، وقد تقدمت فى أول الفصل نبذة صالحة منها

وقد حرر ابن عرضون فى « مقنعه » الخلاف فى المسئلة ، ورجح القول بالاستحباب ، واستدل بأحاديث ووقائع ، فطالعه إن شئت ، وهذا أمر قد تواتر عند الصوفية ، فلا يحتاج إلى دليل ، وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم أشار إلى الحكم الثالث ، وهو اللباس ، فقال :

الحكم الثالث فى حكم اللباس .

أى ما يختاره القوم من اللبـــاس ، وما يتركونه ، ولا يكون ذلك قدحا فى طريقهم أصلا ولا فعلا .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « كل مبتذل لا يبالى ما لبس[4] » ، وهو كلام تام ، أى كل من يحب الخمول لا يبالى ما لبس .

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، والقضاعى عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه الترمذى بلفظ « يد الله على الجماعة » عن ابن عباس .

(٣) وفى لفظ آخر : « من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم عن أبى ذر .

(٤) لفظ الحديث كما ورد فى الإحياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يحب المتبذل : الذى لا يبالى ما لبس » . رواه البيهقى .

وكان عمر رضى الله عنه يقطع من كميه ما جاوز الأصابع .

وقال بعض المشايخ : الفقير الصادق ، أى شىء لبس يحسن عليه ، ويكون عليه فيه الملاحة والمهابة ، والثوب الخلق (أى البالى) أحب إليهم من الجديد ، لأنه أكثر بركة ، ويجتهدون فى النظافة والظرافة .

قال صلى الله عليه وسلم : « النظافة من الإيمان » ورأى على بعض الوفود ثوبا وسخا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما كان يجد هذا ماء يغسل به ثوبه » وقال : « هب أن الفقر من الله ، فما بال الوسخ » وقال : « إن الله يبغض الوسخ » ويكرهون لبس الشهرة من الثياب ، ويتبركون بثياب المشايخ ، وقد كانت الصحابة يتبركون بثيابه صلى الله عليه وسلم ، وبشعره وريقه ، وعرقه ، وفضل وضوئه ، ففيه جواز التبرك بآثار الصالحين .

ثم ذكر الشيخ بعض أحكام اللباس ، فقال :

وقد أباحوا سائر الأثواب وتركها أقرب للصـــواب

قلت : إنما أباحوا سائر الأثواب لقوله تعالى — يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم[1] .

فأطلق فيه ، وقال تعالى — يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد[2] .

وقد لبس صلى الله عليه وسلم جميع الألوان : الأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والمخبر ، والأسود ، والأبيض ، والقباء ، والجبة ، والكساء ، والقميص ، والعمامة ، والرداء والبردة ، وغير ذلك واشترى السراويل ، وذكر البرنسى : ولم يرد عنه لباس الأزرق ، ولا يكره ، فجميع الألوان مباحة اللباس ، وبعضها الأخضر ، لأنه لباس أهل الجنة ، والأبيض ، لقوله

= قلت : وما يؤيد صحة الحديث ما ورد : أنه كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران ، ورعا صلى بالناس فيها ، رواه أبو داود ، والترمذى من حديث قيلة بنت مخرمة ، قالت : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه أسمال ملاءتين كانتا بزعفران . قال العراقى : ورواته موثقون .

(١) الآية : ٢٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٣١ من سورة الأعراف .

عليه الصلاة والسلام : إن من خير ثيابكم البياض ، ليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها أمواتكم(١).

واستحب الصوفية لبس الصوف : لما فى الصوف من رقة القلب ، وخفة المؤنة ، ولأن سيدنا موسى عليه السلام يوم ناجى ربه كانت ثيابه كلها صوفا ، وهـــذا ليس على سبيل التحجير ، بل على سبيل الزهد فقط ، ومخالفة النفس ، واقتداء بأهل الصفة .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك لبس ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعاً لله ، كساه الله حلة الكرامة »(٢) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

ألا تسمعون : « إن البذاذة من الإيمان » كررها ثلاث مرات .

قال المنذرى : والبذاذة بفتح الباء الموحدة وذالين معجمتين ، هو : التواضع فى اللباس ورثاثة الهيئة .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب المتبذل : الذى لا يبالى ما لبس » رواه البيهقى .

وقوله : « وتركها أقرب للصواب » يعنى ترك التكثر منها والتأنق فيها، لا تركها بالكلية ، لأن التعرى حرام ، ثم علل ذلك الترك فقال :

إذ فى لباس حلها الحساب أيضاً ، وفى حرامها العقاب

---

(١) ورواية الدارقطنى فى الأفراد : « خير ثيابكم البياض ، فكفنوا فيها موتاكم ، والبسوها أحياءكم » ورواه ابن ماجه ، والطبرانى والحاكم بلفظ : « خير ثيابكم البياض ، فكفنوا فيها موتاكم والبسوها أحياءكم ، وخمروا أكحالكم الإثمد : ينبت الشعر ويجلو البصر » .

(٢) وأيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه : دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها . رواه الترمذى والحاكم عن معاذ بن أنس » .

قلت : فى بعض الأخبار : اتقوا الدنيا فإن حلالها حساب ، وحرامها عقاب »(١) لكنى لم أقف على من ذكره ، غير أن الزهد فى الدنيا مرغب فيه بالاتفاق ، والذى ثبت فى الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسئل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » رواه الترمذى وقال حديث غريب.

وقوله : « فى لباس حلها الحساب » يعنى عن أصلها وقصدها ، وبحث بعضهم فيه بأن ما أبيح لا يكون سببا للحساب ، ويجاب بأن الحساب يقع على قصده بالزيادة على الحاجة ، هل قصد التجمل أو التفاخر أو إظهار نعمة الله ؟

وسئل أيضاً عن القيام بشكرها ، فانه من النعيم الذى يسئل عنه ، قال تعالى — ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم(٢) .

وأما العقاب على الحرام فظاهر ، لأنه عصى الله بتناوله ما حرم الله ، فهو من جملة المعاصى التى يستحق عليها العقاب ، إلا أن يتفضل الله بعفوه .

قال أبو عبد الله السلمى رضى الله عنه : وآدابهم فى ذلك « أى فى اللباس » أن يكون مع الوقت ، يلبسون ما يجدون من غير تكلف ولا اختيار ، ويقتصرون على ما يؤدون به الفرض ، من ستر العورة وما يدفع به الحر والقر ، فهى مما استثنى النبى صلى الله عليه وسلم من الدنيا(٣) ، وقيل : إنها ليست من الدنيا ، ويتبرءون من كثرة اللباس ، ويواسون بالفضل.

قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل غسل ثوبه فلم يكن له خلق » أى ثوب بال « يبتذل به » ورجل لم ينصب له على مستوقد قدران ، ورجل

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن الإمام على موقوفاً ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام أيضاً : الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله ، وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ، ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة ، رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر .

(٢) آخر سورة التكاثر .

(٣) من قوله صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ما ابتغى به وجه الله عز وجل .

دعا بشرابه فلم يقل أيهما تريد(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء زوجين .

ثم ذكر فوائد المرقعة فقال :

والقوم ما اختاروا المرقعات ... إلا لأوصاف وسوف تأت
أولها فيها اطراح الكبر ... ومنعها للبرد ثم الحر
وخفة التكليف ، ثم فيها ... قلة طمع الطامعين فيها
وذلة النفس وتطويل العمر ... والصبر ثم الاقتدا بعمر
ألا ترى لابسها كالخاشع ... فهي إذن أقرب للتواضع

المرقعات : جمع مرقعة ، وهي الثوب الملفق من رقاع كثيرة ملونة أو غير ملونة ، كانت من صوف أو شعر أو جلد ، وإنما اختارها القوم على ما سواها من الثياب لوجوه عشرة :

أولها طرح الكبر ونفيه والتخلق بضده ، وهو التواضع ، إلا إذا قصد بذلك من حيث أنها شعار الصالحين ، فيحرم لباسها حينئذ ، أو يقصد بذلك التظاهر على من لم يلبسها من الفقراء ، أو يرى له مزية بها على غيره ، فينقلب الأمر حينئذ .

ثانيها : أنها تدفع الحر من حيث تناسبها وبرودتها ، لاجتماع أجزائها دون تحليل ، وتدفع القر : أي البرد لكثافتها .

وثالثها : خفة مؤنتها في تحصيلها ، فإنها من الخرق الملقاة على المزابل ، التي لا يضر إعطاؤها من طلبت منه ، نعم : إن كان يختار لها الرقاع الرفيعة ، قد خرجت عن حقيقتها ، وزالت ثمرتها لأنها صارت حينئذ من رفيع الثياب ، فهي وسائر اللباس سواء .

ورابعها : قلة الطمع فيها للصوص السلابة وغيرهم ، من حيث ذاتها ، لا من حيث ما يحتوي عليها من الحرمة ، فإذا جذبها الفقير إليه واختبروه لم يكن لهم إلمام : أي توصل

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك زينة لله ، ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله ، وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخله عبقري الجنة » رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية ، وأبو نعيم في الحلية .

بها ، بل ردوها عليه واستغفروا من حقه ، كما هو مشاهد معلوم ، ولبسها للاحترام جائز قاله الشيخ زروق رضي الله عنه .

وخامسها : ما في لبسها من دفع الشرور ، باعتبار الاحترام لشبه لابسها بأهل الخير ، وذلك جائز في الدفع ، لا في الجلب لقوله تعالى — يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين — وهذا داخل في قوله : « وقلة الطامعين فيها » .

وسادسها : ما فيها من ذلة النفس بين أبناء الجنس ، وفي ذلك موتها ، وفي موتها حياتها ، وفي ذلك قال الششتري متكلما على لسان الحق :

إن ترد وصلنا فموتك شرط ... لا ينال الوصال من فيه فضله

وفي ذل النفس أيضاً : إسقاط المنزلة والجاه ، وهو شرط في تحقيق مقام الإخلاص ، وفيه أيضاً حصول الخمول الذي هو راحة لأن صاحبه لا يعرف بالتقية ، ولا يدري بالأمور الدنية ، بل إذا غاب لا ينتظر ، وإذا حضر لا يستشار .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه ، (أي لا يعبأ) به لو أقسم به على الله لأبره »(١) .

وسابعها : ما فيها من رفع الهمة وقلة المبالاة بالخلق ، فإن المعتقد لا يزيده اعتقاد الناس إلا شراً ، والغالب على صاحبها عدم المبالاة بالخلق ، قد استوى عنده المعتقد والمنتقد .

قال بعض المشايخ لبعض الشباب : إياكم وهذه المرقعات ، فإنكم تكرمون لأجلها ، فقال الشاب : إنما نكرم بها من أجل الله ، قال : نعم ، قال : حبذا من نكرم من أجله ، أي لما أحبه إلينا ، له : بارك الله فيك ، وهذا السابع داخل في ذل النفس .

وثامنها : ما قيل فيها من طول العمر ، ويحمل ذلك على البركة فيه ، بحيث يدرك في يسير منه ما لا يدرك غيره في سنين متطاولة كما قال ابن عطاء رضي الله عنه : « من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمان ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة » وعبادة العارفين كلها متضاعفة بأضعاف كثيرة .

(١) وللحديث ألفاظ أخر منها : « رب أشعث أغبر ذي طمرين ، تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » رواه الحاكم ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة .

وقال أيضاً فى حكمه : « ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب » .

وقيل : إن ذلك يكون حقيقة ، وهو من باب الخصيصة ، وإن من لبسها دل على طول عمره ، والله تعالى أعلم .

وتاسعها : مقاساة الصبر وتجرع مخالفة النفس ، وفى ذلك من الفضل مالا يجهل ، قال تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ وقال تعالى ـ وبشر الصابرين[1] ـ و ـ إن الله مع الصابرين[2] .

وقال : بعض الصحابة رضوان الله عليهم : الصبر من الدين كالرأس من الجسد ، والصبر مطية الإمامة والاقتداء .

قال تعالى ـ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ـ .

وفيها أيضاً الوقاية من ارتكاب الكبائر المشهورة ، إذ يعاب على صاحبها ، ولا يمكن منها بحال ، فهى عصمة من عظام الكبائر ، والصبر عليها كأنه صبر عن القبائح كلها .

وعاشرها : الاقتداء بأمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد قال عليه الصلاة والسلام « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر[3] » .

فالاقتداء بهما امتثال لأمره عليه الصلاة والسلام ، وفيها جمع الخاطر الذى لبسها لأجله عمر رضى الله عنه ، فانه كانت له مرقعة : بين كتفيه ثلاث عشرة رقعة ، إحداها من جلد ، فلما طرحها يوم فتح بيت المقدس باشارة المسلمين ولبس غيرها ، قال : أنكرت نفسى ، وعاد إليها ، ولبس عمر رضى الله عنه المرقعة كان اختياراً منه وتواضعاً ، وليس ذلك ضرورة ، فقد كانت له أموال خاصة به ، قبل الخلافة وبعدها ، وبالله التوفيق .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : « فائدة » ينبغى لمن وسع الله عليه فى الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله باستعمالها على وجه مباح ، لا يخل بالحق ولا بالحقيقة ، بأن يلبس أحسن لباس جنسه أو وسطه ، ويتخذ مرقعة يجعلها عدته وأصل لباسه ، فما دام غنيا عنها استغنى

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٣ .
(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن حذيفة .

وإلا فهى المرجع عنده ، كذا أشار عليا شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزيرى ، ثم المراوى رضى الله عنه .

الحكم الرابع فى الأكل .

ذكر فى هذه الترجمة : حكم الأكل ، ومقداره ، وصفته ، وآدابه ، وآداب تحصيل المأكول ، والعمل فيه بعد حصوله ، وكيفية العمل فى صرف ما يتصرف منه ، ومن أولى بصرف ذلك إليه ، والتنبيه على أمور مهمة تتعلق بالأكل .

ثم بدأ بحكمه عند القوم فقال :

الأكل فيه تركه مشروط ... إلا اضطراراً قدر ما يخوط
وإن يكن لحسن وإلا ... فتركه عند الجميع أولى

قلت : الضمير من « فيه » يعود على طريق القوم ، والطريق يذكر ويؤنث ، يعنى أن الأكل فى طريق القوم تركه عندهم شرط أيضاً ، لأن من كانت همته فى بطنه ، كانت قيمته ما يخرج منها ، فلذلك لا يأكلون إلا اضطراراً ، بقدر ما يسد الخلة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد ، فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس[1] » .

وحد الاحتياج للطعام أن يشتهى الإنسان خبزه المعتاد ، وحد الاضطرار : أن يشتهى كل خبز ، بل يأكل أى نوع كان .

والجوع الكذاب : أن يشتهى مع الخبز شهوة ما ، قال المشايخ : وعلامة أخذ الحاجة من الطعام تغير طعم الطعام فى الفم ، والاحتياج فى تسويغه لشرب الماء بوجه لا يمكن تسويغه ، والإحساس بالثقل ، والله تعالى أعلم قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقوله « قدر ما يخوط » يعنى قدر ما يحفظ القوة ويمسك البدن ، إذ لا يجوز لأحد أن يجيع نفسه حتى تختل قوته وتفسد فكرته ، بل خير الأمور أوسطها ، كما أشار إليه البوصيرى رحمه الله بقوله :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم

وقوله: وإن يكن ، أى الاضطرار ، أى وإن حصل الاضطرار فأكله حسن ، وإلا فتركه أولى عند كافة أهل الطريق .

قال أبو عبد الله السلمى رضى الله عنه : سئل بعض المشايخ عن الأكل الذى لا يضر . فقال : أن يأكل بتقييد القدرة ، لا بشاهد الشهوة ، أى أن تأكل سبب تمهيد القدرة مرادها من بقاء هذا البدن . فيكون أكله لحفظ صحة هذا الجسم ، كما أمرك ربك ، لا لسبب شهوة بطنك .

وروى أن رجلا تجشأ عند رسول الله ﷺ ، فقال : « كف عنا جشاءك ، فأكثركم شبعاً فى الدنيا أكثركم جوعاً يوم القيامة(١) » .

وقال الحسن : كان بلية آدم فى أكلة أكلها ، وهى بليتكم إلى يوم القيامة .

وقال سهل رضى الله عنه : لأن أترك من عشائى لقمة أحب إلى من قيام ليلة .

وقال يحيى بن معاذ : لو كان الجوع يباع فى الأسواق لما أمكن أن يشتروا غيره .

وقال : لو تشفعت لنفسك بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين فى ترك شهوة لردتهم واجمين ، ولو تشفعت إليها بالجوع لانقادت إليك وطاوعتك : يعنى لو خوفتها به ، لتركت تلك الشهوة .

وقال : مالك بن دينار : لا تجعلوا بطونكم جربا(٢) للشيطان يودع فيها ما أحب .

وقال صلى الله عليه وسلم « من أحس من نفسه نشاطاً فليؤد بها بالجوع والعطش(٣) ، يعنى نشاطاً للمعصية أو اللهو » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وهو يصلى

---

(١) ولفظ الحديث : « كف عنا جشاءك فان أكثرهم شبعاً فى الدنيا » بضمير المخاطب « أطولهم جوعاً يوم القيامة » . رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عمر .

(٢) الجرب : جمع جراب ، وهو وعاء من جلد .

(٣) وقال عليه الصلاة والسلام من حديث أبى هريرة : « لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم » رواه ابن ماجه .

جالسا ، فقلت : ما أصابك ؟ قال : الجوع ، فبكيت فقال لى : لا تبك ، إن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب ذلك(١) .

ثم نبه على بعض آدابه فقال :

وأدب القوم لدى الطعام	جم فنه ترك الاهتمام
وقلة الذكر له إن غاب	لكونه عندهم حجاب
بل أنزلوه منزل الدواء	عند العليل بغية الشفاء

قلت : أشار إلى أن آداب القوم « يعنى الصوفية » عند تناول الطعام أو قبله « جم » أى كثير .

منها : عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه ، لأن الاهتمام به قبل الحاجة دليل الشره والحرص عليه ، وذلك من قوة الأوصاف البهيمية عليها ، وقد تقدم قول من قال : من كان همه بطنه كانت قيمته ما يخرج منها .

وحكى عن رويم رضى الله عنه أنه قال : « لم يخطر ذكر الطعام ببالى عشرين سنة » . حتى احتضر رحمه الله .

ومنها قلة : ذكره قبل حضوره ، لأن ذكره دليل تعلق القلب به ، وتشوفها إليه ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره(٢) ، ولأن ذكره يهيج الشهوة ويسدل النفس على الطلب ، فيؤدى للاهتمام ، أو يكون علامة عليه .

قلت : وينبغى للعارف ألا يأكل إلا بإذن من الله ، بحيث يعمل حتى يتيسر ذلك من

---

(١) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا ... » الخ الحديث وهو طويل جداً ، رواه الخطيب فى الزهد ، ورواه الحارث بن أبى أسامة . وراجعه فى الإحياء بطوله فى باب « فضيلة الجوع وذم الشبع » .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأرضاها .

غير سؤال ، فإذا دخل داره مثلا فلا يطلب غذاءه ، حتى يعرض عليه إلا لضرورة فادحة ، وإنما أهملوا ذكره قبل حصوله اهتماما وسؤالا ، لأن ذكره حجاب عن الحقائق باشتغال النفس له ، لولوعها به طلبا وذكرا ، ولو كانت فانية فى الحق لأشغلها ذلك عن الخطوط .

وقوله : « بل أنزلوه منزل الدواء » : يعنى أن القوم رضى الله عنهم أنزلوا الطعام والشراب منزلة الدواء ، لقيام هـذا البدن ، فلا يتناولون منه إلا قدر شفائه ، وهو ما به قوامه ؛ ولا يذكرونه ولا يهتمون به أصلا اشتغالا عنه بما هو أهم ، من : ذكر أو فكر أو شهود أو معاملة طاهرة ، وإذا تناولوه قصدوا به التقوى على الطاعة والقيام بحق البشرية التى هى معرفة السر ، وإليه أشار بقوله « بنية الشفاء » أى بقصد الشفاء لا بقصد المتعة والشهوة .

قال السلمى رحمه الله : قيل لبعض المشايخ : كيف يتناول الطعام ؟ قال : كتناول العليل الدواء يرتجى الشفاء ، والله تعالى أعلم ، ثم ذكر ما يتعلق به قبل حصوله ، فقال :

ولم يكن همهم بجمعه وكسبه وفضـــله ومنعه

قلت : يعنى أن القوم لم يكن همهم بالاشتغال بجمع الطعام واكتسابه ، ولا اشتمال باعطاء « فضله » أى ما فضل عن الحاجة « ومنعه » بل أنزلوه منزلة المهمل الذى لا قدوم له عليه إلا عند الضرورة ، أو ما يقرب منها ، فلا يهتمون بجمعه ولا باعطاء فضـــله ومنعه ، لاشتغالهم بما هو أهم .

قال السلمى رضى الله عنه : فمن آدابهم ترك الاهتمام بالرزق ، وقلة الاشتمال بطلبه ، وجمعه ومنعه ، قال الله تعالى — وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم[1] — أى لا تدخره .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يدخر شيئاً لغد ، ومن اشتغل منهم بشىء من الأسباب فانما ذلك قياما برسم العبودية ، وإن حصل منها شىء كانوا فيه أمناء على وجه أنهم خزان الملكة ، يترصدون سد الخلل ، فيمسكون ما أمروا بامساكه ، ويرسلون ما أمروا بارساله .

وقد سئل الشبلى رضى الله عنه : كم فى خمس من الإبل ؟ فقال أما الواجب فشاة ، وأما عندما فسكلها لله ، فقيل له ما دليلك على ذلك ؟ فقال : أبو بكر رضى الله عنه ، حيث خرج عن ماله كله لله ولرسوله ، فمن خرج عن كل شىء فامامه أبو بكر ، ومن أعطى بعضا

(١) سورة العنكبوت من الآية رقم ٦٠

وترك بعضاً فامامه عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله ، فامامه عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فامامه على ، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلم .

وكان أبو العباس الخضرمى رضى الله عنه يقول : ليس الرجل الذى يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها ، وإنما الرجل الذى يعرف كيفية إمساكها فيمسكها ، يعنى أنه يعرف كيف يمسكها ولا يشتغل قلبه بها ، بحيث يكون يأخذها بالله ومن الله ويدفعها لله وإلى الله ، ولذلك قيل . الدنيا كالحية ، وليس الشأن فى قتل الحية ، وإنما الشأن فى إمساكها حية ، وإمساكها حية هو إمساكها بالله ، فانياً عنها وعن طلبها

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلانى نفعنا الله به لما سئل عن الدنيا : فقال : أخرجها من قلبك واجعلها فى يدك ، فانها لا تضرك .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : الدنيـــا جرادة ، إذا قطع رأسها حلت ورأسها حيها .

وقال بعض أهل المعانى فى تفسير قوله تعالى « وما تلك بيمينك يا موسى[1] » — يقال للفقير : وما تلك بيمينك أيها الفقير ، قال : هى دنياى اعتمد عليها فى قيام بنيتى ، وأنفق منها على عيالى ، ولى فيها مآرب أخرى : أتصدق منها ، وأفعل بها وجوه الخير ، فيقال له : ألقها من يدك أيها الفقير ، فألقاها فاذا هى حية تسعى ، كانت تلدغه فى قلبه ، وتشغله عن شهود ربه ، فلما فر منها وأيس من نفعها قيل : له خذها ولا تخف ، لأنك غنى بالله عنها ، فتأخذها بالله لا بنفسك ، وتدفعها كذلك ، وبالله التوفيق

ثم ذكر آدابه بعد حصوله ، فقال :

ولا استقلوه ولا عابوه ولا يكن قصداً فيطلبوه

قلت : من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستقلوه أى يصغرونه ولا يحقرونه ، بل يعظمونه ويكبرونه ، ولو كان قليلا فى الحس . أو خشنا أو ردىء الصنعة ، فمن آدابهم أن يتلقوا القليل من صاحبه الذى أتى على يديه بالبسط والفرح والتعظيم والتكثير والتبريك ، ويبتدءون بأكله قبل غيره ، تطييباً لخاطره ورفعاً لقلبه ، وكذلك يفعلون فى الطعام الخشن أو الردىء أو ما أشبه ذلك ، ويتلقون الكثير أو الرفيع ممن يأتى به بالغض ، ورفع الهمة عنه شفقة على صاحبه من دخول العجب أو الرياء ، وأظهار الزهد والقناعة ليقتدى بهم غيرهم .

(١) سورة طه صلى الله عليه وسلم ، الآية ١٧

ومن آدابهم أيضاً ألا يعيبوا طعاماً ولا يقبحوه . لأن ذلك يدل على الشره له والحرص عليه ، وقد تقدم أنهم غافلون عنه غائبون عن شأنه حتى يأتيهم الله بما قسم لهم ، وهذا منهم اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط ، كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه »(١) .

وقوله : « ولم يكن قصداً فيطلبوه » يعني : إن الطعام عند القوم لم يكن مقصوداً عندهم ، فلا يهتمون بشأنه قبل حصوله حتى يطلبوه ، بل كانوا غائبين عنه مشغولين بذكر مولاهم . لا يلتفتون إليه إلا عند الاضطرار ، فيطلبون ما يتقوون به على عبادة ربهم دون حرص ولا استكثار ولا شهوة ولا اختيار .

روى أن الله تعالى أوحى إلى داوود عليه الصلاة والسلام : ما بال الأقوياء ومناولة الشهوات ، إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي : إن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها محجوبة عني .

وحكى أن بشراً الحافي رؤي في السوق ، فسئل عن ذلك ، فقال : نفسي تطالبني بخيارة منذ سنين ، فمنعتها ورضيت الآن بالنظر إليها ، فأعطيتها .

وقال : بعضهم إنما هي فورة جوع لا أبالي بما سددتها .

وقال آخر : ليس لها علينا إلا كفايتها ، فلا نبالي فيه بطيب ولا رديء .

وهذا ما لم يكن حراما ، وسيأتي التنبيه عليه ، وما لم يكن أيضاً مضراً للبدن ، وإلا حرام تناوله ، وليس تركه قادحا في التوكل ، وإنما هو من مقتضيات الحكمة وجرى مع سنة الله في خواص مخلوقاته ، وما وقع من الحكايات ، فذلك أمر خارق للعادة ، وصاحبه محمول على بساط الحال ، محفوظ في ذلك الوقت ، فلا يقتدى به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابهم في الادخار ، فقال :

والقوم لم يدخروا طعاما ... بل تركوا الحلال والحراما
إلا يسيراً قدر ما تيسرا ... إذ الحلال المحض قد تعذرا

قلت : أخبر رحمه الله أن القوم لم يكونوا يدخرون شيئاً لوقت آخر ، وإنما كانوا يأخذون قدر حاجتهم في الوقت ، ويتصدقون بالفضلة ، وهكذا كانت سيرته صلى الله عليه وسلم في جل أوقاته

(١) راجع الإحياء ، كتاب « آداب المعيشة وأخلاق النبوة » تجد فيه ما يغني .

قال : ابن ليون التجيبي في « الإنالة » : وأما ترك الادخار فقد صح عنه في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخر .

وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغد .

وعن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال لبلال : أطعمنا يا بلال .

وقال : يا رسول الله ما عندي إلا صبر من تمر ، خبأته لك ، قال :

« أما تخشى أن يخسف الله به في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخف من ذي العرش إقلالا (١) » .

والصبر جمع صبرة ، وهو ما كدس من التمر وغيره من غير وزن ولا كيل ، وقد نظم القريشي هذا المعنى في رائيته فقال :

ولا تك ممن لا يفارق خبزه ... فديمة جود الحق دائمة القطر

قال : سيدي أحمد بن يوسف الفاسي رضي الله عنه في شرحها : يقول - والله أعلم - فلا تكن أيها المريد من الذين هممهم بطنهم ، الملازمين لخبزهم وغيره من المطبوخات ، في كل وقت وأوان ، بل اقتد بنبيك صلى الله عليه وسلم في كونه : كان لا يدخر لغد ، وينهى عنه ، كما اقتدى بذلك فيه أقوياء أمته الذين أردت سلوك طريقهم والاهتداء بهديهم ، ولا تنحط إلى ما نهى عنه فتنحط من العزيمة إلى الرخصة ، ومن الورع إلى الإباحة ، ولا يجيء منك شيء ، ولا يدخلك أيها المريد حين العمل بهذا كونك ترى أنك لا تجد ما تتقوت به إذا أعطيت ما يفضل عن غذائك في الحال لمن يستحقه ، فإن قطر عطاء الله وجوده وفضله دائم الانصباب والانسكاب ، قد عمت جميع الخلائق نعمه ومننه .

قال في العوارف : ومن أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ، وذلك أن الصوفي يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطىء بحر ، والمقيم على شاطىء البحر لا يدخر الماء في قربته وراويته(٢) .

(١) « أنفق بلال » إلخ رواه البزار عن بلال ، وعن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود .

(٢) هذا المعنى مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنز المؤمن ربه ، وخزانته ، بطنه ، ومشجبه ظهره ، رواه الديلمي في مسند الفردوس .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « ما من يوم إلا وملكان ينادیان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً »(١) .

وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طير ، فأطعم خادمه طيراً ، فلما كان الغد أتاه به ، فقال له رسول الله : ألم أنهك أن تخبأ شيئاً لغد ، فإن الله يأتى برزق كل غد »(٢) .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يأكل الشجر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يخبأ شيئاً لغد .

فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله ، لصدق توكله وثقته به ، فالدنيا للصوفى كدار الغربة ، ليس له فيها ادخار ، ولا له منها استكثار .

قال عليه الصلاة والسلام : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطاناً »(٣) ، انتهى .

ثم قال : وورد أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « أنه نهى أم أيمن عن أن تدخر لغد شيئاً »(٤) ، ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها ، فقال : أنفق يا بلال ولا تخف من ذى العرش(٥) إقلالا » .

وقال له : إذا سئلت فلا تمنع ، وإذا أعطيت فلا تخبأ

وأما ادخاره صلى الله عليه وسلم لعياله ، وتشريعاً وتهيئاً للضعفاء من أمته ، كما أن ترك ادخاره بعد تعيا الأقوياء منهم حسبما ذكره الإمام أبو حامد رضى الله عنه ، وقال بعضهم :

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) وورد الحديث بلفظ « ألم أنهك » بكسر الكاف ، أن ترفعى شيئاً لغد ، فإن الله يأتى برزق كل غد » رواه الإمام أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس .

(٣) رواه الترمذى والحاكم ، وصححاه .

(٤) ويعضده الحديث الذى مر « ألم أنهك » بكسر الكاف .

(٥) حديث « أنفق بلال » سبق تخريجه .

عمه صلى الله عليه وسلم دائر بين الإباحة والورع ، فادخاره قوت سنة بيان للإباحة ، وعدم ادخاره ورع ، وشأن أهل الطريق الأخذ بالعزائم دون الرخص التى لم يدب العمل بها ، أما ما ندب الأخذ به منها كالقصر فى السفر ، ونحوه فإنهم يسارعون إليه ويحافظون على تحصيله ، على أن للعارفين علما يصرفونه بحسب الأحوال والعوارض ، قد يخفى على من ليس من أهله . فقد كان بعضهم لا يقصر فى سفره قائلا للناس : فى ترك قصر الصلاة للفقراء نية حسنة يحوز اغتنام الصلاة خلفهم ، فلا نحرمهم من نيتهم ، ثم إن الشبهة تختلف باختلاف المقامات ، فمن كان من أهل الحقيقة مثلا ، وأتى إليه بشىء حلال ، ثم شاهد الخلق قبل الحق فأهل الظاهر لا يفتون إلا بحليته ، وأهل الباطن يحكمون بشبهته ، فيقع التورع عنه ، كما وقع لشيخ أبي مدين رضى الله عنه ، وكذلك الادخار من أصله ، وإن كان حلالا من طريق الأحكام ، لكنه شبهة عن أهل الباطن ذوى النهى ، والأحكام فى حق من لم يكمل حاله ، ويستقيم يقينه ويستو عنده الوجد والفقد .

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : الورع ألا يخطر الرزق ببال ، ولا يكون بينك وبينه نسبة ، لا فى التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى أيأكله أم لا .

وقال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه : ويقال من اهتم برزق غد فهى خطيئة تكتب عليه سيئة .

وقال سفيان الثورى رضى الله عنه : الصائم إذا اهتم فى أول النهار بعشائه ، كتبت عليه خطيئة .

وكان سهل يقول : إن ذلك ينقص من صومه ، وقال : أعرف بالبصرة مقبرة عظيمة يفدى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرة وعشية يرون منازلهم من الجنان ، وعليهم من الغموم والكروب ما لو قسم على أهل البصرة لماتوا أجمعين ، قيل : لم ، قال كانوا إذا تغدو قالوا بأى شىء تتعشى وإذا تعشوا قالوا : بأى شىء تتغدى .

وقد وقع النهى منه صلى الله عليه وسلم ، ومن الذين من بعده عن الادخار فى زمانهم ، الذى كان الحلال فيه كثيراً ، فكيف بزماننا الذى غلب فيه الحرام ، فالأولى أن تلزم الضرورة ، فلا تأخذ إلا قائمة وضرورة ، ولا تأكل إلا كذلك .

وقد كان شقيق البلخى رضى الله عنه يقول : فى سنة تسعين ومائة : إن المكاسب اليوم

قد فسدت ، وإن التجارات والصنائع شبهت كلها ، ولا يحل الاستكثار منها لوجود الغش وعدم النصح ، قال : وإنما ينبغي للمسلم أن يدخل فيها ضرورة .

وقوله « بل تركوا الحلال والحرام » يعني أن القوم تركوا الإكثار من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام ، وتركوا « الحرام تقوى » ، وتركوا المتشابه ورعا(١) .

وقيل : الورع هو ترك الحرام والمتشابه ، وهم يطالبون أنفسهم بحقائق ذلك .

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله نجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام ، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم ، لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل ، فكان مما ناجاه ربه أن قال : يا موسى إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ، ولم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ، ولم يتعبد لي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي ، قال موسى : يا رب البرية كلها ، ويا مالك يوم الدين ، ويا ذا الجلال والإكرام : ما أعددت لهم ؟ وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزهاد في الدنيا ، فإني أبيحهم جنتي ، يتبوءون فيها حيث شاءوا ، وأما الورعون عما حرمت عليهم ، فإني أبيحهم جنتي ، يتبوءون فيها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم ، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب ، وفتشته إلا الورعون ، فإني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم ، وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما البكاءون من خشيتي ، فأولئك لهم الرفيق الأعلى ، لا يشاركون فيه » رواه الطبراني وغيره .

وقوله « بلا يسيراً » إلخ يعني أنهم يأخذون اليسير على وجه الحاجة والضرورة ، ويتركون الزائد ، وسواء كان أخذهم ذلك بتكسب أو سيره ، لأن أخذ ذلك لا بد لهم منه ، لوجود الضرورة شرعا ، ودخول التكليف ليس من شأن الفقير ، بل أموره كلها على التيسير ، فلا يكلف ولا يتكلف ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف(٢) » .

ولأن التكلف ينافي التوكل ، وترك الأسباب من غير إذن ينافي الأدب ، ولكن كما قال

---

(١) كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام .

(٢) رواه الدارقطني في الأفراد ، وليس فيه لفظ « وأتقياء » . وروى من حديث الزبير بن العوام « إني بريء من التكلف ، وصالحوا أمتي » .

صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً(١) » ، فما توكلوا على الله كما هو كل مؤنة ، لقوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »(٢) أي كافيه .

وقوله « إذ الحلال المحض قد تعذر » الحلال المحض هو الخالص الذي لا شوب فيه ولا خلاف ، وقد تقدم قول شقيق : إن المكاسب اليوم قد فسدت . إلخ كلامه .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : فأما ما يجري على اختلاف العلماء ، والراجح والمرجوح فهو موجود .

وقال العلماء : إذ فقد رأسا أقيم من عشرة أشياء تجارة بصدق ، وإجارة بنصح ، واكتساب الأرض غير مملوكة ، وهدية من أخ صالح ، وصيد البحر ، ومهر النساء بطيبة نفس . وقسمة الغنم على وجه شرعي . والميراث على أصل مجهول ، والسؤال عند الحاجة ، وكثيراً ما يجري على السنة المتدينين : أن الحلال ضالة مفقودة أي معدومة ، وهو أمر يجلونه تكثيراً للاسترسال وأخذ كل ما ولاهم ، بل الحلال موجود ، ولو لم يكن موجوداً في كل شيء ما كلفنا بطلبه ، ولا تقطع أولياء الله سبحانه ، إذ هو قوتهم ، وذلك باطل ، وأيضاً إذا حرمت الكل حللت الكل ، وكل من بيده شيء يستأنف فيه حكم الله من الآن .

وقد كان شيخنا البوزيدي يقول : من بيده شيء لا يعرف فيه دخول حرام بالأصالة ، ولا معاملة قبيحة مقصودة . فمن أين يحرم ماله ؟ وما غلب على الناس من الجهل ورقة الديانة لا يحرم ما بأيديهم ، لأن الإنسان لا يخاطب إلا بما في علمه ، ثم قال : إن الله خلق الماء حلالاً ، كما خلق الماء طهوراً ، فكما لا ينجس هذا إلا ما غيره ، لا يحرم هذا إلا ما غيره ، لا أن السلف رضي الله عنهم لمعرفتهم بكائن النفوس ، تساهلوا في الطهارة لحصرها ، وشددوا في باب الكسب لتساهل النفوس فيها ، حتى جرى في قواعدهم في باب الطهارة : أن الأصل مقدم على الغالب ، وفي باب الحلال والحرام : الغالب مقدم على الأصل ، وهو مسألة الخلاف ، وقد أصل الناس في هذه الأزمنة باب الحرام ، لا سيما في بلاد المشرق ، فليكن الفقير من ذلك على بال ، ومن يصحب العلم فلا يضل ، ولا يضيق عليه الواسع ، بل لا يزال في فسحة ما لم يتغير .

---

(١) رواه الترمذي ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، والحاكم في المستدرك .

(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٣

وأشار ابن الفاكهاني إلى أنه ينبغي عدم التعرض للبحث في هذه الأزمنة ، والوقوف مع ظاهر الأحوال ، لأن البحث لا يجب حيث لا علامة ، ووجوده لا يكشف عن خير ، وأكثر العلماء على أن الحلال ما جهل أصله ، والحمد لله الذي جعل في الأمور سعة ، انتهى كلامه مع بعض اختصار .

وقال الشيخ أبو الحسن : أصل الحلال ما لم يخطر لك على بال ، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال اهـ .

ثم أشار الناظم إلى ما يعمل بالفضلة على الحاجة .

قلت : أشار بقوله « بلا تكليف » إلى أن ما يدخل على الفقير كله من باب التيسير ، بلا كلفة ولا تدبير ، فإن كان من غير سبب فأمره ظاهر ، إلا أنه ينبغي أن يسبق نظره في الأخذ إلى الحق دون الخلق ، فإن سبق نظره إلى الخلق فمقتضى الورع عند الخصوص ألا ينيل نفسه شيئاً منه ، كما وقع للشيخ أبي مدين رضي الله عنه : أتاه حمل قمح ، فارعته نفسه وقالت : له بازى من أين هذا ؟ فقال لها : أنا أعرف من أين هذا يا عدوة الله ، فأمر به بعض أصحابه أن يرفعه لبعض الفقراء عقوبة لها ، لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى .

وينبغي له أيضاً ألا يتشوف إليه قبل حصوله ، فإن تشوف لشيء منع نفسه منه ، كما وقع لأيوب الخال مع أحمد بن حنبل في قصة الخبز ، وهي معروفة .

وأما إن كان بسبب شرعي ، فينبغي أن يكون ذلك خفيفا غير شاغل عن ذكر الله وأن يكون مقصوداً به الأدب مع الحكمة ، غير ملتفت له ولا معتمد عليه .

قوله : « ابتدءوا بالجار والضعيف » أشار إلى كيفية تفريق الفاضل عن الحاجة ، وأنه يقدم الأهم فالأهم لحديث « ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول(١) » .

قال رجل : يا رسول الله عندي دينار ، قال أنفقه على نفسك ؟ قال : عندي آخر ،

---

(١) والحديث روايات منها : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك » الخ . رواه النسائي عن جابر .

قال : أنفقه على عيالك ، قال : عندي آخر ، قال « صل به ذوي رحمك ، قال : عندي آخر ، قال : اصنع به ما شئت(١) » الحديث .

وحق الجار معلوم من الدين بالضرورة ، فيؤثرونه على غيره بعد المراتب المذكورة ويؤثرون من الجيران أحوجهم ، فإن استووا ، فأقربهم إليك باباً ، وإن كان هناك ضعيف لا جوار له ، والجيران أغنياء قدموه لأن سد الخلل مقدم على الإيثار ، والأخوة في الله مقدمة على غيرها ، هـذا كله في الفضلة والإيثار ، لا في باب الاضطرار ، بحيث إذا أعطاه ملك واختبر بنيته عن العبادة فذلك ممنوع ، والإيثار ما يحتاج إلى الصبر عند إعطائه من غير إخلال ، في قوته ولا ضرر فادح يلحقه ، والفضل ما لا يلحقه منـه شيء من ذلك ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى ورعهم وتحفظهم من الحرام والمتشابه ، فقال :

وجنبوا طعام أهل الظلم ... والبغي والفساد خوف الإثم
بل أكلوا مما استبان حله ... غير الذي لا يعرفون أصله

قلت : أهل الظلم هم ملوك الجور والمال المضروب على أيديهم ، وأهل البغي هم : السراق والمحاربون ، وأهل الفساد من يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة ، ولا يتحاشى الحرام ، ويحتمل أن يكون أهل البغي والفساد شيئاً واحداً ، وهم اللصوص ومن يلحق بهم ممن لا يتقي الله في معاملته ولا يتحافظ من الحرام في مأكله وملبسه وغير ذلك .

ويدخل في أهل الظلم قضاة الجور الذين يقبضون الأجرة على مجرد الحكم ، وكذلك العدول(٢) الذين لا يتحاشون من أموال المسلمين ، مهما قدروا عليها ، عصمنا الله من جميع ذلك .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : وأما تجنبهم طعام الظلمة وتحوهم فلوجوه :

أحدها ما في إرضائهم من الموالاة التي لا تحل ، أي لأنهم يفرحون بأكل طعامهم أهل الصلاح والخير ، مع ما هم عليه من الظلم ، ما لم يخش الضرر الواضح .

---

(١) والحديث روايات أخرى منها : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها » فإن فضل شيء فلأهلك » الخ . رواه النسائي عن جابر .

(٢) جمع عادل ، وهو في الأصل : المشرك الذي يعدل بربه ، واستعمل هنا في الظلم ، ومنه قول المرأة للحجاج : إنك لعادل قاسط . أي ظالم .

الثاني : ما فيه من تسلطهم على المنتسبين : إما بسوء الظن بالجهل ، لاعتقادهم حرمة ما بأيديهم ، وأن من يأكله لا خلاق له فيستهينون بهذا الشخص ، بل بكل أهل جنسه : يجعله حجة على غيره ، ممن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو ضيق حضيرة ، أي ضيق دائرة معرفته ، فيقول له : فلان أكبر منك أكل طعامي ، وما تكون أنت منه ؟ فيؤذى لذلك .

الثالث : ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه ، إذ يرون أنفسهم حينئذ أنهم من أهل الخير ويقولون : لو رأى منا فلان ما ينكره ما أكل طعامنا ، لاسيما إن وجد له وجه في إباحة ذلك وتجرأ على الله بنسبتها لأهل الله ، كما يفعله بعض من وهن الإيمان في قلبه ، والعياذ بالله .

الرابع : ما في ذلك من ميل النفس لهم ، ومحبتهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « اللهم لا تجعل لمنافق علي يداً فتحبه نفسي »(١) .

وحكى أبو نعيم في حليته أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه ، وذكره فأعطاه مالا ، فاشترى به عبيداً فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع في ذلك ، فقال له : ذكرتهم بالله ووعظتهم ، وأخذت منهم مال الله وصرفته في وجهه . فقال محمد بن واسع الله : قسم قلبك الآن لهم ، كما كان ، قال : لا ، فاستغفر ، رحمة الله على الجميع .

الخامس : ما في ذلك من تناول الشبهة من غير ضرورة ، فقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : من كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع أكولا لأموال الظلمة ، ففيه نزعة يهودية ، قال الله تعالى ـ سماعون للكذب أكالون للسحت ـ اهـ باختصار .

السادس : ما يلحقه بسبب ذلك من الذلة وتغيير الحال ، كما اتفق لكثير من الناس ، واتخذه بعضهم (أي بعض الكبراء) سياسة ، فإذا رأى فقيراً استظهر عليهم بالقوة وخافوا دعوة أو غيرها ولوه واحتالوا عليه ، حتى يدخل في أيديهم فلا يمكنه التعزز عليهم . وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول : الفقير لا يمشي بالليل ، ولا يهرب بالنهار إن رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة .

قلت : لأن هذه كلها تورث الذل .

السابع : ما في ذلك من فتح باب التشويش ، باعتقاد الناس أن له عندهم جاهاً ،

---

(١) وفي رواية « لفاجر » بدل « منافق » و « قلبي » بدل « نفسي » رواه ابن مردويه في التفسير ، والديلمي في مسنده ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر » من طريق أهل البيت رضي الله عنهم .

فيتوجهون له بطلب الشفاعة ، وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه ، وقل ما تعلق به رجل فسلم في دينه ، والله تعالى أعلم .

وهذا كله ما لم تكن ضرورة . والمرء فقيه نفسه .

وقد ذكر الشيخ الغوري رحمه الله : أن السلطان أبا الحسن صنع طعاماً لجماعة من أهل الله في وقته ودعاهم له ، فكان منهم من أكل ولم يتوقف ، ومنهم من استظهر بالصوم ، ومنهم من أخرج خبزه وائتدم بإدام الملك ، ومنهم من أكل وقال ، ومنهم من قال : أنا صائم ، ولكن هاتوا من طعام الملك على وجه البركة ، فسألهم شيخهم عن ذلك .

قال الأول : طعام مستهلك ترتبت القيمة في ذمة مستهلكه ، فحل له التصرف فيه ، وقد [illegible] عن طيب نفسه ، فبأي وجه أتركه ؟

وقال الثاني : تجنبت حال الشبهة بجميع وجهه .

وقال الثالث : عملت على القول بإباحة الغلة للغاصب .

وقال الرابع : هو مال مجهول الأرباب يجب فيه التصرف بالقيمة ، فكنت تأخذ وتقدر أن تقومه بعد .

وقال الخامس : طعام مستحق للمساكين ، قدرت على استخلاص بعضه ، فاستخلصت ما قدرت عليه ، وخرجت به لأربابه .

ثم ذكر عنه أنه غسل مروده بما تعلق من الإدام . وشق عليه إخراج ما تعلق به من [illegible] وأرسلها مع النهر .

ومن هذا النوع ما ذكر أن ابن عباد رحمه الله . أعطاه السلطان كسوة وأعطى الشيخ [illegible] كسوة ، وأعلمهما أنه إنما عملهما من الجزية ونحوها ، فقبلها ابن عباد وردها [illegible] رضي الله عنهما . فقيل لبعض أهل الوقت ، ممن له بصيرة في ذلك ، فقال : الورع [illegible] بإجماع . وجبر قلب الملك واجب بإجماع ، وأنتم ترون من وافق الصواب المتعلق [illegible] أو بالمستحب ، هذا ما وقع له في الأمر الظاهر ، ولما بعث له (أي لابن عباد) [illegible] يساوي مالا لعلة كانت به : صبه في المرحاض ، ولم ينتفع به ، فاعرف لهذه [illegible] . فللرد آفات ، كما للأخذ آفات كما لا يخفى ، والورع من ورعه الله ، وإنما يورعه [illegible] صدقه في ورعه . انتهى كلام الشيخ زروق .

قلت : وقد اضطرب العلماء فى هدايا الملوك وإجازتهم، فنهم من قبلها ، ومنهم من ردها وقد ذكر الغزالى فى الإحياء جماعة من قبلها ومن ردها ، فانظره إن شئت .

وقوله : « بل أكلوا مما استبان حله » إلخ يعنى أن القوم لا يأكلون إلا ما ظهر حله وتحققت إباحته ، ولا يأكلون مما لا يعرفون أصله ، هل هو حلال أو حرام ؟ ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك ، والله تعالى أعلم .

وقد استوفى الغزالى فى الإحياء الكلام على الحلال والحرام ، فعليك به .
ثم ذكر الناظم بعض آداب الأكل ، فقال :

ولم يكونوا كرهوا الكلام عليه لكن كرهوا الإرغام

قلت : الكلام على الطعام حسن ، لأن السكوت عليه يدل على الشره والنهمة ، ويستحب أن يكون بعلم ، أو بحكايات الصالحين ، ويكون الكلام بعد بلع الطعام ، لا فى حال مضغه ، لأنه ربما يخرج شىء من فمه فيسقط فى الطعام فيقذره على غيره ، فلا يتكلم الآكل مادام الطعام فى فمه ، وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمى عند كل لقمة ، ويحمد عند ابتلاعها ، قال ابن الحاج : وهذا أمر حسن ، لكن السنة لم ترد به ، وهى أحسن من كل ما سواها ، فلم يكن القوم يكرهون الكلام فى حال الطعام ، لكن كانوا يكرهون الإرغام : أى التحتم على الإخوان فى الأكل ، لما فى ذلك من التكلف المنهى عنه ، بل الأدب فى ذلك تركه يفعل ما يشاء ، وقد يكون قولك له : كل ، سبباً فى رفع يده حياء ، فاوجب على صاحب الطعام أن يدفع الطعام ويقرب لهم الماء ، وينيب عنهم ، فهو فى غاية الظرافة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر وقت الأكل فقال :

ويكرهون الأكل مرتين فى اليوم والمرة فى اليومين

قلت : إنما كرهوا الأكل فى اليوم مرتين ، لما فيه من تقوية شهوة الطعام ، وقد تقدم أنهم لا يأكلون إلا عن فاقة[1] ، وقد قيل لسهل رضى الله عنه : أكلة فى اليوم ؟ قال : أكلة الصالحين ، قيل : أكلتان ؟ قال أكلة المؤمنين ، قيل : ثلاثة ؟ قال : يا هذا مر أهلك يبنى لك مصلاة .

(١) أى حاجة إلى الطعام .

والمراد باليوم بياض النهار ، ومن الفجر إلى الغروب ، والغالب أن الآكل فيه مرتين يثقل الأعضاء ويبطىء الهضم ، ويفسد الطعام فى المعدة ، وفيه قال ابن سينا عفا الله عنه :

ثوق إذا ما شئت إدخال مطعم على مطعم من قبل فعل الهواضم
فكل طعام يعجز السن مضغه فلا تبتلعه ، فهو شر المطاعم
واجعل طعامك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طاعم

وقد آخر :

ثلاثة هى أسباب المنايا وداعيـــة الجسوم إلى الخمام
نكاح يستدام وكثرة نوم وإدخال الطعام على الطعام

ويفهم من كلام الناظم أن الممدوح هو الأكل مرة فى اليوم يعنى مرة فى النهار ، ومرة فى الليل ، وهو الوسط ، وأن الأكل مرة فى اليومين تفريط ، كما أن الثلاثة فى اليوم إفراط .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وهذا حكم من اعتدل مزاجه أو قارب ، فأما من خرج إلى حد الإفراط أو التفريط ، فلا ينبغى أن يهمل حكمه ، بل يعمل بما يصلحه من غير إخلال ولا بعد للحق ، بين الشبع المفرط الذى يفسد المعدة ويضيع الطعام من غير صنع محرم ، والذى يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئاً مكروه ، على خلاف فيه ، والأولى بشخص الا يأكل حتى يجوع جوعاً متوسطاً ، وهو الذى يشتهى ما يقوم به أوده ، أى قوامه من معتاد طعامه ، ولا يفرط إلى أن يشتهى كل خبيث ، فإنه مضر بالفكرة ، مخل بالقوة ، ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهى ، وهو طلب الطعام مقروناً بالشهوة ، ثم ذكر استحباب الاجتماع على الطعام ، فقال :

وفضلوا الجمع على الإفراد فيـــه لأجل كثرة الأياد

قلت : إنما فضلوا الاجتماع على الانفراد فى الأكل ، لثلاثة أوجه :
أحدها : ما فى ذلك من التماس البركة الحسية والمعنوية ، أما الحسية فلقوله عليه الصلاة والسلام « اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه[1] » ، وأما المعنوية فلقوله عليه الصلاة والسلام «

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن حبان بلفظ : « اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » .

« من أكل مع محفور غفر له » ، وبقدر ما تكثر الجماعة تعظم البركة ، لأن مع كل واحد ملكين أو أكثر ، فيكثر حضور الملائكة بقدر ما يحضر من الناس .

وكان الجنيد رضي الله عنه يقول : المؤاكلة مراضعة ، فانظروا من تؤاكلوه .

وثانيها : ما في ذلك من العفة والقناعة وعدم الحرص والشره ، لأن أكل الإنسان وحده يدل على نذالته وبخله في النذالة وحرصه بهمته ، والنذالة بالنون بعد الذال هي الرذالة والخسة وبخله أو حرصه ونهمته ، وفي الحديث « شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده » إلا لضرورة شرعية أو عادية .

وثالثها : ما في ذلك من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يأكل طعاماً إلا على حنفف أعني كثرة الأيدي(١) ، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام اتخذ قبة ينظر منها مد بصره من كل ناحية لأجل الضيفان ، وربما كان يمشي الأميال في طلب من يأكل معه .

وقوله : لأجل كثرة الأيادي يصدق بالأوجه الثلاثة ، والأيادي جمع أيد ، وأيد جمع يد ، فهو جمع الجمع ، والله تعالى أعلم ، ثم ذكر آدابا أخر فقال :

ولم يلقم بعضهم لبعض ولم يجل بصره بل بنض

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الصوفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض ، وعلى ذلك إذا كان على وجه الانبساط والملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والتوقير ، أو يحمل على تلقيم الخادم إذا أتاهم بالطعام ، وهو نص قول السلمي : « وكره أكثرهم تلقيم بعضهم مما بين أيديهم ، لاسيما إذا كان ضعيفاً ، فإنه لا يجوز له التصرف فيما قدم » ، فقال بعضهم : يملكه بالإحضار بين يديه ، وقال بعضهم : بالتناول ، وقال بعضهم : بالوضع في الفم ، وقال بعضهم . باستيفاء الأكل ، وقال الجنيد رضي الله عنه : تنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام ، فإنهم لا يأكلون إلا بالإيثار » انتهى كلام السلمي .

فجعل التلقيم المكروه إنما هو للخادم ، لكن قول الناظم « بعضهم لبعض » ظاهر في الفقراء ، فيحمل على ما تقدم من الانبساط ، وأما إذا كان على وجه التبرك ممن توجى

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل بلفظ : « أحب الله إلى الله ما كثرت عليه الأيدي » .

بركته فلا بأس ، وللمتأخرين من المشايخ فيه أسانيد وطرق ، وقد يستدل له بحديث المرأة التي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يناولها مما يأكل » ، فناولها من بين يديه ، فقالت : لا أريد إلا من الذي في فيك فناولها ، وكانت قليلة الحياء(١) ، فصارت بعد من أشد الناس حياء » الحديث .

وقد جرى العمل بهذا بشرط إذا طلب ذلك من الشيخ أو ممن ترجى بركته ، ولا يكلف به من لا يطلبه ، وأشار أيضاً إلى أن الصوفية إذا كانوا في حالة الأكل لا يجيلون نظرهم ، أي لا يمدونها إلى من يأكل معهم ، بل يغضون أبصارهم ، وينظرون أمامهم لما في إجالة البصر من إحراجهم وقلة المروءة معهم ، فإن هيئة الإنسان في حالة الأكل بشيعة ، لاسيما إذا كان كبير السن ، وقد كان بعضهم ترك أكل الطعام الذي يحتاج للمضغ حياء من الله أن يراه على تلك الهيئة .

وقال بعضهم : استتروا بإدخاله كما تستترون بإخراجه ، فالواجب من جهة الأدب ألا ينظر أحد إلى الآكلين ، ولا يقف على رؤوسهم بماء ولا غيره ، بل يضعه ويذهب عنهم خلاف ما يفعله أرباب الدنيا في الولائم وغيرها ، والخير كله في الاتباع ، والشر كله في الابتداع .

وكان مالك رضي الله عنه كثيراً ما ينشد هذا البيت :

وخير أمور الناس ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أدب آخر وهو ، عدم انتظار الغائب إذا حضر الطعام ، فقال :

ولم يروا فيه بالانتظار فيذهب الوقت بلا تذكار

قلت : أشار رحمه الله إلى أن مذهب الصوفية إذا حضر الطعام بادروا إليه بالأكل ، ولم يكن رأيهم فيه بالانتظار لمن كان غائباً منهم ، بل يعزلون حقه ويأكلون الباقي ، وذلك

---

(١) يبدو أنها رجعت بركة فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هذا من باب قلة الحياء وإنما كانت جريئة وقد أراد الله خيراً بها ، فإنها رزقت بعد من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ببركة فم النبي ﷺ والله تعالى أعلم .

لما فى ذلك من التكلف للعائب، وإهانة الطعام بانتذاله ، أى إهماله وشمل بال الجائع منهم به لا سيما وهم لا يأكلون إلا عن احتياج ، ولأن الحاضر مقدم حقه على العائب .

قال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : ويكره الانتظار عند حضور الطعام .

وقد قيل : قلوب الأحرار لاتحمل الانتظار ، ويكره تفويت الوقت بالاشتغال بالأكل حتى حكى عن بعضهم أنه كان يفطر على حسوة يحسوها ، ويقول : الوقت أعز من أن يشغل بالأكل اهـ .

قلت : وإلى هذا الأخير أشار بقوله : « فيذهب الوقت بلا تذكار » ولعله مرتب على محذوف تقديره ولا يطيلون الجلوس عليه فيذهب الوقت بلا ذكر كما رتبه السلمى ، والناظم فى هذا الباب ما نظم ، إلا ما ذكره السلمى حرفا حرفا ، غير أنه قدم وأخر ، وفيه تنبيه على ما كان عليه السلف من الجد والاجتهاد ، ومحافظتهم على أوقاتهم وساعاتهم .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم ، يقول : كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه، فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه .

وقال السرى السقطى : خرجت يوما من بغداد، أريد الرباط بعبادان ، أصوم بها رجب وشعبان ، (فاتفق أن مررت[1]) فى طريق على الجرجانى . وكان من الزهاد الكبار ، فدنا وقت إفطارى ، وكان معى ملح مدقوق وأقراص ، فقال : ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام ، لم تفلح ولن تدخل سنن المحبين ، فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير ، فسقف منه ، فقلت : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى سبحت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة ، وفى الخبر « ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة[2] » أنظر تنبيه ابن عباد ، فقد أطال فيه .

ثم نهى عن كثرة الأكل فقال :

وكرهوا البطنة للإخوان فالبطن كالوعاء للشيطان

---

(١) وضعتها ليستقيم المعنى إذ لم تكن بالأصل الذى راجعنا عليه .

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة رضى الله عنها .

قلت : البطنة بكسر الباء هى : امتلاء البطن من الطعام ، فأخبر رحمه الله أن الصوفية كرهو البطنة للإخوان ، وهى الشبع ، أو الزائد فوقه إلى حد لا يضر ، وإلا حرم ، وأشار بها إلى قول سيدنا عمر رضى الله عنه : « إياكم والبطنة فإنها تذهب الفطنة ، وتبطىء بالجوارح عن الطاعة » .

وأشار بقوله « فالبطن كالوعاء للشيطان » إلى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مسالكه بالجوع[1] » .

فالبطن إذا امتلأت كثر دم البدن ، فتتسع مجاريه للشيطان فيسلط عليه الكسل والثقل وسوء الخواطر ، والوساوس ، فيكون جسمه كالوعاء للشيطان ، يحشو فيه ما شاء .

وقد قال لقمان لابنه : يابنى إذا ملىء البطن نامت الفطنة ، وخرست الحكمة .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه[2] » .

وقيل يا رسول الله : من أفضل الناس ؟ قال : من قل طعمه وصحكه ، ورضى بما ستر عورته » .

وقال صلى الله عليه وسلم « البسوا ، واشربوا ، وكلوا فى أنصاف بطونكم ، فإنه جزء من النبوة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء » .

وفى حديث آخر : « إن الله يباهى الملائكة بمن قل طعمه فى الدنيا ، فيقول انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب فى الدنيا فتركهما ، اشهدوا يا ملائكتى ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات فى الجنة » اهـ .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى « مكايد الشيطان » .

(٢) يؤيده ما رواه الديلمى فى مسند الفردوس عنه صلى الله عليه وسلم : « البسوا الصوف وتزروا ، وكلوا فى أنصاف البطون ... تدخلوا فى ملكوت السماء » .

وقد ذكر فى كتاب الإحياء للجوع عشر فوائد :

الأولى : صفاء القلب ، وإنفاذ القريحة ، ونفوذ البصيرة . فإن الشبع يورث البلادة ويقسى القلب ويكثر البخار فى الدماغ ، كشبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر ، فيشتغل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار .

الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب لا يلتذ به ، حتى كان بينه وبين الذكر حجاب من قساوة القلب ، قال أبو سليمان : أحلى ما تكون العبادة إذا لصق ظهرى ببطنى .

وقال الجنيد رضى الله عنه : يجعل أحدكم بينه وبين الله مخلاة من طعام ، ويريد أن يحصل حلاوة المناجاة .

الثالثة : الانكسار والذل ، وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، ولا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع ، فعنده تسكن لربها وتخشع وتقف على عجزها وذلها .

الرابعة : ألا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء ، فإن الشبعان ينسى الجائعين .

قيل ليوسف عليه السلام . مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض ، قال : أخاف أن أنسى الجائع .

والعبد الفاضل لا يشاهد بلاء إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيتذكر بجوعه : جوع أهل النار ، وبعطشه : عطش يوم القيامة .

الخامسة : كسر شهوات المعاصى والاستيلاء على النفس ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادتهما من الأطعمة والأغذية فتقليلهما يقمع كل شهوة وقوة .

السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فإن شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ولذلك قال بعض المشايخ : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً وترقدوا كثيراً ، فتخسروا كثيراً ، وفى كثرة النوم تضييع العمر وفوات التهجد ، وبلادة الطبع وقساوة القلب الذى هو أنفس الجواهر ورأس مال العبد .

السابعة : تيسر المواظبة على العبادة ، الأكل يمنع من كثرة العبادة ، لأنه لا يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى علاجه ، ثم يكثر تردده إلى

الخلاء ، والأوقات المصروفة إلى هذه لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لعظم ربحه وكثر خيره ، ومما يتعذر مع كثرة الأكل دوام الوضوء وملازمة المسجد ، فإنه يحتاج إلى الخروج لمراقة الماء وغيره . ويتعذر أيضاً مع كثرة الأكل عبادة الصوم ، فإنه يتيسر لمن تعود الجوع دون غيره .

الثامنة : صحة البدن ودفع الأمراض فإن سبب الأمراض كثرة الأكل وحصول فضلة الاختلاط فى المعدة ، ثم إن المرض يمنع من العبادات ، ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ، وينغص العيش ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء[1] » ، و « أصل كل داء البردة[2] » .

وفى رواية : البطنة « أصل الداء والحمية أصل الدواء » وسمع بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قوله صلى الله عليه وسلم « ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس[3] » فتعجب منه وقال : ما سمعت كلاما فى قلة الأكل أحسن منه ، وإنه لكلام حكيم .

وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتل إلا علة الموت ، قيل وما الأدب قال : يأكل بعد الجوع ، ويرفع قبل الشبع .

وفى الخبر المشهور « صوموا تصحوا[4] » .

التاسعة : خفة المؤنة . فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذى تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً ، يأخذ بحنقه كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم ؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل الرديئة ، فيكتسب الحرام فيعصى ، أو الحلال فيذل ، وربما يمد عينيه إلى الطمع فى الخلق ، وهو غاية الذل والمهانة ، والمؤمن ضعيف المؤنة لا يذل نفسه فى شهوة بطنه .

العاشرة : التمكن من الإيثار والتصدق ، ويعود بالفضلة على المساكين ، ويكون

---

(١) يؤيده قوله عليه الصلاة والسلام « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » رواه الترمذى من حديث المقدام . (٢) رواه الدارقطنى فى العلل ، وابن السنى وأبو نعيم .

(٣) رواه الترمذى من حديث المقدام ، وهو بقية الحديث المتقدم .

(٤) رواه ابن السنى وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى عن أبى هريرة .

يوم القيامة ، في ظل صدقته ، كما ورد(١) ، فما يأكله خزانته الكثيف ، وما يتصدق به خزانته ظل الله ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأمضى أو أكل فأفنى وليس قابلي ، فالتصدق بفضلة الطعام أولى من التخمة والشبع .

قال الحسن : لقد أدركنا أقواما كان الرجل منهم يعني وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لأكله كله ، فيقول : والله لا أجعله كله في بطني ، حتى أجعل بعضه لله تعالى ، فهذه عشر فوائد للجوع ، وتنبعث من كل واحدة قواعد لا تنحصر » .

انتهى كلام الغزالي باختصار .

وقد تقدم تقييد الجوع بغير المفسد للفكرة أو المدرك للشرعية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أدبا آخر ، وهو ألا يرفع يده قبل الناس إذا كان يقتدى به ، فقال : « قالوا : ولا يمسك يدا ما داموا في الأكل ، ليتم ومتى ما قاموا » .

قلت : من آداب الأكل مع الجماعة ألا يمسك يده قبلهم حتى يعلم أن القوم أخذوا حاجتهم من الطعام ، وهذا إذا كان كبيراً يقتدى به ، أو رب المنزل .

وفي بعض الآثار « إن لم تأكل وأكل ، فإن رفع اليد قبل الجماعة يخجلهم ويمنعهم من الاسترسال في الأكل ، وقد يكون منهم من هو في الحاجة ، ويمنعه من الأكل فيتضرر بسببه ، ولهذا قالوا : من الآداب الجهر بالتسمية والإسرار بالحمدلة ، لأن الجهر بها يحصل من معه ، فيرفع يده قبل قضاء حاجته من الطعام » . . . . . .

ومن آدابهم أيضا لا يجلس إذا قام القوم عن الطعام ، بل يقوم معهم لأن جلوسه يدل على نذالته : أي سفاطته وهجنته ، وإن كان محتاجا ، إلا في عمل لا يدركه شيء من ذلك .

قال الشبلي رضي الله عنه : وإذا كان مع جماعة فلا يمسك عن الأكل ما داموا يأكلون ، لا سيما إذا كان متقدمهم .

---

(١) ولفظ الحديث كما رواه الحاكم من حديث عقبة بن عامر « كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » ورواه الإمام أحمد أيضاً :

ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكلا اهـ .

ولم يذكر الشبلي ما ذكره الطعام بقوله ، وليقم متى قاموا ، لكنه ظاهر .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : وينبغي أن يراعي في كل موقف ما يليق به ، فطعام الفقراء يأخذ منه قدر حاجته سواء قلت أو كثرت .

قلت : والمراد بالفقراء : الإخوان .

ثم قال : وطعام المتفضلة أي الأجنبيين المتفضلون به ، يأخذ منه مقداراً لا يخل بمروءته ولا يقدح عندهم في ديانته ، لأنه إن قل : قالوا مراء متصنع ، وإن كثر قالوا : إنهم متوسع ، ومتى رأيا في أكله فقد ستر نفسه ، كذا قال بعض المشايخ لمن رآه يأكل أكلا عنيفاً فنهره ، فقال : كل من راءا في أكله فقد راءا في دينه ، وطعام العامة من المحبين والمتسبين يأخذ منه على قدر مشاهد الحال .

وقد كان حمدون القصار إذا دعى أصحابه إلى وليمة أشبعهم قبل الإجابة ليتناولوا بالعز .

وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه : يفعل ذلك ويقدم عنده بأطيب الطعام .

ومن آدابهم : السخاء ، والإيثار ، والتوسط في تناوله ، كما أبان ذلك بقوله :

وأمروا فيه بفتح الباب ... وأكلوا بالقصد والآداب
وفتحوا الباب لكل سار ... وأكلوا بالرفق والإيثار

قلت ذكر من آداب القوم في الأكل خمسة أمور :

أحدها : فتح باب المنزل الذي يأكلون فيه ، ليدخل عليهم كل من يحتاج إلى الأكل ، وفيه دلالة على كرمهم وغنى قلوبهم ، لأنهم لا يدفعون من يأتيهم ، بل يقابلونه ويسرحون به ، وربما رأوا له المنة عليهم في أكله معهم ، بل يعتقدون أنه هدية من الله إليهم ، لا سيما إن كان من إخوانهم أو من ذوي الحاجة لقوله عليه الصلاة والسلام « السائل على باب أحدكم هدية من الله تعالى(١) » ، أو كما قال .

---

(١) وقال صلى الله عليه وسلم : « ردوا السائل ولو بظلف محرق » رواه البخاري في التاريخ والإمام أحمد والنسائي عن حواء بنت السكن ، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « ردوا مذمة السائل ولو ولو بمثل رأس الذباب » رواه العقيلي عن أم المؤمنين عائشة .

وكان الشيخ الغوري رحمه الله يقول : رأيت لبعض العلماء أنه قال : يجب على الإنسان إذا وقف السائل وهو يأكل أن يناوله .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : فقلت له : يجب ؟ قال : نعم ، مثل الصلاة ، قال : فاستغربته ، وسألت عنه جماعة بالمشرق والمغرب ، فلم أجده عند أحد ، واستدل له بأن عائشة رضي الله عنها أعطته حبة عنب ، وذكرت حديث « ردوا السائل ولو بشق تمرة » .

قال : وفي الاستدلال على الوجوب نظر .

قلت : إنما يظهر الوجوب إذا كان مضطراً أو حاملا .

ثانيها : الأكل بالقصد من غير إفراط ولا تفريط ، فلا يزيد على شبع المعتاد ، بل يقصر عنه ، ولا يفعل جداً حتى يختل بدنه ، وخير الأمور أوسطها ، وكذلك لا يكبر اللقمة جداً ، ولا يصغرها جداً ، والوسط مطلوب في كل شيء .

وقال تعالى : ـ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك(١) ـ الآية ، وقال ـ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما(٢) ـ .

وقال عليه الصلاة والسلام ما عال من اقتصد(٣) ، إلى غير ذلك من الأخبار .

ثالثها الأكل بالآداب ، وهي كثيرة ، فمنها ما تطلب في أوله ، وهي التسمية جهراً .

ونية التقوى على الطاعة .

والاعتبار في تيسيره بعد أن عمل فيه عوالم كثيرة ، وغسل اليدين كان مستقذراً(٤) ، وإلا فلا ، والأكل على السفرة دون الخوان المرتفع(٥) .

والجلوس على إحدى رجليه ، وهي اليسرى ورفع الأخرى وإلصاقها ببطنه .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٦٧ .

(٣) رواه الدارقطني والطبراني عن ابن عباس بلفظ : « ما عال مقتصد » .

(٤) غسل اليدين سنة سواء كان فيهما قذارة أو لا ، واتباع السنة أولى .

(٥) لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأكل على خوان قط .

والتشمير عند الأكل ، قاله السلمي .

ومنها ما تطلب بعد الشروع فيه ، وهي الأكل بثلاثة أصابع ، حيث يتأتى ذلك .

قال السلمي : وليس من الظرافة أن يغمس يده في الطعام بحيث يتلطخ به اهـ .

والأكل مما يليه ، وتصغير اللقمة ، وتجويد المضغ ، وترك النظر إلى لقمة صاحبه ، وترك لعق الأصابع قبل تمامه ، ثم يرده في القصعة ، وترك الانحناء على الطعام لئلا يسقط من فيه شيء فيقذره على غيره ، وترك تقصير اليد مما يفضل من لقمته في القصعة ، فإن ذلك يقدر على الآكلين ، وهذا كثيراً ما يفعله من لا معرفة له بالأدب ، فيتحرز الفقير منه جهده فإن التصوف كله آداب كما يأتي إن شاء الله ، وترك مسح يده في جوانب القصعة ، وترك الأكل وسط القصعة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كلوا من حواليها ولا تأكلوا من وسطها فإن البركة في وسطها(١) » .

والأكل باليد إلا ما كان مائعا أو خفيفاً .

وكره بعضهم الأكل بهذه الملاعق إلا لضرورة .

ومنها ما تطلب بعد التمام ، وهي : الحمد سراً ، ولعق الأصابع ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن أحدكم لا يدري في أي طعامه البركة »(٢) ثم مسحها ثم غسلها .

وقد رمز بعضهم لهذا الترتيب بلفظ : « ملغ » فاللام للعق ، والميم للمسح ، والغين للغسل .

ومنها لفظ ما سقط من الطعام ، يقال : إنه مهر الحور .

وبقي من الآداب التي تطلب عند الأكل : الأكل باليمين بدلا من اليسار ، إلا أن يكون

---

(١) رواه الإمام أحمد والبيهقي عن ابن عباس بلفظ « كلوا في القصعة من جوانبها ولا تأكلوا من وسطها فإن البركة تنزل في وسطها » ، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « كلوا من حواليها ، وذروا ذروتها يبارك فيها » ، رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن بسر .

(٢) رواه الإمام مسلم من حديث جابر بلفظ « فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة » ، والبيهقي في الشعب : « لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده ، فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه » .

فى هذه طعام وفى هذه ادام ، كما وقع لسيدنا على كرم الله وجهه ، إذ كان فى إحدى يديه خبز وفى أخرى شواء ، وعدم القران فى التمر مثلا ، إلا أن يكون مع قوم أطعمهم وعدم حولان يده إلا أن يكون مع أهله وولده ، وحيث يباح له الجولان .

وآداب الأكل كثيرة ، ذكر منها فى المدخل نبذة صالحة .

ورابعها : الأكل بالرفق ، وهو التأنى فى الأكل بحيث يصير اللقمة ، ولا يرفع أخرى حتى يبتلع ما فى فيه ، ويجد المضغ وبلوغ طعامه إلى أن يتمه مضغاً ، ولا يظهر الشره والحرص ، بل يظهر القناعة والغنى عنه .

وخامسها : الأكل بالإيثار ، وهو أن يؤثر غيره على نفسه إن كان الطعام قليلا ، أو كان فيه ما يشتهى فيقدمه لغيره ، كلحم جيد أو غيره ، والإيثار : بذل ما تمس الحاجة إليه دون ضرر لاحق فى الحال والمآل ، وقد مدح الله أهل الإيثار بقوله تعالى ـ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(١) ـ .

وقال بعضهم : ارهد عندنا : إذا وجدنا آثرنا ، وإذا فقدنا شكرنا .

وقوله « وفتحوا الباب » إلخ لما كان الأمر لا يلزم العمل ذكر أولا الأمر ، ثم صرح بالفعل ، أو يحمل الأول على الباب الخارجة ، والثانى على الباب الداخلة إن كان للمنزل بابان ، والله تعالى أعلم بتمة .

قال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : قال بعض مشايخ الصوفية : واجب على المضيف ثلاثة أشياء ، وعلى الضيف ثلاثة أشياء .

فأما على المضيف بأن يطعمه من الحلال ، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة ، ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام .

وعلى الضيف أن يجلس حيث يجلسه ، وأن يرضى بما قدم إليه ، وألا يخرج إلا بعد استئذان .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من السنة أن يشيع الضيف إلى باب الدار(٢) » .

---

(١) الآية : ٩ من سورة الحشر .

(٢) ذكره الغزالى فى الإحياء ، ولم يخرجه العراقى .

قلت : وإن زاد فهو خير » .

ويذكر أن سيدنا إبراهيم الخليل كان يشيع الضيف مسيرة ميل أو أكثر ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى الحكم الخامس من الأحكام التسعة ، فقال : والخامس ما يلزمهم من الآداب فى الاجتماع ،

وحاصل هذا الحكم الحض على الآداب ومواطنه وكيفيته ، فقال موطئاً للكلام عليه :

والطريق ظاهر وباطن ... تعرف منه صحة البواطن

قلت : المراد بالطريق هو طريق السلوك إلى ملك الملوك ، وهى طريق الصوفية ، ولها ظاهر وباطن ، فظاهرها ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، وباطنها ما يتعلق بإصلاح العلوم الباطنية .

وأخبر أن استقامة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن ، وعبر عن الاستقامة بالصحة ، فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن .

قال ابن عطاء الله فى الحكم : حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال .

وقال أيضاً : ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر ، إلا أن ما تعلق بإصلاح الظواهر يسمى شريعة وما تعلق بإصلاح البواطن يسمى طريقة ، ثم حقيقة .

ثم بين ما يختص بالظاهر وما يختص بالباطن فقال :

ظاهره الآداب والأخلاق ... مع كل خلق ماله خلاق

باطنه منازل الأحوال ... مع المقامات لذى الجلال

قلت : لما أخبر أن الطريق لها ظاهر ، وهو ما يظهر على الجوارح من الآداب المرضية والأخلاق السنية والأعمال الزكية ولها باطن ، وهو : ما يمكن فى القلوب من الواردات الإلهية والأحوال الربانية والمقامات اليقينية والعلوم اللدنية والأسرار القدسية ، عين هنا ما يختص به الظاهر وما يختص به الباطن ، فأخبر أن ظاهر الطريق : الآداب ، وحقيقته عند الصوفية حفظ الحواس ، وضبط الأنفاس ، أى الأوقات ، والحق أنه تهذيب الجوارح وتصريفها فى أنواع المصالح .

قال السلمى رضى الله عنه : وعلى كل جارحة آداب تختص به ، قال الله تعالى ـ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا(١) .

وقال بعض المشايخ : حسن ـ مع الله تعالى : لا تتحرك جارحة من جوارحك فى غير رضى الله عز وجل ، فأدب اللسان أن يكون وطيأ بذكر الله تعالى ، وبذكر الإخوان بخير ، والدعاء لهم ، وبذل النصيحة ، والوعظ ، ولا يكلمهم بما يكرهون ، ولا يغتب ولا يتم (يعنى يمشى بالنميمة) ولا يشتم ولا يخض فيما لا يعنيه ، وإذا كان فى جماعة تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم ، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك . ويتكلم فى كل مكان بما يوافق الحال ، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وقيل : خلق الله اللسان ترجمان القلب ، ومفتاحا الخير والشر ، وقيل : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك ، وازم الصمت ، فانه ستر للجاهل وزين للعاقل ، قال صلى الله عليه وسلم « وهل يكب الناس على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم(٢) » .

وآداب السمع : ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر ، وانشدوا :

أحب الفتى ينفى المناكر سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود إليه بالفائدة دينا ودنيا ، ويحسن الإصغاء إلى متكلميه ومخاطبيه ، ولهذا يذلك .

وآداب البصر : الغض عن المحارم ، وعن عيوب الإخوان ، وعن المنكرات والمحرمات ، فان الله تعالى ـ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ـ .

وقيل : من طاوع طرفه تابع حتفه (أى موته) وفى رواية (من أرسل طرفه مات حتفه) وأنشدوا .

وإنك مهما ترسل الطرف رائدا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر

ترى ما الذى لا كله أنت قادر ... عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

ثم قال السلمى : وقيل من غض طرفه ثم طرفه ، وقيل : من كثرت لحظاته دامت حسراته ، ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته وجميل صنعه ، عازيا عن حظوظ النفس الأمارة بالسوء .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٢) رواه الترمذى وصححه ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

حكى عن بعضهم أنه قال : نظرت إلى شخص نظرة شر ، فرأيت فى المنام قائلا يقول لى : الدنيا دارى ، والخلائق فيها عبيدى وإمائى ، فمن نظر إلى واحد منهم بغير حق فقد جنى ، فتبت وآليت ألا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا دلى حد الأمانة .

وحكى عن أبى يعقوب النهرجورى أنه قال : رأيت فى الطواف إنسانا بفرد عين(١) ، وهو يقول : أعوذ بك منك ، فقلت : ما هذا الدعاء ، فقال : اعلم أنى مجاور منذ خمسين سنة ورأيت يوما شخصا استحسنته فاذا الطمة وقعت على عينى ، فسالت على خدى ، فقلت : آه على لى : لحظة بلطمة ، ولو زدت لزدناك .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه « إياك أن تتبع النظرة النظرة فان الأولى لك والثانية عليك(٢) » .

وآداب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة ، ونفى الخواطر الردية المذمومة ، والتفكر فى آلاء الله ونعمائه وعجائب خلقه ، قال الله تعالى ـ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض(٣) ـ الآية .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة(٤) » .

قلت : وفى رواية « خير من عبادة سبعين سنة » .

فيحمل الأول على تفكر أهل الدليل ، والثانى على تفكر أهل الشهود .

ومن آداب القلب : حسن الظن بالله وبجميع المسلمين ، وتطهيره من الغل والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد ، فانها من خيانات القلب ، قال الله تعالى ـ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا(٥) ـ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ، ألا وهى القلب(٦) » .

---

(١) يعنى بعين واحدة .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، ورواه أبو داود

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

(٤) رواه ابن حبان فى كتاب العظمة .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٦) متفق عليه .

وقال سرى السقطى : القلوب ثلاثة ، قلب كالجبل لا يحركه شيء ، وقلب كالشجرة أصلها ثابت والريح يميل بها يمينا وشمالا ، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت .

وآداب اليدين : البسط بالبر والإحسان ، وخدمة الإخوان وألا يستعين بهما على معصية الله تعالى .

وآداب الرجلين : السعى بهما فى صلاح نفسه وإخوانه ، وألا يمشى بهما مرحا ، ولا يختال ولا يتبختر ، ولا يزهو ، فانهـــا مما يبغضه الله تعالى ، وألا تستعين بهما على المعاصى . انتهى .

وأما الأخلاق ، فالمراد بهـــا : حسن الخلق مع كل مخلوق ، ومرجعها إلى : الحلم ، والعفو ، والصبر ،

أو تقول : مرجعها إلى أن تعامل الخلق بما تحب أن تعامل به .

أو تقول : مرجعها إلى كف الأذى ، وبذل الندا ، والإنصاف فيما ظهر وما بدا ، وحسن الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا .

وقال الغزالى : هى ملك النفس عند الشهوة والغضب ، ويرجع إلى ما تقدم .

وقوله « مع كل خلق ماله خلاق » معناه : أن تحسن أخلاقك مع من لا خلاق له ، أى لا نصيب له عند الله ، أمرك أن تحسن أخلاقك مع من لا قدر له ، لأنه هو الذى يحتاج إلى تحسين الأخلاق ، وأيضاً التأدب وحسن الخلق مع من لا خلاق له يتضمن التأدب مع غيره بالأحروية ، ومرجع ذلك لقوله تعالى ـ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[1] .

قال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى أن أعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى » .

وقال تعالى ـ ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[2] ـ ومعناه أن تحسن إلى من أساء إليك .

---

(١) الآية : ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٣٤ من سورة فصلت .

وقوله « باطنه منازل الأحوال . . . مع المقامات » يعنى : أن باطن الطريق هو أهل نزول الأحوال والمقامات ، وهى القلوب والأسرار ، لأنها باطنية لا يعلمها إلا الله والفرق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجىء ، بخلاف المقام ، فإنه رسوخ وتمكين .

قال فى العوارف : كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات المشايخ فى ذلك لوجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما ، وتداخلهما فتراهما البعض الشىء حالا وتراهما البعض مقاما ، وكلا الروايتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما تشعر بالفرق .

فالحال سمى حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشىء بعينه حالا ، ثم يصير مقاما ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعيه المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ، ثم تزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاهده الحال ، ثم يحول الحال ظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، ويغلب حال المحاسبة فتقهر النفس وتضبط ، وتتملكها المحاسبة ، فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، ثم ينازله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالا ، ثم يحول عنه حال المراقبة لسبوب السهو والغفلة فى باطن العبد ، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ، ويتداركه الله بعونه ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إذا ينازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نزل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، وتنازل المشاهدة أيضاً يكون حالا ويحول بالاستتار ، ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاماً ، وتتخلص شمسه من كسوف الاستتار ، ثم فى مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه ، كالتحقق بالفنا وتخلص إلى البقاء ، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل بخرق شعاف القلب ، وذلك أعلى فروع المشاهدة ، انتهى .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتسليم ، تكون أحوالا ، ثم تصير مقامات ، فما دامت مجاهدة فهى أحوال ، فإذا كانت ذوقا فهى مقامات .

وقد قالوا : الأحوال مواهب ، لأنها موهبة من الله بمحض على الأعمال ، والمقامات مكاسب ، لأن التمكين منها مكتسب بدوام الأعمال .

وفى التحقيق : كلها مواهب .

وقول سيدنا على كرم الله وجهه : « سلونى عن طرق السماوات ، فإنى أعرف بها من طرق الأرض » أشار إلى المقامات والأحوال فان السالك يصير قلبه سماويا ، فهى طرق السموات ، ومستنزل البركات . قاله السهروردى أيضاً .

وقوله « ذى الجلال » يتعلق بمحذوف ، أى يستقر بها عند ذى الجلال ، وهو الحق تعالى — ذو الجلال والإكرام — والله تعالى أعلم .

ولما كان بين الظاهر والباطن تلازم : ما كان فى هذا ظهر فى هذا ، أشار إلى ذلك بقوله

والأدب الظاهر العنوان ... دلالة الباطن فى الإنسان

قلت : هذا داخل فيما تقدم من أن صحة الظواهر تدل على صحة البواطن ، فما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم « من سر سريرة ألبسه الله رداءها

فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، فالأسرة(١) تدل على السريرة ، وما يلوح على فيك ، وكل إناء بالذى فيه يرشح ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح ، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب ، وآداب الظاهر يدل على آداب الباطن .

حكى أن الجنيد دخل على أبى حفص النيسابورى ، فرأى أصحابه واقفين عند رأسه كأنهم الملك ، فقال الجنيد : أدبت أصحابك يا أبا حفص أدب الملوك ؟ فقال : لا يا أبا القاسم ولكن : أدب الظاهر عنوان أدب الباطن .

وهو الذى ذكر الناظم هنا ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر فضيلته فقال :

وهو أيضاً للفقير سند ... وللغنى زينة وسؤدد

وقيل : من يحرم سلطان الأدب فهو بعيد ، ما تدانا واقترب .

وقيل : من تجنبه الآداب فانما تطلقه الآداب .

قلت : المراد بالفقير هنا : من لا مال له ، بدليل مقابلته بالغنى ، إنما كان الأدب سنداً للفقير

---

(١) الأسرة : أسرة الوجه : ظاهره وشكله : يدل على ما فى القلب من ثبات أو تقلب ، إذا أنها تتغير بحسب ما فيه . والله أعلم .

أى معتمداً عليه ، ويرتفع إلى مقام الأكابر دينا أو دنيا ، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان والتواضع والحلم ، فإن أراد اللحوق بأكابر الدين كان أدبه معهم سبباً فى التحاقه بهم ، وإن أراد اللحوق بأكابر الدنيا ، كان أدبه أيضاً سبباً فى لحوقه بهم ، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان كما تقدم .

وإنما كان للغنى زينة وسؤدداً ، أى شرفاً ، لأن الغنى محبوب بالطبع ، فإذا كان أديباً مأدباً زاد عدهم شرفه .

ومن آداب الغنى : التواضع والكرم ، فإذا خلا من هذين فليس بأديب ، وإذا خلا الغنى من الآداب التحق بالأراذل ، وانحرط فى سلك الأنذال ، ولذلك قيل : خير ما أعطى الإنسان : عقل يزجره ، فان لم يكن فحياء يمنعه ، فان لم يكن فمال يستره ، فان لم يكن فصاعقة تحرقه يستريح منه البلاد والعباد .

والآداب أيضاً من موجبات القرب والوصال ، ولذلك قيل : « من يحرم سلطان الأدب » أى يمنع منه ولم يوجد فيه شىء منه « فهو بعيد ما تدانا » فى زعمه « واقترب » فى وهمه ، فما مصدرية ، وتدانا واقترب من عطف التفسير والمرادف ، أى فهو بعيد مدة كونه متدانياً قريباً فى ظنه .

وأشار بهذا لقول أبى حفص رضى الله عنه : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يظن القبول .

وقال ابن عطاء الله : من جهل المريد أن يسىء الأدب ، فتؤخر للعقوبة عنه ، فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الأمداد وأوجب البعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يدرى ولو لم يكن إلا منع المريد ، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدرى ، ولو لم يكن إلا أن يخليه وما يريد .

وإنما سمى الناظم الأدب سلطاناً لأنه حاكم على الشخص فى نفسه ، فلا يتركه يميل إلى جهة النقائص والرذائل .

ومن فضيلة الأدب أنها تلحق من لا نسب له بذوى الأنساب ، وتصير الوضيع شريفاً

والدنى رفيعاً ، ولذلك قيل : « من تحبسه الأنساب الدنيـــة تطلقه الآداب المرضية ، أى من يحبسه عن الارتفاع مع الكبراء نسبه الوضيع ، يطلقه إلى طلب العلو أدبه الرفيع .

قيل لبعض الملوك فى بعض الكتب انه ليس بحسيب ، أى من قوم لهم حسب ، فسأله الملك ، فقال للملك : أنا حسيب لأولادى ، أى يصير أولادى من ذوى الأحساب بسببى ، وهكذا كما قال بعضهم : « نحن بنات المجـــد لغيرنا ، أى نحن نؤسس المجد ونبنيه لغيرنا ، ولا نستظل ببناء مجد غيرنا » وفى ذلك قيل :

كن حليما ودع فلان ابن من كا ... ن حليما وأجمع إلى الحلم علما
لا تكن سكراً فيأكلك النا ... س ولا حظلا تذاق وترمى

ثم تمم فضيلته وشرفه فقال :

فالقوم بالآداب حقا سادوا ... منه استفاد القوم ما استفادوا

(قلت) السؤدد هو الشرف أى ما ساد القوم وشرفوا إلا بالآداب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين ، فالأدب مع الله بامتثال أمره واجتناب نهيه ، والاستسلام لقهره .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح الحكم : هو حفظ الحدود ، والوفاء بالعهود والنطق بالملك الودود ، والرضى بالموجود ، وبذل الطاقة والمجهود .

والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وإيثار صحبته ، والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه .

والأدب مع الأشياخ بحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، وصدق المحبة .

والأدب مع المسلمين ، بأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، أو أكثر .

وتقدمت آداب الجوارح ، فلا بد منها ، وكذلك آداب الأوقات ، وهى تعميرها بالطاعات ، فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : وقت الطاعة ، ووقت المعصية ، ووقت النعمة ، ووقت البلية ، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة ، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر ، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر ، فاذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وكل نسبة لا أدب فيها فصاحبها كذاب ، لأن عنوان الصدق وجود المراقبة ، وإن كانت الغفلة مع حفظ الأصل غير قادحة ، فقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : كل سوء أدب يثمر أدبا فليس باساءة أدب ، يعنى من حيث الواقع ، لا من حيث القصد ، فتأمل ذلك ، وبالله التوفيق .

وقوله « منه استفاد القوم ما استفادوا » يعنى من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامات الحسية والمعنوية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر بعض تفاصيل الأدب ، فقال :

إذ نصحوا الأحداث والأصاغر ... وحفظوا السادات والأكابر

قلت : ذكر هنا أربعة أصناف من الناس ، ممن يتأدب معهم إذا اجتمعوا معه ، أولهم الأحداث : جمع حدث :

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هو من لا نبات له ، وهم ثلاث : الحدث سنا ، وهو الصغير الذى لم يميز حقائق الأمور ، فله ولوع بكل ما يراه أو سمعه من مستحسن ، فلا تؤمن غائلته فى الانقلاب ، ثم للنفوس ولوع به ، من حيث الجمال الصورى ، أو من حيث التعلق الروحانى ، وقد يكون ذلك لا يشعر به الشخص ، وقد يكون من حيث شعوره ، ولصحبتهم آفات حاضرة من حيث شغل البال وحفظه ، ثم حيث اشتغال النفس بالميل له ، ثم من حيث كون الضرر فى النفس بصحبته ، فلا خير فيها ، ولا بد من نصحه عنـــد إقباله بتعريف الأصول ، وترك الفضول .

قلت : الأصل فى صحبته الجوار ، وإنما يمنع لهذه العوارض التى ذكرها ، فمن تحقق سلامته منها فلا يعترض عليه ، وقد ذكره التجيبى ، واستدل للجواز بخدمة أنس بن مالك رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان عليه الصلاة والسلام معصوما ، فالأصل فيما يفعله الاقتداء حتى يرد ما يخصصه به .

القسم الثانى من أقسام الحدث : الحدث عقـــلا ، وهو الذى لا يثبت على حقيقة ، ولا ينتهج على طريقة : يتبع كل ناعق ، ويتنسم كل ناشق ، هذا أعظم ضرراً من الذى قبله لفقدان الحقيقة فيه ، وانتفاء قابليتها منه ، ونصحه بتعريف الوجه الذى يقصده ، وبيان الحق بوجه واضح حتى تقوم الحجة وتظهر المحجة ، وأكثر ما يوجد هذا فى فقراء البادية .

قلت : إن كان على الفطرة سهل علاجه وقربت هدايته .

القسم الثالث : الحدث دينا ، وهو مع كل قوم بما هم عليه ، يميل مع كل ريح ، ويسمى : الإمعة بكسر الهمزة وشدة الميم ، ونصحه بدعواه إلى إفراد الوجهة ، وتذكيره بما فى ذلك من الضرر .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فى كل واد من قلب ابن آدم شعب فمن تتبع قلبه ذلك الشعب لم يبال الله فى أى واد أهلكه » .

الثانى : الأصاغر ، والمراد بهم : صغار السن الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها ، ونصحهم بغرس الخير فى قلوبهم ، كما قال ابن أبى زيد فى رسالته : « وأرجى للقلوب للخير ما لم يسبق الشر إليها » .

وقال السلمى رضى الله عنه : والصحبة مع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والحمل على ما يوجبه حكم المذهب ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم ، لا على ما فيه مرادهم ، وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه ، ويزجرهم عما لا يعنيهم .

الثالث السادات : والمراد بهم : العباد ، والزهاد ، والصالحون ، والعلماء العاملون ، والمريدون السالكون ، الذين لم يبلغوا مرتبة المشيخة ، ونصح الأول بدلالته على الإخلاص وإسقاط الحظوظ النفسانية والروحانية ، ونصح الثانى بتصحيح النية وإفراد الوجهة مع ما نصح به الأول ، ونصح الثالث بتحقيق التوبة والاستقامة ، ونصح الرابع بتحقيق الإخلاص وتوفير الصبر والحلم والتواضع ، ونصح الخامس بالعيبة عن الدنيا ، أو بإسقاط الهوى ومحبة المولى ، وحفظهم بالتعظيم والتوقير والاحترام ، وبإعطاء الرتبة حقها من كل وجه ، ولا يستحقر أحداً أقامه الله فى مقام من المقامات كيفما كان .

قال فى الحكم : إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد ، وأدامه عليه مع طول الأمداد ، فلا تستحقرن ما منحه مولاه ، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين ، فمولاه وارد ما كان ورد .

وقال أيضاً : قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته ، — كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً » .

الرابع : الأكابر ، والمراد بهم للمشايخ ، وحفظهم بثلاثة أمور : اتباع ما رسموه ، وأن

لم يفهم معناه ، فقد قالوا « خطأ الشيخ أحسن من صواب المريد » فإن بان غيه توقف من غير اعتراض حتى يظهر أمره .

الثانى : عدم البحث عما جاءوا به إلا من حيث التفهم ، فإن من قال لأستاذه : لم ، لا يفلح أبداً .

الثالث : موالاة من والاهم ومعاداة من عاداهم ، ما لم يكن له مانع شرعى ، أو يجره إلى منكر .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والإنصاف من نفسه ، وعدم الانتصار لها اهـ .

ثم ذكر آدابهم فى الكلام فقال :

واجتنبوا ما يؤلم القلوب .....

قلت : هذا عام مع جميع المسلمين ، فلا يتكلم مع مسلم بما يوجعه فى دينه ، ولو كان فاسقاً ، فقد قال تعالى — مقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(١) — .

فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملاطفة والسياسة ، ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل ، وكذلك مع الإخوان ، لأن جبر القلوب فى جبر القلوب ، وكسر القلوب فى كسر القلوب ، فمن جبر قلب عبد بإدخال السرور عليه أو هداية إليه : جبر الله قلبه ، ومن كسر قلب عبد بإدخال الحزن عليه أو تغييره عين : كسر الله قلبه ، ومن أراد جبر قلوب عباد الله فليغض عن مساويهم ، وليسكت عن عيوبهم ، يرحم الله القائل :

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم ... وجاهك موفور وعرضك صيتن
لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فعندك عورات ، وللناس ألسن
وإن أبصرت عيناك عيباً فقل لها ... أياعين لا تنظرى فللناس أعين
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى ... وفارق ، ولكن بالتى هى أحسن

---

(١) سورة طه عليه الصلاة والسلام ، الآية : ٤٤ ، هذا مع فرعون ، فكيف بتكفير المسلم فى هذا الزمن ؟ ؟ ؟

وقال الشيخ زروق : فهذه الآيات جمعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب ، فمن عمل عليها سلم من هذه الآفات التي أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس ، وسوء الظن بهم . وقد قال عليه السلام : « ثلاثة لا ينجو منها ابن آدم : الحسد ، والطيرة ، والظن ، فإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض »(١) .

ومن خلقه عليه الصلاة والسلام أنه « كان لا يواجه أحداً بما يكره ، إلا أن تنتهك حرمات الله » .

ثم ذكر آدابهم في العمل فقال :

. . . . . وابتدروا الواجب والمندوب

قلت : أشار بذلك إلى كل عبوديتهم ، وأنهم يتبادرون إلى حقوق مولاهم : واجبة كانت أو مندوبة ، امتثالا لقوله تعالى - وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض(٢) - على اختلاف قصدهم .

فمنهم من يقصد الثواب والنجاة من العقاب عاجلا وآجلا ، وهم العوام منهم .

ومنهم من يقصد : تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، وهم الخواص ، أو خواص الخواص ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابهم مع الأشياخ والإخوان ، فقال :

وخدموا الشيوخ والإخوانا وبذلوا النفوس والأبدانا

قلت : خدمة الشيوخ قربة عظيمة ومنقبة جسيمة ، وهي سبب الفوز بالوصول إلى معرفة الحق تعالى ، ونيل درجات المقربين السابقين .

وفي ذلك يقول سيدي عبد الوارث رضي الله عنه : خدمة الرجال سبب الوصال إلى مولى الموالي .

وقال سيدي عبدالله الهبطي رضي الله عنه :

إن كان الخديم ظنه جميل دل على فلاحه دليل

---

(١) وروى ابن عدي قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

أهل نفسه لخدمة الرجال لكي ينال من حبيبه الوصال
غيره ذل المحب في طلب القرب عن عزيز عند أهل الحب

وقال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه : الصحبة مع الأستاذ بانباع أمره ونهيه ، وهي في الحقيقة خدمة لا صحبة .

قيل لأبي منصور المغربي : كم صحبت أبا عثمان ؟ فقال : خدمته وما صحبته ، يعني أن صحبة الصغير للكبير تسمى خدمة ، لا صحبة(١) .

ثم قال : والقيام بخدمة أستاذه واجب ، والصبر تحت حكمه ، وترك مخالفته ، ظاهراً وباطنا . وقبول قوله والرجوع إليه في جميع ما يعرض له ، والتبرك به واستماع كلامه ، وتعظيم حرمته ، ومجانبة الإنكار عليه في شيء من أموره ، سراً وجهراً ، قال الله تعالى - فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم(٢) - الآية .

سأل بعض أصحاب الجنيد الجنيد عن مسألة فأجابه ، فعارضه في ذلك ، فقال الجنيد : فإن لم تزموا فاعتزلوا .

ويكون في صحبته كالصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، تأديبهم بآداب القرآن في قوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(٣) - وقوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض(٤) - الآية ، وقوله تعالى - لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا(٥) - وما أشبه ذلك .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته(٦) » اهـ .

---

(١) وعنه قول أنس بن مالك رضي الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » الخ ولم يقل : صحبت ، وهو أدب رفيع .

(٢) سورة النساء ، الآية :

(٣) و (٤) سورة الحجرات ، الآيتان : ١ ، ٢

(٥) سورة النور ، الآية : ٦٣

(٦) رواه الخليلي في مشيخته ، وابن النجار عن أبي رافع بلفظ « الشيخ في أهله كالنبي في أمته » ورواه ابن حبان في الضعفاء ، والشيرازي في الألقاب عن ابن عمر .

قلت : والحديث قال ابن الجوزى « إنه موضوع(١) » والله تعالى أعلم .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : خدمة الشيوخ أمر زائد على تعظيمهم اه .

وأما خدمة الإخوان ، فهى إعانة على ما يعرض له من أمور دينية أو دنياوية بنفسه أو بماله أو بجاهه أو بما يقدر عليه .

قال السلمى رضى الله عنه : رأيت جدى إسماعيل فى النوم يقول لى : ألست تعلم شيئاً من العلوم ؟ فقلت : ربما أعلم شيئاً ، فقال : أليس سئلت أمس عن الاعتقاد فى خدمة الفقراء ؟ فقلت : نعم ، فقال : كتبت ما كتبت ولست بمحتاج إليه ، إنما هى ثلاث كلمات ، وهى : أن تخدم من فوقك بالحرمة ، وأقرانك بالنصيحة ، ومن دونك بالشفقة ، وانتبهت اه .

وقال فى آداب صحبتهم ما نصه : والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة وبذل المعروف والإحسان ، والكون معهم على حكم الوقت .

حكى أن العباس ابن عطاء مد رجليه بين يدى أصحابه ، وقال : ترك الأدب مع أهل الأدب أدب .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا صحت المودة سقطت شروط الأدب(٢) .

روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فدخل عثمان فغطى ركبتيه ، وقال : « ألا أستحيى ممن تستحى منه الملائكة(٣) » فحشمه عثمان وإن عظمت فالحالة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهما : يعنى أبا بكر وعمر ، أصفى ، ثم قال : ولا يداهنهم فيما يخالف المذهب .

وقد قال رويم : ما زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم ، ويخضع عند الحق لقائله بالقبول .

روى أن عمر رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان من دار العباس بن عبد المطلب إلى

---

(١) وكذلك حكم المناوى فى المقاصد الحسنة بوضعه ، وذكر فيه كلاماً طويلا ، فارجع إليه إن شئت .

(٢) وفى المثل السائر : « شدة الألفة ترفع الكلفة » .

(٣) رواه الإمام مسلم ، والإمام أحمد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها .

الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس ، قلعت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده ؟ فقال : إذن لا يرده إلى مكانه غيرك ، ولا يكون السلم غير عاتق عمر ، فقام على عاتقه ، فرده إلى موضعه ، رضى الله عنهما ، انتهى .

وقوله : « وبذلوا النفوس » إلخ ، والبذل هو الخدمة والمهنة ، يقال : ثوب مبتذل ، أى مهان بالخدمة ، يعنى أنهم بذلوا نفوسهم وأهانوها فى خدمة الشيوخ والإخوان ، فنالوا غاية العرفان ، وحازوا أقصى مقام الإحسان ، نفعنا الله بهم وخرطنا فى سلكهم ، آمين ، ثم ذكر آدابهم فى العلم ، فقال :

وأنصتوا عند المذاكرات ... واحترموا الماضى معاً والآت
وسألوا الشيوخ عما جهلوا ... ووقفوا من دون ما لم يصلوا
وعملوا بكل ما قد علموا ... وآثروا واغتفروا واحتشموا

قلت . أما الإنصات عند المذاكرة فلأنه يدل على كمال العقل والرزانة ، فقد قالوا : من كمل عقله قل كلامه ، ومن قل عقله كثر كلامه ، وأيضا الكلام إنما يفهم بتمامه ، فإذا تم الكلام تكلم بما عنده من غير ملاججة ولا خصام ، ، ولا ينبغى السكوت بالكلية إذ لا يعرف الشيخ حاله ولا مقامه إلا بكلامه .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : تعلم المذاكرة كتعلم الرماية ، فلا بد أن يرموا الإشارة ، فتارة أمامها وتارة قدامها ، حتى يصادفها ، أو كلام هذا معناه .

وأما احترام الماضى فالمراد من تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، واحترامهم ألا يذكروا إلا بالإحسان ، وأن يلتمس لهم أحسن المذاهب .

ويرحم الله النووى لما سئل عن ابن العربى الحاتمى . فقال : « الكلام كلام صوفى ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون » .

ومن احترامهم الاستغفار والترضى عنهم ، قال تعالى ـ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان(١) ـ .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٠

وأما احترام الآتى ، فمثاله ألا يقطع المادة ويحجر القدرة ، فيقول : انقطعت الأولياء ولم يبق أحد ، وانقطعت التربية ولم يبق من يصلح لها ، أو كان الناس وليس هذا زمانهم أو نحو ذلك من سوء الظن بالله وبعباده » .

وأما « سؤال الشيوخ عما جهلوا » فلأن طلب العلم واجب على كل مسلم ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، ووقع الإجماع على أنه لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وإنما يسئلون عما يحتاجون إليه فى الحال من عمل أو حال أو مقام دون ما يتعلق بالمستقبل من المقامات ، وهو معنى قوله « ورقموا من دون ما لم يصلوا » يعنى دون الذى لم يدركوه بالمازلة والذوق ، فلا يسئلون عنه ، لأنه لا تدركه عقولهم ، وإن أدركته اتصلت به على غير وجه التحقق ، فكان ضرره أكثر من نفعه .

وأما عملهم بكل ما علموا ، فلأن العمل نتيجة العلم ، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، وعمل بلا علم جناية .

وفى الحديث « مثل العالم الذى لا يعمل ، كالشمعة : تحرق نفسها وتضىء على غيرها(٢) » .

ولأن « العلم يهتف بالعمل فإن وجده وإلا ارتحل(٣) » و « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم(٤) » .

فالعلم إذا أيد بالعمل نهض ، ثم أنتج نوراً تاماً ، ينتج ذلك النور حكمة ، فيكون كل شىء من صاحبه علماً وحكمة .

وقوله : « وآثروا » يعنى أنهم آثروا على أنفسهم فى الكلام ، فيقدمون أكبرهم علما أو سناً ، ويؤثرون أيضاً على أنفسهم فى صدور المجالس والمحافل ، وكل ما فيه تعظيم .

وقوله « اغتفروا » أى سامحوا وعفوا عن هفوة الإخوان الذين لم يتهذبوا ، وصبروا على غلطتهم فى المذاكرة وغيرها .

---

(١) رواه الطبرانى ، والضياء المقدسى بلفظ : « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه » .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به » رواه ابن حبان .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية .

وقوله « واحتشموا » أى تركوا المنازعة والمخاصمة والملاججة بالغضب ، لأن ذلك يؤدى إلى الشرور والعداوة والحقد ، فتخرج المذاكرة حينئذ إلى المجادلة والمراء .

وقد قال عليه الصلاة والسلام « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى أسفل الجنة »(١) .

ثم ذكر آدابهم فى المعاشرة فقال :

واحتكموا بالعدل والإنصاف ... فوردوا كل معين صاف

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الفقراء لايداهن بعضهم بعضا فى الحق ، ولا ينافق بعضهم بعضاً ، بل يأتمرون بينهم بالمعروف ويتناهون عن المنكر ، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضاً ، وعلى أنفسهم ، ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق ، ولا يتعصب ولا يتحامى حمية الجاهلية ، وحقيقة العدل هو : تنفيذ الحق من غير زيادة عليه ولا نقصان منه ، والإنصاف هو الاعتراف به من غير توقف ، ويقال الإنصاف من شيم الأشراف .

وقال أبو العباس بن العريف رحمه الله : لا بد لطالب العلم الحقيق من معرفة الإنصاف وزومه بالأوصاف اه ،

قلت : ولا بد أيضاً للعالم من التحقق بالإنصاف ليرجع الحق أينما ظهر .

وقد قالوا : « إذا أخطأ العالم لا أدرى أصيبت مقاتله » .

وكان الشيخ عبد العزيز المهدى رحمه الله : إذا سئل عن شىء لا يدريه يقول : لا أدرى ، وإذا سئل عن شىء يدريه يقول : أحب أن أسمعه من غيرى .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ومن عجيب ما سمع فى ذلك أن ابن الحاج حكى فى مدخله : أنه لما طالب شيخه ابن أبى جمرة رضى الله عنه فى أن يقرأ عليه ، قال له : وتترك القصبة والأكابر الذين كنت تقرأ عليهم وتقرأ على ؟ فقال : عزمت ، قال : استخر الله ، قال : استخرت ثم جئت من الغد ، فقال : عزمت ، قلت : نعم ، قال : لا يخطر على بالك أنك جلست بين يدى عالم ولا إلى عالم وأنت متعلم ، ولكنا قوم اجتمعنا لطلب أحكام الله ، فإن وجدنا الحق على لسان صبى من صبيان المكتب اتبعناه .

---

(١) وهو حديث طويل رواه الطبرانى وذكره الحافظ ابن حجر الهيتمى فى الزواجر ١ ص ١٢٢ .

قلت : فهذا الأمر الذى كان عليه سلف هذه الأمة ، وإلا لما صح مخالفة متأخرهم لمتقدمهم ! والله أعلم .

ثم المنصف هو : الذى لا يبالى كان شيخاً أو تليذاً أو عالما أو معلما ، ظهر الحق على لسانه أو لسان غيره ، لأنه مقصوده دون ما سواه ، وقليل ما هم اه .

قوله « فوردوا كل معين صافى » الورود : هو الشرب ، والمعين هو : الماء الجارى . والصافى : لا تعيير فيه ، يعنى أن الصوفية لما حكموا بالعدل ، واتصفوا بالإنصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها ، لأن القلوب إذا صفت وتزكت وتطهرت من الدعوى والمكابرة أشرقت فيها أنوار العلوم ، ولاحت فيها أسرار الفهوم ، فأخذت من العلوم أصفاها ، ومن الأنوار أبهاهـــا ، ومن الأسرار أسناها وأوفاها ، فمن صفى صفى له ، ومن كدر كدر عليه ، فالعلم المكدر هو علم التقليد ، أو علم الدليل ، والعلم الصافى هو علم الأذواق ، أو علم الشهود .

وفى هذا المعنى قال القطب ابن مشيش رضى الله عنه : « وانشلنى من أوحال التوحيد وأغرقنى فى عين بحر الوحدة » والله تعالى أعلم .

ثم ذكر شروط الأخوة وآدابها فقال .

وبعضهم كان لبعض عوناً ... يلقى لديه دعة وأمنا
يبصره فى الحق حيث كانا ... فإن أساء قارضه إحسانا

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الصوفية رضى الله عنهم (أعنى الفقراء) كانوا يتعاونون على البر والتقوى ، لأن ذلك لمقصد جمعهم ، فيعين أخاه بنفسه وماله وجاهه وعلمه وعمله وعمله ومناصحته ومواساته ومصادقاته إلى غير ذلك ، وما كان اجتماعهم إلا ليتعاونوا على ذكر الله وسائر أبواب الخير .

قال تعالى ـ وتعاونوا على البر والتقوى[1] ـ وبذلك التعاون يصير كل واحد منهم فى راحة وأمن من حاجته ، وهذا معنى قوله «يلقى لديه دعة وأمنا» أى يلقى عنده راحة فيما يعانيه عند توجه أخيه لذلك الأمر ، أو عندما يعينه عليه ، وأمنا من فوات مقاصده بسببه ، ولذلك

(١) الآية ٥ : سورة المائدة .

عليه الصلاة والسلام ، « مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى[1] » ، وكمثل البنيان يشد بعضه بعضاً ، وفى معناه قيل :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... يبدد فيك شمله ليجمعك

قوله « يبصره فى الحق » إلخ أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم .

« انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قالوا : يا رسول الله ، فإذا نتصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ على يديه فترده عن ظلمه[2] » .

وإنما كان رده عن الظلم نصراً ، لأن نفسه ظالمة له ، وهو مغلوب فى يديها ، فإذا رددته عن ظلمه فقد نصرته عليها ، وإذا تركته يظلم فقد خذلته ، وقد تقدم قول رويم[3] يزال الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا قل دينهم .

قوله « فإن أساء قارضه إحسانا » القرض هو السلف ، أطلقه هنا على مطلق العطاء ، أى إن أساء فقير إلى أخيه فى قول أو فعل سامحه ، وبذل له إحسانا وعفوا ، وامتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم ومن يقتدى به ـ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ـ أى ادفع السيئة بالتى هى أحسن ، وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام فى تفسير قوله تعالى خذ العفو الآية إن الله أمرنى أن أعفو عمن ظلمنى وأصل من قطعنى وأعطى من حرمنى » .

قلت : وقد رأيت للغزالى كلاما حسنا فى آداب الأخوة وشروطها ذكره فى الإحياء ، ورأيت أن أذكره على وجه الاختصار لما فيه من الفوائد الغزار ، قال رضى الله عنه :

(١) الحديث كما فى الإحياء « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى » رواه الملى فى « آداب الصحبة » والديلمى فى « مسند الفردوس » . وقال العراقى : إنه من قول سلمان الفارسى رضى الله عنه ، والله أعلم .

(٢) رواه أحمد ، والبخارى ، والترمذى ، والدارمى ، وابن عساكر ، ولفظه كما فى « الفتح الكبير » مع الزيادة إلى الجامع الصغير كلاهما للسيوطى » : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال كيف أنصره ظالما ؟ قال تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره » وللحديث روايات أخرى بلفظ « تأخذ على يديه » قال السخاوى فى « المقاصد الحسنة » رواه البخارى .

(٣) فى الأصل « حمدون القصار » راجع ص ١٧٤

« اعلم أن عقد الإخوان رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضي النكاح حقوقا يجب الوفاء بها ، فكذلك عقد الأخوة ، فلأخيك عليك حق فى المال وفى النفس وفى اللسان وفى القلب ، وبالعفو وبالدعاء .

ثم قال : وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : فى المال بالمواساة ، وذلك على ثلاث مراتب أدناها أن تنزله منزلة عبدك وخادمك ، فتقوم بحاجته بفضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وعندك فضلة أعطيته إياه .. فان أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك فى مالك ، فتسمح له فى مشاركتك .

الثالثة وهى العليا : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وهى رتبة الصديقين ومنتهى درجة المتحابين .

ومنها : الإيثار بالنفس أيضاً كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء وهو المتوكل ، فأمر بضرب رقابهم ، وفيهم أبو الحسن النورى ، فبادر إلى السياف ليكون أول مقتول ، فقيل له فى ذلك : فقال : أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم فى حكاية طويلة .

الحق الثانى : الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجة الخاصة ، وهذه أيضاً لها درجات كالمواساة ، فأدناها : القيام بالحاجة عند السؤال ولكن مع البشاشة والاستبشار ، وإظهار الفرح ، وأوسطها أن تجعل حاجته كحاجة نفسك متفقداً لحاجته ، غير غافل عن أحواله ، كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتجعل عن السؤال ، وأعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، وتؤثره على نفسك وأقربائك وأولادك .

كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

الحق الثالث : على الإنسان بالسكوت ، فيسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله

ويسكت عن أسراره التى بثها إليه ، فلا يبثها إلى غيره ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف بثه بها ، ولو بعد القطيعة ، ويسكت عن عاداته ومدافعته فى كلامه .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق ، فيتودد إليه بلسانه ويتفقده فى أحواله التى يجب أن يتفقده فيها ، كالسؤال عن عارض عرض له ، وأظهر شغل القلب بسببه ، فينبغى أن يظهر بسببه كراهتها ، والأحوال التى يسر بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته فى السرور بها ، فمن الأخوة المساهمة فى السراء والضراء ، ويدعوه بأحب أسمائه فى حضوره ومغيبه ، ويثنى عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يريد هو الثناء عنده ، وكذا على أولاده وأهله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به من غير كذب ، ولا إفراط ، ويبلغه ثناء من أثنى عليه ، مع إظهار الفرح به ، ويذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض بعرضه ، بكلام صريح أو تعريض ، وتعلمه بما علمك الله ، وتنصحه .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات ، فإن كانت زلته فى الدين بارتكاب معصية يستلطف فى نصحه ، فإن بقى مصراً فقد اختلف الصحابة فى ذلك ، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته ، وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحبته ، وذهب أبو الدرداء وجماعة إلى خلاف ذلك ، وقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى ، وهذه ألطف وأرفقه ، وذلك لما فى هذه الطريق من الرفق والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة ، وأيضاً للأخوة عهد ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها ، ومن الوفاء ألا يهمله أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشد من فقر المال .

ثم قال : والعاجز إذا صحب تقيا وهو يظن إلى خوفه رجع عن قريب ، ويستحى من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل ، فيحرص حياء منه ، وإن كانت زلته فى حقك ، فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب .

الحق السادس : الدعاء له فى حياته وبعد مماته بكل ما يحب لنفسه وأهله .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص ، ومعنى الوفاء : الثبات على الحب ، وإدامته إلى الممات بعده ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه .

الحق الثامن : التخفيف ، وترك التكليف والتكلف ، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه ، بل

تروح سره عن مهماتك وحاجاتك ، وترفهه عن أن تحمله شيئاً من أعبائك ، ولا تستمد منه من مال وجاه ، ولا تكلفه التواضع لك والتفقد والقيام بحقوقك ، بل ما تقصد بحبه إلا الله تعالى » .

انتهى المراد منه ببعض اختصار

ثم ذكر بعض ما يجتنب فعله فقال :

وليس حط الرأس من آدابه ... بل الصواب كان فى اجتنابه
بل هو مبنى على القصاص ... لمن أراد حسبه الخلاص
وليس فى قيام الاستغفار ... أصل صحيح واصطلاح جار

قلت : أما حط الرأس ، فهو أن الفقير إذا أساء الأدب مع أحد من الفقراء أو غيرهم يأتى إليه ويحط رأسه بين يديه ، ليؤدبه أو يقتص منه ، أو يسمح له ، وهذا أمر لم يرد فى الشريعة ، ولا جرى به عمل فى الطريقة ، فالصواب اجتنابه ، لأن ذلك كان عند من قال مبنيا على القصاص ليتخلص المجنى عليه من الجانى ، فهو من باب التمكين من القصاص ، وهو يتأتى بغير حط الرأس ، فلا حاجة إلى ابتداع هذا الحط ، وقد مكن عليه الصلاة والسلام عكاشة من القصاص ، ولم يكن فيه شيء زائد على التمكين من القصاص لمن أراد أن يحتسب له بخلاص نفسه فى الدنيا قبل الآخرة .

وأما قيام الاستغفار ، فهو أن الفقير إذا أساء فى حق الفقراء أو غيرهم ، وأراد له التوبة والاستغفار قام على رءوس الفقراء معترفاً بذنبه ومظهراً للاستغفار ، ومعتذراً عما صنع ، وهذه الحالة لم يجهزها عمل فقراء المغرب ، ولا مستند لها من السنة ، فتركها أولى ، إلا لضرورة ، وهذا خلاف ما ذكره أبو مدين بقوله :

وحط رأسك واستغفر بلا سبب ... وقم على قدم الإنصاف معتذرا

فلعله لم يصحبه عمل بعده ، وأراد به المبالغة فى الاعتذار ، والله تعالى أعلم .

ثم أجمل ما بقى من الآداب بقوله :

(والقصد من هذا الطريق الأدب ... فى كل حال منه : هذا المذهب)

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الطريق مبنية على الآداب ، فمن لا أدب له لا طريق له ،

ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب فى الباب ، طرد إلى سياسة الدواب .

وقال بعضهم : اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً ، وقد تقدم قول أبى حفص : التصوف كله آداب إلخ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب منها فلا تعبأن به وإن كان أعلم البرية : مجانبة الطلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوى الحاجة ، ومواطبة الخمس فى الجماعة .

وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد منها . فاجعلوه والتراب سواء : الرحمة للأصاغر والحرمة للأكابر ، والإنصاف من نفسه ، وترك الانتصار لها .

وقال محى الدين بن العربى رضى الله عنه : أربعة من حازها فقد حاز الخير كله : تعظيم حرمات المسلمين ، وخدمة الفقراء ، والإنصاف من نفسه ، وترك الانتصار لها .

وباب الأدب باب كبير قد استوفى جله السلمى والغزالى فى الإحياء ، وبداية الهداية ، ومداره على ما تقدم .

والضمير فى « منه » يعود على الطريق ، أى : والقصد من هذا الطريق الأدب فى كل حال من أحواله ، هذا هو مذهبهم الذى تمسكوا به فوصلوا ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم ذكر الحكم السادس فقال :

السادس فى حكم السماع ، قلت : السماع هو استماع الأشعار بالنغم والموسيقى ، وتكلم هنا على حكمه وأحكامه وآدابه وفوائده ، وبدأ بالحكم فقال :

وللأنام فى السماع خوض ... لكن لهذا الحزب فيه روض
قال العراقيون بالتحريم ... قال الحجازيون بالتسليم

قلت : الخوض فى الأصل هو الدخول فى الماء ، ولما كان الغالب على الماء التغير بالخوض فيه ، صار يطلق على الدخول فى الأمور المشكلة الملتبسة لكثرة الخوض فيها ، والروض معلوم ، يجمع على رياض ، وهو مكان النزهة والفرجة .

يقول رحمه الله : الناس فى السماع خوض كبير فى منعه وجوازه ، لكن لهذا الحزب

(وهى جماعة الصوفية) التى هى حزب الله نزهة وخمرة يجدونها فى قلوبهم وأسرارهم، ولذلك لما سئل الجنيد عن السماع قال: كل ما يجمع القلب بالله فهو جائز، أو ما هذا معناه.

ثم ذكر الخلاف، فأخبر أن العراقيين قالوا بالتحريم، والمراد بهم الحنفية ومن تبعهم، وأهل الحجاز قالوا بالتسليم أى الإباحة أو الوقف، والمراد بهم مالك والشافعى ومن تبعهم فقد روى أبو مصعب أن مالكا سئل عن السماع فقال: لم يبلغنى فيه شىء إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرونه، ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا غبى جاهل، أو ناسك عراقى غليظ الطبع.

قلت: لا يشك عاقل أن الأصل فى السماع هو الجواز، بدليل قضية الجوارز اللاتى كن يغنين ويضربن بالدف يوم العيد، والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر، وهى فى البخارى وغيره.

وقال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه:

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كانت عندى جارية تسمعنى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على حالها، ثم دخل عمر ففرت، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما يضحكك يا رسول الله، فحدثه فقال: لا أخرج حتى أسمع مما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرها فأسمعته.

قلت: وذكره التجيبى أيضاً بهذا اللفظ، ثم قال السلمى:

وسئل ذو النون عن السماع، فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق. فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

قال السرى: تطرب قلوب المحبين إلى السماع وتخاف قلوب النائبين، وتكاب قلوب المشتاقين.

وقيل: مثل السماع مثل الغيث إذا وقع على الأرض المجدبة فتصبح مخضرة، كذلك القلوب الزكية تظهر مكنون فوائدها عند السماع، وقيل يحرك ما ينطوى عليه القلب من السرور والحزن، والرجا والشوق، فربما يخرجه إلى البكاء، وربما يخرجه إلى الطرب.

وقيل: السماع فيه حظ لكل عضو، فربما يبكى وربما يصرخ، وربما يصعق وربما يرقص، وربما يغمى عليه.

وقيل: أهل السماع ثلاثة: تائب، وصادق، ومستقيم.

وقيل: المستمعون ثلاثة: مستمع بربه، ومستمع بقلبه، ومستمع بنفسه.

وقيل: يحتاج المستمع إلى ثلاثة: دقة، ورقة، وحرقة مع فناء الطبع ودخول الحقائق، ولا يصح السماع إلا لمن فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه وخمدت بشريته، ثم قال: فكذلك السماع يؤثر على مقدار صفاء الباطن وقوة الوارد.

قال بعض المشايخ: لا يصح السماع إلا لمن كان قلبه حيا ونفسه ميتة، فأما من كان نفسه حية وقلبه ميتاً، فلا.

حكى عن بعض الأبدال أنه قال: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم، فقلت: ما تقول فى السماع الذى عليه أصحابنا، فقال: هو الصفاء الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء، انتهى المراد منه.

وقد أشبع الكلام فيه ابن ليون التجيبى فى الإنالة، قال فيها: فاستماع الشعر لا ينكره إلا جاهل بالسنة، ثم قال: وقال صالح بن أحمد بن حنبل: إنه رأى أباه يستمع من جاره غناء كان فى بعض ديار جيرانه، ثم قال: وعن أنس كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل فقال: يا رسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وهو نصف يوم، ففرح فقال: أفيكم من ينشدنا، فقال بدرى: نعم يا رسول الله، فقال: هات، فأنشد البدرى يقول:

قد لسعت حية الهوى كبدى ... فلا طبيب لها ولا راق
إلا الحبيب الذى قد شغفت به ... فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد عليه السلام وتواجد أصحابه معه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فلما فرغوا أوى كل واحد إلى مكانه. فقال معاوية ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: مه مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة، وذكره المقدسى والسهروردى، وتكلم الناس فى هذا الحديث(١).

(١) قال الحافظ جلال الدين السيوطى ما معناه: إن الحديث الذى فيه «لسعت حية بالهوى كبدى»، وذكر حديثاً آخر، وقال: الحديثان باطلان موضوعان باتفاق أهل =

قلت : والتحقيق فى السماع هو التفصيل فأما أهـل الحقائق فلا شك فى جوازه لهم أو استحبابه على ما يأتى ، ومستندهم ما تقدم ، وأما أهل الشرائع فإن خلا المكان من النساء أو الشبان فهو حرام سداً للذريعة ، والله تعالى أعلم . وإلى هذا التفصيل أشار بقوله فقال :

وإن الشيوخ فيـــه فنا ... إذ جعـــلوه للطريق ركنا
وإنمـــا أبيح للزهاد ... وندبه إلى الشيوخ بلد
وهو على العوام كالحرام ... عند الشيوخ الجلة الأعلام

قلت : أشار رحمه الله إلى أن السماع فيه للشيوخ العارفين فنون ، وزيادات ومواجيد ، وأحوال وواردات ، فلذلك جعلوه ركنا يأوون إليه ، ولا يعتمدون عليه ، لأنه رخصة الضعفاء منهم ، كما يأتى ، وأما الأقوياء فلا يحتاجون إليه ، وقد سئل الجنيد رضى الله عنه عن السماع : أمباح هو ؟ فقال : كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح ، وقد تقـــدم ، والتحرير : هو التفصيل ، كما ذكره الناظم ، فقسم مباح ، وقسم مندوب ، وقسم حرام ، فهو للزهاد مباح ، لأن نفوسهم مائتة عن الشهوات والمستلذات ، فلا ضرر لهم فيه حتى يحرم ، ولا نفع لهم فيه حتى يندب ، إذ لم يبلغوا رتبة التحقيق والذوق ، وللشيوخ العارفين مندوب ، لأنه يثير فيهم الوجد والوارد حتى ينشر ذلك فى عوالم الأجساد ، وتتسع ميادين الحضرة ، فيكون الحضار منها نصيب ، لأن من تحقق بحاله لم يحل حاضروه منها ، وكل ما أدعى إلى الكمال فهو كامل ، وعلى العوام حرام ، أو كالحرام ، لأنه ينشر فيهم الشهوات والمعاصى ، ويحرك عليهم الطباع الرديئة والعوائد الدنيئة ، فإذا انتفت هذه العلل كان مباحا ، إلا إن حضره أهل الفساد ، فيمنع مطلقا سداً للذرائع ، وإنما حرم على العوام لأن فيه مرقاة الزنا ، وأنه ينبت النفاق فى القلب .

وقالوا أيضاً : السماع راح ، تشربه الأرواح ، بكئوس الآذان ، على مغانى الألحان ،

= الحديث انظر الفتاوى جـ ١ ص ٣٣٦ . وفى الإحياء : وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن السماع ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة ، وقال الشافعى رحمه الله : إن السماع لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

ولكل امرىء ما نوى ، وماء زمزم لما شرب له(١) ، وهذا وما سمع له(٢) .

وقالوا أيضاً : من سمع بتزندق تزندق ، ومن سمع بتحقق تحقق ، وإذا ذكر الهوى فلكل امرىء ما نوى .

وكان بعضهم يقول : أنتم غنوا كما تحبون ، ونحن نسمع كما نحب ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر نتائجه السنية والدنية فقال :

وفيه كان ميلق الأحوال ... كيما يبين سافل وعال

قلت . الميلق فى اللغة هو ، السرعة ، وفرس ميلق ، أى سريع (قاله فى القاموس) يعنى أن السماع سرعة ظهور الأحوال الزكية أو الدنية ، فمن كان قلبه مع ربه حركه سريعاً إلى حضرة قدسه ، ومن كان قلبه مع حظه وهواه حركه إلى حظوظه وهواه . لأجل ذلك يظهر من سقط فى أسفل سافلين ، ومن ارتفع فى أعلى عليين .

ثم أشار إلى نتيجة أخرى فقال .

وهو صراط عندهم محدود ... يعبره الواجد والفقيد

قلت : السماع عند الصوفية طريق محدود ، أى معلوم بحدوده ورسومه ، ويعبره : أى يسلكه الواجد لحاله ، وهو الذى حجب بالجمع عن الفرق ، أو الذى لم يحجبه جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمعه ، ويسلكه أيضاً الفاقد لحاله ، وهو الذى حجب بالفرق عن الجمع ، فيظهر على كل واحد ما كن فى سره ، فالواجد يزيده فى حضرة الحق عشقاً ووجداً ، والفاقد يزيده عن ربه طرداً وبعداً ، فكل إناء بالذى فيه يرشح .

قال الجنيد رضى الله عنه : كل مريد رأيته يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

---

(١) رواه ابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، والبيهقى ، عن جابر ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو ، والدار قطنى والحاكم عن ابن عباس ، والمستغفرى فى الطب عن جابر .

(٢) الأخيرة ليست من لفظ الحديث الشريف ، بل هى نوع مقابلة . والحق أنه لا يجوز مقابلة هذا بذاك ، إذ فرق بين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الناس .

وقال أيضاً: السماع صراط محدود، عليه يمر صاحب يقين وجود، وصاحب شك وجحود إما أن يرفع سالكه إلى أعلى عليين، أو يكبكبه في أسفل سافلين - فكبكبوا فيها هم والغاوون[1] - ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون[2].

وإلى هذا أشار الناظم بقوله:

فعابر يحله عليين وآخر يحطه في سجين

قلت: فالعابر الذي يحله في عليين هو: من تحقق بالوحدة، وفهم الإشارة، وذاق حلاوة الغيرة، فلا يزال يسمع بالله، ومن الله حتى يغيب عن حسه، ويغرق في حضرة قدسه، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والآخر الذي يحطه في سجين هو الذي يسمع بنفسه، ويتذكر حظوظه وهواه الذي كان مشغولاً به سره ونجواه، فلا يزال يزعجه الشيطان حتى يلقيه في بحر الردى والهوان، فينهض في طلب المعاصي والطغيان فأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الرحمن أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون، فيكتب مع الفجار - كلا إن كتاب الفجار لفي سجين[3] - نسأل الله العصمة بمنه آمين.

ثم ذكر نتيجة أخرى فقال:

وهو سرور ساعة يزول نعم، وسم ساعة قتول

قلت السماع إنما هو فرح ساعة، ثم يذهب، فمن كان فرحه بالله اجتنى ثمرته وجناه، وفاز بمعرفة ربه ورضاه، ومن كان فرحه بهواه فقد باء بغضب من الله، وهو أيضاً سم قاتل لمن حركه إلى الهوى والباطل.

قال السلمي رحمه الله: بلغني أن أبا عمرو بن نجيد قال لأبي القاسم الصراباذي: بمعنى أنك مولع بالسماع؟ قال: نعم هو خير من أن تقعد فتغتاب، فقال. هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب.

---

(1) ٩٤: من سورة الشعراء.
(2) ٥٢: سورة النور.
(3) سورة المطففين، الآية: ٧.

قلت: ولعله من جهة الاقتداء به، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نتيجة أخرى من نتائج السماع، فقال:

وهو قياس العقل نقاش القلوب إذ ينزل الحال به ثم يؤوب

قلت: السماع معيار العقول في الخير والشر، فيعرف به الكامل في الخير من الناقص فيه والكامل في الشر من المتوسط فيه.

أما الكامل في الخير فهو المتمكن في المعرفة الراسخ فيها، فهذا كالجبل لا يحركه سماع ولا تهزه ريح، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب.

قال الجنيد: مالك كنت تتحرك في السماع، والآن لا يظهر عليك شيء؟ فقرأ الآية وترى الجبال[1] إلى آخرها.

وأما الناقص في الخير فهو السائر، فهذا إذا سمع تحرك وتواجد، ورقص وشطح، فهذا مغلوب للحال، لكنه في أثر الرجال، فمن دام سيره ظهر خيره، ووصل إلى ما وصل إليه غيره.

وأما الكامل في الشر، فهو المنهمك في الغفلة، إذا سمع هاج شره، وغلبته نفسه، وبطشت في الحين إلى ما تقدر عليه من الفساد.

وأما المتوسط في الشر، فتحركه نفسه، ويغلبها في الوقت، فإذا قامت جمحت إلى طلب ما تحركت إليه، إلا أن يعصمه الله بحفظه.

وهو أيضاً (أي السماع) نقاش القلوب، فيخرج ما فيها من خير وشر، كمن ينقش على الماء فيخرجه، إن كان صافياً شرب، وإن كان متغيراً طرح.

وقوله: «إذ ينزل الحال به ثم يؤوب»، هو تصوير النقش المذكور، لأن السماع ينقش عن ما فيه من الحال، إما رباني، أو شيطاني، أو نفساني، والجميع يزول ويذهب، فإن كان رباني بقي أثره من الخشوع والطمأنينة والتواضع والزهد وحسن الخلق، وإن كان شيطانياً أو نفسانياً لم يبق بعده إلا القسوة والغفلة والحرص والطمع وغير ذلك من الأخلاق المذمومة.

---

(1) الآية: ٨٨ من سورة النمل.

وفى الحكم لابن عطاء الله « لا تزكين وارداً لا تعرف ثمرته ، فليس المراد من السحابة الإمطار ، وإنما المراد منها وجود الآثار ، وهذا مراد من قال : من لم يؤثر فيه السماع زيادة ما عنده فهو ناقص فى حقه ، لأن الواردات لا تراد لذاتها . وإنما تراد لثمراتها » والله تعالى أعلم .

ثم شبه الحال الربانى بالمطر النازل فى أصول الشجر كما تقدم فى الحكم ، فقال :

(وآثاره فى عرصات القلب كالوبل فى الغصن القويم الرطب)

قلت : العرصات : جمع عرصة ، وهو المكان الواسع الذى تغرس فيه الأشجار ، كنى به هنا عن سعة القلوب الفارغة من الشواغل والشواغب ، وأراد أن السماع يترك آثاره فى قلوب العارفين المطهرة من دنس الهوى ، الفارغة من حب السوى ، كما يترك المطر الغزير آثاره فى الغصن القويم الرطب ، وهو الزهر أولا ، والعقد ثانياً ، والثمار ثالثاً ، فليس المراد من المطر نزوله ، وإنما المراد ما ينشأ عنه من الثمار ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابه فى الجملة ، فقال :

ولا يجوز عنده التكلم ولا التلاهى ، لا ، ولا التبسم

قلت : إنما لا يجوز التكلم عنده ، لأنه عند العارفين محل الوجد والحرقة والكلام يشوش القلب ويبعده من الحضرة ، ويلفت عن الحقيقة ، فالواجب تركه لمن أراد جبر قلبه ، وعند غير العارفين رخصة ، لأنه قريب من رتبة الباطل ، فأقل شىء يرده إليه .

قال السلمى رضى الله عنه : والسكون مع حضور القلب وجمع الهم ، والوقوف على أقوال المنشدين أولى من المداخلة ، لأنه محل الاستكانة والتمكين ، والهدوء والإنصات من آداب المستمعين ، قال الله تعالى ـ فلما حضروه قالوا أنصتوا[1] ـ الآية ، وقال ـ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً[2] ـ اهـ .

وأما التلاهى عنه ، فإنه يقتضى أنه لا أرب له فيه من جهة قلبه ، وإنما مراده راحة نفسه ، والفرجة والتلاهى يكون بالالتفات عنه بقلبه أو بدنه ، شغلا بغيره .

---

(١) الأحقاف ، الآية : ٢٩ .

(٢) طه ، الآية : ١٠٨ .

وإما التبسم فيه ، فإن فيه إساءة الأدب ، فإن غلبه خرج ، وإلا أخرج وزجر .

قال السلمى رحمه الله : ولا يحضر مجلس السماع من يتبسم أو يتلاهى .

يحكى عن الشيخ أبى عبدالله بن خفيف أنه قال : حضرت مع شيخى أحمد بن يحيى السماع بشيراز (اسم موضع) فاتفق فيها سماع أمم بموضع ، فطاب وقت الشيخ وتواجد ودار ، وكان فى صفة بحذائنا قوم من أبناء الدنيا ، فتبسم واحد منهم فأخذ الشيخ منارة كبيرة كانت هنالك فرماه بها ، فأصابت الجدار فانفرست أرجلها الثلاث فى الحائط ، وكان قد صلى ثلاثين سنة الصبح بوضوء العشاء ، اهـ .

ثم نهى عن حضور الأحداث فقال :

ويمنع الأحداث من حضوره وإن يكن ذاك فمن ظهوره

قلت : مما يتأكد فى مجلس السماع منع الأحداث من حضوره ، إما حدث السن ، وإما حدث الدين ، أو العقل ، وقد تقدم تفسيرهم .

أما حدث السن فلما تحرك مشاهدتهم من الفتنة ، لا سيما مع دواعى ذلك من الشعر والأوزان والترنم بالأصوات الحسان ، والنفس لها فى هذا الميدان مجال عظيم ومكر كبير .

وأما حدث الدين أو العقل ، فإن حضور غير الجنس يمنع من المدد ، وذلك بحرب والذكر والمذاكرة ، والسماع عند الصوفية ذكر قلبى ، فإن ألجأت الضرورة إلى حضورهم فليكونوا صفاً من خلف الناس خافضين أصواتهم ، وهذا معنى قوله « وإن يكن ذاك فمن ظهوره » أى ، وإن يكن ذلك الحضور ولم يمكن التحرز منهم بوجه ، فليكن حضورهم من ظهور السماع ، أى من وراء ظهور المستمعين . والله تعالى أعلم .

قال السلمى رحمه الله : ولا رخصة للأحداث فى القيام والتحرك أصلا ، وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع ، ولا يرخصون لهم فيه .

سمعت والدى رحمه الله يقول : دخلت بغداد زائراً لجعفر الخلدى ، فوجدت أبا العباس السيارى عنده ، وهو حدث ، فكلما حضرنا دعوة فيها سماع أمر أبا العباس بالانصراف ، وإلزامه أن يقعد فى مجلس السماع .

ثم نهى عن الرقص والتحرك فيه لغير المطلوب فقال :

والرقص فيه دون هجم الحال ... ليس على طريقة الرجال

وإن يكن يقوى على السكون ... فإنه أسلم للظنون

قلت : الرقص والترقص هو الارتفاع والانخفاض ، يعنى أن الرقص فى السير والتحرك دون علبة الحال ، ليس هو طريق الكمال ، بل الكمال هو السكون والوقار وخفض الصوت والاستماع ، فإنه أسلم لسوء الظنون بمن يفعل ذلك ، وإن كان صادقا إذ لا سلامة من الخلق ، ثم اعلم أن الرقص وقع فيه اضطراب كبير بين الصوفية وعلماء الشريعة والتحرير فى المسألة أن نقول : الأصل فى الرقص هو الإباحة ، إذ لم يرد نص عن الشارع فيه بتحريم ولا إباحة ، بل ظواهر النصوص تقتضى الإباحة ، وسيأتى ذكرها إن شاء الله ، وأيضاً الأصل فى الأشياء هى الإباحة ، وقيل الوقف حتى يأتى الحظر ، ولم يرد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقتضى التحريم ، وإنما حرمته الأئمة لما قارنه من تعاطى أهل الفساد بجمع النساء والشبان وآلة اللهو ، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فيتحصل فى الرقص أنه على ثلاثة أقسام : قسم حرام ، وقسم مباح ، وقسم مطلوب .

فأما القسم الذى هو حرام ، فهو رقص العوام بمحضر النساء والشبان ، فهذا حرام لما يؤدى إليه من الفساد ، وما يهيج من الطباع الدنية والنفوس الشيطانية ، ويدخل ما خلا من ذلك ، لكن قصد به التصنع والرياء وإظهار الحال ، والتظاهر بما ليس به حقيقة ، فهو حرام أيضاً لما داخله من الرياء والتلبيس .

وعلى هذين القسمين يحمل كلام من أطلق التحريم ، كصاحب « المعيار » ، و« النجم الكافية » ، وغيرهما .

وأما القسم المباح ، فهو الذى يفعله الصالحون وأهل النسبة من غير وجد ولا تواجد ، وإنما يفعلونه راحة لنفوسهم ، وتنشيطا لقلوبهم بشرط الزمان والمكان والإخوان ، خالياً من حضور ما تقدم من النساء والشبان ، فهذا مباح إذ لا موجب للتحريم فيه ، إذ مناط التحريم هو ما تقدم ، وهو خال من ذلك ، وأما ما يقال : إنه من فعل السامرية حين عبدوا العجل فعلى تقدير صحته فإنما حرم فعلهم لفساد قصدهم ، لأنهم قصدوا بذلك تعظيم العجل أو الفرح به ، وهذا كفر ، ولو كان رقصهم خاليا من ذلك ما حرم عليهم .

وقد ثبت أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه رقص بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال رسول الله « أشبهت خلقى وخلقى » ، وذكره السوسى فى « نصرة الفقير » وغيره .

وقال ابن ليون التجيبى ما نصه : وأما الرقص فى المسجد ففى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء جيش من الحبشة يرقصون يوم عيد فى المسجد ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت كفى على منكبيه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم ، قال ابن عيينة : وترجمة الرقص ، فثبت أن الرقص فى أصله مباح ، ولو كان حراما لذاته ما فعل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القسم المطلوب فهو : رقص الصوفية أهل الذوق والحال ، إما وجداً أو تواجداً ، سواء كان ذلك فى حضرة الذكر أو السماع ، ولا شك أن دواء القلوب من الغفلة وجمعها المطلوب بأى وجه أمكن ، ما لم يكن بمحرم يجمع على تحريمه ، فلا دواء فيه ، وقد تقدم قول الجنيد لما سئل عن السماع ، قال : كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح .

وقال الفاسى فى « شرح الحصن » عن شيخ الإسلام السيوطى رحمه الله ما نصه : أقول وكيف ينكر الذكر قائما ، وقد قال تعالى — الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم[1] — .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه[2] » ، وإن انضاف إلى هذا القيام رقص ونحوه فلا إنكار عليهم ، فذلك من لذة الشهود والمواجيد :

وقد روى فى الحديث رقص جعفر بن أبى طالب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال له « أشبهت خلقى وخلقى » ، وذلك من لذة هذا الخطاب ، ولم ينكر ذلك عليه النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان هذا أصلا فى رقص الصوفية لما يذكرونه من لذة المواجيد .

وقد صح القيام والرقص فى مجالس الذكر والسماع عن جماعة من أكابر الأئمة منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام اه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى وأبو داود ، وابن ماجه عن عائشة .

وهو نحو ما فى « الإحياء » وزاد فيه حديث نظر عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة وهم يرقصون ، وقوله لهـــا « أتحبين أن تنظرى إلى رقص الحبشة » والزفف الرقص انتهى .

وذكره ابن زكرى فى شرح النصيحة .

قلت : وقد تواتر النقل عن الصوفية قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً أنهم كانوا يجتمعون لذكر الله ، ويقومون ويرقصون ، ولم ينقلنا عن أحد من العلماء المعتبرين أنه أنكر عليهم .

وقد رأيت بفاس بزاوية الصقليين جماعة يذكرون ويرقصون من صلاة العصر يوم الجمعة إلى المغرب ، مع توفر العلماء فلم ينكر أحد عليهم ، وقد بلغنى أن شيخنا شيخ الجماعة سيدى الناودى بن سودة كان يحضر معهم فى بعض الأحيان ، فلا ينكر على الفقراء الرقص فى حال ذكرهم إلا متقلد جامد ، أو معاند جاحد ، يرحم الله الشيخ زروقا رضى الله عنه فى بعض شروحه على مقطعات الششترى لما تكلم على هذا المعنى ، قال : وإنما أطلت الكلام هنا لوجهين :

أحدهما مخافة أن يغتر الضعفاء ، ممن لا خلاق له بهؤلاء السادات فيتعاطونه فى غير محله ، فيقع فى المقت(١) .

ثم قال : والآخر أن يتبع قول الملحدين ، أهل العقول الواهية ، والأفئدة الخاوية ، فيقدح فى جملة طريقة أنتجها الصالحون من أولياء الله ، وظهرت نتيجتها فى كثير من عباد الله واشتملت نسبتها على رجال قاموا بأحكام الشريعة وآداب الحقيقة ، وتخلقوا بأسماء رب العالمين ، وتخلقوا بأخلاق سيد المرسلين ، آثارهم حميدة ، وملاقاتهم سعيدة ، ترعب الملائكة فى خلتهم ، واشتاقت الأنبياء والرسل إلى رؤيتهم ، كتاب الله مطرز بثنائه عليهم ، وشارة السنة كلها تشير إليهم ، عند ذكرهم تنزل الرحمة ، وبسبب وجودهم تدفع النقمة ، رغب فى اللحوق بعسكرهم خليل رب العالمين حيث قال فيما أخبر الله عنه فى كتابه العزيز — رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين — وتبعه الصديق الأمين فى ذلك ، حيث قال — توفنى

(١) على أن المقصود من الرقص هنا ليس هذا الذى يتعارف الناس عليه اليوم ، إنما هو نوع من الفرح يملك على الإنسان مشاعره فيحدث فيه نوع اضطراب غير إرادى . وهذا لا لوم فيه والله أعلم .

مسلما وألحقنى بالصالحين — واستشهادنا فى معرض الولاية بهاتين الآيتين اللتين سبقتا فى مقام النبوة ، إنما اقتبسنا الدليل على ذلك ، وهذا من باب تناول الأعلى إلى الأدنى بالثناء عليه ليعرف غيره ببعض شواهد فضيلته كما فى قوله صلى الله عليه وسلم .

« اللهم أحينى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين(١) » .

أى واجعل المساكين هم قرابتى المحدقون بى يوم المحشر ، فقد عرف صلى الله عليه وسلم فضيلة المساكين ، وعظم جاههم عند الله ورسوله ، لطلبه من الله أن يكونوا فى كفالته ، لا أنه فى كفالتهم ، فكذلك عرف الصديق بفضيلة أمة الإسلام ، وخصوصاً الصالحين منهم لا أنه طلب من الله اللحوق بعسكرهم لقصوره عن إدراك مقامهم ، لكن مبالغة فى التعريف بعظم جاههم عنـــد خالقهم ، فعرف أولا بفضيلة الإسلام عموما ، وعرف ثانيا بفضيلة الصالحين منهم خصوصاً ، ملأ الله قلوبنا من محبتهم ، وسلك بنا سبيل سيرتهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، اللهم آمين » انتهى كلامه رضى الله عنه .

ثم أشار إلى أن السماع إنما هو رخصة للضعفاء ، فقال :

وليس يحتاج إلى السماع إلا أخو الضعف القصير الباع

قلت : أشار إلى أن السماع لا يحتاجه ويزيد به إلا من كان ضعيف الحال قصير الباع فى المعرفة والشهود ، وأما القوى المتمكن فلا يحتاج إليه .

قال السلمى رضى الله عنه : وقيل يحتاج إلى السماع من كان ضعيف الحال ، فأما القوى فلا يحتاج إلى ذلك .

وقال الحصرى ، ما أدرى حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه ، ولعمرى ما تحتاج الثكلى (أى فاقدة ولدها) إلى نائحة ، والثكلى هى : التى مات ولدها .

وقيل هو (أى السماع) لقوم كالغذاء ، ولقوم كالدواء ، ولقوم مروحة ، كما قال تعالى

(١) رواه ابن ماجه ، ولفظه ، من المقاصد الحسنة للحافظ السخاوى : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » ورواه الطبرانى فى الدعاء والحاكم ، والبيهقى فى الشعب ، وأبو الشيخ ، والديلمى ، والترمذى فى الزهد .

— قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء[1] — الآية .

وقال موضع آخـــر (وسئل بعض الشيوخ عن شرب القلوب من السماع ، وشرب الأرواح والنفوس) فقال : شرب القلوب الحكم ، وشرب الأرواح النعم ، وشرب النفوس ما يوافق طبعها من الحظوظ ، ونعت الحسن والجمال .

ثم أشار إلى علامة الضعف ، فقال :

والزعقات فيـــه والتمزيق ضعف ، وهز الرأس والتصفيق

قلت : الزعق هو : الصياح والتمزيق هو : تخريق الثياب ، وهز الرأس : تحريكه ، والتصفيق الضرب بالكف يعني : أن الصراخ في السماع وتمزيق الثياب وتحريك الرأس والتصفيق باليد إنما يصدر من ضعيف الحال ، الذي هو مغلوب للأحوال ، وأما القوي المالك للأحوال ، فلا يصدر منه شيء من ذلك .

قال السلمي رضي الله عنه : وليس من الأدب استدعاء الحال والتكليف للقيام ، إلا من غلبه حال فيه ، فينزعج أو يكون على سبيل مساعدة لصادق ، أو بطاية لخاطر من غير تساكر ولا إظهار حال ، وترك ذلك أولى .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع فصعق رجل من جانب المسجد ، فقال : « من هذا الملبس علينا ديننا ، إن كان صادقاً فقد شهر بنفسه ، وإن كان كاذباً مقته الله » .

ثم قال : حكي أن شاباً كان يخدم الجنيد ، وكلما سمع شيئاً زعق وتغير ، فقال : إن ظهر فيك شيء بعد هذا فلا تصحبني ، فكان يضبط نفسه ، وربما كان يقطر من كل شعرة منه قطرة عرق حتى كان يوم من الأيام زعق زعقة خرجت منها روحه .

والزعقة من وجهين : أحدهما التوجع ، والأخرى التطلع ، زعقة التوجع من حيث الخوف والحزن ، وهي نظيرة صيحة المصاب ، وزعقة التطلع من المحبة والشوق والرجاء ، وهي نظيرة صيحة المتظلمين للإهلاك إذا تحققوا ذلك ، وهذا لا يكون إلا عند وجود غائب أو فقدان حاضر ، ومثلها كمثل العطشة لا يدري كيف تجيء .

(١) الآية : ٤٤ من سورة فصلت .

قلت : أما التمايل يميناً وشمالاً فلا يدل على الضعف ، وقد رأيت شيخنا يفعله عند السماع وهو من لذة التواجد ، فلا يدل على الضعف ، والله تعالى أعلم .

وقد ذكر ابن عرصود في « مقنعه » أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذ ذكروا الله مال بعضهم على بعض كالشجرة في يوم الريح العاصف ، أو ما هذا معناه ، ثم أشار إلى أن السماع لم يكن عندهم مقصوداً للاجتماع ، بل حيث ما تيسر ، فقال :

ولم يكن لأجله اجتماع ولا لدى غيبته انصداع

قلت الانصداع هو الافتراق ، يعني أن القوم لم يكن اجتماعهم مقصوداً للسماع بحيث إذا وجد اجتمعوا وإذا غاب افترقوا ، بل كانوا إذا اتفق اجتماعهم لأمر من الأمور ، أو إذا دعاهم أحد إلى وليمة أو سرور استعملوه ، لأنهم أغنياء عنه بحلاوة الذكر والمعرفة والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أنه لم يكن فيه آلة اللهو ، فقال :

ولم يكن فيه مراسونا ولا طنابر ومسمعونا
وليس أيضاً كان فيه طار ولا مزاهر ولا تنقار
والشمع والفرش والتكالف أحلف ما كانت بمين حالف

قلت « المراسون » بفتح الميم هي الطائفة التي تجيب القوال بالمندلة ونغم الموسيقى ، بحيث إذا قرع القوال من الشعر أجابوه بكلام اللهو والنغم المستلذة ، وهو من شأن أهل اللهو ، فالتشبيه بهم هجنة ، والطنابير : جمع طنبور ، وهو شبيه بالعود في صورته ، وقيل هو بنفسه والمسمعون المرصدون للسماع في الولائم ، يسمعون الناس غناءهم ولهوهم ، والطار معلوم ، وهو ذو الشراشر ، والمزهر هو المجلد من جهتين ، والتنقار هو : فعل النقر ، ويكون في نقر الأوتار المعلومة .

يقول رحمه الله : إن سماع القوم لم يكن فيه شيء مما ذكر ، مما هو من آلات اللهو ، ويلتحق بما ذكر : الرباب ، والشبابة ، والبندير ، والزمارة ، وغير ذلك مما يستعمله أهل اللهو فيحق للفقير أن يجتنبها ، وهذه مسألة خلافية ، فقد رجح الغزالي في « الإحياء » جواز سماع هذه الأشياء ، بشرط خلو المكان والإخوان والزمان ، قيل : وهو مذهب الشافعي[1] ، ورده بعضهم .

(١) راجع هامش ص ١٨٦ من هذا الكتاب .

والحاصل أن العارف المحقق الذى غرق فى عين بحر الوحدة حتى كان سمعه بالله وبصره بالله وإلى الله ، ووجد أنه بالله ومن الله ، لا يكدره شىء ، فلا ينكر عليه شىء .

وقد قالوا : إذا ثبتت عدالة المرء فليترك وما فعل .

وهذه مسألة خلافية لم يرد فيها نص من الشارع ، والأصل فى الأشياء الإباحة حتى يرد الحظر ، وما حرم السماع حتى أخذه أهل اللهو ، ونقلوه إلى لهوهم وقارنوه مع شرب الخمر وازنا ، فحرم حينئذ ، سداً للذريعة ، والله تعالى أعلم .

وقد كان بعض علماء الحديث من أهل الحفظ والضبط يستعمل ضرب العود ، فعيب عليه خلف لا يحدث بحديث حتى يضرب العود . فأخبر به السلطان (قيل هارون الرشيد) فأرسل إليه وقال له : حدثنى بحديث المخرومية ، فقال أحضر العود ، فقال له الملك : عود البخور ؟ فقال : بل عود الطرب ، فضحك الملك ، ثم قال : من يحرم السماع من الفقهاء ، فقال له: من طبع الله على قلبه ، ثم قال له ذلك العالم : لقد حضرت وليمة بالمدينة ، وفيها علماؤها ، حتى لو سقط البيت لم يبق معنى بالمدينة ، وأصرهم مالك ابن أنس ، فسمعوا وهو يزمره ، فسمعوا وأنشدوا ، اه (ذكره ابن عرفة فى باب النكاح) نقلته بالمعنى (١) .

وقوله : الشمع والفرش إلخ . يعنى أنهم لم يكونوا يتكلفون بالسماع حتى يحضروا الشموع الموقودة ، والفرش الممهدة ، والوسائد المزوقة ، وإنما كانوا يحضرون له على حالة العافية ، والابتذال على ما يصادف الوقت والحال ، وليس مراده أنها محرمة ، وإنما مراده أن طريق القوم عدم التكلف ، فإن صادف الحال أنها أعدت فلا يمتنعون منها ، لأن الصوفى اتسعت دائرته ، فلا يختار شيئاً ولا يمتنع من شىء ، بل ما أعطاه سيده أخذه بالقبول ، إلا ما حرمته الشريعة المطهرة بنص صريح لا تأويل فيه ، فهو حينئذ أولى بالأدب من غيره والله تعالى أعلم ، ثم قال :

وأمروا فيه بغلق الباب ... وإنما ذاك للاجتناب

قلت : وإنما أمروا فى حال السماع بغلق الباب لئلا يحضر معهم من يجتنب حضوره من الأحداث والعوام والنساء وغير ذلك مما لا يليق حضوره ، لأن مجلس السماع إذا كان رياءً هو كمجلس الذكر والمذاكرة ، ومجلس الذكر والمذاكرة غذاء الأرواح ورضاء القلوب ، فهى ترضع بعضها بعضاً ، فإذا حضر صاحب التخويض وضعت منه بعض القلوب ذلك

(١) انظر هامش ص ١٨٦ .

التخويض ، فربما يسرى ذلك فى الجماعة ، فلا يجدون حلاوة الوجد ، ولا لذة الحرقة ، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : المواكلة رضاعة فانظروا من تواكلوا ، فيصدق بالحسى والمعنوى .

وقد عقد بعض الشيوخ حلقة الذكر فى بيت مظلم فلم يجدوا قلوبهم ، فقال لهم ائتونى بالمصباح ، فلما أتوا به وجـــدوا معهم طالبا من طلبة المدرسة ، فأخرجوه حينئذ وجدوا قلوبهم .

وحكى عن بعض أشياخنا (وأظنه سيدى محمد بن عبد الله) أنه كان فى مجلس المذاكرة يجلس معهم رجل عامى ، فأزال الشيخ عنه ثوباً ، وقال له : قم بع فى السوق ، فلما خرج قال له : خذ ثمنه ولا تعد ، وسد الزاوية .

والحاصل : أن حضور غير الجنس مشوش مانع من زيادة المدد ، والله تعالى أعلم .

ثم حرد الخلاف فى السماع فقال :

وليس للقائل ما يقول ... فى الشعر إذ سمعه الرسول

قلت : سماع الشعر من غير ألحان ولا موسيقى لا نزاع فيه ، لأنه سمعه عليه الصلاة والسلام وأجاز عليه ودعا لقائله ، وإنما النزاع فى الترنم به » .

وقوله « بألحان وموسيقى » فمن كان طبعه جامداً لا يحركه شىء ، لا لخير ولا لشر ، كان فى حقه مكروها إن شغله عن ذكر الله أو مباحا إن لم يشغله ، ومن كان طبعه مائلا للهوى وحب الدنيا وعلم أنه يحركه للفساد حرم عليه ، ومن كان قلبه معموراً بمحبة مولاه ، فأنى له سماع سواه ، كل سمع زاد به إلى مولاه ، فهذا يستحب فى حقه السماع .

هذا حاصل ما ذكره فى « حل الرموز » حين تكلم على السماع .

وحاصل : السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام : منه ما هو حرام محض ، وهو لأكثر الناس من زماننا ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ، وملكهم حب الدنيا ، وتمكنت بواطنهم ، وفسدت مقاصدهم ، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم من الصفات المذمومة ، سيما فى زماننا هذا .

والقسم الثانى : منه مباح ، وهو : من لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن ، واستدعاء السرور والفرح .

والقسم الثالث :مندوب ، وهو: من غلب عليه حب الله تعالى، والشوق إليه ، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة ، وتضاعف الشوق إلى الله ، واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية ، والكرامات السنية ، والمواهب الإلهية .

قال الشيخ ابن ذكرى رحمه الله : فتبين من هذا أنه لا نص فيه من الشارع ، والذي تقتضيه قواعد الشريعة انقسامه إلى ما ذكر ، إه .

ثم ذكر أصل استعمال السماع فقال:

وإنما كان السماع قدما ... قصداً المريد الشيخ يشكو السقما
ومجاء هذا ، ثم جاء هذا ... حتى استقلوا عنده أفذاذا
فبث كل ما به قد جاءه ... فعوضوا من دائهم دواءه
فعندما نشطت النفوس ... وزال عنها الكسل والبوس
وطابت القلوب بالأسرار ... واستعملت نتائج الأفكار
ترنم الحادي ببيت شعر ... فاكتنفته غامضات الفكر
كل له مما استفاد شرب ... هذا له قشر وهذا لب
فإن تمادى وأتم الشعرا ... أبدوا من الشرح عليه سفرا
فهكذا كان سماع الناس ... فهل ترى به كذا من باس

قلت : القدم بكسر القاف معناه : القديم، وهو ظرف، أي في القديم ، والسقم : المرض والأفذاذ: الجماعة المتفرقة ، جمع فذ ، وهو المنفرد ، وبث شكواه : أودعها وأخبر بها ، والنشاط خفة الأعضاء ، والكسل عنده ، والباس هو الضر والداء ، والأسرار : الأذواق والأحوال ، ونتائج الأفكار : العلوم ، والترنم : التغني . والحادي : القوال ، واكتنف الشيء : أحاط به ، فصار في كنفه . والغامض : الخفي ، والشرب (بكسر الشين) النصيب من الماء ، والقشر : ظاهر الشيء ، واللب باطنه .

يقول رضي الله عنه : وإنما كان استعمال السماع في الزمان المتقدم عند قصد المريد الشيخ يشكوا إليه سقمه ومرضه الذي أصاب قلبه من غفلة أو فترة أو قسوة أو كسل أو طيان أو غير ذلك من العيوب التي لا تحصى ، ثم توالى المجيء إلى الشيخ : هذا بعد هذا ، حتى استقل عنده جماعة من الفقراء ، فشكى كل واحد داءه ، لأنه طبيب ماهر ، وقد يداويه

بكلمة أو بالنظرة ، فعندما أحسوا بالشفا ونشطت نفوسهم ، وذهب داؤهم وبؤسهم ، وطابت قلوبهم بالأذواق، وامتلأت قلوبهم بالأنوار ، وأشرقت فيها شموس المعارف والأسرار ، واستعملت نتائج أفكارهم ، فأبدت من العلوم ما يليق بسعة صفائها : ترنم الحادي بالغزل الرقيق ، واستعمل من الشعر ما بالجانب يليق ، فإذا سمعته دقائق أفكارهم الصافية ، وغوامض فهومهم العلية ، أحاطت بمعاني تلك الأشعار ، واستخرجت ما فيها من علوم وأسرار ، كل واحد على قدر تصفيه وشربه مما استفاد من شيخه بمحبته وصدقه، وعلى قدر مجاهدته وسيره ، فمنهم من يكون حظه معاني الكلام الظاهرة ومنهم من يخوض بفكره إلى المعاني الباطنة ، وقد يقع في أسماعهم من كلام واحد مايليق بحال كل واحد ، على حسب مقامه ، كالنفر الثلاثة الذين سمعوا قائلا يقول : يا سعترا بري ، فبعضهم سمع : اسع تربى وبعضهم سمع : اسع ترى بري ، وبعضهم سمع : ما أوسع بري ، فالأول حاله بداية ، والثاني الاستشراف على النهاية ، والثالث حاله واصل إلى الغاية .

وفي هذا المعنى قال ابن عطاء الله : العبارة قوت العامة المستمعين ، وليس لك منها إلا ما أنت له آكل ، فإن تمادى الحادي على شعره حتى أتمه تكلموا فيه . واستخرجوا ما عندهم فيه من العلوم ، كل على قدر وسعه — ليتفق ذو سعة من سعته — الواصلون — ومن قدر عليه رزقه — السائرون ، فاظهروا من علومهم ما يملأ سفراً أو أكثر ، فهكذا كان سماع الناس في الزمان المتقدم ، فهل ترى أيها المنكر لهذا الفعل من بأس أو آفت من الحال والوجد من أهل الإفلاس .

قلت : وليس مراد الشيخ الحصر في هذه الكيفية حتى لا يصح السماع، إلا إذا كان هكذا بل كل من وجد في نفسه كسلا أو قبضاً : استعمل ما يزيل به كسله أو مرضه .

ثم اعلم أن اعتراض أهل الظاهر على الصوفية لا ينقطع أبداً : سنة ماضية ، وخصوصاً في السماع والرقص ، وهم معذورون، لأنهم لا يشاهدون إلا ذواتا ترقص وتشطح ، ولا يدرون ما في باطنها من المواجيد والأرواح ، فيحملون ذلك على خفة العقل وطيش ، فيقعون فيهم ، إلا من عصمه الله بالتسليم ، ولذلك كان الصديق بطريقة القوم ولاية ، والاعتراض جناية ، إلا من صحت نيته وحسنت السيرة، فهو مأجور من جهة ، محروم من جهة .

وقد رأيت للطرطوشي اعتراضا كبيراً على الصوفية في الرقص، حتى قال فيه : إنه ضلالة وجهالة ، وذلك لما قلنا،قال تعالى — بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله — .

وكان الشيخ ابن عباد رضي الله عنه يقول : لا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن، أي لأنهم لم يدركوا ما أدركه أهل الباطن ، فلا تقوم الحجة عليهم بمجرد سوء الظن، ولله در أبي مدين حيث يقول :

إذا لم تذق ما ذاقت الناس في الهوى ... فلله يا خالي الحشا لا تعنفا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا ... نعم : ترقص الأشباح يا جاهل المعنى

إلى آخر كلامه وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى مسألة الخلع ، وهي خلع الثوب عنه ، وإلقاؤه للفقراء فرحا وتواجدا كما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقال :

وكرهوا الخلع على المساعده ... لأن فيه كلفة المعانده
ومن يكن يخلع عند الحال ... فلا يجوز رده بحال
إذ كان كل عائد في هديه ... كالكلب ظل عائداً في قيئه

قلت الخلع بفتح الخاء وسكون اللام هو : نزع الثوب عند السماع ، وهو على ثلاثة أقسام : إما أن يكون مساعدة لغيره ، أو لغلبة حال عليه ، أو سقط بنفسه ، الأول مكروه لما فيه من التكلف والمعاندة ، أعني المنافسة ، لأنه لما رأى غيره خلع ثوبه وجداً أو حالا : خلع هو ثوبه مساعدة له ، ومنافسة فيما فعل ، وهذا لا يخلوا من رياء وتصنع ، وإليه أشار بقوله « وكرهوا الخلع » إلخ . وإما أن يكون لغلبة حال عليه ، فنزعه فرحا بالوجد أو شكراً لما وهبه الله من سني الأحوال ، فهذا يأخذه الفقراء ، ولا يجوز له الرجوع فيه بحال ، لأن فيه الرجوع في الصدقة وقد قال عليه الصلاة والسلام : « العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه(١) » وإلى هذا أشار بقوله « ومن يكن يخلع عند الحال » إلخ .

قال السلمي : وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقة على سبيل المساعدة ، لما فيه من التكلف المخالف للحقيقة ، وما كان من معارضة حال أو وقت ، فلا يجوز فيه الرد ، لأن ذلك شبه هبة وهدية ، وقال صلى الله عليه وسلم .

(١) متفق عليه من البخاري ومسلم ورواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن .

« العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه » .

وقيل : من رجع في هبته بالغ في خسته اهـ .

ثم إلى حكمه ، فقال :

وحكمه في أفضل الأحكام ... رأي العراق ليس رأي الشام

قلت : ظاهر كلامه أن الضمير في « حكمه » يعود على الخلع الذي هو أقرب مذكور ، لكن لم يذكر السلمي الذي يعتمده الناظم في هذا النظم هذا الخلاف ، وكذلك التجيبي في « الإقالة » مع أنه أطال فيه الكلام ، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى السماع من أصله ، ويكون استدراكا لترجيح أحد القولين المتقدمين ، في قوله « قال أهل العراق بالتحريم ، وقال الحجازيون بالتسليم » لكنه بعيد ، لأن أهل الحجاز غير أهل الشام ، وأيضاً السياق يأباه . ولعل الناظم اطلع على خلاف بين أهل العراق وأهل الشام في الخلع بالجواز والمنع .

وجنح الشيخ زروق إلى المنع فقال : تنبيه .

الذي ينبغي الجزم في هذا الزمان منع الخرق ، أي خلعها وأخذها والدخول عليها ، لما عليه الناس من الشحة والاعتلال اهـ .

قلت : بل الظاهر الجواز ، وليس في طريق الصوفية صوفي شحيح ، بل هو من أقبح القبيح ، ومن كان شحيحاً تعلم السخاء بهذا وبغيره ، ثم أشار إلى ما يفعل بها ومن يستحقها ، فقال .

وحكموا الوارد في الخروق ... للأنس والخبرة بالطريق

قلت : إذا اختلف الفقراء في الخرق التي تخلع في مجلس السماع والذكر ، هل ترد لصاحبها أو تقطع وتفرق بينهم أو تعطى للأحوج منهم ، حكموا أول وارد عليهم ، فما حكم به اتبعوه وإنما فعلوا ذلك للأنس الذي يحصل بينهم في ذلك الحكم ، بحيث لا يتغير قلب أحد .

وقيل : يحكمون من كان أهل الخبرة بطريق القوم ، وهذا ما لم يحضر الشيخ ، وأما إن حضر فالحكم له ، وإذا خلعت على القوال فهي له لقوله عليه الصلاة والسلام « من قتل قتيلا فله سلبه(١) » .

(١) متفق عليه ورواه أبو داود والترمذي والإمام أحمد وابن ماجة . ولفظه في الفتح الكبير : « من قتل كافراً » بدل « قتيلا » .

وقيل : إن كان من جملة الفقراء فهو كأحدهم ، وإن كان محبا فقط فهي له ، وإن كان بأجرة فلا شيء له .

ثم ذكر ما يسقط بنفسه من غير أن يخلعه صاحبه ، فقال :

والسقط مردود بلا خلاف وقدر هذا في السماع كاف

قلت : السقط بالكسر بمعنى : المسقوط ، يعني أن ما سقط من غير اختيار صاحبه فهو مردود عليه ، ولو كان من غيبة حال أو وجد إذ الخلع استقدم إنما هو ما كان باختيار صاحبه فرحاً بالوجد أو الحال ، أو شكراً ، لا ماسقط بغير اختياره، فلا يحل أخذه ، إذ : لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفسه(١) » .

تتميم : قال ابن ليون التجيبي : ومن أشار بيده أن يخلع ، بان عنه ما عليه ، ومن دخل الطابق (أي الحلقة) بفرجية غير مزورة بانت عنه ، يعني لتفريطه وعدم حرمه ، ومن خلع ما على رأسه بان عنه كل ما عليه ، فان الخرق تابعة للتاج . قلت ولعل هذا حيث جرى به أو عمل ، وإلا فالظاهر اختصاصه بما خلع ثم قال : ومن رقص وبده تحته بانت عنه خرقه ، ومن عثر في ثوبه أو داسه (أي وطىء عليه برجله) أو أطفأ له السراج ، أو آذى به أحداً أو شبه ذلك بان عنه الثوب ، وكذلك الإشارة بالكم ، فإن الفقير محفوظ والسقط بائن عنه، فيبين عنه ثوبه بأقل شيء ، بخلاف المحب ، فإنه لا يبين عنه ثوبه إلا باختياره ، والمباط الماحش في السماع يطالب صاحبه، فإن انفصل ، وإلا استعفر ، وكذلك الوقف الكثير في الطابق (أي الحلقة) ما لم تشهد له البواطن بالصدق ، ولا يزاحم محترم محترماً في طابقه ، ولا يدخل الطابق غير فقير ، لأنه لا يدري مشرب القوم ، ويحبسه الخادم في موضعه إن غلب عليه وارد ، انتهى .

وهذا القدر كاف في السماع ، لمن له صدق واستماع ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ثم أشار إلى الحكم السابع من أحكام ترجمة التسعة فقال : السابع في حكم السفر وعدوم على المشائخ : اعلم أن للسفر آداباً تطلب قبل الشروع فيه ، وآداباً حال الشروع ، وآداباً بعده ، فأما التي تطلب قبل الشروع فمنها الاستخارة لقوله عليه الصلاة والسلام .

---

(١) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو داود .

« ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار(١) » .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله يعلمنا الاستخارة لما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : إذا هم أحدكم بأمر فليركع ركعتين ثم يقول : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري وآجله،فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ، اه والركعتان بالكافرون والإخلاص ، ويقتصر على هذه الاستخارة دون غيرها مما فيها نوم أو غيره ، ويكررها ثلاثا أو سبعا إن كان أمراً مهما .

ومنها الاستشارة إن كان له شيخ ، فليستشره ولا يسافر بغير إذنه ، وإن لم يكن له شيخ فليستشر من اشتهر بالصلاح والخير من العلماء العاملين، وكذلك الوالدين، ومنها النية الصالحة فلا يسافر بقصد الدنيا أو النزهة ، وسيأتي الكلام على هذا عند قول الماتن ، ولم تكن أسفارهم تنزها ، بل كان فيها نحو التوجهات وبقدر ما يعدد من النيات يحصل له من الخيرات وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش لأبي الحسن : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجالس إلا حيث تأمن عالبا من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا، وقليل ما هم ، ومنها التماس الصاحب ، وفي بعض الآثار « التمسوا الرفيق قبل الطريق(٢) » ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن السفر وحده ، وقال : الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب(٣) » اه . ولا يسافر مع غير جنسه ، ولا يصحب إلا من يريد به إلى ربه .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : من نجالس يا رسول الله ؟ قال :

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط بلفظ : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، ولا عال من اقتصد » .

(٢) ونص الحديث : « التمسوا الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق » رواه الطبراني في الأوسط عن رافع بن خديج .

« من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمـــله ، والمراد بالمجالسة مطلق المصاحبة ، فتصدق بالسفر وبغيره .

ومنها قضاء الديون ، ورد الودائع ، فإن لم تحل وتعذر تعجيلها فليترك وكيلا يؤدى عنه وإن كانت عليه مظالم تحلل منها ، لأنه لا يدرى : هل يرجع أم لا ؟ .

ومنها استعداده بحل الماء . فيستصحب قربة أو ركوة يتوضأ منها . قال السلمى رضى الله عنه : ويجب على المسافر استصحاب ركوة أو كوز للطهارة ، والركوة أولى ، والركوة إناء من جلد . وقال فى القاموس : زق صغير ، ثم قال : سمعت والدى رحمه الله يقول : كان بعض المشايخ اذا صاحبه المسافر تفقد أثر حمله الركوة من كفه وأصابعه . فإن وجده ، أى أثر الركوة ، أحسن قبوله ، والا ازدراه .

وقال بعضهم : اذا رأيت الصوفى وليس معه ركوة ولا كوز ، فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة ، شاء أم أبى .

ويستحب للسافر استصحاب العصا والإبرة والخيوط ، والمقص والموسى ونحوها ، فان ذلك مما يستعين به على أداء الفرائض كما يجب ، واذا أراد أن يسافر فى الأدب أن يطوف على اخوانه ويعرفهم بسفره ويودعهم ، ويستحب لمن هو فى صحبتهم تشييعه ، كذلك كان أدب المشايخ اذ انتهى .

وأما التى تطلب حين الشروع فى السفر فمنها : صلاة أربع ركعات ، فقد روى الديلمى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أراد سفراً صلى أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب والإخلاص ، فاذا سلم قال : اللهم انى أتقرب بهن اليك ، فاجعلهن جليسى فى أهلى ومالى ، فاذا نهض للسفر من جلوسه قال : اللهـــم بك انتشرت واليك توجهت ، وبك اعتصمت ، اللهم أنت ثقتى ورجائى ، اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به ، وما أنت أعلم به منى ، وزودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير حيث ما توجهت ، ثم يقرأ الكافرون والإخلاص والمعوذتين » .

ومنها توديعه أهله وجيرانه وأصحابه ، يقول : استودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه ، ويقال له : زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ويسر لك الخير حيث ما كنت .

ومنها قراءة ورد السفر ، وهو : استغفر الله (عشراً) اللهم صل على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه وسلم يسلما (عشرا) حسبنا الله ونعم الوكيل (عشراً) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (عشراً) .

هكذا تلقيناه من أشياخنا زاد شيخنا البسملة (عشرا) .

قال ينبغى أن تكون بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا الورد حفيظة وحصن يقال فى كل سفر ولو قرب ، وينبغى تقديمه على التوديع ، وإذا كان له مركوب(١) قال إذا جعل رجله فى الغرز : بسم الله ، وإذا استوى على ظهره — الحمد لله سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون — سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » هكذا روى الترمذى .

زاد غيره : « الحمد لله الذى حملنا فى البر والبحر ، ورزقنا من الطيبات ، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا ، اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل والمال ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى المال والأهل » .

ويكبر ويسبح ويحمد (ثلاثا وثلاثين) ويهلل (مرة) :

وأما التى تطلب بعد الشروع فاشتغاله بذكر الله ، وبالتفكر والاعتبار فى عظمة الله ، وكل ما رأى شيئا عرف فيه صانعه ومولاه ، وإذا علا على شرف كبر ، وإذا هبط فى واد أو مكان منخفض سبح ، وإذا انفلتت دابته قال : يا عباد الله احبسوا ، وإذا رأى قرية أو نحوه قال : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، وإذا وصل وضع يده على سورها ويمرأ لا يلاف قريش (ثلاثا) فاذا فعل ذلك لم يزل صحيحا جسمه فيها حتى يخرج ، وإذا دخلهـــا قال : اللهم بارك لنا فيها (ثلاثا) اللهم ارزقنا جناها وأعذنا من وباها ، وحببنا إلى أهلها وحببنا صالح أهلها إلينا .

---

(١) أى دابة يركبها .

وسيأتى بقية الآداب والآداب التى تطلب حين يصل عند الناظم إن شاء الله .

وينبغى للفقير أن يشد يده على هذه الآداب النبوية ، فإنها دليل المحبة ، قال الله تعالى — قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله — والله تعالى أعلم .

ثم قدم الحكمة فى سفرهم وما المقصود به فقال :

مذهبهم فى جولة البلدان ... زيارة الشيوخ والإخوان
ثم اقتباس العلم والآثار ... أورد ظلم أو للاعتبار
أو للخمول أو لنفى الجاه ... أو للرسول أو لبيت الله

قلت من سنة الفقراء فى بدايتهم الجولان فى البلدان ، وعدم التقرر[1] فى الأوطان ، وذكر الناظم فى حكمة ذلك عشرة أوجه :

أولها : زيارة الشيوخ ، وهى أعظمها بعد الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما فيها من زيادة فيض الإمداد واكتساب الأوصاف المحمودة ، والتخلص من الأوصاف المذمومة ، مع اقتباس العلم والحال ، وفى ذلك من الخير ما لا يعلمه إلا الله ، وسيأتى بعض ذلك إن شاء الله .

وعن أبى رزين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر فى الله فإن من زار فى الله شيعه سبعون ألف ملك ، يقولون : اللهم صله كما وصل فيك ، وناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة مقعداً » .

قلت وهذا الذى ذكره الناظم زيارة الأحياء .

وأما زيارة الأموات ، فمن ظفر بشيخ التربية ، فلا يحتاج إلى زيارة غيره : حيا كان أو ميتا .

وقد قال التجيبى : إن زيارة الأموات ليس من طريق القوم .

(١) أى الاستقرار .

(٢) ورواه أبو نعيم فى « الحلية » عن ابن عباس ، ونصه كما فى الفتح الكبير : « زر فى الله فإنه من زار فى الله شيعه سبعون ألف ملك » .

ت : وهو كذلك ، لأن القوم قد أغناهم بالأحياء ، فلا يزورون الأموات إلا للدعاء لهم
م عليهم ، وأما من لم يظفر بشيخ التربية فينبغى له الإكثار من زيارتهم ، فإن عامة نفع
أن يدله على الحى ، وفى ذلك يقول الشيخ الصالح أبو إسحاق سيدى إبراهيم التازى
ن وهران) :

زيارة أرباب التقى مرهم يرى ... ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث فى الصدر الخلى إرادة ... وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر
وتنصر مظلوما ، وترفع عاملا ... وتكسب معدوما ، وتجبر ذا كسر
فكم خلصت من لجة الإثم فاتكا ... فألقته فى بحر الإنابة والبر
وكم من مريد أظفرته بمرشد ... خبير بصير بالبلاء وما يرى
فألقى عليه حلة يمنية ... مطرزة بالفتح واليمن والنصر
عليك بها ، فالقوم باحوا بسرها ... ووصوا بها يا صاح فى السر والجهر
مرر ، وتأدب بعد تصحيح نية ... تأدب مملوك مع المالك الحر
ولا فرق فى أحكامها بين سالك ... مرب ومجذوب وحى وذى قبر
وذى الزهد والعباد فالكل منعم ... عليه ، ولكن ليست الشمس كالبدر

ثانيها : زيارة الإخوان ، ولا شك أن السفر لزيارة الإخوان قربة عظيمة ومنقبة جسيمة
ن من أفضل السياحة قال الله تعالى — ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب
ه هم الغالبون[1] — فالمراد بالذين آمنوا : هم أنصار الدين ، الذين يتصحون عباد الله ،
م الفقراء المتوجهون إلى الله ، فإن كل من لقيهم نصحوه وذكروه بالله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالى : وجبت محبتى للمتحابين فى ، المتجالسين فى ،
متزاورين فى ، المتباذلين فى ، رواه مالك[2] .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٦ .

(٢) وروى الحديث من طرق أخرى منها : « حقت محبتى للمتحابين فى ، وحقت محبتى
لمتواصلين فى ، وحقت محبتى للمتناصحين فى ، وحقت محبتى للمتزاورين فى ، وحقت محبتى
لمتباذلين فى : المتحابون فى على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء »
رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، والقضاعى ، عن عبادة بن الصامت . =

وقال صلى الله عليه وسلم : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه » رواه الطبرانى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن رجلا زار أخا له فى قرية فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال. أريد أخا لى فى هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال: لا ، غير أنى أحبه فى الله: قال : فإنى رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحببته فيه » اه . رواه مسلم. والمدرجة الطريق .

وقال صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضاً أو زار أخاً فى الله ، ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك(١) » .

وقال أيضاصلى الله عليه وسلم : « ما من عبد أتى أخاه يزوره فى الله ، إلا ناداه مناد من السماء أن طبت وطابت لك الجنة ، وإلا قال الله فى ملكوت عرشه: عبدى زارنى وعلى قراه فلم يرض له بثواب دون الجنة (٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لأصحابه حين قدموا عليه : هل تجالسون ؟ قالوا. لا نترك ذلك ، قال : فهل تزاورون ؟ قالوا : نعم يا أبا عبد الرحمن ، إن الرجل ما ليقف أخاه فيمشى على رجليه إلى آخر الكوفة حتى يلقاه ، قال : إنكم ان تزالوا بخير ما فعلتم ذلك . اه .

ثالثها : اقتباس العلم النافع ، ولا شك أن السفر لطالب العلم فرض فقد قال عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضا « اطلبوا العلم ولو بالصين » ذكره فى القوت (٣) .

= ولص عبارة الإمام مالك فى الموطأ : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » ورواه أيضاً بهذا اللفظ الإمام أحمد ومسلم .

(١) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، ولفظه من الفتح الكبير «من عاد أخاه فى الله ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » .

(٢) رواه ابن عدى ، والبيهقى ، والطبرانى فى الأوسط ، والأصغر ، والخطيب وابن عبد البر فى العلم ، وابن ماجه .

(٣) رواه ابن عبد البر وابن عدى والبيهقى فى المدخل عن أنس بن مالك .

وقال صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يلتمس بها علما سهل الله له طريقا إلى الجنة(١) » وقال صلى الله عليه وسلم : ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت الملائكة له أجنحتها ، رضى بما صنع(٢) » .

وعن قبيصة رضى الله عنه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا قبيصة ما جاء بك ؟ قلت : كبرت سنى ورق عظمى فأتيتك لتعلمنى ما ينفعنى الله به قال : يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر الا استغفر لك » الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم « من غدا يريد العلم يتعلمه الله له بابا إلى الجنة ، وفرشت له الملائكة أكنافها ، وصلت عليه ملائكة السموات ، وحيتان البحر ، والعالم من التفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب فى السماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، ولكنهم ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، وهو نجم طمس : موت قبيلة أيسر من موت عالم » .

والمراد بالعلم فى الحديث : « العلم النافع فيصدق بعلم ذات الله وصفاته ، وأحكامه » والمراد بالعابد الذى فضل عليه العالم : العابد الجاهل بما يلزمه من أداء فرضه ، فلا شك أن عبادة الجاهل فى جحره ، والعالم شامل للعلم بالله ، وهو الولى ، والعالم بأحكام الله وهو : العالم العامل المخلص ، والله تعالى أعلم .

رابعها : اقتباس الأثر وهو حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وفضل السفر إليه كفضل السفر إلى العلم ، لأنه عين العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « نضر الله أمرءاً سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » ومعنى « نضر » بهج وحسن .

خامسها : رد المظالم والسفر لذلك فرض ، كما إذا كان على الفقير دين أو قصاص أو حق من حقوق العباد ، فيسافر إليه ليرده أو يتحلل منه ، هكذا ذكره السلمى ، ونصه: ثم لطلب العلم ، ثم لزيارة الإخوان والمشايخ ، إلى أن قال : ثم لرد المظالم والاستحلال ، ثم لطلب الآثار والاعتبار ، ثم لرياضة النفوس وحمل الذكر اه . وهذا نص ما ذكره الشيخ فى هذه الآيات .

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أحمد، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وفى آخره — كما فى الفتح الكبير « حتى يرجع » وفى الباب أحاديث كثيرة فى وضع الملائكة اجنحتها لطالب العلم .

وقد تردد الشيخ زروق فى تفسيره ، فحمله أولا على رد ظلم العباد بعضهم عن بعض ، وجعله من تغيير المنكر وقال : هذا على من يمكنه ذلك من غير نقص فى دينه كما هو معلوم فى باب تغيير المنكر .

قلت : ولو حمـــله على رده بالشفاعة والإصلاح لكان أقرب ، ويكون فى حق الكاملين منهم .

وحمله ثانيا على ما قلنا من رد المظالم، ثم قال: وقد يريد الفرار من الظلم، فان المؤمن لا يذل نفسه ، وقد قال تعالى — يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فاياى فاعبدون (١) — وقال تعالى — ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها(٢) — وقد يريد الفرار من المحل الذى يجرى فيه الظلم على يديه كفرار إبراهيم بن آدهم رضى الله عنه من أرضه وغيره ، وكما فى حديث الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا ثم كمل المائة بالعابد ، فلما دل على التوبة قال له : « اخرج من أرضك إنها أرض سوء » الحديث(٣) . اهـ .

وهذه كلها احتمالات يقبلها اللفظ ، وأما المقصد فهو الأول ، لأن عادة الناظم محاذاة ما للسلمى ، والله تعالى أعلم .

سادسها : الاعتبار بما يرى فى سفره من جبال وأنهار وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات ، وضروب الكائنات ، وقد تقدم أنه ينوى هذا فى أول سفره .

سابعها : قصد الخمول ونفى الجاه إذ لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه ، ولا شك أنه إذا تغرب فى البلدان لا يعرفه أحد ، فيأمن من الظهور الذى هو قاصم الظهور ، والخمول مقصود عند القوم فى البدايات ، وملحوظ فى النهايات .

ثامنها: نفى الجاه ، وهو قريب من الخمول، ويفرق بينهما بأن قصد الخمول هو الذى لم يكن له جاه فأراد أن يبقى على خموله ، ونفى الجاه هو الذى كان له جاه وأراد نفيه وزواله فاذا سافر إلى موضع لا يعرفه أحد، فالغالب تحقيق خموله ، وينبغى له أن يكتم اسمه ونحو حاله حتى لا يعرف لأنه إذا عرف رجع إليه ما هرب منه ، والمراد بالجاه : المصر أو الجارى على

(١) الآية : ٥٦ سورة العنكبوت .
(٢) الآية : ٩٧ سورة النساء .
(٣) رواه مسلم ، وأحمد

غير وجه مستقيم ، أو الذى يخشى منه نقصا أو شغلا ، أو الذى تميل إليه النفس وتركن إليه مثل الركون إلى ظل العز قاطع كبير .

تاسعها : لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى من أكبر القربات وأعلى الدرجات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « من زارنى فى المدينة وجبت له شفاعتى(١) » أو كما قال ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى(٢) » اهـ .

عاشرها : زيارة بيت الله الحرام ، والوقوف بعرفة ، وهو فرض المستطيع ، مستحب لغيره إذا سلم من تضييع واجب ، قال صلى الله عليه وسلم : « من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »(٣) اهـ .

تنبيه : قال الشيخ زروق رضى الله عنه : كل هذه الوجوه تحتاج لتصحيح النية، وتحقيق القصد ، فإن النفس خادعة ، والأمور آفات ، واعتبر هذا بحكاية أحد ابن أرقم ، حيث جحت نفسه لطلب الجهاد فتعجب منها ، وقال: نفس تأمر بالخير، هذا عجب، ثم سأل الله تعالى قائلا : اللهم إنى مصدق بقولك — إن النفس لأمارة بالسوء — ولها مكذب فأطلعنى على حقيقة هذا الأمر ، قالت : يا أحد إنك تقتل كل يوم كذا وكذا قتلة ، ولا يشعر فى أحد فأردت موتة واحدة ، ويقال : مات شهيداً .

قال الإمام أبو حامد رحمه الله ، فانظر كيف رضيت بالرياء بعد الموت انتهى بمعناه .

قلت : وبقى من فوائد السفر صحة البدن والقلب فقد قال عليه الصلاة والسلام : « سافروا تصحوا وتغنموا(٤) » ، وكذلك قصد موت الغربة ، فقد قال أيضا عليه الصلاة والسلام : « الغريب شهيد ويفسح له فى قبره كبعده من أهله »(٥) .

ثم ذكر مفهوم ما تقدم فقال :

ولم تكن أسفارهم تنزها ... بل كان لله فيها نحوه التوجها

(١) وقال عليه الصلاة والسلام « من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شهيداً ، أو شفيعاً يوم القيامة » رواه البيهقى فى شعب الإيمان .
(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، وهو متفق عليه من البخارى ومسلم .
(٣) رواه البخارى . وأحمد ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى .
(٤) رواه البيهقى والشيرازى فى الألقاب . وأبو نعيم فى الطب ، والقضاعى .
(٥) فى حديث طويل رواه ابن عساكر

ولم تكن أيضاً بلا استئذان للشيخ والآباء والإخوان
ولم يكن ذلك الفتوح أو لامرىء مبتذل ممدوح

قلت : إنما لم تكن أسفارهم للتنزه فى البلدان ، أو لكروب الأوطان ، بل فى رضى الرحمن ، لأن مقاصدهم دائرة على الجد والتحقيق والمناقشة والتدقيق ، لا يتقلون أقدامهم إلا حيث يرجون رضى الله ، ولا تنزل همهم العالية إلا على الله ، عاثبون عما سواه ، لا يتوجهون بهممهم إلا نحو الحبيب ، ولا يساهرون بقلوبهم إلا إلى حضرة القريب المجيب بخلاف العامة : أنفسهم غالبة عليهم ، وشهواتهم حاكمة عليهم ، إن تحركوا للطاعة خوصتها عليهم ، فسدت عليهم نياتهم وأرعجتهم فى هوى أنفسهم ، تظهر لهم الطاعة وتخفى لهم الخديعة .

روى أن رجلا جاء يودع بشراً الحافى رضى الله عنه عند مشيه للحج ، وقال : قد عزمت على الحج أتأمر بشىء ، فقال له بشر : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفى درهم ، فقال له بشر : أى شىء تبتغى بحجتك نزهة أو اشتياقاً إلى البيت وابتغاء مرضاة الله ، قال : ابتغاء مرضاة الله ؛ قال فإن أصبت رضى الله تعالى ، وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله ، أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديناً يقضى دينه ، وفقيراً يرم شعثه ، ومعيلا يجبر عياله ، ومرنى يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل ، فإن إدخالك السرور على قلب امرىء مسلم ، وإغاثة لهفان وكشف ضر مكتئب ، وإعانة رجل ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرتك وإلا فقل لنا ما فى قلبك ، قال : يا أبا نصر : سفرى أقوى فى قلبى ، فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ الشبهات والتجارات اقتضت النفس أن تقضى به وطراً تسرع إليه بظاهر الأعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه ألا يقبل إلا عمل المتقين اهـ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، وأحاطوط عنه مستورة مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه فى معزل عنها ، وإذا أهان الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته فهو يتقلب فى شهواته وعبودية الله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شىء منها فى الظاهر ، قال : وهذا باب من الولاية والإهانة .

وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى ، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوى البصيرة إلا بالله فيما يأخذ ويترك اهـ .

وإنما لم تكن أسفارهم بلا استئذان الشيخ والآباء ، لأن السفر من غير إذن الشيخ لا بركة فيه ، ولا سير إلى الله فيه ، بل فيه نقض للعهد الذى أخذه عليه : ألا يتحرك إلا بإذنه ، وقد يكون له نظر فى إقامته ، وكانت الفقراء فى الزمان السالف يستأذنون فيما هو أقل من هذا وقد وجد بعض الفقراء باقلا (أى فولا) فأتى به إلى الشيخ فقال : يا سيدى ما أفضل بهذه البقلا ، فقال له : أفطر عليها ، فقال بعض الحاضرين : يا سيدى يشاورك حتى فى الباقلا ، فقال : نعم لو خالفنى فى شىء لم يفلح ، أو ما هذا معناه ، وهذا إن كان السفر بعيداً ، وأما القريب الذى لا يستغنى عنه ، فأمره قريب .

وأما استئذان الآباء فهو أيضاً من الأمور المؤكدة .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فإن حق الوالدين واجب شرعاً ، إلا فى واجب لا محيد عنه ، ولا تراخى فيه كطلب علم حاله ، والجهاد عند تعيينه ، والحج عند ضيق وقته ، إذا توفر شرطه .

وقال السلمى : ولا يسافر بغير رضى الوالدين والأستاذ ، وبغير إذنهم ، حتى لا يكون عاصياً فى سفره ، فلا يجد بركة فى أسفاره .

قلت : هذا إن تحقق أنهم لا يمنعونه من زيارة الشيخ ، وأما إن تحقق أنهم يمنعونه من زيارة شيخ التربية أو من صحبته ، فلا فائدة فى استئذانهم ، ويسقط عنه استئذانهم ، حسبما ذكره البلالى فى « اختصار الإحياء » ونصه فى باب حقيقة علم الباطن ، ويسافر إليه ولو منع أبواه فى فرضه .

وذكر الشيخ السنوسى فى « شرح الجزيرى » أن النفس إذا غلبت كانت كالعدو إذا لجأ فنجب مجاهدتها والنهوض إليها بقواه العلمية والعملية ، وفى مثل هذا يسقط استئذان الأبوين وغيرهما ، إلخ كلامه الطويل فى المسألة .

وقد يرجح هـــذا قوله تعالى — وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما(١) — فإن الشرك على قسمين : أكبر وأصغر ، ورماء من ألفاظ العموم ، والشرك

(١) الآية : ١٥ من سورة لقمان .

الأصغر لا ينجو منه فى العالب إلا بصحبة من تخلص منه بشيخ كامل ، والقرآن بحر واسع يغرف منه كل أحد على قدر وسعه .

ومما يناسب ما قلناه من مخالفة الأبوين فى صحبة الشيخ ، قول الشاعر :

ولا أصغى إلى من قد نهانى ... ولى إذن عن العذال صما
أخاطر بالخواطر فى هواكم ... وأترك فى رضاكم أباً وأما

ولقد سمعت من أشياخنا وغيرهم : أن شاباً كان يحضر مجلس شيخ شيوخنا ، سيدى يوسف الفاسى ، وكان أبوه ينهاه عن ذلك ويزجره ، حتى كان ربما يأتى لمجلس الشيخ ويقول : أترك لى ولدى . فكان الشيخ يقول للشاب : يا ولدى أطع أباك فى كل شىء إلا فى القدوم إلينا وحضور مجلسنا ، وكأنه تمسك بقول الغزالى : « إن أخذ علم التصوف فرض عين » والله تعالى أعلم .

وقول السلمى : لئلا يكون عاقاً لوالديه : اعلم أن عقوق الوالدين لا يكون بمجرد مخالفتهم ، فإن الوالدين على ثلاثة أقسام :

قسم : يكونان واقرى العقل واسعى الصدر ، لا يغضبان بشىء .

وقسم : يكونان ضعيفى العقل ضيقى الصدر ، يغضبان بأقل شىء ، وقد يغضبان بلا شىء .

وقسم : يكونان معتدلى الحال .

فأما القسم الأول : فقد يعقهما ، ولو لم يغضبا .

وأما القسم الثانى : فقد لا يكون عاقاً لهما ولو غضبا ، والمرجع فى ذلك لعرف أهل العقول الكاملة بحيث يشهدون فى ذلك ويقولون : إنه عقوق ، سواء ظهر غضب أولا .

وأما الثالث : فغضبهما عقوق ، كذا سمعت هذا التفصيل من بعض العلماء العارفين وهو صحيح حسن (نقله بعض شراح الشمايل) والله تعالى أعلم .

وأما استئذان الإخوان ، فهو حسن لعله ينهض عازمهم الزيارة معه .

وأما كون سفرهم لم يكن للفتوح ، وهو ما يقبضه من الهدايا والصدقات ، فقد تقدم أن سفرهم إنما كان لرضى الرحمن ، أو لتذكير الإخوان ، أو لرياضة النفوس ، ولم تكن أسفارهم لقصد الدنيا ، فإن ذلك من الهمة الدنية ، وكل من كان سفره الدنيا ، فلا قيمة له عند الله ،

ومن كانت همته ما يدخل بطنه ، كانت قيمته ما يخرج منها ، وجلوس من كانت هذه همته فى بيته أفضل له ، نعم إن تخلصت النية ثم أعطاه الله فتوحاً أخذه بذلة الشيخ أو صرفه فيما يضطر إليه ، وكذلك السفر لمن كان مشهوراً بالسخاء والعطاء ، فهو من قبيل السعر للدنيا إذ لا يخلو من طمع فيه ، وما أقبح الطمع ، وما أحسن الورع .

دخل سيدنا على كرم الله وجهه البصرة فوجد الناس يقصون فى المسجد ، فأقامهم حتى وقف على الحسن البصرى ، فرأى عليه سمتاً وهدياً ، فقال له : إنى سائلك فإن أجبتنى تركتك ، وإن لم تجبنى أقمتك كما أقمت أصحابك ، فقال له : سل عما بدا لك ، فقال له : ما فساد الدين ؟ قال : الطمع ، قال : وما صلاح الدين ؟ قال : الورع ، قال له اجلس فمثلك يتكلم على الناس . اهـ .

وإلى هذا أشار بقوله « أو لامرىء مبتذل ممدوح » والمبتذل اسم فاعل ، من ابتذل طعامه أعطاه ، وأصل ما ذكره الناظم قول السلمى رحمه الله : ولا يسافر للنزهة والبطر ورياء الناس والجولان فى البلدان لطلب الدنيا والتسوب على متابعة الهوى .

قال أبو تراب النخشبى رضى الله عنه : ليس شر أضر على المريدين من أسفارهم على متابعة هواهم ، وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار البطالة .

قال الله تعالى — ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياء الناس(١) — وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمان يحج أغنياء أمتى للنزهة ، وأوساطهم للتجارة ، وقراؤهم للرياء ، وفقراؤهم للمسألة(٢) » وقال أيضا(٣) قال أبو حفص النيسابورى : ينبغى للمسافر ثلاثة أشياء : ترك تدبير الزاد ، وتقدير الطريق ، ويعلم أن الله حافظه

ثم ذكر آداب الوصول ، فقال :

حيث ما حلوا بلدا فبالحرا ... أو يقصدوا الشيخ وبعد القرا

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الأنفال .

(٢) ولفظ الحديث : « إذا كان آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف : سلاطينهم للنزهة ، وأغنياؤهم للتجارة ، وفقراؤهم للمسألة ، وقراؤهم للسمعة » رواه الخطيب بإسناد مجهول ، وأبو عثمان الصابونى فى كتاب المائتين بمعناه .

(٣) أى قال أبو تراب النخشبى .

قلت : من آداب الفقراء إذا حـــلوا بلداً من البلدان ، سواء كانت التى فيها شيخهم . أولا أن يقصدوا شيوخها وكبراءها أولا ، ثم يقصدوا فقراءها ، لأن التقديم تعظيم ، والتعظيم على قدر المقام ، ومن لا يعظم لا يعظم ، وإذا قصدوا شيوخها فلا يدخلون عليهم إلا معتقدين كمال ولايتهم ، ولا يدخلون مختبرين فيحرمون بركتهم ، فكل من قصد الأولياء بالميزان ، فلا ينال إلا الحرمان ، ومن أتاهم بالتعظيم وحسن الاعتقاد نال من الله كمال المحبة وحسن الوداد ، وينبغى أن ينزل من علمه وعمله وحاله ، كما يفعل مع شيخه ، وكذلك يفعل مع الفقراء ، فلا يدخل عليهم إلا معتقداً كلهم ، وينزل أيضا عن علمه وعمله ، فيرجع إلى علمهم فيما يشيرون إليه ، ولا يدعى علما ، ولا يراه فى حضرتهم ، بل يرى علمهم أكمل من علمه ، وأنه مفتقر إليهم وإن كان أعلى منهم فى الظاهر ، ويرى عملهم أوفى من عمله ، وإن كان أوفى منهم فيه ، لأن ذلك معتبر بالحقائق ، وهى باطنية قلبية ، فيحملها على أكمل الوجوه وأتمها ، فيشرب منهم على قدر اعتقاده ، ويأخذ من مددهم على قدر صدقه ، وهذا الترتيب الذى ذكرنا هو مع الاختيار ، فإن تعذر لقاء المشايخ أولا : قدم الفقراء .

وقوله « فبالحرى » أى فبالأحروية والأولوية أن يقدموا الشيخ ، ثم بعد ذلك الفقراء إن أمكن كما قلناه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آداب لقاء الأشياخ ، والجلوس معهم ومكالمتهم ، فقال :

وان للقوم هنا آدابا ... إذ جعلوا كلامهم جوابا
فإن تعاطى الشيخ منهم قولا ... قالوا ، وإلا فالسكوت أولى

قلت : للقوم فى لقاء المشايخ آداب .

منها : أنهم إذا قربوا المنزل رفعوا أصواتهم بالهيئة والذكر ، فلا يزالون كذلك حتى يصلوا الى الزاوية فهو من تعظيم النسبة ويفعلون ذلك عند قربهم المدشر ، لما فيه من تنبيه الغافلين الشياطين ، ومنها انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه ، ولا وسول إليه ، قال الله تعالى — إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون[1] —

ومنها تقبيل يد الشيخ ، ثم وجه ان جرت بذلك عادة للفقراء ، فهو من أحسن التعظيم وهو من تربية الآداب والمهابة .

(١) سورة الحجرات الآية : ٤ .

وفى ذلك قال الشاعر :

يا من يريد خمرة المحبة ... خذوها عنى : هى حلال
ومن يريد يسقى منها غبا ... خد يضع لأقدام الرجال
واسى حطات لكل شيخ ... هم الموالى : سقوق زلال

ومنها جلوسهم بين يديه على نعت السكينة والوقار ، غاضين أصواتهم ، ناكسين رءوسهم بحيث أبصارهم ، فلا يكلمونه حتى يبدأهم بالكلام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ثم إن طلب أحدهم بالكلام ، فإن كان الكلام عاديا أو به مختصا ، وإن كان فى العلوم والحقائق نظر ، فإن حضرته نفسه ترك ، وإلا تكلم بأقل ما يمكنه الكلام فى ذلك ، لأن الكلام فى حضرة الأستاذين مقت .

ثم قال : ومن أعجب ما شهدته فى بعض الناس أنهم يدخلون على رجال من أهل الكمال قصد الانتفاع بهم ، ثم يبسطون ألسنتهم بالكلام فى وجوه من صور الحقائق ، ويرون أنهم بذلك متقربون لقلوبهم ، ومتحببون لهم ، ولا أدرى هل ذلك لظنهم خلوهم عما يألونه ، أو لرؤيتهم أن ذلك مما يقربهم إليهم ، أو ليروهم أنهم يفهمون ويدوقون ، هذه كلها جهالات لعاذنا الله منها ، انتهى كلامه .

قلت : أما فى حال المذاكرة فلا بأس أن يتكلم بما عنده من العلم إعانة للشيخ ، بانخفاض وتواضع ، ولا يعارضه فى كلامه ، فإن لم يفهم كلام الشيخ ، أو رآه مخالفا لرأيه ، أو لما عند غيره ، يقول : يا سيدى هذا ما فهمته ، وقد ظهر لى كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا على وجه الاستفهام ، لا على وجه التعارض ، فإن ظهر له خلاف ما ظهر للشيخ فليسكت ، وإن وقعت معارضة بين الشيخ وبعض الفقراء أو غيرهم ، فلينصر الشيخ ما استطاع ، فإن ذلك مما يجلب المودة من الشيخ ، ثم إن تعاطى الشيخ من الفقراء كلاما أو من أحدهم : كلمه بخضوع وتواضع ، وإلا فالسكوت أولى .

وقد أشرت إلى هذه الآداب مع زيادة فى قصيدتى العينية التى وضعتها فى الآداب ، فقلت بعد كلام :

مع الشيخ آداب إذا لم تكن له ... فإنه فى واد القطيعة واقع

خضوع، وهيبة، وصدق محبة ... وعقل كامل فيه : إنه جامع
فلا ترفعن صوتا إذا كان حاضراً ... ولا تضحكن، فالضحك فيه لجائع
ولا تعترض أصلا عليه فانه ... بنور شهود للبصيرة تابع
ولا ترمين عينا إلى ماء غيره ... فترى كسيراً في المعاطش ضائع
ولا تخرجن من عش تربية غدت ... تمدك بالأنوار منها تتابع
إلى أن ترى الترشيد قد حاز وقته ... وصرت من التمكين أمرك شائع
تمد من الأنوار من كل وجهة ... وتسقى من الآنام من هو تابع

ثم أشار إلى آداب المقدم عليهم في حق القادمين، فقال :

واجب على أولى الإقامه ... تفقد الوارد بالكرامه
وهو يزور القوم في الحرام ... وإنما ذاك للاحترام
ويبدءوا الوارد بالسلام ... وبالطعام ثم بالإكرام
وكلموه بعدها تكليما ... تأسياً بفعل إبراهيما
وكرهوا سؤال هذا الوارد ... إلا عن الشيخ أو التلامذ

قلت : ذكر في هذه الأبيات ستة آداب في حق المقدم عليهم :

أولها : تفقد الوارد بالكرامة، وهو الذهاب إلى لقائه وإظهار المبرة في وجهه والفرح به وإراحته من شئونه وتعلقاته، وإنزاله في محل يظهر به التعظيم كدار، أو زاوية، والدار أبلغ في تعظيمه، فان نزل في محل قدم عليه من لم يكن خرج للقائه. والوارد أحق أن يزار في محله إلا أن يكون بمكة، فان عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام، لحرمة بيت الله الحرام، فلا يخرجون منه إلى غيره، وهذا معنى قوله « واجب على أولى الإقامة » إلخ. وقوله « وهو يزور القوم » إلخ. على ما في بعض النسخ.

ثانيها : ابتداؤه بالسلام تأنيساً له لقوله عليه الصلاة والسلام : « لكل داخل دهشة فابدءوه بالسلام، ولكل طاعم وحشة، فابدءوه باليمن ».

وإليه أشار بقوله « ويبدوا الوارد » اه.

ثالثها : مبادرته بالطعام، ويسمى هذا الطعام « القرى »، والمراد ما تيسر ووجد من غير تكلف، وهذه من المسائل التي تطلب المبادرة بها، وقد نظمها بعضهم فقال :

بَادِرْ بِتَوْبَةٍ قِرىً والدَّفْنِ ... نِكَاحٍ بِكْرٍ، وَصَلاةٍ، دَيْنِ

رابعها : إظهار كرامته بما يقدر عليه من الطعام من غير تكلف مفرط ولا تفريط، فالمولى لا يتكلف ولا يكلف، فإن كان موسعاً عليه بالغ في إكرامه من غير سرف.

قال السلمي : ولما ورد أبو حفص على الجنيد تكلف في خدمته فأنكر عليه، فقال : لو دخلت خراسان علمتك كيف المروة، فقيل له في ذلك ؟ فقال : صيرت أصحابي مخانيث، تقدم إليهم ألوان الطعام والطيبات كل يوم، وإنما المروة عندنا ترك التكلف، ثم قال له : إذا حضرك الفقراء فاخدمهم بلا تكلف، حتى إذا جمعت جاعوا معك، وإذا شبعت شبعوا معك، وحتى يكون مقامهم وخروجهم من عندك واحداً.

خامساً تكلمه تكليما خفيفا، كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث بدأ بالسلام، ثم أتى بالطعام، ثم تكلم معهم، قال تعالى — هل أتاك حديث ضيف إبراهيم(١) — الآية، ثم قال — فما خطبكم أيها المرسلون(٢) — فهذا هو الكلام، وإليه أشار بقوله « وكلموه » إلخ. والتأسي هو الاقتداء.

سادسها : ترك سؤاله عن أحوال الدنيا وأحاديثها، فإن ذلك مما لا يعنى، ويقسى القلب، ولهذا أشار بقوله « وكرهوا » إلخ.

وأصل ما ذكره الناظم قول السلمي رضي الله عنه : وعلى المقيمين أن يسلموا عليه، أي على الوارد، لحق القادم أن يزار، إلا أن يكون بمكة، فان عليه زيارة المجاورين لحرمة بيت الله الحرام، ثم يقدم إليه ما حضر من الطعام من غير تكلف، فقد قيل : الأدب مع الضيف أن يبدأ بالسلام، ثم بالإكرام، كصنع الخليل عليه الصلاة والسلام — إذ دخلوا عليه

---

(١) سورة الذاريات، الآية : ٢٤.

فقالوا سلاما قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ[1] — وقد قال عز وجل — قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه[2] — ولا يسئل عن أحاديث الدنيا مما لا يعنى ، بل عن أخبار المشايخ والأصحاب والإخوان المتعاونين على أعمال الخير .

ثم أشار إلى ملازمة الأوراد فى حال السفر ، فقال :

وكرهوا تضييعه أوراده كيف ، وقد جاء إلى الزياده

قلت : أوراد الإنسان ما كان وظفه عليه شيخه ، أو وظفه على نفسه ، والمراد هنا ما كان يعمله فى حضره ، فاذا سافر بقى على ما كان عليه ، لقوله عليه الصلاة والسلام « أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل[3] » .

وذلك بقدر الاستطاعة ، وإلا فالسفر محل التعب والنصب ، فقد يشق عليه ما يعمله فى حضره مع أن أجره جار عليه ، ولو لم يفعل ، ففى الحديث « اذا مرض الإنسان أو سافر أجرى عليه ما كان يعمل مقيما صحيحا[4] » ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام « نعم الفكرة والعبرة إن كان من أهلها لا يتركها » ، وكذلك المذاكرة ، وكيف يترك أوراده بالكلية ، وهو إنما سافر لطلب الزيادة الباطنية .

كان بعض المشايخ يقول : عليك بالذكر عند البسط ، وبالفكر عند القبض ، وبالحضور فى كل حال ، وردك لا تتركه ، فإن فاتك بالليل استدركه بالنهار ، وإن سافرت فاجعل وردك كله فى الذكر ، أو اتركه على حاله ، الى آخر كلامه ، ثم قال :

ومن يسافر فى هوى النفوس فإنما يؤمر بالجلوس

قلت : ما قاله ظاهر ، وقد تقدم هذا المعنى مراراً ، وتقدم ضابط أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه قريباً ، والغالب على من لم يظفر بشيخ التربية هذا الوصف الا النادر ، اذ لا يخرج من حظوظ النفس إلا بصحبة من خرج منها ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة هود عليه الصلاة والسلام ، الآية : ٦٩ .
(٢) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .
(٣) متفق عليه من البخارى ومسلم .
(٤) رواه الإمام أحمد ، والبخارى عن أبى موسى ، ولفظه من « الفتح الكبير » : « إذا مرض العبد كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيما » .

تتمة : بقى آداب تتعلق بالسفر ذكرها السلمى .

منها : أنه إذا دخل بلداً فيها زوايا قصد أعظمها وأكثرها فقراء .

قلت : هذا إن كانوا كلهم من طريقه ، وإلا نزل على من هو متمش معه فى النسبة .

ومنها : أنه ينبغى أن ينزل على الموضع الذى فيه المياه الجارية ، والمطاهر النقية .

قال : وسمعت أبا طاهر الاشقر يقول : كان يصحبنى فقير مليح ، كلما نزلنا منزلا تفقد موضع الطهارة ، فإن وجده نظيفاً طيباً استطاب المكان وتناول ما قدم إليه من الطعام ، وإن لم يكن ذلك لم يتناول الطعام ، وقال : هذه بلية ليس فيها كنيف .

ومنها : أنه إذا دخل بلداً ليس فيها فقراء نزل على أكثرهم محبة لهذه الطائفة ، وأحسنهم إيمانا بهم وميلا إليهم ، فإذا دخل دويرة تنحى ناحية ونزع خفيه ، يبدأ باليسرى فى النزع وباليمنى فى اللبس ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نعل أحدكم فليبدأ باليمنى وإذا نزع خفيه ، يبدأ باليسرى[1] » ، ثم يقصد موضع الطهارة فيتوضأ ويصلى ركعتين ، فإن كان هناك شيخ قصد زيارته وقبل رأسه ، إلا أن يكون الزائر حدثاً فيقبل يديه اه .

ومنها : أنه ينبغى لمن أراد السفر أن يتعلم أحكامه كأحكام قصر الصلاة ، والتيمم ، والقبلة[2] ، وغير ذلك مما يتوقف عليه فى السفر .

قال الشيخ أبو يعقوب السنوسى رحمه الله : يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء فى سفره ، وإلا فلا يسافر : علم يسومه ، وورع يحجزه ، وخلق يصونه ، ويقين يحمله .

سئل أبو رويم عن أدب المسافر ؟ فقال : ألا تسبق همته خطوته ، وحيث ما وقف كان منزله .

ومنها أنهم إذا كانوا جماعة وليس فيهم مقدم ، ولا شيخ أن يتفقوا على مقدم يرجعون

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، ولفظه : « إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى ، وإذا خلع فليبدأ باليسرى ، لتكون اليمنى أولهما تنعل وآخرهما تنزع » .
(٢) بكسر القاف ، مكان الاتجاه الكعبة الشريفة وهو مسافر .

إليه فى أمورهم ، ففى بعض الآثار : « لا خير فى قوم ليس فيهم من يعظم فى الله » ، ومعناه ثابت فى الحديث عند المنذرى ، غير أنى لم أستحضره .

وقال السلمى فى « آداب الصحبة » : ومن آدابهم إذا اجتمعوا أن يقدموا أحدهم ليكون مراجعتهم إليه واعتمادهم عليه ، ويكون أرجحهم عقلا ، ثم أكبرهم همة ، ثم أعلاهم حالا ثم أعلمهم بالمذهب ، ثم أسنهم .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن استووا فأفقههم فى الدين ، فإن استووا فأقدمهم هجرة(١) ، ثم أحسنهم خلقا ، ثم أتمهم أدبا ، ثم أسبقهم بلقاء المشايخ » انتهى المراد منه .

وقال أيضا : ومن آدابهم ألا تجرى بينهم فى حديثهم : هذا لى وهذا لك ، ولو كان كذا لم يكن كذا ، ولعل ، وعسى ، ولم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟ وما يجرى مجراها فإنها من أخلاق العوام(٢) .

ثم قال : ولا يجرى بينهم الإعارة والاستعارة(٣) .

قال بعضهم : الصوفى لا يعير ولا يستعير ، ولا تجرى بينهم المخاصمة ولا المجادلة ، ولا الاستهزاء ولا الازدراء ، ولا المراجعة ، ولا المغالبة ، ولا الغيبة ، والنقيصة لا تكون بينهم ، بل يكون كل واحد منهم للكبير كالابن ، وللصغير كالأب ، وللنظير كالأخ ، وللوالدين والأستاذين كالمملوك .

---

(١) ونص الحديث : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء ، فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنا ، ولا يؤمن الرجل الرجل فى أهله وسلطانه ، ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه » . رواه أحمد ، ومسلم ، والأربعة عن ابن مسعود .

(٢) المقصود : منع الجدال على أى شكل كان .

(٣) لئلا تدب بينهم الشحناء والتنافر .

وهذا ليس خاصا بالسفر ، وإنما هو من آدابهم فى الصحبة على الدوام ، وفى السفر أكثر لأن السفر يسفر عن المعايب ، ولا يبقى على حاله فى حال السفر إلا الصديق .

ومنها : أنه إذا أقبل وقرب إلى بلده ، قال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، لا يزال يقولها حتى يدخل البلد ، فإذا دخلها قال : اللهم اجعل لنا بها قراراً ، وارزقنا خيرها ، فإذا دخل على أهله(١) . قال : أوبا أوبا ، لربنا توبا ، لا يغادر علينا حوبا .

ومنها : أنه ينبغى أن يستصحب هدية لأهله وأقاربه وجيرانه ، على قدر وسعه .

ومنها : أنه ينبغى أن يدخل أول النهار ، ولا يدخل ليلا فإن تعذر أرسل رسولا يعلم به وقد نهى عليه الصلاة والسلام « أن يطرق أهله ليلا(٢) والله تعالى أعلم وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى الحكم الثامن من الأحكام التسعة ، وهو السؤال ، فقال :

الثامن فى السؤال : أى الطلب .

قلت : ذكر فى هذه الترجمة : حكمه ، وآدابه ، ومواطنه ، فبدأ بحكمه ، فقال :

حكم السؤال عدمه مشروع طوراً ، وطوراً عندهم ممنوع

قلت : اعلم أن السؤال أصله فى الشريعة الجواز ، قال تعالى ـ وأما السائل فلا تنهر(٣) ـ وقال عليه الصلاة والسلام : « أعط السائل ولو على فرسه(٤) » .

ثم تعتريه الأحكام الخمسة يكون : واجبا ، ومندوبا ، ومباحا ، ومكروها ، وحراما .

---

(١) والسنة إذا دخل البلد بدأ بالمسجد قبل أهله .

(٢) ففى الحديث : « نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلا » متفق عليه من حديث جابر .

(٣) سورة الضحى ، الآية : ١٠ .

(٤) ولفظه عند ابن عدى « اعطوا السائل وإن جاء على فرس » .

فأما الواجب فهو سؤال الاضطرار خوفا على البشرية أو الروحانية . وذلك إذ غلب نفسه للرياسة والكبر .

وقد نص ابن العربي على وجوبه على المريد في بدايته ، حسبما ذكره القسطلاني في شرح البخاري في باب الزكاة .

وأما المندوب فهو إذا سأل لغيره عند حاجته ، أو لتهذيب نفسه عند الأمن عليها .

وأما المباح فهو ما إذا سأل اختباراً لنفسه ، هل تقدر عليه أم لا ، وإذا طال عهده به اختبرها ، هل رجعت لأصلها أو هي باقية على موتها ، وأما المكروه فهو سؤاله لنفسه عند الحاجة قبل الضرورة ، وقيل : مباح ، على ما سيأتي .

وأما الحرام ، فهو السؤال تكثراً أو إلحاحا ، وسيأتي الكلام على هذه الأقسام في شرح كلام الناظم إن شاء الله .

ثم أشار إلى القسم الواجب أو المندوب ، فقال :

وما على السائل من تأويل	لأجل قهر النفس والتذليل
فمن أولى الأذواق والأحوال	من كان راض النفس بالسؤال
قالوا : ولا خير إذن في العبد	ما لم يكن قد ذاق طعم الرد

قلت : السؤال لأجل قهر النفس يصدق بالواجب والمندوب ، فالواجب ما إذا كانت نفسه غالبة عليه ، وفيها خفة وكبر ورياسة ، ولا يمكن دواؤها إلا به لقوله عليه الصلاة والسلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال خردلة من كبر »(١) والمندوب ما إذا كانت مأمونة من ذلك ، لكن ثقل عليها وجمحت منه وهو في محل الرياضة ، فهذا مستحب في حقه إذ لا يثقل عليها إلا ما يقتلها ، ولا شيء أسرع في قتلها منه ، فتقرب عليه المسافة ، وهذا ما لم يأمره به شيخه ، وإلا تعين عليه ، وصار من قبيل الواجب (وقيده) الشيخ زروق بما إذا لم يوصله

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » قيل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ؟ قال : « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر : بطر الحق وغمط الناس » رواه مسلم عن ابن مسعود .

إلى ضرر في دينه ودنياه(١) .

قلت : مثل الضرر في الدين ما إذا كان يكشف في الديار على محارم الناس ، لأن عدة النساء لا يستترن من الفقراء في السؤال . ومثل ضرر الدنيا إذا خاف أن يقبض ويؤخذ ماله .

ثم قال الشيخ زروق : ولا يجعله الشيخ منهاجا وقاعدة كلية يعرف بها فقراءه ، فإن ذلك يؤدي للقبض المقصود ، لاسيما مع هيئة مقصودة وكيفية معلومة تصير صاحبها علماً فيما توجه له ويزيده تعززاً وفساداً ، ولذلك قل ما ينجح من استعمله إلا أن يكون ذلك كما كان يفعله بعض الفقراء من أهل مصر : أنه كان إذا أتاه أحد من أبناء الدنيا ألزمه بذلك من غير شهوة حتى يأتي على آخر المدينة ثم يتصدق به ، فقد يكون له وجه انتهى .

قلت : وما ذكره الشيخ زروق محمول على ما يفعله بعض الفقراء ، يأخذون علماً أو راية ويقصدون المدائن والخيم ، وهذا حرام ، وأما ما يفعله أصحابنا فإنما هو لقتل النفوس ، وقوت الأرواح إذ لا يتقدم له الفقير حين يؤمر به ، إلا بعد جهد جهيد وجهاد شديد ، بحيث يسمى النفس الموت الحسي اختباراً ، وترضى أن تموت مراراً ولا تتقدم له ، إلا أن الصدق وهمة الشيخ تحمله على الامتثال ، فلا شك أنه يقرب مسافة بعيدة ، ويقتل النفس ، ويجهز عليها في مرة واحدة ، وأصل دخوله في هذه الطائفة على هذا الوجه أن شيخ شيخنا (سيدي علي العمراني) كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس ، فلما دخل في يد الشيخ ، ورأى صدقه وحده ، قال له : أرى لك خمرة(٢) لم يقدر عليها أحد قبلك ، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها ، قال : وما هي يا سيدي ؟ قال : السؤال ، فتقدم إليه

(١) هذا الكلام كله يرده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يتكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا فأتكفل له بالجنة » فكان ثوبان راوي الحديث تسقط عصاه وسوطه ولا يأمر أحداً يناوله إياه ، وينزل هو فيأخذه ، رواه أبو داود والنسائي وغيرهما . وبهذا الحديث الشريف الصحيح نعرف كيف يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عزة الإسلام ، فإن للإسلام عزة في قلب المسلم تنفره عن السؤال ولو أين الطريق .

٢) المخامرة : المخالطة ، والأخذ بالقهر والغلبة ، ومنه استخمر القوم : أي ملكهم قهراً والله تعالى أعلم .

ورأيت فى كتابه أنه قال له : يا ولدى، إنك تطلب هذا العلم(١) ، ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل، فدخل فيه ، وسكن إلى مماته رضى الله عنه .

قوله : « فمن أولى الأذواق » الخ . يعنى أن بعض أهل الأذواق والأحوال « كان راض نفسه » أى ريضها وهذبها بالسؤال .

قال السلمى رضى الله عنه : وقد رخص بعضهم فى السؤال لمن يقصد بذلك تذليل النفس .

وقال عبد الله بن منازل : لا خير فيمن لم يذق طعم إجابة الرد .

وكان بعض المشايخ يأكل من السؤال، فسئل عن ذلك ؟ فقال اخترته لكراهته نفسى .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : ولا يزال الفقير بخير ما دام خبزه كسراً ، فإذا دارت الخبزة بين يديه دار الشر على رأسه .

وما أحسن حال السائل يقف بكل باب يسمع « يفتح الله » انتهى .

وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين ، لا يزيد على ذلك ، وكان أبو جعفر الحداد ، وهو شيخ الجنيد : يسئل بابا أو بابين أو ثلاثا بين العشائين، فكانت العامة تتعجب منه أولا، ثم عرف بذلك ، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه .

وكان إبراهيم بن أدهم معتكفاً بجامع البصرة، ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره .

وممن راض نفسه بالسؤال شيخ شيوخنا (سيدى عبد الرحمن المجذوب) وكذلك الشيخ العارف أبو الحسن الششترى، وفعله أيضاً فى أول بدايته أبو الحسن البردعى بأمر شيخه أبى عبد الله التاودى ، وغيرهم ممن لا يعرف .

---

(١) التذلل المطلوب للعلم فقط ليرفع عنه عار الجهل ، قال الشاعر :

من لم يذق ذل التعلم ساعة ... تجرع كأس الجهل طول حياته

لا الوقوف على قوارع الطريق وسؤال الناس أعطوه أو منعوه .

وقوله : « ولا خير إذن فى العبد » الخ . يعنى أن الفقير إذا لم يذق طعم الرد حتى يكون رد عنده أحلى من العطاء ، فلا خير فيه ، لأن نفسه لم تمت حيث استحسنت العطاء ، وثقل عليها المنع، فالواجب عليه الدوام عليه حتى يذوق سره، وذوق سره أن يكون المنع أحب إليها من العطاء والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى القسم الممنوع فقال :

ومنعوا السؤال للتكاثر ... بل حكموا عليه بالتهاجر
والقوم لما يسألوا إلحافا ... ولا تكاثراً ولا جزافا
بل ذاك كان منهم اضطرارا ... فيسألون القوت والإفطارا

قلت هذا من القسم الممنوع ، وهو أن يسئل لقوت البشرية من غير اضطرار ، واختلف العلماء فى القدر الذى تحرم معه المسألة ، فقيل : أربعون درهماً ، وقيل: قوت يوم وليلة ، وهو أقرب ، والسؤال للتكاثر وهو لاكتساب المال والتكثر منه . ولو صحبته نية قبل نفسه فلا ينفع ، لأن الخبيث يغلب الطبيب ، لكثرته .

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » والمزعة القطعة .

وقال أيضاً ﷺ « إنما المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك، إلا أن يسأل ذا سلطان فى أمر لا يجد منه بداً(١) » اه . والكدوح الخموش .

وقال ﷺ : « لا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه ، فما يكون له عند الله وجه(٢) » اه .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن سمرة بدون لفظ « إنما » فى أول الحديث .

(٢) وفى هذا المعنى وردت عدة أحاديث ، منها قوله ﷺ : « من سأل الناس أموالهم تكثراً ، فإنما يسأل جمر جهنم ، فليستقل منه أو ليستكثر » رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

ومنها قوله « من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خموش =

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سأل مسألة عن ظهر غنى استكثر بها من رضف جهنم » قالوا : وما ظهر غنى قال عشاء ليلة » .

قلت : وهذا يرجح القول الثانى فى القدر الذى يحرم معه السؤال ، وهذا كله من على القصد والنية ، فمن كان مراده قوت الروحانية فلا كلام معه ، ومن كان مراده قوت البشرية خسر وخاب — قل كل يعمل على شاكلته — ومن عادة القوم إذا عرفوا أحداً يسئل لشهوة نفسه هجروه ولاموه حتى يتوب ، ومن عادتهم أنهم لا يسألون إلحافا ، أى يحرمون والحاح حتى يؤذى المسؤل .

قلت : وقد كان يفعله بعض الإخوان عفا الله عنهم ، فإن كان لجذب غلب عليهم فيسلم وإلا فغير صواب ، والله تعالى أعلم .

وقيل : الإلحاف السؤال دون احتياج ، قال عليه الصلاة والسلام : « من سأل وله أربعون درهماً فقد ألحف[1] » ويجمع بين مفهوم هذا والحديث المتقدم عن على كرم الله وجهه بأن المتقدم فى حق من عرف بالزهد والتوكل ، واشتهر بسيما الفقر ، وهذا فى حق العوام الذين لم يعرفوا بذلك كما قال عليه الصلاة والسلام فى فقير وجد عنده دينار ، فقال « كية من نار » وقد وجد عند غيره أكثر من ذلك فلم يقل فيه ذلك ، والله تعالى أعلم .

= (أو خدوش ، أو كدوح) قيل : وما الغنى ؟ قال : « خمسون درهما أو قيمتها من الذهب » رواه أحمد ، والأربعة والحاكم عن ابن مسعود .

ومنها : « من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه ، فإنما يستكثر من جمر جهنم » قالوا : وما يغنيه ؟ قال : قدر ما يغديه أو يعشيه » رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن حبان ، والحاكم عن سهل بن الحنظلية . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً . ونسأل الله تعالى أن يقينا وكل مسلم شر السؤال لغير الله إذ أن السؤال لغير الله ذل وهو عكس المطلوب فى علم التصوف ، والحق أحق أن يتبع .

(١) رواه أبو داود وابن حبان عن أبى سعيد .

والسؤال جزافاً بكسر الجيم وفتح الراى[1] هو من يتخذ حرفة يصطاد به أموال الناس ، وذكر فى القاموس أن الجراف بفتح الجيم وشد الراى ، هو : الصياد والمجرفة بكسر الميم شبكة يصطاد بها .

وعن بدار بن الحسن رضى الله عنه « من سأل وله ما يغنيه خفت أن يحاصه فقراء المسلمين يوم القيامة » ويقولون أخذت ما جعل لنا من المال ولم تكن منا اهـ .

وإنما كان سؤال القوم عند الحاجة والاضطرار دون السعة والاختيار ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الآداب التى تكون عند السؤال فقال :

(وأدب الصوفى عند المسأله ... أن يدخل السرق إليه يسأله)
(لسانه يشير نحو الخلق ... وقلبه معلق بالحق)

قلت : السؤال الذى يكون لقوت الروحانية له آداب ، إذا فعلها استحق بذلك فتح الباب ورفع الحجاب ، وإن لم يفعلها لم يفتح له فيه الباب ، وربما كان زيادة فى الحجاب :

الأول : أن يكون قصده قوت الروحانية فقط ، أو قوت الفقراء ، أو من تعلق به مع الاضطرار ، وأما إن كان قصده قوت بشريته ، أو شهوة من شهواته فتضرره أكبر من نفعه

الثانى : أن يكون بإذن من الشيخ ، فإن لم يكن إذن فقد خسر فيه ، وكل من تبطش نفسه له فلا نفع له فيه ، إذ لا تموت النفس إلا بما يثقل عليها .

الثالث : أن يكون متحلياً بحلية العبد الفقير ، يطلب المدد من العلى الكبير ، فيكون حال الرجل عارى الرأس فقيراً ذليلا ينادى سيده متاع الله : لله ، ويحضر قلبه المعرفة حين يقول : لله .

الرابع : أن يكشف عن يده إلى الذراع ، ويمدها إلى نحو المسؤل ، وينظر إلى جهته لأن ذلك أشد على النفس وأسرع فى موتها ، إذ الحياء جله فى العين ، والمراد إنما هو موت النفوس وحياة الأرواح .

---

(١) أخذ الشىء بحازقة وجزافاً ، وهو فارسى معرّب .

الخامس : أن يكون عارفاً أو مستشرفاً فتكون يده ولسانه يشيران إلى الخلق حكمة ، وقلبه معلق بالملك الحق .

قال فى الحكم : لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق ، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك فإن كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم .

وقيل : من علامة الفقير الصادق أن يأخذ الصدقة ممن يعطيه ، لا ممن جرت الصدقة على يديه ، وعلامته أن لا يذم مانعاً ، ولا يمدح معطياً ، ومن لم يكن عنده هذا العلم تعلمه قبل الخروج إلى السؤال ، فإن كثر عليه العطاء فينبغى أن يقصر فى السؤال ، لأن النفس مجبولة على حب العطاء ، وأما إن ظهر عليه المنع فينبغى أن يزيد فيه ، لأن ذلك حينئذ تمحض لحياة الروح ، فإن قبض شيئاً ولم يجد أحداً من الإخوان فليتصدق بذلك ليلا ، بحيث لا يشعر به أحد ، أو يرميها فى موضع خال ، والأحسن أن ينزل ذلك فى موضع ينتفع به الناس ولا يشعر به .

السادس : ألا يسأل من النساء ولا من الصبيان ، وهو من لم يحتلم ، ولا من أهل الذمة ولا ممن لا يتحاشى من الحرام ، وهذا إن كان معه شىء من السلوك ، فإن كان مجذوباً عصماً ، فلا كلام عليه ، وهذا معنى قوله فى الحكم « خذ ما وافقك العلم » وقد حرر المسألة الشيخ ابن عباد علماً وتصوفاً ، وذكرنا من ذلك فى الشرح نبذة صالحة ، فلينظر ذلك من أراده ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر القسم المكروه والمباح والمندوب ، فقال :

وكرهوا سؤاله لنفسه ... ثم أباحوه لأهل جنسه
ولم يعدوه من السؤال ... لكن من الدون على الأعمال
إذ كان خير الخلق فى أترابه ... يسأل أحياناً إلى أصحابه

قلت : اتفقت الصوفية على كراهية سؤال الفقير لقوت بشريته عند الحاجة ، ما لم يبلغ حالة الاضطرار ، وحالة الاضطرار أن يضعف عن العمل أو تضعف فكرته ، أو إن كان مسافراً ضعفت قوته على المسير ، فهذا يباح له أو يندب ، فإن خاف على نفسه وجب ، فإن لم يبلغ الفقير إلى الحال الذى وصفنا فالأفضل فى حقه الصبر والاكتفاء بعلم الله حتى يأتيه الله

رزقه — إن الله يرزق من يشاء بغير حساب — ويعطى بلا أسباب ، فقد قيل : « ما نزلت به نازلة فأنزلها بالله ، فدامت عليه أكثر من ثلاثة أيام قط » .

وفى حكاية بشر الحافى رضى الله عنه ، قال : رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى يوم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء : طلبا للثواب ، فقال رضى الله عنه : وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله .

ولله در القائل :

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قد سألونى : فنالت[1]
سأصبر جهدى فى صيانة غرتى[2] ... وأرضى بدنياى ، وإن هى قلت

وقال بعض الحكماء : عز الزاهد أشرف من سرور المائدة .

وفى الحكم : ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستحى أن يرفعها لخليقته .

وقوله : « ثم أباحوه لأهل جنسه » يعنى أنهم أباحوا السؤال لإخوانه المحتاجين ، وهم أهل جنسه ، لأن الفقراء جنس ، والعوام جنس ، وهذا مندوب ، ولم يعدوا هذا من السؤال وإنما هو من التعاون على البر والتقوى ، وقد فعله عليه الصلاة والسلام لأصحابه حين قدموا عليه عراة فخطب على الناس ، وقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة إلى آخر الآية ، ثم قال تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، ثم من صاع تمره ، اتقوا النار ولو بشق تمرة[3] » .

وكقوله للنساء « يا معشر النساء تصدقن ، ولو من حليكن[4] » .

---

(١) هذا هو التصوف الصحيح : أن يكون غناك بالله ، ولا تمدن يداً إلى غيره .

(٢) الغرة بضم العين : بياض فى جبهة الفرس ، وغرة كل شىء أوله وأكرمه ، والمقصود به هنا : الوجه .

(٣) رواه مسلم ، والإمام أحمد ، والنسائى ، وابن ماجه عن جرير .

(٤) ولفظه — كما فى الفتح الكبير — « يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن » =

والكل منه عليه الصلاة والسلام للتشريع، وتحصيل الخير للسائل والمعطى، وليس على معنى المسألة (قاله الشيخ زروق رضى الله عنه) وإليه أشار بقوله : « إذا كان خير الخلق فى آدابه » والآداب بالنسبة المشاة من فوق الأقران، فان أراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلعله اطلع على نقل ، وأن الأنبياء كانوا يسألون لأصحابهم ، وإن أراد به غـــير ذلك ، فلا تحمله اللغة، إذ الآداب لا يطلق إلا على الأقران، والأقران هم المشاركون فى الوصف ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ضابط صحة السؤال ، فقال :

ولا تصف بصحة السؤال من يؤثر الأخذ على الإبذال

قلت : لا يسلم حال السؤال للفقير ويوصف بصحة قصده فيه ، حتى يكون البذل والإخراج من يده أحسن عنده من القبض من الناس .

قال الجنيد رضى الله عنه : لا يصح السؤال إلا لمن العطاء أحب إليه من الأخذ اه .

وكذلك السيف الصارم : كان العدم أحب إليهم من التحصيل ، والمنع أحب إليهم من العطاء ، إذا أقبلت الدنيا . قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر، قالوا: مرحبا بشعار الصالحين ، إلى غير ذلك من حكاياتهم رضى الله عنهم .

ثم ختم الباب بمسألة التجريد ، فقال :

والشغل دون الكسب بالعباده محض التوكل ، ورأى السادة
ثم السؤال آخر المكاسب وهو بشرط الاضطرار واجب

قلت : الاشتغال بالعبادة والتجريد عن الأسباب من أعظم القرب عند ذوى الألباب ، إذ لا يصفو الباطن من الأغيار ويمتلئ بالمعارف والأسرار ، إلا إذا تخلص الظاهر من كثرة

= فليكن أكثر أهل جهنم يوم القيامة » رواه أحمد والترمذى والنسائى ، وابن حبان والحاكم ، وهو من باب الحض على التعاون ، لا السؤال ، وجل قدر النبى صلى الله عليه وسـ

لا كدر به ، ولا يتخلص من الأكدار إلا إذا تجرد من الأسباب، واتكل على الملك الوهاب(١) قال تعالى — ومن يتوكل على الله فهو حسبه(٢) — وقال تعالى — ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب(٣) — وقال صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا(٤) » ، فصفاء الباطن من صفاء الظاهر ، وتعب الباطن من تعب الظاهر ، فالاشتغال بالعبادة دون الاكتساب هو محض التوكل على مسبب الأسباب عند السادات أولى الألباب .

وقد تكلم الناس على درجات التوكل ، وأحسن ما فى ذلك ما قاله أبو حامد الغزالى رضى الله عنه ، قال فى « الإحياء » التوكل مشتق من الوكالة ، يقال وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه ، ويسمى الموكل إليه وكيلا ، ثم قال : فالتوكل عبارة عن اعتماد

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنا ألا تسهل حاجته ، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل » رواه الإمام أحمد .

وروى ابن أبى حاتم عنه صلى الله عليه وسلم ، قال :

« من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها » . والاشتغال بالعبادة دون الكسب ليس من التوكل، بدليل قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حق رجل انقطع للعبادة : « من أين يأكل ؟ قالوا : يطعمه أخوه » ، قال : « أخوه أعبد منه » اه . بمعناه ، وقال عليه الصلاة والسلام : من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . وهم القدوة ، ولقى الأوزاعى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحق ، إلى متى هذا ، إخوانك يكفونك ، فقال : دعنى من هذا يا أبا عمرو ، فإنه يلذ لى أنه من وقف موقف مذلة فى طلب الحلال رجبت له الجنة » ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(٢،٣) سورة الطلاق ، الآية : ٣ و ٤ .

القلب على الوكيل وحده، ثم قال : «إن ثبت فى نفسك بكشف أو اعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء متهى علمه علم، ولا وراء متهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن الحول عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببها أحد أمرين : إما ضعف اليقين، وإما ضعف القلب ومرضه ، باستيلاء الجبن عليه ، ثم قال : فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، ثم قال : وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التى سميت توكلا ، فاعلم أن تلك الحالة لها ثلاث درجات :

الأولى : ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله بالثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها تعلق بكل حال بذيلها ، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه ، لأنه قد وثق بكفالتها وشفقتها ثقة منه أنها ليست بتاركته ، ثم قال : والفرق بين هـذا وبين الأول ، أن هذا قد فنى فى توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت فيه إلى الوكيل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا محال فى قلبه لغير المتوكل عليه ، وأما الأول فتوكل بالتكلف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، ثم قال :

الدرجة الثالثة : وهى أعلاها أن يكون بين يدى الله تعالى مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه ، القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى الحركة والقدرة، والإرادة وسائر الصفات ، فيكون عند الانتظار ما يجرى عليه كالمهوت، ويعارف الصبى بأن الصبى يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها صياحا ، وهذا المقام فى التوكل يصح منه ترك الدعاء والسؤال ثقة منه بكرمه وعنايته فإنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال، إنما يقتضى

فإن قلت : هل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال، فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالميهوت والمقام الثانى يبقى كل تدبير من الآن حيث المرجع إلى الله، لكن بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل والتعلق بأمه فقط ، والمقام الأول لا ينفى أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفى بعض التدبيرات ، كالمتوكل على وكيله فى الخصومة ، فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به ، أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته ، دون صريح إشارته . انتهى المقصود منه مختصراً .

والمختار فى مسألة التجريد : ما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله : (إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية) وقال فى موضع آخر (من علامة إقامة الله إياك فى شىء يسره لك مع حصول النتائج) اه

وهذا كله مع عدم الشيخ ، وأما من ظفر بالشيخ فهو الذى يقوم به تجريداً وأسبابا .

وقوله: « ثم السؤال » الخ أشار به إلى الحديث « . . . والمسألة آخر كسب الرجل » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم فى ذم كثرة السؤال « إن الله ينهاكم عن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات ، وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » انتهى(١) .

وهنا آخر الفصل الثامن ، وهذه الفصول الثمانية كلها مقدمة لما يذكره فى هذا الفصل التاسع الذى أشار إليه بقوله :

---

(١) متفق عليه من البخارى ومسلم ، ولفظه : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات » الى آخره وفى ختام هذا الفصل نقول : قال عليه الصلاة والسلام : « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : لذى دم موجع ، أو لذى غرم مفظع ، أو فقر مدقع » رواه أحمد والأربعة . وروى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المسألة لا تحل لغنى ، ولا لذى مرة سوى ، إلا لذى فقر مدقع ، أو غرم مفظع ، ومن سأل ليثرى به ماله كان خموشاً فى وجهه يوم القيامة ورضفاً يأكله من جهنم ، فمن شاء فليقل ومن شاء فليكثر » وقال عليه الصلاة والسلام : « عز المؤمن استغناؤه عن الناس =

التاسع في « حكم المريد ، ومعنى الإرادة وفائدة الشيخ ، وتدريج المريد إلى أن يصير شيخاً » .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : وهـــذا الفصل هو لباب الكتاب ، وسر الطريق وعدادها ، وكل ما قبله أو بعده دائر عليه ، وذكر فيه أربعة مواقف ، لكل موقف معاقل ومعاهد يطول شرحها .

قلت : أما حكم المريد ، فمراد ما يلزمه في بدايته من العلم الضروري ، ثم المحافظة في الأعمال الظاهرة ، والاستقامة الكاملة ، وما يلزمه في وسطه من الرياضات الباطنية ، ومقاساة الأحوال السنية ، ثم ما يلزمه في نهايته من الاستغراق في الشهود ، والفناء في ذات المعبود ، ثم الرجوع إلى البقاء بنظره إلى الحكمة والقدرة ، وسيأتي تفسير المريد . ولهذا سمي المريد مريداً .

وأما معنى الإرادة فهو : طلب السلوك إلى ملك الملوك ، أو تقول : هي صدق الوجهة إلى الله بإفراد القصد إلى حضرة مولاه ، فالمريد سالك ، والمراد مجذوب ، المريد محب ، والمراد محبوب(١) :

وأما فائدة الشيخ ، فهو جمع القلب لحضرة الرب ، أو رفع حجاب الوهم بتحصيل حقيقة العلم ، أو تدريج المريد في مقامات الإنزال وتبعيده عن القواطع والأشغال .

وأما تدريج المريد فهو : نقله من شهود الحكمة إلى شهود القدرة ، ومن شهود القدرة إلى شهود الحضرة ، وهي شهود الذات ، أو تقول : تدريجه هو نقله من شهود الأسماء إلى شهود الصفات ، ومن شهود الصفات إلى شهود الذات ، ثم من شهود الذات يرد إلى أثر الصفات ، هذه طريقة السلوك .

= رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية من قول جبريل عليه الصلاة والسلام ورواه القضاعي عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا التفات بعد ذلك إلى كلام أحد من الناس مهما كان أمره وخطره ورفيع كلامه .

(١) هناك مريد لله ، ومراد من الله ، وطالب لله ومطلوب من الله . والطالب محب لله ، والمطلوب محبوب من الله ، والله أعلم .

وأما طريق الجذب فهو : شهود الذات أولا ، ثم شهود الصفات ، ثم شهود الحكمة عين القدرة ، والله تعالى أعلم .

ثم اعلم أن الناس على ثلاثة أقسام : طالبون ، ومريدون ، ومرادون ، فالطالبون هم الذين يطلبون الشيخ ويتعطشون إليه ، أو هم الذين يطلبون الطريق إلى علم التحقيق ، ولا يعرف الطريق الا من سلكها ، فإن علم الله صدقهم وصلهم إليه ، والمريدون هم الذين اتصلوا بالشيخ واشتغلوا بالسير ، وهو السلوك ، والمرادون هم : الذين انجذبوا الى الحضرة بعد السلوك وهم الكمل ، أو قبله .

فأشار الناظم الى القسم الأول ، وهو الطالب فقال :

فإن أتى القوم أخو فتون ... وقال : ياقوم أتقبلون ؟
تقبلوه صادقا أو كاذبا ... إذ كان محتوما عليهم واجباً

قلت : الفتون : جمع فتنة ، وهي ما يقطع عن الله : ويشغل القلب عن الحضور مع مولاه وأخوها هو : الملتبس بها ، والمنهمك فيها سواء كانت هذه الفتون ذنوبا أو عيوبا أو أشغالا أو أموالا أو أغياراً أو أكداراً ، فإذا أراد الله أن يخلصه من تلك الفتن ، سواء كانت ظاهرة أو باطنة ، ألقى في قلبه الاضطرار إلى الله ، وحسن الظن بعباد الله ، فإذا أطلعه على سر ولي من أوليائه وأتى إليه ، وقال له : جئتك لتقبلني وتأخذ بيدي ، وجب عليه قبوله والأخذ بيده ، لأن رده نوع من كتم العلم ، وقد قال الله تعالى — إن الذين يكتمون ما أنزلنا(١) — الآية .

وأيضاً رده إلى ما كان عليه فيه إعانة له على الدوام فيما هو فيه ، والإعانة على المعصية معصية ، هذا إن كان صادقا في إرادته ، وأما إن كان كاذبا فلما فيه من تقليل المفاسد ، وتعريضه لنفحة رحمة الله بالوقوف ببابه ومخالطة أوليائه ، وهم قوم لا يشقى جليسهم(٢) ولعل الله أن يفتح عليه بمثل ما فتح عليهم ، إذ كل من تحلى بحالة لا يخلو حاضروه منها ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٩ .

(٢) هذا لفظ حديث طويل رواه الترمذي والحديث في الصحيحين .

فمن جالس العطار طاب طيبه ولله رجال من نظر إليهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، ولله رجال إذ نظروا أغنو غنى لا فقر بعده أبداً ، رضى الله عنهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين .

ثم ذكر ما يؤمر به بعد الدخول ، فقال :

وحذروه من ركوب الإثم ... وأمروه باقتباس العلم
وأمروه بلزوم الطاعه ... والماء والقيلة والجماعه
وقرروا فيه شروط التوبه ... وأمروه بلزوم الصحبه
ثم أمـــدوه بعلم الظاهر ... حتى استقامت عنده السرائر

قلت : اذا أتى الفقير إلى الشيخ ليأخذ يده ، فأول ما يلقنه الورد ، فإن الملقن فيه بركة عظيمة ، وقل أن ينهض الإنسان قبل التلقين ، والتلقين سلسلة مروية عن السادات إلى سيدنا على كرم الله وجهه ، إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يأمره بالتوبة ورد المظالم ، وقضاء الدين بقدر الاستطاعة ، ويحذره من الرجوع إلى ما كان عليه .

ثم يعلمه ما يلزمه فى دينه من طهارة وصلاة وما يتعلق بذلك إن كان جاهلا ، وما تيسر من علم التوحيد حاليا عن الدليل(١) ، فإن كان الشيخ ليس من شأنه ذلك دفعه إلى من يعلمه

ثم يأمره بلزوم الطاعة من : صلاة ، وصيام ، وذكر ، وغير ذلك ، كل واحد ما يليق به ، لأن الشيخ تقدم أنه يكون طبيباً ماهراً .

ثم يأمره بالصحبة ولزوم مجالسة الشيخ ، والاجتماع مع الإخوان ، فطريق التربية ليست طريق الانفراد ، وإنما هى طريق الاجتماع والاستماع والاتباع ، فمهما انفرد المريد عن الإخوان ، لم يكن منه شيء ، فإن تعذر إقامته مع الشيخ أمره بالزيارة والوصول ، فمثل الشيخ جار إلى المريد ، كالساقية أو القادوس ، فإن كان يتعاهدها ويمشى معها يتى الماء جارياً وإن غفل عنها تخرم الماء وانقلب مع غيره .

وأيضاً : الوصول إلى الشيخ يدل على المحبـــة ، والانقطاع يدل على نقضها . كما قال المجذوب رضى الله عنه :

(١) يعنى يعلمه التوحيد المجرد ، وليس القائم على الاستدلالات وكلام أهل العلم .

لا يحب إلا بوصول ... ولا وصول إلا غالى
لا شراب إلا بختوم ... ولا مقام إلا عالى

ثم يذكره أولا بما يصلح جوارحه الظـــاهرة ، وهى : التقوى ، والاستقامة ، فإذا صلحت جوارحه الظاهرة ، أمره بالعزلة والصمت والجوع المتوسط ، وفراغ القلب والصماء بالاسم المفرد ، فإذا رآه تحقق فناؤه وكثر تعطشه ، فتح له شيئاً من علم الحقائق ، وأمره بالسهر التام وقطع العلائق والزهد فى الكونين ، فإذا رآه أخذته حيرة أو دهشة دفع له علم الحقيقة ، وأمره بتقليل ذكر اللسان وعمل الجوارح ، وشغله بالفكرة ، فإذا رآه لم يقدر على علم الحقيقة ، أو رآه قنع بالعلم دون الذوق ، أمره بتخريب الظاهر والتجريد التام ، فإذا تمكن من الحقيقة ورسخت فيه ذوقا وتحقيقاً ، أمره بارشاد الناس إن رآه أهلا ، هذا من أخذنا به وفهمناه من طريق أشياخنا .

والعالم رحمه الله قدم وأخر فى هذا الترتيب ، فذكر أنه أول ما يأمره بترك الآثام ، ويحذره من ركوب الجرائم ، وهذا هو المقصود من صحبة المشايخ وأخذ العهد عنهم ، إذ لم ينهى لصحبة الأشياخ إلا بقصد الحفظ ببركة صحبتهم ، وذلك محقق بفضل الله لمن صح صدقه وقويت نورانية شيخه .

وأصل هذا العهد من السنة حديث عبادة بن الصامت قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة : بايعونى على : ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، الحديث .

ثم يأمره باقتباس العلم ، فإن كان هو أهلا أمره بلزوم صحبته ليعلمه ، وإلا دفعه إلى غيره كما تقدم ، فلا بد للمريد بعد عقد التوبة من طلب العلم ، إذ لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، لقوله تعالى ـ ولا تقف ما ليس لك به علم(١) ـ وقال تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون(٢) ـ

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦
(٢) سورة النحل ، الآية : ٤٣ .

ولا يجب عليه التوسع فى العلم لما فوق حاله ، لأن ذلك فرض كفاية ، ومتى نزلت به نازلة لزمه طلب علمها .

ثم يأمره بلزوم الطاعة والقبلة والجماعة ، يعنى : الصلاة مع الجماعة ، لأن الأمر الخاص لا يصح إلا بعد إحكام الأمر العام، لأن من لا يصلح أن يكون من عوام المتقين، لا يصلح أن يكون من خواص المقربين ، فالشريعة باب ، والحقيقة دخول مع الأحباب ، قال تعالى ـ وائتوا البيوت من أبوابها(١) ـ .

ثم يأمره بالتوبة وتحقيق شروطها

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : شروط التوبة ثلاثة أقسام ، شروط صحة ، وهى ثلاثة : الندم على ما فات ، والإقلاع فى الحال ، والنيه ألا يعود أبداً .

وشروط تحقيق ، وهى ثلاثة : تصميم القصد ، لأن التوبة وإن صحت من محض الذنب مع البقاء على ذنب آخر فصاحبها ناقص ، وقبل أن يسلم من العودة لما عنده من أصل الحالة وأداء الحقوق الواجبة له من : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والكفارات ، وغيرها ، ورد المظالم المالية بإنفاق ، والعرضية على المشهور .

وشروط كمال، وهى ثلاثة : التشمير فى المستأنف، بدلا من التقصير فى السالف، والفرار من موارد الفتن بكل وجه أمكن ، والحرص على تحصيل الكمال له بأى وجه كان ، فمن فاته شروط الصحة فلا توبة له، ومن فاته شروط التحقيق فهو عاص، وقبل أن يسلم من آفات الانقلاب ، ومن فاته شروط الكمال لم يجد لتوبته لذة ، ولا يدرك لها نتيجة ، وكل واحد لا تصح إلا بعد تحقيق ما قبلها .

وقوله : «وقرروا فيه شروط التوبة» المراد بالتقرير هو الأمر بها والحض عليها : إما بعد المرة ، والتنبيه عليها تفصيلا وإجمالا .

ثم يأمره بلزوم الصحبة ، يعنى إن تأتى له ذلك ، وإلا أمره بالوصول المرة بعد المرة [٣] تقدم ، وفائدة الصحبة ثلاثة أمور .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٩ .

أحدها : أنها حصن من الانقلاب والرجوع ، فإن رؤية الشيخ والجلوس معه ترياق مجرب ، فلا تميل نفسه إلى الفضول أبداً ما دام مع الشيخ .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام ، والجلوس مع العوام أفضل من الجلوس مع المقبرة الجاهلين

قلت : والجلوس مع علماء الظاهر أقبح فى حق الفقير من جميع ما تقدم ، والله ما رأيت فقيرا صحبهم فأفلح فى طريق القوم أبداً، فلا قاطع أعظم منهم ، إلا من عرف بالتسليم لأهل النسبة ، وقليل ما هم(١) .

الثانى : أن علم القلوب إنما يقوى مدده بالصحبة ، فمن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها ، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم ، «والمرء على دين خليله(٢)» ، «والمؤمن مرآة أخيه(٣)» ، وما كان فى المرآة انطبع فى المرآة المقابلة لها .

الثالث : أن الإنسان مبتلى بنفسه ، فإذا انفرد وحده ظهر له أنه على شىء ، وليس كذلك ، وقد تقدم هذا فى فائدة الاجتماع ، وربما ظفر به الشيطان ، لأن الشاة المنفردة من سهم الذئاب ، وفى الحديث « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ولا يهم بالجماعة(٤) » ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فلا بد من صحبة أخ صالح أو شيخ ناصح لتحصل السلامة من الزعونات وغيرها ولا يتأدب الفقير وحده أبداً ، وإنما يتأدب إذا صحب أهل الأدب ،

---

(١) صدق الشيخ رحمه الله ، وها نحن الآن نعانى منهم البلاء ، كفانا الله شرهم فى الدنيا والآخرة .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو داود والترمذى، وقال : حديث حسن والبيهقى ، والقضاعى ، والعسكرى ، وابن عدى فى الكامل .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والضياء المقدسى عن أنس .

(٤) ولفظ الحديث : « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم » رواه البزار عن أبى هريرة .

فان صحبهم تأدب أحب أم كره ، وأيضاً النفس الحية لا تموت ما دامت مع الأحياء ، وإنما تموت إذا صحبت الأموات كما قال شيخنا البزيدى رضى الله عنه .

ثم يمده بالعلم الظاهر ، ومعناه أنه يذكره بعلم الشريعة وعلم الطريقة دون علم الحقيقة حتى إذا تهذب ظاهره وباطنه صلح لعلم الحقائق ، ولا بد من الترتيب ، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، ومن لا بداية له لا نهاية له .

وقد قالوا : من قدم الباطن على الظاهر فاته الباطن والظاهر ، ومن طلب الباطن بالظاهر حصل له الباطن والظاهر ، ومن طلب الباطن والظاهر تحير فى الباطن والظاهر ، والظاهر رأس مال ، وما عداه ربح ، ولذلك أمر به أئمة العلم والدين مجرداً .

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن سأله أن يعلمه من غرائب العلم « ما عملت فى كذا وفى كذا ، فى أمور فى أحكام الظواهر ، ثم قال عليه الصلاة والسلام « اذهب فأحكم ما هناك وتعال أعلمك غرائب العلم(١) » .

ثم من أصلح ظاهره على لسان الصدق فتح الله بصيرته برؤية الحق ، اه .

قال : الشيخ زروق رضى الله عنه : ولما ذكر ما يتعلق بالبداية ، ذكر ما يتعلق بالوسط من المجاهدات والرياضات ، فقال :

حتى إذا انقاد مع الإفاده	وكاد أن يصلح للإراده
إذ للمريد عدم حدود	لأجلها قيل له مريد
فعندها رد إلى الأوراد	كالصمت والصوم مع السهاد
وعاملوه بالمعاملات	إذ علموا مختلف العلات

قلت : أما الانقياد إلى طلب الإفادة ، فيكون بثلاثة أمور : بالزهد فى : نفسه ، وفلسه ، وجنسه .

---

(١) ونص الحديث : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت فى رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم ، هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : اذهب فأحكم ما هناك ثم تعال أعلمك من غرائب العلم » رواه ابن السنى ، وأبو نعيم فى كتاب الرياضة ، وابن عبد البر .

فالزهد فى النفس بالإطلاق منها والغيبة عنها وإسلامها إسلاما كلياً حتى يكون كالميت بين يدى الغاسل ، والزهد فى الفلس بالبذل والإيثار فى الحاصل ، وعدم التشوف إلى ما فى الحاصل .

والزهد فى الجنس بالإنكار لمن يعرف ، وعدم التعرف لمن لا يعرف .

فاذا حصل هذه الثلاث استحق الإفادة وصلح للإرادة ، والمراد بالإرادة إفادة العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، لكن بعد تحقيق التخلية والتحلية ، وسيأتى عند قوله « ألقوا إليه من صفات النفس » إلخ .

وأما حدود المريد فثلاثة : مجاهدة ، ثم مكابدة ، ثم مشاهدة .

فالمجاهدة فى تقديم الظاهر ، والمكابدة فى تقديم الباطن ، والمشاهدة ثمرة المكابدة .

أو تقول : حدود الإرادة : قطع العلائق ، وخرق العوائد ، واكتساب الفوائد .

فاذا تحققت فيه هذه الأمور سمى مريدا لتحقق إرادته بمعرفة سيده ، لأنه لما حصر الإرادة فى إرادة واحدة ، ولم يبق له مراد إلا محبة سيده سمى لذلك مريداً ، وقيل غير ذلك

قوله « إذا » الذى هو عامل فيها هو قوله « رد إلى الأوراد » وما بينهما معترض ، والتقدير إذا صلح للإفادة والإرادة رد عند ذلك إلى الأوراد ، وباعتبار السبب رد وقت صلاحيته للإفادة إلى الأوراد ، ثم فسر تلك الأوراد التى يرد اليها بعد اصلاح ظاهره ، فقال : كالصمت ، وفيه سبعة آلاف حكمة ، جمعت فى سبعة : عبادة من غير تعب ، حصن من غير حائط ، هيبة من غير سلطان ، راحة الكرام الكاتبين ، ستر الجاهل ، زين للعالم ، قلة الاعتذار .

ومن خواصه أنه : يقمع الفكرة ، ويجلب الحكمة اذا كان مع الفكرة ، والا فهو سهو ، كما قال بعضهم : كل كلام بغير ذكر فهو لغو ، وكل صمت بغير فكر فهو سهو ، وكل نظر بغير عبرة فهو لهو(١) ، فالصمت الذى يصحبه الخواطر والوساوس هو بمنزلة الكلام ، وأما الصوم فهو يعين على الجوع ، وقد تقدم فوائد الجوع وأسراره ، الا أنه لا ينبغى الإفراط فيه ، فخير الأمور أوسطها .

---

(١) مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله أمرنى أن يكون نطق ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرة » رواه الملا (محمد بن زكريا) .

« والسهاد » هو : السهر والمراد ، قلة النوم ، حتى لا يزيد على القدر المحتاج .

قال أحمد بن عامر رضى الله عنه : أعداؤك أربعة : الشيطان ، وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ، والهوى ، وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت ، والدنيا ، وسلاحها ، لقاء الخلق ، وسجنها الخلوة ، والنفس ، وسلاحها النوم . وسجنها السهر .

ثم المطلوب من هذه الأربع الوسط والأخذ بالأهم ، فمن كان الجوع أحب إليه من الشبع لم يأكل فوق حاجته ، ومن كان الصمت أهم إليه من الكلام لم يتكلم إلا فيما يعنيه ، ومن كان الخلوة أهم إليه من الخلطة لم يرتع للعامة الناس ، بل يستوحش منهم ، ومن كان السهر أحب إليه من النوم لم ينم فوق الحاجة ، والإفراط مضر فى كل شىء ، فمن الجوع مضر بالمكرة ومن الصمت مضر بالحكمة ، ومن السهر : يؤدى إلى الحق ، ومن الخلوة : يؤدى إلى الملل ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقوله « وعاملوه بالمعاملات » أى بالمعاملات التى فيها دواؤه ، فمن تليق به العزلة عاملوه بها ودلوه عليها ، ومن تليق به الخلطة دلوه عليها ، وهكذا ، إذ ليست معاملة أهل البداية كمعاملة أهل النهاية ، وليست معاملة السائرين كمعاملة الواصلين .

وقوله : « إذ عاملوا » الخ يعنى أنهم إنما عاملوا المريدين بمعاملات مختلفة ، لأجل ما علموا فيهم من العلات المختلفة ، فعاملوا كل واحد بما فيه دواؤه .

وفى بعض النسخ « كقرب نفسه من العلات » وهو إشارة إلى العزلة .

وفى الحكم : ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

وقد أشبعنا الكلام عليها فى شرح الحكم ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر سر دلالته على الأعمال دون الحقائق ، فقال :

ولم يحيلوه على الحقيقه ... إذ لم يكن مستوفى الطريقه
لكن أحالوه على الأعمال ... لأجل ما فيها من النوال
إذ الطريق إلى العلم ثم العمل ... ثم هبات بعدها توصل

قلت : الحقيقة شهود القدس وإنما لم يحيلوه على الحقيقة ، أى لم يطلعوه عليها قبل استيفاء الطريقة ، لأن الحقيقة أمرها هائل لا يناله إلا الشجاع الصائل ، وفى ذلك يقول الشيخ الجيلانى (كذا فى عينيه)

وإياك جرط لا يهولك أمرها ... فما نالها إلا الشجاع المقارع

ولا تطاق إلا بعد مرت الغرض وحط الرءوس وتصفية البواطن من الأغيار وتخليتها للأنوار ، فمن اطلع عليها قبل ذلك خيف عليه الزندق ، لأن الحقيقة لا تدرك بالعلم ، وإنما هى أذواق ووجدان ، نعم ؛ قد تكون علما ، ثم تصير ذوقا ، لمن راض نفسه بالشريعة ، وعظم صدقه ، فإنه يأخذها علما وتصير ذوقا .

وأيضا اطلاعه على الحقيقة قبل كمال الطريقة توجب له التقصير فى الأعمال والتفرق فى الهمة ، وإن الحقيقة حلوة قد يشتغل بها ويهمل الشريعة ، ولذلك قيل : من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق لتعرية الحقيقة عن الشريعة ، وهذا معنى قوله « ولم يحيلوه على الحقيقة إذ لم يكن » أى حيث لم يكن مستوفيا لعمل الطريقة ، لكن أحالوه على الأعمال . والمراد بالأعمال هنا : العمل الظاهر ، كالصلاة والصوم والصمت والعزلة وذكر الله ، ويكون ذكرا واحدا ، وهو الاسم المفرد الذى هو اسم الله الأعظم ، وسلطان الأسماء .

هذه طريقة الشاذلية ، وسيأتى للمعظم التنبيه عليه ، وإنما أحالوه على الأعمال لما فيها من النوال ، أى العطاء ، والمراد به نتائجه ، فكل ذكر له نتيجة وثمرة تخصه ، كما ذكره ابن حجر فى تفسيره عند قوله تعالى ـ فاذكرونى أذكركم ـ قال : واسم الجلالة وهو « الله » جمع لتلك الثمرات كلها .

وفى بعض النسخ « لأجل ما فيها من المنال » أى نيل ما يقصده الذاكر ويتمناه ، ثم ذكر علة تقديم العمل على علم التحقيق ، فقال : « إذ الطريق العلم ، ثم العمل ، ثم هبات » وهى مواهب الأسرار ، فبعد العلم العمل ، ثم الحال ، ثم الذوق ، ثم الشرب ، ثم الرى ، ثم السكر ، ثم الصحو ، ثم شهود وعيان ، والعمل حينئذ فكرة ونظرة وآداب مع الحضرة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر كيفية انتقال العمل إلى الباطن ، فقال :

حتى إذا أحكم علم الظاهر ... وأبصروا القبول فيه ظاهر
أقبلوا إليه من صفات النفس ... ما كان فيها قبل ذا من لبس
وهى إذ أنكرتها فلتعرف ... إحدى وتسعين ، وقيل ليف

قلت : ثم لا يزال الشيخ يأمر المريد بعمل الظاهر ، كصلاة وصيام وعزلة وصمت وذكر لسان ، حتى إذا رآه أتقن علم الظاهر وذاق سره وحلاوته ، فيكون قد ذاق حلاوة

الصلاة والصيام ، وحلاوة العزلة والصمت ، حتى تكون العزلة عنده أشهى من الخلطة ، والصمت عنده أحلى من الكلام ، وذكر الله قد امتزج معه ، حتى لو أراد أن يسكت ما سكت ، فهذا علامة اتقان أحكام الظاهر ، وصار قبوله لعلم الباطن ظاهراً ، فحينئذ يبقى إليه من صفات نفسه ما كان ملتبساً عليه ، كحب الجاه أو الرياسة ، أو حب المال ، أو الغضب أو القلق أو غير ذلك من أوصاف النفس التي يتعذر حصرها ، حتى قال بعضهم : « النفس من النقائص ما لله من الكمالات[1] » ، وقال الناظم : انها تريد على تسعين ، بتقديم التاء .

وقد ذكر السلمي لبذة صالحة ، فلنذكره بعده ، لأن عادة الناظم النسج على منواله ، فقال رضي الله عنه :

وأما أخلاق النفس ، فمنها : الكبر ، والعجب ، والفخر ، والخيلاء ، والمل ، والمش ، والبغض ، والحرص ، والأمل ، والحقد ، والحسد ، والضجر ، والجزع ، والهلع ، والطمع ، والجمع ، والمنع ، والجبن ، والجهل ، والكسل ، والبذاء ، والجفا ، واتباع الهوى والازدراء ، والاستهزاء ، والتمني ، والترفع ، والحدة ، والسفه ، والطيش ، والمراء ، والنهكم ، والظلم ، والعداوة ، والمنازعة ، والمعاندة ، والمخالفة ، والمعالبة ، والمزاحة والغيبة ، والبهتان ، والكذب ، والنميمة ، والتهويس ، وسوء الظن ، والمهاجرة ، واللوم ، والوقاحة ، والمكر ، والخيانة ، والفجور ، والشهامة ، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده .

فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها ، والمجاهدة في تبديلها بأحسن منها ، فمن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام الا ادباراً ، فيبدل الكبر بالتواضع ، والحدة بالتؤدة ، والكذب بالصدق ، وبالله التوفيق ، انتهى .

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه : وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضى عن النفس ، وخوف الخلق ، وهم الرزق ، فينولد من الأول : الشهوة ، والغفلة ، والمعصية .

ومن الثاني : الغضب ، والحقد ، والحسد .

---

(١) إن كمالات الله لا تنتهي حقيقة إلى حد ، ونقائص النفس كثيرة جداً تنتهي إلى حد ، ولكن يتعذر عدها ، وهو كلام يقصد به أن طبيعة النفس مجبولة على النقص ، فهو من باب ضرب المثل للتعريف بحقيقة النفس وجهالاتها ونقصها . والله تعالى أعلم .

ومن الثالث : الحرص ، والطمع ، والبخل .

ثم قال : لكن التزام أصل واحد ينفي جميعها ، وهو عده الرضى عن النفس في جميع الأحوال ، والحذر منها في كل الأوقات .

قال في الحكم : أصل كل معصية وشهوة وغفلة : الرضى عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة ، عدم الرضى منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه اه ،

قوله « حتى اذا أحكم علم الظاهر » هو على حذف مضاف ، أي أتقن عمل علم الظاهر لان الإتقان انما هو للعمل ، اذ هو الذي أمره به ، وهي فائدة صحبة الشيخ كما تقدم في الاجتماع ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر كيفية موت النفس ، فقال :

فجرعوها أكؤس المنون وهي تنادي : كيف تقتلوني

قلت : التجرع هو تكلف الشرب ، يعني أن المريدين اذا أراد الشيخ أن ينقلهم الى محل الباطن ، أمرهم بقتل نفوسهم ليكون ذلك سبباً في حياة أرواحهم ، كما قال ابن الفارض :

فالموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي

« فجرعوها » أي سقوها كرها « أكؤس المنون » جمع كأس ، على وزن فعل ، والمنون : الموت ، يعني أنهم تجرعوا في قتل نفوسهم مرارة الموت ، وذلك بخرق عوائدها وردها عن شهواتها ، وأعظم العوائد عند النفس العز ، والجاه ، فلا تنتقل الى الذل والهوان والخمول الا بعد جهد جهيد ، وقتل شديد ، فإذا صار عندها الذل والعز والخمول والظهور سواء ، فقد تحقق موتها .

قال محمد بن خفيف رضي الله عنه : لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء : في المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل .

وقال الشيخ أبو مدين : من لم يمت لم ير الحق تعالى(١) .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : لا يدخل على الله إلا من باب : إما بالفناء الأكبر الذى هو الموت الطبيعى ، أو بالفناء الأصغر الذى تعنيه هذه الطائفة .

وقال بعضهم : لا يدخل على الله حتى يموت أربع موتات : الموت الأحمر ، وهو : مخالفة النفس ، والموت الأسود ، وهو : احتمال الأذى من الخلق ، والموت الأبيض وهو : الجوع ، والموت الأخضر ، وهو : لبس المرقعات

وفى رواية وهو : طرح الرفع بعضها على بعض اهـ .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : موت النفس لا يكون إلا بثلاث : عزلها عن مواردها ، بحيث لا يتحرك ولا يسكن إلا بتحقيق لية توافق العلم من غير هوى ، ثم الإعراض عن كل ما تلتذ به فى علم الأجسام والطبائع والعلوم والأعمال والمعنى والمبانى والحقائق ، ثم ترك الإنسان ما تميل إليه من ذلك أو من غيره ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : ومن يصل الولى إلى الله تعالى حتى تنقطع عن نفسه شهوة الوصول ، يعنى انقطاع أدب واستسلام ، لا انقطاع ملل ، كذا قال ابن عطاء الله رحمه الله ، ومن هذا القبيل دعاء الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش حيث قال : اللهم إنى أعوذ بك من برد الرضى والتسليم ، كما يستعيذ بك أقوام من حر المعصية والتدبير » .

ومنه قول الواسطى رحمه الله : استحلاء الطاعة سم قاتل اهـ .

قوله « وهى تنادى » الخ بداؤها بلسان حالها القريب من لسان المقال ، وقد يسمع ذلك الإنسان من باطن النفس كأنه حسى مقالى ، وقد تتمنى الموت الحسى اختياراً ، فلا تزال كذلك حتى ترتاض وتتهذب ، وهى علامة موتها ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى عمل أهل الاستشراف فقال :

فعند ما مالت إلى الزوال	ادخل فى خلوة الاعتزال
وقيل : قل على الدوام : الله	واحذر كطرف العين أن تنساه

---

(١) يريد أن الشيخ أبا مدين رحمه الله أخذ هذه الحكمة من قول رسول الله ﷺ : « إنكم لن تروا ربكم عز وجل حتى تموتوا » رواه الطبرانى فى المسند عن أبى أمامة ، فموت النفس بعتبة المحبى ، وموت المؤمن بعتبة رؤية الله تبارك وتعالى فى الجنة إن شاء الله تبارك وتعالى جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه آمين .

قلت : ميل النفس إلى الزوال هو : إعطاؤها الطوع من نفسها ، بحيث يتصرف فيها صاحبها بلا نزاع منها ، فهى حينئذ قريبة للموت ، مشرفة على الزوال ، فعند ذلك يدخله الخلوة ، أى يأمره بها ، ويحضه على ذكر الاسم المفرد(١) ، حتى لا يفتر عنه ساعة .

قلت : وهذا التدريج الذى ذكره الناظم ليس بلازم لكل الشيوخ ، ولا لكل المريدين أن يسلكوه ، بل من الشيوخ من يلقن الإسم من أول مرة إذا رأى استعداداً له ، ويأمره بقتل نفسه مع ذكر ربه ، بحيث يجعل له وقتا يذكر فيه ربه ، ووقتاً يقتل فيه نفسه ، وهذا الذى أدركنا عليه أشياخنا بأمر الفقير بالخلوة فى أول النهار إلى وقت العصر ، ثم يخرج إلى السوق ويعمل من الأحوال الصافية ما تموت به نفسه ، فيكمل فناؤه فى الإسم مع موت نفسه . فيؤدب وقت فتحه ، ومن المريدين من لا يحتاج إلى خلوة ، بل يأمره بالخلطة من أول مرة ، والناس معادن وطبائع ، والعمل متفاوتة ، والفتح من الله من غير توقف على الأسباب ، إلا أن الحكمة جارية مع القدرة ، والله تعالى أعلم .

قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه : ولقد أردت فى بداية أمرى سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة فلما علم الله صدق نيتى قيض لى وليا من أوليائه ، فقال لى : يا بنى اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده ، واخل بنفسك ، واجمع همتك وقل « الله ، الله ، الله » ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب ، وقل هذا بلسانك وقلبك وسرك ، وأحضر قلبك ، واجمع خاطرك ، ومهما قالت نفسك : ما معنى هذا ، فقل لها : لست مطلوبا بمعناه ، وإنما قال تعالى — واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا(٢) — .

ثم ذكر ما يفعل فى حال خلوته مع الذكر ، فقال :

ووكل الشيخ به خديماً	يلقى إليه القول والتعليما
وقيل : إن تكتم من الأحوال	شيئا سلكت سبل الضلال
فليس عند القوم بالعيب	من لم يصف شكواه للطبيب

قلت : أما توكيل الشيخ بالفقير الخديم ، فلعله كان فى الزمان القديم ، فكان الشيخ إذا

---

(١) الاسم المفرد « الله » جل جلاله .

(٢) الآية : ٨ من سورة المزمل .

أتى إليه الفقير دعله ما يلزمه فى حال نفسه أدخله الخلوة وأمره بالذكر ، ووكل به الخديم يلق إليه القول الذى يأمره به الشيخ من الاذكار التى تليق به ، ويعلمه ما يحتاج إليه فى سلوكه ويشترط فى الخديم أن يكون أعلى منه علما وحالا وذوقا

قلت : وهذه الكيفية قد انقطعت اليوم ، ولعلها هى التى قصد الشيخ الحضرمى : نعم بقى اليوم عرض الخديم : تذكير الفقراء بعضهم بعضاً ، فيأمر الشيخ من يراه أهلا للتذكير ، فيدور على الفقراء أينما كانوا يذكرهم وينبههم ويزيدهم إلى الله كما يزيدون به ، ولذلك كانت السياحة للفقير فى بدايته أمراً كبيراً ، وزيارة الشيوخ : سبب فى التمكين والرسوخ فهذه الحالة اليوم أغنت عن الخديم والخلوة ، ولا ينبغى للفقير أن يكتم شيئاً من أحواله عن الشيخ ، قلت أرجلت ، لأن الشىء اليسير يورث الشىء الكثير ، فليس بالطبيب من لم يصف دائه للطبيب ، فإن تعذر عليه الوصول إلى الشيخ وقد عرض له مرض أو أمر فليتخيل شيخه بين عينيه بصفته وهيئته ، ويشكو له فإنه يرأ منه بإذن الله ، وإن كان مع حياته واستحيا فليشتك إليه فى قلبه(١) وإن كتم ذلك فهو حسن ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر نتائج الذكر وثمراته ، فقال :

فلم يزل مستعملا للذكر ... فيصمت اللسان وهو يجرى
وقدر ما تجوهر اللسان ... بالاسم يستثبته الجنان
ثم جرى معناه فى الفؤاد ... جرى اللذا فى جملة الأجساد
فعندها حاذى مراة(٢) القلب ... لوح الغيوب وهو غير غيب
فأدرك المعلوم والمجهولا ... حيث اقتضى لتركها قبولا

قلت : فإذا دخل الفقير الخلوة فينبغى أن يستعمل معها العزلة ، وهى عزلة القلب بالخلوة للأشباح ، والعزلة للقلوب ، فلا بد فيها من التفرغ الكلى ، وبالله يتبع بها

وفى الحكم : ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة :

فالمقصود من الخلوة هو دواء القلب ، ولا يشفى القلب إلا إذا تفرغ من الأخلاط الردية

(١) على سبيل الاستحضار كما قال أولا . والله تعالى أعلم .
(٢) « مراة » حذفت همزة المد للتسهيل مراعاة لوزن البيت .

فإن القلب كالمعدة كلما كثرت عليه الأخلاط مرض ، وهى الخواطر والشواغب ، فإذا تمرغ القلب نفعه الذكر ، وإلا فلا ، ثم لا يزال مستعملا للذكر لهجا به ، حتى يصمت اللسان ، ويبقى الجنان ذاكراً ، وينبغى أن يستثبت الجنان ما يذكره اللسان ، فان ذكر اللسان بلا جنان قليل النهوض إلى حضرة العيان ، ثم لا يزال يذكر بلسانه ويستثبته بجنانه حتى يجرى معناه فى فؤاده ، ويتمكن نوره فى قلبه ، ثم يجرى ذلك فى جميع أعضائه كما يجرى السم فى سائر جسده ، وكما يجرى الماء فى الأغصان الرطبة ، فيكون البدن كله يتحرك بذكر الله .

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : بقيت أربع سنين أذكر الاسم المفرد ، حتى كان البدن كله يتحرك بالذكر ، فكنت إذا وضعت يدى على الفخذ لتسكنه تحرك الفخذ الآخر ، وإذا وضعت يدى على الفخذ الآخر تحرك الفخذ الآخر اهـ .

فاذا صفت مرآة القلوب وتجوهرت ، فعند ذلك يحاذيها لوائح الغيوب ، وهى أنوار المواجهة تقدمة لانوار المشاهدة ، لأن المشاهدة تكون لوائح ، ثم طوالع ، ثم تشرق شمس العرفان ، فما لها غروب عن العيان ، فعند ذلك يكاشف بحقائق الأشياء ، فيدرك سر كل موجود ، ويعلم حقيقة كل معلوم ، وكل مجهول ، يعنى ما كان مجهولا صار عنده معلوما ، وما كان معلوما أدرك سره وحكمته ، وهنا يطلع على سر المتشابهات وحقائق المشكلات ، فتتسع عليه دائرة العلوم ، وتخرق له مخازن الفهوم ، ويخرج إلى فضاء الشهود ويصير حاكما بسره على الوجود ، فلا تعله أرض ، ولا تظله سماء ، قد فتحت له ميادين الغيوب ، وتطهر من جميع المساوىء والعيوب — فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون(١) — .

فقوله « فيصمت اللسان وهو يجرى » يعنى أنه ينطبع الذكر فى القلب انطباعاً كليا ، حتى يجرى الذكر على القلب ، ولو سكت اللسان ، وهذا هو المقصود من الذكر ، وقوله « وقدر ما تجوهر » الخ . يحتمل أن يكون إنشاء ، ومعناه الأمر باستثبات القلب عند ذكر اللسان أى ويستثبت الجنان ما ذكره اللسان ، فيكون بقدر ما تجوهر اللسان يستثبته ، ويحتمل أن يكون إخباراً ، ومعناه : وبقدر ما يتجوهر اللسان بالذكر يدخل فى القلب فيستثبته

(١) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

فيكون فيه الحض على ذكر اللسان ، لعله يدخل الجنان ، والاحتمال الأول فيه الحض على الحضور عند ذكر اللسان ، وهو أولى ، لأن ذكر اللسان إذا لم تصحبه مجاهدة لا يفضى إلى القلب ، ولو كثر .

وقوله : « ثم جرى مجراه فى المزاد » يعنى أنه يصيح القلب بمعنى الذكر حتى لا يغفل عنه ، وهى الطمأنينة بذكر الله .

وقوله : « فعند ما حاذى مرآة القلب » أى فعند انصباغ القلب بالذكر وطمأنينته به ، يحاذى مرآة قلبه الصافية المجلوة أنوار الغيوب ، وهو الذى أراد بقوله «لوح الغيوب» وتسمى اللوائح ، وإنما قصره الوزن ، فاذا اطلعت له لوائح الغيوب ظهر ما كان مختبئاً ، أى خفياً من أنوار الشهود ، فانطوى عند ذلك وجود كل موجود ، وفى ذلك يقول الششترى :

لقـــد تجلى ما كان مخبي والكون كل طويت طى
منى على دارت كئوسى من بعد موتى ترانى حى

وفى بعض النسخ « فعند ما حاذى أمير القلب » أى وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف أى فعند جرى الذكر فى الفؤاد حاذى القلب الذى هو سلطان الجسد ، لوائح الغيوب ، وفى بعض النسخ بلفظ « ما » المصدرية بعد « عند[1] » ، والعامل فى الظرف « فأدرك » أى : فأدرك عند محاذاة لوح الغيوب سلطان القلب المعلوم والمجهول .

وقوله : فأدرك المعلوم والمجهول ، يعنى : أنه لما طلعت عليه شمس المعارف أدرك سر ما كان مجهولا ، حيث عرف سر وجوده ، وغاب عن شهوده بشهود معبوده .

وقوله : «حيث اقتنى لدركه قبولا» يعنى أنه لا يدرك سر المعلومات والمجهولات ، إلا إذا اقتنى ، أى ادخر لذلك قوة باستعداده لذلك ، وهو الفرغ التام ، فيقدر تفرغه من الأشياء يكشف لك عن شهود المكون ، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الأكوان معك ، ومحال أن ترتبط مع الأكوان وتطلع على أسرار مكونها فيها ، والله تعالى أعلم .

---

(١) فتكون الكلمة « فعندما حاذى مرآة القلب » بدل « فعندما حاذى مرآة القلب » والله تعالى أعلم

ثم ذكر مخاطبات الحق له على ألسنة الهواتف ، فقال :

حتى إذا جاء بطور القلب خوطب اذذاك بكل خطب
فقيل لو عرفتنى بكونى قيل:اذن فاخلع لنال الكون

قلت إذا وصل النور من ناحية المذكور إلى جبل الطور ، وهـــو قلبك المستور ، بحجاب هيبة المذكور ، رفع عنه الستور ، وخاطبه حينئذ بكل أمر جليل ، فلم تعلم نفس ما خصص به من المسارة والمصافاة والمكالمة والمناجاة ، فيناديه لسان الملكوت مترجماً على عالم الجبروت ، يا أيها العبد الشائق إلى حضرتى لتعاين سر قدرتى ، هلا عرفتنى بكونى ، وقنعت بذلك منى ، فيقول العبد المشتاق إلى حضرة الخلاق لا أريد إلا وجهـــك الكريم ، ومشاهدة سرك العظيم ؛ فيقول له الحق جل جلاله : إن أردت هـــذا الخطب الجسيم ؛ والأمر العظيم فاخلع عنك نعال الكونين ، وتخلص بقدم همتك نعيم الدارين ، فاذا خلعت عنك الحظوظ والهوى ، فأنت بالوادى المقدس طوى ، وأنشدوا :

واخلع النعلين إن جئت إلى ذلك الحى ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بينا من بيننا
وإذا قيل :لمن تهوى ؟ فقل أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا

فهذه مسايرة كلام العظم ، والرجوع إلى تفسير ألفاظه ، فنقول « حتى إذا جاء ذلك اللائح الذى عبر عنه بلوح الغيوب ، وهو النور الذى أثمره الذكر ، «حاذى مرآة القلب » أى وصل لطور القلب الذى هو محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، فهو كجبل الطور الذى وقعت عليه مناجاة الكليم عليه السلام ، فاذا وصل إليه ذلك النور ، ورفعت عنه الحجب والستور ، « خوطب إذ ذاك » أى حين وصل النور إلى القلب « بكل خطب » له أمر جليل ، وهذه المخاطبات تكون هواتف من ناحية القلب ، فيجب تصديقها حيث انقطعت الخواطر الردية عنه ، وتكون أيضاً مخاطبات على ألسنة الهواتف الكونية ، فيسمع العارف منها كل ما يحتاج إليه ، وهذا أمر مجرب لمن ذاق الفهم عن الله ، وفى ذلك يقول الششترى :

أنا بالله أنطق ومن الله أسمـــع

وقال أيضاً :

اسمع كلامى وافهم إن كنت تفهـــم
لأن كنزك قد أعرى عن كل طلسم
من هو المتكلم الكليم على طور الإفهام

والحاصل أن هذه الخطابات الهواتفية والكونية لا تكون إلا لمن صفت مرآة قلبه

من الأغيار ، ولم يشاهد إلا الأنوار والأسرار ، فحينئذ يخاطب من كل ناحية ، ويسمع التأييدات من كل جانب .

ولقد كنا في بعض أسفارنا لا نسير من موضع إلا بإذن من الله ، ولا نقيم إلا كذلك ، وما ذلك إلا ببركة صحبة العارفين بالله .

وقوله « فقيل لو عرفتني لكونني » يعني أن السالك إذا أشرقت عليه لوائح الوصول ، وهب عليه نسيم القبول ، وجد في طلب بلوغ المأمول ، يقول له الحق تعالى اختباراً لصدقه : يا عبدي هلا قنعت بمعرفة الدليل وتعرفني بطرق الكون ، فيقول العبد : يارب لا أريد إلا معرفة ذاتك ، فإذا قال له ذلك يقول له الحق جل جلاله : إن أردت ذلك فاخلع عنك نعال الكونين ، وتحقق بالزهد في الدارين ، تحصل لك مناقرة العين .

قال) بعض العارفين : قيل لأول ما يقول الله العبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك ، فإن قال : لا ، ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل هذا معي ، فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ، ورفع الحدوث ، وإثبات القدم ، وذلك يوجب لك الدم ، وأنشدوا :

من لم يكن فيك فانياً عن حظه ... وعن العنا والأنس بالأحباب

فلأنه بين المنازل واقف ... لمنال حظ أو لحسن مآب

والله تعالى أعلم

ثم ذكر ثمرة الزهد وخلع النعل ، فقال :

ثم فنى عن رؤية العوالم ... ولم ير في الكون غير العالم

ثم انتهى لفلك الحقيقه ... فقيل : هذا غاية الطريقه

قلت : إذا تحقق زهد المريد في الكونين ، وغاب عن حظه في الدارين ، أشرق عليه نور الإيقان ، فمحى وجود الأكوان ، فما حجب العباد عن الله إلا تعلق القلب بالحظوظ والعمل على الحروف ، فلو تحرروا من رق الحظوظ ، وعملوا على تحت العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، لأشرقت عليهم الأنوار ، وغابوا عن شهود الآثار ، فتعلق القلب بالحظوظ النفسانية ، يمنع من مقام المراقبة ، وتعلقه بالحروف الروحانية يمنع من مقام المشاهدة ، فالحروف الروحانية تمنع من مقام المشاهدة ، والحروف الظلمانية تمنع القرب

من الغريب ، والحروف الروحانية تمنع شهود الحبيب ، فالحروف الظلمانية هي الشهوات الحسية ، والحروف الروحانية هي الشهوات العلمية ، كطلب الخصوصية والكرامة والمعرفة ، فلا تدرك المقامات إلا بالزهد فيها .

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : « لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته ، أو اختيار من اختياراته » .

وتقدم قول الشيخ أبي العباس رضي الله عنه : لن يصل الولي إلى الله حتى تقطع عنه شهوة الوصول ، أي حتى يزهد فيه أدبا واكتفاء بعلم الله .

واعلم أن هذه الخطوط القاطعة عن الله هي التي يسميها شعراء الصوفية في تغزلاتهم : عواذل ورقباء ، كما قال الششتري رضي الله عنه :

يا أخي افن تشهد كل سر عجيب ... وتجول في المشاهد حين قرب الحبيب

حيث لا ثم حاسد ... أو عذول أو رقيب

قوله : ثم فنى عن رؤية العوالم ، أي ثم بعد تحقيق الخلع عن الكونين يفنى عن رؤية العوالم حين تتلطف وتصير معاني .

أو تقول حين تنقلب أنواراً ملكوتية بعد أن كانت ظلمات ملكية ، فإذا غابت العوالم بقي الخبير العالم .

أو تقول : فإذا غابت الأواني بقيت المعاني .

أو تقول : فإذا غاب الكون بقي المكوّن . وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه :

جميع العوالم رفعت عني ... وضوء قلبي قد استفاق

تراني غائبا عن كل أين ... كأس المعاني حلو المذاق

وقوله : « ثم انتهى لفلك الحقيقة » هو مرتب على ما قبله ، فهما غاب عن العوالم انتهى لفلك الحقيقة ، والحقيقة هي شهود العظمة بالعظمة ، أو شهود حق بحق ، وتقدم قريباً تفسيرها أيضاً بتفسير آخر ، وفلكها أنوارها المحيطة بالأكوان الغيبية لها .

قال في الحكم : « حجبت الآثار بالآثار ، وحجبت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار » .

وفلك الحقيقة هو عالم الجبروت الأصلي ، فإذا انتهى المريد إلى ذلك وتمكن فيه ، فقد

انتهى سيره ، وذلك غاية الطريق إلى عين التحقيق ، قال تعالى ـ وأن إلى ربك المنتهى(١) ـ وبالله التوفيق .

ثم ذكر مقام الشهود ، فقال :

ثم امتحى فى غيبة الشهود ... فأطلق القول : أنا معبودى
حتى إذا رد عليه منه ... أثبت فرقا حيث لم يكه

قلت : العبد فى حال غفلته يكون مبتلى برؤية نفسه ، واقفا مع شهود حسه ، محجوبا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، فإذا أراد الله تعالى أن يرفع عنه الحجاب ، ويدخله فى حضرة الأحباب ، ألقاه إلى ولى من أوليائه ، وعرفه سر خصوصيته واصطفائه ، فلا يزال يسير به ويحاذيه ، ويخرق عليه عوائد نفسه ويغيبه عنها ، ويزهده فى حسه وجسه فإذا رآه الشيخ قد رق فى حقه الحجاب ، واستحق الانخراط فى سلك الأحباب ، فتح له الباب . وقال له : ها أنت وربك ، فإذا زج فى حضرة النور ، ورفعت عنه الستور ، أنكر الوجود بأسره ، وأنكر وجود نفسه ، فامتحق وجوده فى وجود محبوبه ، وانطوى شهوده فى شهود معبوده ، فأنشأ يقول : ـ أنا من أهوى ومن أهوى أنا . أنا المحب والحبيب ، ليس ثم ثانى . فإذا تمكن فى الشهود ، وتحقق برؤية نور الملك المعبود رد عليه صحوه ورجع إليه سلوكه ، فأثبت فرقا فى عين الجمع قياما بوظائف الحكمة فى عين شهود القدرة ، فيكون الجمع فى باطنه مشهودا ، والفرق على ظاهره موجودا ، فرقا لفظيا لا حقيقيا ، أدبا مع الربوبية ، وقياما بوظائف العبودية ، فلا تبتهج رياض الملكوت إلا بزهر جمال الشريعة المحمدية .

وقد قلت : فى قصيدة سارت بها تصلية ابن مشيش رضى الله عنه فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

رياض بساتين المعارف بهجت ... بزهر جمال من شريعة أحمد
كذاك بحار الخير وت تدفقت ... بأنواره فى كل غيب ومشهد

قوله : « ثم امتحى فى غيبة الشهود » أى امتحى وجوده فى وجود الحق .

---

(١) الآية : ٤٢ من سورة النجم .

قال فى الحكم : الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته .

وقال أيضاً ـ فى الكلام على الإشارة ـ بل العارف من لا إشارة له ، لفنائه فى وجوده واستهلاكه فى شهوده .

وقوله : « فأطلق القول أنا معبودى » إطلاق هذا القول لا يسلم له ، إلا فى حالة الغيبة والجذب ، وإلا فقد علمت ما وقع للحلاج ، وهو ولى الله حقا ، وفى معنى ذلك قيل :

ومن شهد الحقيقة فليصنها ... وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت ... له شمس الحقيقة بالتدانى

وقال آخر :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تباح

قال ابن خلدون : قتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر ، وأهل الباطن : أهل الشريعة وأهل الحقيقة . لأنه باح بالسر ، فوجبت عقوبته اهـ(١) .

ومن أفتى بقتله : الجنيد ، والشبلى : غيرة على السر أن يفشى لغير أهله ، فالواجب كتم الأسرار ، وإظهار شريعة النبى المختار ، ولله در الششترى حيث يقول :

شق ثوب الرسم شقه ... ترتفع عنك المشقه
إن منك اليوم شوقه ... فافن عن ذاتك وترقى

فإذا حققت ذاتك ، وانتهى بادى صفاتك ، قف على طور سيناك ، واجعل الوجد حيالك . وافن به حتى تركن ، إياك أن تقول : أنا . واحذر أن تكون سواه .

وقوله : « حتى إذا رد عليه منه » هو على حذف مضاف ، أى حتى إذا رد عليه من شهود نفسه ، أى بره ، فحينئذ أثبت فرقا لنظر العبودية فى مظهر الربوبية ، سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى مظاهر العبودية ، فربوبيته بلا عبوديه نقص ، وعبودية بلا ربوبية محال ، وبهذا الفرق ثبت التكليف .

قال شيخ شيوخنا سيدى على العمرانى رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أن الكشف صفة من

---

(١) وقد روى عنه أنه قال رضى الله عنه : « إذا قتلتمونى فأنتم مجاهدون وأنا شهيد » .

أوصاف الفرق ، وعدم الكلف صفة من أوصاف الجمع ، والفرق عبودية ، وهو حق . والجمع ربوبية وهو حق أيضاً ، صار الحق هو القائل وهو المستمع لما قال ، لأجل هذا المعنى تجد هؤلاء المتوجهين إلى الله تعالى : من غلب عليه شهود الجمع ، تجده فى غاية البسط والراحة من الكلف ، ومن غلب عليه شهود الفرق ، تجده فى غاية القبض والتعب والكلف ويرحم الله القائل :

الرب حق ، والعبد حق يالیت شعری : من المكلف ؟
إن قيل : عبد ، فالعبد ميت أو قيل رب : أنى يكلف ؟!

وقد أجابه سيدى عبد الرحمن الفاسى ، نفعنا الله بالجميع بقوله :

نعم يحق إثبات عبد بنعت فرق به يكلف
والعبد ميت بغير رب لسرعون منه يسكلف

وقوله : « أدرك فرقاً حيث لم يكنه ، ومعناه أى أدرك فرقا حيث لم يكن فرق ، وإنما أثبتته الحكمة ، فوجب إثباته بالله ، فالشريعة أدب منه إليه ، والطريقة سير منه إليه ، والحقيقة : وصول منه إليه ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

سمع بعض العارفين هاتف الحق يقول : أنا الله سبحانى ما أعظم شأنى ، ظهرت لخلقى صفاتى ، وخفيت لظهورها ذاتى ، فشهدت صفاتى بوحدانية ذاتى ، وأحاطت ذاتى بجميع صفاتى ، فاضمحلت الصفات فى الذات ، وغابت الذات فى الصفات ، لمن إلىّ قربى تنزيها وتقديساً عن مثلى ، لا إله إلا أنا الملك الحق المبين ، كل شىء هالك إلا وجهى (آلم كهيعص طسم حم عسق) لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى مقام البقاء فقال :

فرد نحو عالم التحويل وعبروا عن ذاك بالنزل
ورده بالحق نحو الخلق كى ما يؤدى واجبات الرق

قلت : إذا تمكن المريد فى الجذب ، وتحقق من شهود الرب ، وأتقن صناعة السباحة فى بحر ، رد إلى شهود جزيرة البر ، ليكون ماشيا بين بر وبحر ، وهو مقام الكمال ، كما قال ابن عطاء الله بعد الكلام على مقام الجذب والحرة : « وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً ، وغاب فازداد حضوراً ، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ، ولا فرقه يحجبه عن جمعه ، يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه » انتهى .

ويسمى هذا مقام البقاء ؛ لأنه أبقى ما كان نفاه أول مرة فى حال جذبه ، فلما صحا من سكرته وجد ما كان نفاه باقياً على حاله ، وإنما نفى الوهم فقط ، وفى ذلك يقول الجيلى فى عينيته :

فأفنيتها حتى فنت ، وهو لم تكن ولكننى بالوهم كنت أطالع

وقال الششترى :

أفن من لم يكن يبقى من لم يزل

فمقام البقاء مقام شريف ، وحال منيف ، وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو معنى قول الشيخ أبى يزيد : دخلنا بحراً ووقفت الأنبياء بساحله(١) لأن الأنبياء عليهم السلام لما خاضوا البحر من القدم الأول ، ورجعوا إلى ساحل البحر ليسيروا الناس فى البر والبحر ، ولو بقوا فى البحر ما أمكنهم أن يسيروا أحداً فى البر ، فتبطل حكمة الإله فى إرساله لهم ، ولعل الشيخ أبا يزيد قال هذه المقالة قبل رجوعه للبقاء والسكر غالب عليه .

قوله : « فرد » أى رده الشيخ ، نحو عالم التحويل ، بالحاء المهملة ، أى التصديق ، وهو محل ظهور تصرفات الأسماء والصفات ، وهو عالم الخلق ، وقد كان فى حالة الجذب فى عالم الأمر .

وفى بعض النسخ بالمعجمة(٢) أى محل ظهور إنعام الله على خلقه ، وما خولهم به من كرمه وجوده .

وقوله : « وعبروا عن ذاك بالنزول » لأن الحرية ارتفاع ، والعبودية نزول .

---

(١) وهناك معنى آخر هو : أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقفوا على ساحل البحر يدعون الناس إليهم ، فالخائض هنا ذاهب إلى مكان الداعى ، وهم الأنبياء يدعون الخلق إلى الله . وهو المعنى القريب إلى فهم العامة فى مثل هذا المقام ، وأول الخلق وأولاهم بإجابة الدعوة هم الأولياء ، والله تعالى أعلم .

(٢) أى بالخاء المعجمة : أى المنقوطة فتكون الكلمة « نحو عالم التخويل » بدل « التحويل » من خوّله الشىء إذا كلفه به .

وقال فى الحكم — بعد ما تكلم على الحضرة — فإن نزلوا إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين .

وقوله : « وردده بالحق نحو الخلق » أى رده بالله نحو عالم الخلق ، لأجل أن يؤدى ما وجب عليه من حقوق الرق ، وهى العبودية . وهى عند الله أشرف المقامات وأسنى الكرامات ، وما خاطب الله أنبياءه ورسله إلا بالعبودية ، قال تعالى — سبحان الذى أسرى بعبده ليلا[1] — وقال تعالى — واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب[2] واذكر عبدنا أيوب[3] — إلى غير ذلك .

وقد قلت فى قصيدتى العينية فى هذا المعنى :

تمسك بمنهاج الشريعة إنها ... أمان من كل هول للظهر قاطع
فشد فما يد الصنين فمنهل ... كمال الكمال منك هو الشرائع

وقال سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أن مقام البقاء هو مقام المنن بالله ، وهو مقام خاصة الخاصة ، وهو مقام الراحة بعد الشقاء ، والربح بعد الخسران ، وهو مقام العبودية لله بلا علة ، والنظر اليه بلا واسطة ، وهو مقام التفريق بعد الاجتماع ، والتواضع بعد الارتفاع ، والعجز بعد القدرة ، والأدب لله بالله بعد التمكين فى الحضرة الإلهية ، صاحب هذا المقام راسخ فى العلم والعمل ، راتع فى شهود الحق فى الجلال والجمال ، لتحقيق المقامات والأحوال .

قال أبو المواهب التونسى فى قوانينه : من وصل البقاء أمن الشقاء .

ثم أشار إلى ما يفعل بعد ترشيده وإطلاق يده من التحجير ، فقال :

فكلم الناس بكل رمز ... والغز التعبير أى لغز
وعندما أسلكه المسالك ... أقامه شيخا لكل سالك

---

(١) أول سورة الإسراء .
(٢) سورة ص ، الآية : ٤٥ .
(٣) سورة ص ، الآية : ٤١ .

قلت : الفقير إذا كان فى مقام الاستشراف ، ولم يتمكن من علم التحقيق ، تجده يعبر عن الحقيقة بعبارة واضحة عارية من الكسوة ، وذلك لضيق عطنه[1] وعدم فروسيته ، فإذا تمكن فى العرفان ، ورسخ فى الشهود والعيان ، استحق حينئذ دخول الميدان ، وجال مع الفرسان ، فإذا جال بفرسه بين الناس لا يسبق ولا يضر أحداً من الخلق .

أو نقول : كل من لم يتحقق بالوصول لا يقدر أن يرقى الغزول[2] ولله در العز الى حيث قال :

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد ... لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

فإذا رد المريد إلى مقام البقاء وسلك تلك المسالك المتقدمة من جذب وفناء وتخلية وتحلية أمره الشيخ بتذكير الناس وإرشادهم إلى ربهم ، فاستحق أن يكون شيخاً مربياً ، وهذا حاصل البيتين ، والرمز أدق وأخفى من اللغز ، لأن الرمز إشارات وتلويحات ، واللغز كلام يراد به غير ظاهره ، يفهمه من عرف اصطلاحه أو قرينته .

وكان حق الناظم أن يقدم البيت الثانى على الأول ، لأن تعبير المريد ناشىء عن تذكيره ، وتذكيره ناشىء عن تقديمه لذلك ، وتقديمه هو إقامته للشيخوخة ، فإذا أقامه لذلك أمكن أن يتكلم بالرمز أو باللغز ، والأمر فى ذلك قريب ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أن هذا العلم ليس هو أقوالا باللسان ، وإنما هو أذواق بالجنان ، فقال :

فهذه أحوال ذى الأحوال ... تدرك بالأفعال لا الأقوال

قلت : الإشارة تعود إلى ما قدمه من أول الباب إلى هنا ، وأن تدريج السالك فى هذه الأحوال والمقامات هى أحوال أهل الأذواق والوجدان من أرباب الأحوال ، وهى إنما تدرك بالأعمال : مجاهدة ومكابدة ، ثم مشاهدة .

قال الجنيد رضى الله عنه : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، والمراء والجدال ، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر ، وكثرة الأعمال .

---

(١) العطن : مبارك الإبل عند الماء .
(٢) أى الغزل ، لأنه ترقيق يحتاج إلى دقة وعناية .

وأنشدوا فى معنى ذلك :

يا من يريد منازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن فيها فلست من اهلها ... ما لم تزاحمهم على الأحوال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه للعالى

ثم بين أن ما ذكره هو طريق السلف المتقدمين من الجهابذة المتمكنين ، وأنه لا يزال الخصام فى وجوهها أبداً ، فقال :

فكذا كان طريق القوم ... ولم يزل يخصم كل خصم

قلت : الإنكار على الأولياء سنة ماضية(١) ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، قال تعالى :

وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين(٢) وما قيل فى النبى يقال فى الولى ، لأنه على قدمه ، لكن حجة الأنبياء غالبة واضحة ، وحجة المنكرين عليهم واهية داحضة ، وكذلك حجة الأولياء على الأغوياء ، لا تزال قائمة غالبة ، لأنها هى الطائفة الظاهرة إلى يوم القيامة ، وهذا معنى قوله « ولم يزل يخصم كل خصم » أى يغلب كل من يخاصمه ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

(تنبيه : قوله « فهكذا » الإشارة تعود إلى تدريج المريد وتربيته بالكيفية التى تقدمت ، وهل هذه التربية تجرى فى كل زمان ؟ أو لكل زمان تربية مخصوصة ؟ الظاهر أن كل زمان تحدث له تربية مخصوصة ، لأن الأولياء على قدم الرسل ، فكما أن الحق تعالى لم يكتف برسول واحد لجميع بنى آدم لاختلاف المصالح والعوائد ، فكل زمان بعث الله فيه رسولا يخرج أهله من عوائدهم التى حجبتهم عن الله ، وكذلك الأولياء يبعثهم الله فى كل زمان يخرق عوائده .

وقد قال عمر بن عبد العزيز : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور .

ويقال فى قياسه : تحدث للناس تربية بقدر ما تعودوا من الأمور ، والله تعالى أعلم)

---

(١) أى هذا مفروغ من وجوده ، ولا بد منه ، ولكن :

لولا اشتعال النار فى ما حولها ... ما كان يعرف طيب عرف العود

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٣١ .

ثم إن هذه الطريق ميراث نبوى ، أخذه وارث عن وارث إلى خير وارث ، وهى مستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وإلى ذلك أشار بقوله :

وهى إذا ما حققت موارث ... عن خير مبعوث وخير وارث

قلت : هذه الطريقة موروثة ، أخذها عارف عن عارف إلى سيد العارفين ﷺ ولنذكر سلسلتنا تبركا واقتداء بمن ذكر ذلك ، فنقول :

أخذنا الطريق وعلم التحقيق عن شيخنا الواصل المحقق الكامل مربى السالكين ومرشد الطالبين سيدى : محمد البزيدى الحسنى ، عن شيخه القطب العارف شيخ المشايخ مولاى العربى الدرقاوى الحسنى ، عن شيخه : سيدى على ، عن شيخه سيدى : العربى ، عن شيخه سيدى : أحمد بن عبد الله ، عن شيخه سيدى : قاسم الخصاصى ، عن شيخه سيدى : محمد بن عبد الله الكبير ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن الفاسى ، عن شيخه سيدى : يوسف الفاسى ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن المجذوب ، عن شيخه سيدى : على الصنهاجى الشهير بالدواء عن شيخه سيدى : إبراهيم الخلم ، عن شيخه سيدى : أحمد زروق ، عن شيخه سيدى : أحمد بن عقبة الحضرمى ، عن شيخه سيدى : يحيى القدورى ، عن شيخه سيدى : على بن وفا ، عن أبيه سيدى : محمد بحر الصفا ، عن شيخه سيدى : داوود البلخى ، عن شيخه سيدى : أحمد ابن عطاء الله ، عن شيخه سيدى : أبى العباس المرسى ، عن شيخه سيدى : أبى الحسن الشاذلى عن شيخه القطب سيدى : عبد السلام بن مشيش ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن المدنى ، عن شيخه القطب : تقى الدين الفقير (بالتصغير فيهما) ، عن شيخه القطب : فخر الدين ، عن شيخه القطب : نور الدين عن شيخه القطب : تاج الدين ، عن شيخه القطب : شمس الدين ، عن شيخه القطب زين الدين القزوينى ، عن شيخه القطب سيدى : إبراهيم المصرى ، عن شيخه القطب سيدى : أحمد الدوانى ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد العزوانى ، عن شيخه سعد ، عن شيخه القطب : فتح السعود ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد العزوانى ، عن شيخه القطب أبى محمد : جابر ، عن أول الأقطاب سيدنا : الحسن سبط رسول الله ﷺ ، عن والده أمير المؤمنين سيدنا : على كرم الله وجهه الذى هو « باب مدينة العلم(١) » (عن نحبة

---

(١) الحديث الصحيح الذى رواه الحاكم فى المناقب من مستدركه ، والطبرانى فى « معجمه الكبير » وأبو الشيخ ابن حبان فى « السنة » (له) ورواه أيضاً العقيلى وابن عدى ولفظه =

الوجود) زمادة عين الرحمة والجود ، سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا : محمد رسول الله ﷺ عن سيدنا جبريل ، عن الرب الجليل جل جلاله وتقدست صفاته وأسماؤه .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : طريقتنا هذه مروية مسلسلة ، فطب عن فطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن لم يكن له سلسلة أشياخه فهو مقطوع ، لا يصح الاقتداء به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أن ما سلكه المريد المتقدم من المقامات والأحوال هكذا يكون سلكها شيخه ، فقال :

وهكذا الشيخ على التحقيق إذ كان مثل سالك الطريق

قلت : الإشارة تعود إلى القربة المتقدمة ، يعني أن الشيخ المحقق كان سالك الطريق مثل ما سلكها المريد ، وهذا إخبار بمعلوم ، إذ لو لم يسلكها شيخه قبله ما سلكها هو ، وقد تقدم في شروط الشيخ ذلك كله ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فمن يكن بهذه الأوصاف شيخا ومريداً فمن إنصاف

قلت : يريد أن من اتصف بهذه الأوصاف المتقدمة ، بأن كان جامعاً بين حقيقة وشريعة ، بين جذب وسلوك ، زاهداً في الدنيا ، راغباً عنها عن الأكوان بأسرها فهو مستحق بأن

= « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب » ورواه أيضا الترمذي في جامعه ، وأبو نعيم في الحلية ، وقد خرجته تخريجاً جيداً السيد / أبو الفيض المناوي في كتابه « فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي » وقال الحافظ المناوي في كتابه : « المقاصد الحسنة » بعد إيراده الأقاويل التي وردت فيه : وأورد قول الحافظ العلائي « في حكم على الحديث مع ذلك بالكذب فقد أخطأ ، قال : وليس هو من الأحاديث المنكرة التي تأباها العقول » اهـ . بتصرف . وعلى هذا فجرأة بعض الناس على تكذيب هذا الحديث جريمة كبرى ، خصوصا من لا علم عنده ، ولا دراية له بفن الحديث .

يكون شيخاً ، ومن كان على قدمه من أتباعه ، استحق أن يكون مريداً على نهج الحق والإنصاف ، وإلا فلا .

ثم ختم الفصل بقوله ليس تحتها حكم يتعلق بالفن ، فقال :

فهذه لوازم الأحكام جئنا بها تترى على نظام
وما ذكرنا فهو كالقليل إذ اختصرنا خشية التطويل

قلت : يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في هذا الفصل من تدريج المريد إلى أن يصير شيخا ، هي الأحكام التي تلزم المريد الذي يطلب الوصول ، ولوازم الأحكام ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي فهذه الأحكام اللوازم ، أي اللازمة للمريد الصديق جئنا بها تترى ، أي يتبع بعضها بعضاً ، وإنما ذكر القليل دون الكثير ، لأن كثرة التطويل موجب للملل ، ومقلل للتحصيل .

وقد قالوا : التحرير مفتاح التحرير .

وكان الزهري يقول : إذا طال المجلس حضره الشيطان ، لأنه موجب لكثرة الكلام فيوقع في التحرير ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : قال الشيخ زروق رضي الله عنه : فإن قلت : هل يصح دخول الخلوة والسلوك على هذا الأسلوب بغير شيخ ؟ قلنا : نعم ، ولكن يتعذر للنجاح لقوة العوارض وكثرتها ، فإن قيل : إن الشيخ واجب في هذه الجملة دون مجاهدة القوى والاستقامة ، وقد تقوى همة مريد في ذلك ولا يجد شيخاً ، فيهجم على ذلك ويتوقف في إثبات ولايته على رأي أحد صالح ذي بصيرة سليمة ، ثم يقوم مستعيناً بالله ، فإن الله سبحانه يمنحه على قدر همته بفضله ، وأما الرياضات والخلوات الاصطلاحية التي يذكرها أبو العباس البوني وغيره ، فأصلها ما يتعلق بالذكر المجرد ، وقد قربه في كتابه « القبس » وذكره من غير تبيين بأكل ولا صوم ولا كيفية ولا سبب ، فاعمل به إن شئت بعد تحقيق علم ، وبالله التوفيق ، انتهى .

قلت : طريقة الأسماء لا تخلو من حروف وملاحظ ، الفتح فيها بعيد ، والإخلاص فيها معدوم ، وطريق الذكر المجرد إن كان بالشيخ تمخض من ساعته ، وإن كان بغير شيخ ، فإن كان مراده الأجور أخذه وافراً ، وإن كان مراده الوصول فغاية ما يصل إليه العامة

فى الصفات ، وأما الفناء فى الذات فلا يمكن بغير شيخ ، هذا ما جرت به العادة ، وإن خرقت العادة فى فرد فلا يقاس عليه ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم شرع فى الفصل الرابع ، فقال :

الفصل الرابع فى الرد على مرديه ... وليس يدرى شأنه وقصده

قلت : مضمن هذا الفصل : تقبيح من أنكر هذا الطريق ، وتوبيخ من رد على أهلها وتزييف رأيه وتحقير شأنه ، حيث أنكر ما لم يحط به علما ، ولم يدرك له شأناً ولا قصداً إذ لو عرف شأنه لعظمه ، ولو أدرك المقصود منه سارع إليه ، ولكن كما قال القائل : « من جهل شيئاً عاداه » ، وقال تعالى — وإذ لم يهتدوا به فسيقولوا هذا إفك قديم(١) — وقال الشاعر :

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها ... فقال لها الحرمان : حسبك ما فات

وقد تقدم أول الكتاب « فصل الاجتماع » على ترجيح مذهب الصوفية على غيرهم ، وذكر هنا الاحتجاج على ترجيح علومهم على علوم غيرهم ، ومن أين نشأ الإنكار عليهم وذم المنكر عليهم ، فأشار إلى الأول بقوله :

هذا الطريق من أجل الطرق ... فافهم هديت واقتده بتق

قلت : إنما كان من أجل الطرق ، لأنه يدل على الله من أول قدم ، وخصوصاً طريق الشاذلية ، بخلاف غيره من الطرق ، فإن منها ما يدل على العمل ، ومنها ما يدل على العلم بالأحكام .

وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش : « من دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على الله فقد نصحك » .

والدلالة على الله هى الفناء فيه بالغيبة عما سواه .

ولقد سمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : صاحبنا أول قدم تدخله فى الفناء فى الذات ، ولا يحتاج إلى مجاهدة عمل ، إذا صدق فى محبته .

---

(١) الآية : ١١ من سورة الأحقاف .

وإن شئت قلت : إنما كان من أجل الطرق لأن شرف العلم على قدر شرف متعلقه ، ومتعلق هذا العلم أشرف المتعلقات ، لأن مبدأه صدق التوجه إلى الله . ومنتهاه إفراد القلب والطالب إلى الله على وجه تحقيق اليقين ، حتى يصير فى حد الشهود والعيان .

أو تقول : أوله داع إلى محبة الله ، وأوسطه داع إلى السير إلى الله ، ونهايته الوصول إلى معرفة الله .

وقالوا فى شأن المحبة : أولها جنون ، وأوسطها فنون ، وآخرها سكون .

وقال الجنيد رضى الله عنه : لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه .

وقال الشيخ الاسقلى رضى الله عنه : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لا يدرك والبحر الذى لا يترق(١) .

وقوله : « فافهم هديت » الخ : الجملة دعائية معترضة بين المعطوفين ، أى فافهم واقتد بما نقول لك ، هداك الله لطريق الحق ، وأبان لك معالم التحقيق .

وأثبت هاء السكت فى الوصل على حد قوله تعالى — فبهداهم اقتده(٢) — فيمن قرأ بها .

ثم ذكر وجه ترجيحها على سائر الطرق ، فقال :

إن العلوم كلها المعلومه ... فنونها فى هذه متهومه

قلت : إنما كانت العلوم المعلومة عند الناس « فنونا » ، أى فروعها فى جانب هذه الطريقة « متهومة » ، أى مشكوكة ، لأن غايتها لا تحصل إلا غالب الظن الراجح ، وقد يحصل الجزم المطابق عن دليل ، لكن لا يسلم من اختلاج الوهم لعدم الجزم بصحة الدليل .

---

(١) هكذا بالأصل الذى راجعنا عليه ، ولعله « والذى لا يترق » بحذف الياء للسكت ، والمعنى أنه لا يرتقى منه لتلاطم أمواجه وشدتها ، والله أعلم .

(٢) الآية : ٩٠ من سورة الأنعام .

فقد قال بعضهم : إيمان أهل علم الكلام كالخيط المعلق فى الهوى ، يميل مع كل ريح ، أو كريشة تتقلب مع كل ريح[1] ، بخلاف علم التصوف ، فإن غايته الطمأنينة والتحقيق ذوقاً وكشفاً وشهوداً ، فالعلوم كلها تحصل علم اليقين ، والتصوف يحصل عين اليقين وحق اليقين .

العلوم كلها : استدلالية وبرهانية ، وعلوم القوم : ذوقية وعيانية .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أهل الدليل والبرهان هموم عند أهل الشهود والعيان .

وقال الشبلى رضى الله عنه : ما ظنك بعلم : علم العلماء فيه تهمة ، بمعنى أنه فى محل التهمة ، وغيره فى محل التهمة ، إذ لا يخلو صاحبه من خاطر ريب وتهمة ، إذ لا تنقطع الخواطر عن القلب ، إلا إذا حصلت فيه الطمأنينة بالله ، ولا تحصل الطمأنينة إلا بصحبة أهل الطمأنينة .

وفى بعض الأحاديث « تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين ، والله ما أفتح من أفتح إلا بصحبة من أفتح[2] » .

قلت : ومما يرجح أيضاً ما قاله الباطم : أن طالب العلم الظاهر لا تجد قصده إلا معلولا ، إذ غالب طلبة العلم فساد قصدهم فيه بضبط الخطوط والحروف ، بخلاف طالب علم الباطن ، فلا تجد نيته إلا صحيحة ، لأنه مبنى على ذل النفوس وطرح الحظوظ ، فلا ينال منه شيئاً إلا من ترك حظوظه وشهواته .

ثم بين الشيخ وجه دخول التهمة فى العلوم الرسمية فقال :

إذ العلوم فى مقام البحث ... وإن هذا فى مقام الإرث

قلت : العلوم الرسمية كلها كسبية ، تدرك بالبحث عليها بالدلائل والبراهين ، فنهايتها الظن القوى ، وهذا شأن الفروع الفقهية ، لأن جلها ظنى وأما أصول الدين فنهايتها الجزم المطابق عن دليل ، فمنتهاها الإيمان بالغيب ، بخلاف علوم القوم ، فإنها مواهب وأسرار وكشوفات وأذواق تورث عن أربابها بالصحبة والمحبة والخدمة ، حتى يسرى ما فى باطن

(١) وقد روى أن بعض أهل علم الكلام (التوحيد) رؤى عند الفرغ يبكى ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : خرج الناس بأعمالهم وخرجنا نحن بقيل وقالوا .

(٢) رواه أبو نعيم مرسلا ، وهو حديث معضل .

الشيخ إلى باطن التلميذ فيتنور الباطن بنور اليقين ، ثم يغيب فى شهود رب العالمين ، حتى يصير ما كان غيبا شهادة ، وما كان علما ذوقا وحالا ، وما كان دليلا معلولا ، وما كان نظريا يصير ضروريا ، كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

طلع النهار على قلبى ... حتى نظرت بعينا
أنت دليل يارب ... أنت أولى منى بيا

غيبت نظر فى نظرى ... وأفنيت عن كل فانى
حققت ما وجدت غير ... وأمسيت فى الحال هانى

وفرق كبير بين من يكون مع الأحباب داخل الحجاب ، وبين من يكون يأخذ أجرته من وراء الباب — هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون — قوم أقامهم لخدمته ، وقوم خصهم بمحبته — كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا .

وفى نوازل المعيار : سئل ابن رشد رحمه الله عن قول الإمام أبى حامد الغزالى الإحياء فى ما ذكر معرفة الله تعالى والعلم به قال : والرتبة العليا فى ذلك للأنبياء ، ثم الأولياء العارفين ، ثم العلماء الراسخين ، ثم الصالحين ، فقدم الأولياء على العلماء ، وفضلهم عليهم .

وقال الأستاذ القشيرى فى أول رسالته : فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وخصهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، فهل هذا نحو قول أبى حامد ، وهل هذا التفضيل صحيح أم لا ، فقد قال بعض الناس : لا يتفضل الولى على العالم ، لأن تفضل أحد على الآخر إنما هو برفع درجاته عليه لكثرة ثوابه المرتب على عمله ، فلا تفضل إلا بكثرة الأعمال ، وقد ثبت أن العلم أفضل من العمل ، لأنه متعد والعمل قاصر[1] ، والمتعدى خير من القاصر ، فثوابه أكثر ، وصاحبه أفضل

فالجواب : أما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله ، فقول الأستاذ وأبى حامد فيه متفق ، ولا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال ، وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام ، بل العارفون بالله أفضل من أهل الأصول والفروع ، لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وثمراته ،

(١) يعنى أن علمه ينتفع به الناس ، والعمل قاصر على صاحبه ، فالعلم من هذه الناحية أفضل .

فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم ، من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها ، لأن ثمارة أفضل الثمرات ، ثم قال بعد ذكر ثمرات المعرفة بالله من الاتصاف بالأخلاق السنية بعد التطهير من الأوصاف الدنية : ولا شك أن معرفة الأحكام لا تورث شيئاً من هذه الأحوال ويدل على ذلك الوقوع ، فان الفسق فاش فى كثير من علماء الأحكام ، بل أكثرهم مجانبون للطاعة والاستقامة ، بل قد اشتغل بعضهم بأقوال الفلاسفة فى الشبهات والإلهيات ، ومنهم من خرج عن الدين ، ومنهم من شك تارة يترجح عنده الشك وتارة يترجح عنده البطلان ، ثم قال : فكيف يساوى بين العارفين وبين الفقهاء ، والعارفون أفضل الخلق وأتقاهم لله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه يقول — إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] — .

وأما قوله تعالى — إنما يخشى الله من عباده العلماء[2] — فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله ، دون العارفين بأحكامه ، ولا يجوز حمله على علماء الأحكام ، لأن الغالب عليهم عدم الخشية ، وكلام الله صدق ، فلا يحمل إلا على من عرفه وخشيه .

وقد روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنه ، وهو ترجمان القرآن ، فإن كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه ، فهذا من السعداء ، وإن كان من أدنى الأحوال العارفين بالله ، فهذا من أفضل العارفين ، اذ قد حاز ما حازوا وفضل عليهم بمعرفة الأحكام .

وأما قول من قال : إن العمل المتعدى خير من القاصر ، فانه جاهل بأحكام الله تعالى بل للعمل القاصر أحوال : احداها أن يكون أفضل من المتعدى ، كالتوحيد ، والإسلام والإيمان ، وكذلك التسبيح عقب الصلوات فان رسول الله صلى الله عليه وسلم فضله على التصدق[3] ، ثم قال : فان كانت مصلحة القاصر أفضل من مصلحة المتعدى قدمت على المتعدى

---

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٣) وردت فى هذا الباب جملة أحاديث ، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

« ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من قبلكم ولم يدركم من بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه ، إلا من عمل مثله: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » رواه البخارى ومسلم .

وإن كانت مصلحة المتعدى أرجح قدمت على القاصر ، فتارة تقف على الرجحان فتقدم الراجح ، وتارة ينص الشارع على تفضيل أحد العملين فتقدمه وإن لم تقف على رجحانه ، وتارة لا تقف على الرجحان ولا نجد نصاً يدل على التفضيل ، فليس لنا أن نجعل القاصر أفضل من المتعدى ، ولا المتعدى أفضل من القاصر ، لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرعية وقد لم يظهر شىء من الأدلة الشرعية لم يجز أن نقول على الله مالا نعلمه ، أو نظنه بلا أدلة شرعية ، ثم ذكر قوله ﷺ فى أبى بكر — ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى صدره[1] ، انظر بقية كلامه ذكره فى الجنائز ، والتفضيل عند المحققين إنما هو بقوة اليقين ، فمن قوى يقينه أكثر كان عند الله أكبر ، وهو الذى وقر فى صدر أبى بكر ، فسبق به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر المنكر لهذا العلم ومنشأ إنكاره ، فأشار إلى الأول بقوله :

وأنكروه ملأ عوام لم يفهموا مقصوده فهاموا

قلت : الملأ فى أصل اللغة هم أشراف القوم وعظماؤهم ، لأنهم تملأ العين بالنظر إليهم ثم صار يطلق على مطلق الجماعة ، والعوام ضد الخواص ، فالعوام هم أهل اليمين ، والخواص هم السابقون من المقربين ، فكل من حجب بسحب الآثار عن رؤية الأعمال فهو من العوام ، وكل من نفذ إلى شهود الأنوار قبل الكون أو معه أو عنده فهو من خواص المقربين ، وكل علم وفى له عوام وخواص فيه ، يعنى أن جماعة من العوام أنكروا علم الباطن ، وقالوا ليس إلا علم الشريعة الذى هو العلم الظاهر ، وأما علم الباطن فلم ينزل به كتاب ولا سنة .

قلنا : يرد عليهم بقوله تعالى فى قضية سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام — آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما[2] — فالعلم اللدنى هو العلم الموهوب ، وهو على قسمين : قسم يكشف عن سر الوجود ومعرفة الملك المعبود ، وقسم يكشف عن سر القدر وما يقع من الحوادث ، والمعتبر عند المحققين هو القسم الأول .

---

(١) قال السخاوى فى المقاصد الحسنة ، ذكره الموالى ، وقال العراقى : لم أجده مرفوعاً ، وهو عند الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من قول أبى بكر بن عبد الله المزنى .

(٢) الآية : ٦٥ من سورة الكهف .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم مقام الإحسان بقوله — أن تعبد الله كأنك تراه، ولا يمكن أن يعبد الله كأنه يراه، وهو محجوب بظلمة الآثار.

وقال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنت أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد، فأجلس بينهما كأنزوجي لا أعلم ما يقولان(٢)، فهذا التوحيد الذي كان يتكلم به النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق هو التوحيد الخاص، وهو غوامضه وأسراره التي لا تفنى إلا لأهله، وهو المسمى عند بعض الناس، ويسمى أيضاً بعلم الحقيقة، وسيأتي زيادة بيان لهذا الأمر عند قوله: «هل ظاهر الشرع مع الحقيقة: إلا كأصل الفرع في الحديقة».

قوله: «وأنكروه ملأ» هو على حد قوله تعالى — وأسروا النجوى الذين ظلموا(٣).

وقوله: فهاموا، أي تحيروا أو تلفوا وضلوا عن سلوك طريق التحقيق. وبالله التوفيق

ثم بين منشأ الإنكار وسببه فقال:

وكل من أنكر منه شيئاً ... فإنما ذاك لسبع أشيا

لجهله لنفسه الشريفه ... وكونها في أرضها خليفه

وجهلها بالعلم المعقول ... وشغله بظاهر المنقول

وسهوه عن عمل القلوب ... والخوض في المكروه والمندوب

والجهل بالحلال والحرام ... والميل عن مواهب الإلهام

قلت: ذكر سبعة أشياء هي الموجبة لإنكار العوام على الخواص، وهم أهل الباطن، الأول: جهلهم بحقيقة نفسهم وشرفها، وهو الروح في أصل نشأتها، فلما حجبت وسميت نفساً، ولا شك أن الروح التي قامت بهذا البدن: أصلها لطيفة نورانية ملكوتية جبروتية، عالمة بما كان وما يكون(٤)، وما حجبها عن هذا العلم إلا شغلها بتدبير البدن

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وأغلب كتب الحديث، وهو حديث جبريل المشهور.

(٢) خرجه الملا في سيرته (انظر الرياض النضرة) للطبري.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٣. والمقصود أنه قدم الفعل على الفاعل.

(٤) أي اعلمها الله بما كان وما يكون من أمرها خاصة، وأما على العموم، فلا.

وتحصيل أغراضه وشهواته، فكلما جاهدها وخرق عوائدها رجعت إلى أصلها، فأدركت العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وهو علم الباطن، فلو علم الإنسان أصل نفسه وشرفها، وعرف السبب الذي حجبها عن أصلها لاجتهد عليها حتى يردها لأصلها، لكن جهله بأصله تركه محجوباً بها حتى أنكر خصوصيتها، ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازي: «من عرف نفسه عرف ربه» قيل من عرف نفسه كيف كانت فاجتهد عليها حتى ردها لأصلها فقد عرف ربه، وقيل: معناه من عرف حقيقة نفسه، فقد عرف ربه، لأنه حصل مقام الجمع وحجب به عن الفرق، والله تعالى أعلم.

الأمر الثاني: جهل كون نفسه خليفة عن الله في أرضه، قال تعالى في شأن آدم — إني جاعل في الأرض خليفة(١) — ولا شك أن الحق سبحانه ركب هذا الروح اللطيف في هذا المظهر الإنساني الكثيف، وجعله يتصرف في الكون كيف شاء، قال تعالى — هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً(٢) — وقال تعالى — وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه(٣) — وقال في الحكم «جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليملك جلالة قدرك بين خلوقاته، وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوناته، وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» فالإنسان في أصل نشأته خليفة الله في وجوده من عرشه إلى فرشه، لكن الإنسان لما جهل نفسه أشغلها بخدمة الأكوان، فسقطت عن رتبة الخلافة حين صارت مملوكة في أيدي المماليك، ولا يصح للخلافة إلا من كان حراً عن المل: والمماليك.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وفي بعض الأخبار المروية عن الله عز وجل:

«يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له».

---

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٩.

(٤) سورة الجاثية الآية: ١٣.

فكل من تحرر من رق الأكوان ورفع همته عنها ملكها بأسرها واستولت روحه على الوجود بأسره ، فصار خليفة الله فى كونه ، وأما من بقى مملوكا فى يدها فلا خلافة له .

الأمر الثالث : جهل الحس بالعالم المعقول ، والمراد به العالم الروحانى ، وهو عالم المعانى لأنه لا يدرك بالعقل ، وإنما يدرك بتصفية العقل وجوهريته ، حتى يصير سراً من أسرار الله فحينئذ يدرك عالم المعانى ، ويغيب عن عالم الأوانى ، وهو عالم الحس .

فتحصل أن من اشتغل بعالم الأشباح ، وهو عالم الحس ، وعالم الحكمة لا يدرك عالم الأرواح ، وهو عالم المعانى ، وعالم القدرة ، وأنكر على من ادعى إدراك شىء من ذلك فهو معذور كمن أنكر طلوع الشمس وهو أرمد ، كما قال البوصيرى .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويُنكر الفم طعم الماء من سقم

وسبب حجابهم عن عالم المعانى ، وهو عالم القدرة : اشتغالهم بعلم عالم الحس ، وهو علم الحكمة فاشتغلوا بعلم المعقول والاطلاع على الأقوال الغريبة وتحرير المسائل الفروعية والتعلق فيها ، وهو سبب حجاب علماء الظاهر : تجمدوا على ظاهر الشريعة وادعوا الإحاطة بها ، وأنكروا على أهل علم الحقيقة ، فضلوا وأضلوا عن طريق الخصوص ، وقد قال تعالى — وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(١) — ولو تأملوا فى سر الشريعة لوجدوها تدل على الطريقة والطريقة توصل إلى الحقيقة ، ولكن سنة الله لا تتخرم ، فلا بد من قوم يتجردون لعلم الشريعة ويحملون لواءه ، وإلا ضاعت الطريقة والحقيقة ، إذ لو ذاقوا هذا العلم لرهدوا فى سائر العلوم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الأمر الرابع : الاشتغال بعمل الجوارح الظاهرة ، والتعمق فيه ، والغفلة عن عمى القلوب وتصفيتها ، وهو سبب حجاب العباد والزهاد ، وحبستهم حلاوة عبادتهم عن شهود معبودهم وحلاوة زهدهم عن معرفة خالقهم ، فاستوحشوا من كل شىء لغيبتهم عن الله فى كل شىء فهم يكررون الخصوصية لغيرهم ، ويثبتونها لنفوسهم ، وهو الجهل المركب وهذا مع ما قبله أشد الحجاب عن الله ، ولذلك قال بعضهم : أشد حجابا عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

الأمر الخامس : الخوض فيما يحسنه العقل ويقبحه ، فما استحسنه العقل أحبوه واعتقدوه وما قبحه العقل كرهوه وأنكروه ، فوقفوا مع عقولهم فانحطوا عن مراتب الكمال ، وحجبوا عن مدارك الرجال ، فالعقل معقول ، لا يدرك من أمر التوحيد إلا افتقار الصنعة إلى صانعها ، وأما أسرار التوحيد وغوامضه ، فهو خارج عن دائرته كما قال ابن الفارض رضى الله عنه :

فثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

وهذا سبب حجاب أهل علم الكلام وقفوا مع الدليل ، وحجبوا عن المدلول ، ارتبطوا مع الدليل والبرهان ، وأنكروا الشهود والعيان ، هذا معنى قوله ، والخوض فى المكروه وهو محبوب ، ويحتمل أن يريد الخوض فى الدنيا بالاشتغال فى تحصيل محبوبها ، كالعز والجاه والمال ، والبعد عن مكروهها كالذل والفقر وغير ذلك مما تكرهه النفوس ، فإن الاشتغال بذلك حجاب عظيم عن سر التوحيد ، والله تعالى أعلم .

الأمر السادس : جهل الإنسان بما يحل له الخوض فيه وما يحرم عليه ، إذ لو تحقق ذلك وعلم ما فيه من العقوبة لانزجر وانكف عن الخوض فيما لا علم له به ، وأشغله عيبه عن عيوب غيره ، لكن لما جهل ما يضره وما ينفعه أطلق لسانه فى الإنكار على أولياء الله من غير احترام ولا احتشام ، فلا جرم أنه إن لم يتداركه اللطف يخاف عليه سوء الخاتمة .

وفى الحديث القدسى : « من عادى لى وليا فقد آذننى بالحرب(٢) » ، أو كما قال

وفى حديث آخر : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه(٣) » ، ولا تغتر بمن يدعى محبة العلم ثم يطلق لسانه فى أولياء الله فيه جهل على الحقيقة لأن ذلك سبب الرضى عن نفسه ، وأى علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ، عصمنا الله من ذلك بمنه وكرمه .

---

(١) رواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر ، وهو حديث فيه طول .

(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجه عن أبى هريرة ، وأحمد والطبرانى عن سيدنا الإمام الحسين بن على ، والحاكم فى الكنى ، وفى التاريخ ، وفى الأوسط ، وابن عساكر .

الأمر السابع : الميل عن المواهب الإلهامية والعلوم اللدنية ، وعـــدم التعريج عليها والتصديق بها ، ولا شك من لم يعرج عليها ولا يصدق بوجودها لا يتشوف إليها ولا يطلبها وعلم الباطن كله مواهب وكشوفات ، فمن لم يصدق به لا يناله أبداً ما دام منكراً له ، وقد قالوا : أول الطريق تصديق ، ووسطه توفيق ، وآخره تحقيق ، فمن لا تصديق له لا توفيق له ، ومن لا توفيق له لا وصول له لعين التحقيق ، ولذلك قالوا : التصديق بطريقة ولاية أى لأنها سبب الولاية ، والله تعالى أعلم .

هذا آخر الأسباب الموجبة للإفكار على طريق الخصوص ، فمن سلم من هذه الأسباب فتح له الباب ورفع عنه الحجاب ومنح مشاهدة الأحباب بمنة الكريم الوهاب ، وإلا بقى مع عصبة الجهال فى الحيرة والضلال ، كما أبان ذلك بقوله :

واعلم بأن عصبة الجهال بهائم فى صورة الرجال

قلت : إنما كان الجهال بهائم فى صورة الرجال ، لأن المزية التى شرف بها الإنسان على البهائم هو العقل ، والعقل نور يميز به صاحبه ما يضره وما ينفعه ، فإذا صار الإنسان يتعاطى أموراً تضره فى دينه ، وتحجبه عن ربه ، ويترك أموراً تقربه إلى ربه ، وتوصله إلى حضرة قدسه ، فقد انطمس نور عقله وصار كالبهيمة أو أضل ، قال تعالى فى شأن الكفار — إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا(١) — .

وقال بعض الحكماء : من غلب عقله على شهوته كان كالملائكة أو أفضل ، ومن غلبت شهوته على عقله كان كالبهائم أو أسفل ، والمراد بالجهل فى كلام العالم الجهل بالنفس وشرها ومن جهل نفسه جهل ربه ، ومن جهل ربه كان كالبهيمة ، فهو راجع إلى السبب الأول من الأسباب السبعة .

ثم أشار إلى تقرير السبب الثانى ، وهو جهله بكونها خليفة ، ولا تكون خليفة حتى تتحرر من رق الهوى فقال :

ومن أباح النفس ما تهواه فإنما معبوده هواه

قلت : أصل الروح فى أول نشأتها الطهارة والنزاهة ، لأنها من عالم القدس ، فتميل

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٤٤ .

إلى ما هو ذكر ربها وشهوده ، والقرب من حضرة قدسه ، فلما ركبت فى هذا القالب إطهاراً لسره وحكمه مال بها إلى أصله الطيب ، فانقلب نعيمها إلى النعيم الجسمانى وهو الشهوات الحسية ، فانحجبت بذلك عن أصلها ، فمن أراد الله سعادته وفقه لمخالفتها ومجاهدتها وقطع طريقها وهواها ، حتى ترجع إلى أصلها فيصير نعيمها فى ذكر مولاها وشهوده ، ويحكم سرها ويشرف عليها ، فحينئذ تستحق الخلافة وتتحقق بالنيابة ، فتحكم بهمتها على الأكوان ، وتتصرف فى الوجود بأسره : أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كنت الأكوان معك

ومن أراد الله خذلانه وهوانه بعدله ، أشغله بشهواته الدنية ومألوفاته الجسمانية ، فاتخذ إلهه هواه ، وحجب بذلك عن مشاهدة مولاه ، فسفل فى أسفل سافلين ، وطرد عن ساحة رب العالمين ، فمن أباح نفسه وأعطاها كل ما تهواه فإنما محبوبه ومعبوده هواه ، وضل بذلك عن طريق الوصول إلى مولاه ، قال تعالى — أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله(١) — فاتباع الهوى يصد عن سبيل الهدى قال تعالى — ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله(٢) — ويخمد نور السريرة ، ويطمس شعاع البصيرة .

قال الشاعر :

إن النفوس إذا تهوى على شهوة ولم تجد عن هواها زاجراً حكما

وهو أيضاً سبب الذل والهوان والالتحاق بحزب الشيطان .

قال الشاعر :

لا تتبع النفس فى هواها إن اتباع الهوى هواها

وقال بعضهم : « الهوى شرك الردى » أى شبكته ومصيدته ، وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى تقرير السبب الثالث ، وهو الجهل بالعالم المعقول فقال :

تائه ما يصل بالنسيب جهل البعيد منه والقريب

(١) الآية : ٢٣ من سورة الجاثية .
(٢) سورة ص ، الآية : ٢٦ .

قلت : اللبيب هو الكامل العقل ، والبعيد منه هو ظلمة الحس ؛ والقريب منه هو نور المعانى ، الذى هو أصله وفصله .

أو تقول : البعيد من الإنسان هو ظلمة الأوانى ، والقريب منه هو نور المعانى المنيرة للأوانى .

أو تقول : البعيد منه التجليات المنفصلة عنه فى الحس ، كالسموات والأرضين ، وما بينهما ، والقريب منه جسمه المتصل به ، والكل متصل فى المعنى ، كما قال الششترى فيه

« متحد المعنى فى كل حى »

فينبغى أن يعرف فى الجميع فلا يجهل .

أى يحسن بالليب أن يجهل ما هو بعيد منه من ظلمة الحس ؛ وما هو قريب منه من نور المعانى ، فنور روحك أقرب إليك من ظلمة حسك ، لكن لما انطمست البصيرة اشتغل الروح بتدبير هذا الجسم وتحصيل شهواته وأغراضه ، فسقطت فى أسفل سافلين ، وبعدت من حضرة رب العالمين ، فتركت ما هو قريب من نور حضرة الحبيب ، واشتغلت بما هو بعيد من ظلمة الجسم : فى تحصيل أغراضه وتوفير شهواته ، فارتبطت فى عالم الأشباح ولم ترجع إلى عالم الأرواح ، وهو عالم المعانى ، بل أنكرته بالكلية ؛ ولو انفتحت البصيرة لشاهدت الأنوار الحاجبة الماحية للأغيار أقرب إليها من كل قريب ، قال فى الحكم

« شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده : لا عدمك ولا وجودك . كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان[1] » .

وراجع الشرح ففيه تفسير هذه المعانى ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر تقرير السبب الرابع ، وهو الغفلة عن عمل القلوب ، فقال :

كيف يرى فى جملة السباق ... من حظه مع الحظوظ باق

قلت : السباق جمع سابق ، والحظوظ هى الشئون والشواغل : جمع حظ .

أعلم أن الناس على قسمين : أهل اليمين ، والسابقون ، فأهل اليمين هم المشتغلون بإصلاح الظواهر وتدبير شئونها ، وما يصلح بها جلباً ودفعاً عاجلا وآجلا ، والسابقون هم

(١) هذا حديث شريف لفظه — كما فى ابن كثير جـ٢ ص ٤٣٧ : « كان الله ولا شىء قبله وفى لفظ « ولا شىء غيره » وفى لفظ « ولا شىء معه » وذكر أنه مخرج فى الصحيحين .

المشتغلون بإصلاح القلوب والسرائر ، وهم المقربون الغائبون عن رؤية أنفسهم ، الباقون بشهود ربهم ، فكل من اعتنى بإصلاح ظاهره فاته إصلاح باطنه ، وكان من أهل اليمين ، وكل من اعتنى بإصلاح باطنه كان من السباق ، وحشر فى زمرة المقربين .

قال الشيخ أبو الحسن : « غب عن إصلاح ظاهرك إن أردت فتح باطنك » فكيف يرى الإنسان ويظهر فى جملة السباق ، ويلتحق بأهل الجد والاستباق ، وحظه مصروف لتحصيل حظوظه وشئون ظاهره الحسية ، وهمته واقفة مع عوائده وشهواته الوهمية ، وكيف تخرق تلك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد .

ولا بد من صحبة شيخ عارف ، ينقلك من العمل الظاهر إلى عمل الباطن ، وإلا بقيت مع عوام المسلمين من أصحاب اليمين تنكر مقامات المقربين .

وبين عمل القلوب وعمل الجوارح ما بين عمل السر والعلانية .

وقال بعضهم : الذرة من أعمال القلوب ، أفضل من أمثال الجبال من عمل الجوارح ، والله تعالى أعلم .

ثم قرر السبب الخامس ، وهو الخوض فى المكروه والمحبوب ، فقال :

متى يجد جواهر المعانى ... من قلبه على الدوام عانى

قلت العانى هو : الأسير ، وفى الحديث « فكوا العانى وأطعموا[1] الجائع » وجواهر المعانى هى أسرار الذات فى أنوار الصفات .

أو تقول : هى أسرار الجبروت وأنوار الملكوت .

أو تقول : هى : المعانى اللطيفة القائمة بالأوانى الكثيفة ، فإذا ظهرت المعانى تلطفت الأوانى ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى الله عنه :

ولطف الأوانى فى الحقيقة تابع ... للطف المعانى ، والمعانى بها تسمو

وقال : فى الحكم « ولولا ظهوره فى المكونات ما وقع عليها وجود أبصار ، ولو ظهرت صفاته لاضمحلت مكوناته .

(١) الحديث بنصه : « فكوا العانى ، وأجيبوا الداعى ، وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض » رواه أحمد والبخارى .

فالصفات معانى والأكوان أوانى : لاتنظر إلى الأوانى ، وخض بحر المعانى لعلك تراني .

وقال أيضاً : أباح لك أن تنظر فى المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذات المكونات — قل انظروا ماذا فى السموات(١) — فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات ، لئلا يدلك على وجود الأجرام ، فالأجرام كالصدف ، والمواقيت المعنى ، فمن وقف مع الصدف فقد حجب عن جمال المواقيت الباطنة ، فمن كان قلبه مصروفاً إلى ظواهر الأجرام مشغوفاً بحبها أسيراً فى يدها محموراً بصور خيالها ، لا يطمع أن يذوق حلاوة المعانى ، ولا تشرق عليه أنوارها :

وكيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته .

أم كيف يدخل إلى الله وهو مكبل بشهواته .

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته .

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

فمتى يجد فى قلبه بهجة جواهر المعانى من قلبه على الدوام عانى (أى أسير) فى قيد هواه الجسمانى ، متعوب فى خدمة الأوانى ، يقرب هذا ويبعد هذا ، يحب هذا ويبغض هذا ، يقبح هذا ويحسن هذا ، يصغر هذا ويكبر هذا ، فما دام هذا شأنه لا يطمع أن يطلع على بهجة المعانى ، ولا يترقى إلى العالم الروحانى ، وإنما وطنه العالم الجسمانى سكناً على أهل المعانى إلا أن يتداركه الله بلطف ربانى ، فينهض بخوف مزعج أو شوق مقلق ، وما ذلك على الله بعزيز .

ثم قرر السبب السادس من أسباب الإنكار ، وعنه ينشأ تضييع العمر والاشتغال بالفضول ، فقال :

لم يتصل بالعالم الروحانى من عمره على الفضول حانى

قلت : الحانى على الشىء هو المكب عليه والمنهمك فى محبته بكليته ، والعالم الروحانى هو عند العالم الجسمانى ، فالعالم الروحانى هو عالم الملكوت ، والعالم الجسمانى هو عالم الملك

(١) الآية : ١٠١ سورة يونس .

والملكوت ، فالعالم الروحانى هو عالم التلطيف ، والعالم الجسمانى هو عالم التكثيف ، فالتلطيف هو التعريف ، والتكثيف محل التكليف ، أو تقول العالم الروحانى هو عالم الأرواح ، والعالم الجسمانى هو عالم الأشباح ، أو تقول : العالم الروحانى هو عالم القدرة ، والعالم الجسمانى هو عالم الحكمة ، أو تقول : العالم الروحانى هو عالم الجمع ، والعالم الجسمانى هو عالم الفرق ، أو تقول : العالم الروحانى هو عالم شهود الربوبية ، والعالم الجسمانى هو محل ظهور العبودية ، وهذه التعبيرات معناها واحد ، وإنما ذكرتها للإيضاح ، واعلم أن محل عالم الأرواح وعالم الأشباح عند أهل التحقيق إذ الأرواح لا تظهر بغير أشباح ، والأشباح لا تقوم بغير أرواح ، فكل قوم غلبت بشريتهم على روحانيتهم ، وظلمتهم على نورهم ، وملكهم على ملكوتهم ، لم يروا إلا الأشباح تظهر وتعدم ، وهم أهل الحجاب من أهل السلوك .

وقوم غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، ونورهم على ظلمتهم ، وملكوتهم على ملكهم ، لم يروا إلا الأرواح تظهر وتبطن .

وإن شئت قلت : لم يروا إلا الأنوار تكثفت وتدققت من بحار الجبروت إلى رياض الملكوت ، وهم أهل العرفان من أهل الشهود والعيان .

أو تقول : هم أهل الجذب والفناء ، فهم غرقى فى بحار الأنوار ، مطموس عليهم الآثار ، لم يفيقوا من سكرتهم وصحوا ميزوا بين الأشباح والأرواح ، وبين القدرة والحكمة ، فأعطوا كل ذى حق حقه ، ووفوا كل ذى قسط قسطه ، ولم يحجبوا بجمعهم عن فرقهم ، ولا بفرقهم عن جمعهم ، وهم الكمل رضى الله عنهم ، وإنما عمى عالم المعانى بالعالم الروحانى لأن من عرفه وكوشف به لا يرى إلا الأرواح تكثفت بالقدرة واحتجبت بالحكمة كما قال بعض العارفين :

وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لاله فهم

والصقيل على الخرقة الأزلية ، ثم قال :

وهمت بها روحى بحيث تمازجا اتحـ ـاداً ، ولا جرم تخلله جرم(١)

(١) وفى هذا رد منه على عمى البصيرة الذين اتهموا الرجل بالاتحاد والحلول ، وهو رضى الله عنه ما قالوا ، لأن قوله «ولا جرم تخلله جرم» يفيد أن الاتحاد هنا أمر معنوى ، كما تقول : هذا الرجلان رأسان فى عمامة ، أى هما متطاوعان فى كل شىء فالأمر إذن واضح ، ولكن عمى البصائر هو مصيبة هذا الزمن ، ونسأل العافية والسلامة من تكفير المسلمين ، فما بالك بالأولياء والعارفين .

فأهل عالم الأرواح لا يرون الأجرام ولا الأشباح ، وإنما يرون الأرواح تتكلفت فى تماثيل الأشباح ، وإذا ردوا إلى رؤيتها رأوها قائمة بالله . ومن الله ، وإلى الله ، ولا شىء سواه ، رأوها أوانى حاملة للمعانى .

أو تقول : رأوها مغارف يستى منها شارب المعارف ، ولا يستى من هذه الأوانى خمـــرة المعانى إلا من هو عن حظوظه فانى ، لا يتصل بالعالم الروحانى : من هو مع العالم الجسمانى ، لا يترقى إلى العالم الروحانى ، من كان فى أيام عمره على الفضول حانى ، وأنشدوا :

بقدر الكد تكتسب المعالى ... ينـال العز من سهر الليالى
تريد العز ثم تنـام ليلا ... يغوص البحر من طلب اللآلى

وكل ما يشغل العبد عن الترقى إلى الحضرة فهو فضول ، سواء كان عملا حسياً أو عملا وهمياً أو غير ذلك مما لا يحصى ، والله تعالى أعلم .

ثم قرر السبب السابع ، وهو الميل عن مواهب الإلهام ، فقال :

ليس يرى مع المعانى دان ... من قلبه فى عالم الأبدان

قلت : الدانى هو القريب ، والمراد بالمعانى أسرار عظمة الربوبية وأنوار الإلهية . وهى لطيفة شريفة رفيعة منيفة ، رفيعة المدارك دقيقة المسالك ، لا يطلع إلا قلب سرى ، أو روح عرشى ، أو سر جبروتى ، قد ارتفعت همته عن سائر الأكوان ووحدت روحه عن عالم الأبدان ، إلى طلب الشهود والعيان ، فنى عن وجوده فى شهود معبوده ، وفرغ قلبه من الأغيار بملأه بالمعارف والأسرار ، فليس يقرب من ساحة المعانى من كان قلبه فى الهم الجسمانى ، من اشتغـــل بخدمة الأشباح لا يترقى أبداً إلى عالم الأرواح ، من اعتنى بجسمه جسمه مات فى سجن غمه وهمه .

سأل سهل رضى الله عنه عن القوت ، فقال : هو الحى الذى لا يموت ، فقيل : إنما سألتك عن القوام ، فقال : القوام هو العلم ، قيل : سألناك عن الغذاء ، فقال : الغذاء هو الذكر ، قيـــل : إنما سألناك عن طعم الجسد ، فقال : مالك والجسد ، دع من تولاه أو لا يتولاه آخراً ، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه ، ألم رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها ، وأنشدوا :

كل حقيقتك التى لم تكمل ... والجسم دعه فى الحضيض الأسفل
أتكمل الفانى وتترك باقياً ... هملا ، وأنت بأمره لم تعقل
والجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تحصله به لم يحصل
يفنى ، وتبقى دائماً فى غبطة ... أو شقوة وندامة لا تنجل
أعطيت جسمك خادماً لخدمته ... أتملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت فى حبلاته ... ما دام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطيع بلوغ أعلى منزل ... ما بالله يرضى بأدنى منزل

وقال آخر :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران ؟
عيبك بالنفس فاستكمل فضيلتها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

قلت : وتكميل فضيلة النفس هو تطهيرها وتهذيبها وتقريبها من حضرة ربها ، فمن يطهرها ولم يهذبها فقـــد بخسها ونقصها ، قال تعالى (١) قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ـــ .

وفى الحكم ، أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق سمعاً ومن حضرته قريباً » .

فإذا خرج العبد من أوصاف بشريته ترقى إلى مقام الروحانيين ، فيشاهد حينئذ أنوار ربه ، ويحظى بمزالفته وقربه ، ولذلك زاد فى الحكم بعد هذه الحكمة متصلا به « الحق ليس بمحجوب عنك ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه » إلخ .

كأنه يقول : ما حجبك عنه إلا أوصاف البشرية التى أنت محجوب بها ، فإذا زالت عنك زال حجابك واتصلت برتبة الشهود وعرفت الملك المعبود ، وبالله التوفيق وهو الهادى إلى سواء الطريق .

وإلى هذا فى الجملة أشار بقوله :

وهما ترقى مادة الموضوع ... يأخذ نجم الدرك فى الطلوع

(١) الآيتان : ٩ و ١٠ من سورة الشمس .

قلت : الموضوع هنا هو الجسم الموضوع لظهور الروح وقيامها به ، فهو كالقالب لها أو كالصدف ، ومادته ما يقوم به في العادة كالأكل والشرب واللباس ، ويدخل فيه ما يقوم به معناه كالعز والجاه والمال وغير ذلك من مكملاته ، فما دامت النفس مشتغلة بتحصيل هذه المادة جلباً ودفعاً ، تحصيلا وتكميلا ، فهي مرتهنة به ، محبوسة معه ، كيف يرحل القلب إلى الله وهو مكبل بشهواته .

وللششترى رضى الله عنه :

فارفض الخلق وارقا ترتق عن ظلالك
واسبق الخلق سبقا ثم غب عن فعالك
وافن في الحب عشقاً فالمراد في زوالك

فما دام العبد مقبلا على دنياه ، مشتغلا بتحصيل حظوظه وهواه ، لا يطمع في الرحيل إلى حضرة مولاه ، فإذا غاب عن مادة حسه ، وزهد في نفسه وفلسه وجنسه ، يأخذ نجم إدراكه في الترقي إلى حضرة قدسه ، فلا يزال يمشي في نور نجم توحيد الأفعال ، إلى أن يطلع عليه قمر توحيد الصفات ، ثم تشرق عليه شمس توحيد الذات ، فيقول بلسان حاله :

طلعت شمس من أحب بليل فاستضاءت ، فما تلاها غروب
إن شمس النهار تغرب بليل وشمس القلوب ليست تغيب

وقال آخر :

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس سارى
الناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار

وقال سيدي عبد الرحمن المجذوب :

طلع النهار على الأقمار ولا أبقى إلا ربي
الناس زارت محمد وأنا أسكن لي في قلبي

وقلت في عينيتي :

تبدت لنا شمس النهار وأشرقت فلم يبق ضوء النجم والشمس طالع
تنحى رداء الصون عن كون ربنا فسرنا إلى نور الحبيب نسارع

ثم تأسف الناظم على قلة من يساعده في وقته على حاله ، فقال :

ياحسرتي إذلا مجد راكب يصحبنا في هذه المواكب

قلت : الموكب هو : الجماعة ركباناً ومشاة والجمع مواكب ، وكأنه رضى الله عنه لم يجد في زمانه من يساعده على هذا العلم لأنه عزيز وأهله أعز من كل عزيز ، وغالب الناس إما مشغول بدنيا ، أو مفتون بدعوى ، أو مبتلى بهوى ، وإن كان الزمان لا يخلو منهم فهم أقل من القليل ، وأعز من العزيز ، وأغرب من عنقاء مغرب ، لكن لا ينسحب ذلك على كل زمان ، فإن النور النبوي تارة ينبع ويظهر فيظهر أهله لصلاح ذلك الزمان ، وتارة يخفى مع وجوده ، فيخفى أهله لفساد ذلك الزمان ، فالعدد لا ينقطع ، لكن تارة يريد الله تعالى إظهار أوليائه كزماننا هذا ، والحمد لله ، وتارة يريد الحق تعالى إخفاءهم لحكمة أرادها الله تعالى ، والله يحكم لا معقب لحكمه ، والله تعالى أعلم .

ثم تأسف ثانياً على قلة من يبحث معه في هذا العلم فقال :

يا معشر الإخوان هل من سائل أخبره عن هذه المسائل

قلت : المذاكرة في هذا الفن من الأمور المؤكدة ، فلا بد من صحبة إخوان يخوض معهم في هذا الفن ، وقد قالوا : فهم سطرين أفضل من حفظ سفرين ، ومذاكرة اثنين أفضل من هذين ، وكما أن الذكر اللساني الجماعة فيه أفضل ، كذلك الذكر القلبي ، وهي الفكرة الجماعة فيه أفضل من الانفراد ، والجماعة في الفكرة هي المذاكرة مع أرباب الفن ، فإن إدراك فكرات متعددة أحسن من إدراك فكرة واحدة ، وهذا كله مع من دخل بلاد المعاني ، وإلا فاستعمال فكرة واحدة أفضل من الاجتماع مع غيره . وقال سيدي علي العمراني : الجلوس مع العارف أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العامة ، وفضل الصحبة أمر شهير لما فيه من التعاون ، قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى(١) .

وأوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك إخواناً ، وكل أخ أو صاحب لا يوافق على مسرتي فارفضه ، فإنه لك عدو ، أو كما قال .

وقال ابن عباد رضى الله عنه في نظم الحكم :

(١) الآية : ٢ من سورة المائدة .

إن التواخي فضله لا ينكر ... وإن خلا شرطه لا يشكر
والشرط فيه أن تواخي العارفا ... عن الحظوظ واللحوظ صارفا
مقاله وحاله سيان ... ما دعوا إلا إلى الرحمن
أنواره دائمة السرايه ... فيك ، وقد حمت بك الرعايه
وقاصد لعاقد هذا الشرطا ... بصحبة يعقدها قد أحطا
لأنه يرى بها محاسنه ... ففسه ذات اغترار آمنه

وهو ظم أقوله ، لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ، ربما كنت مسيئاً فيراك لإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوء حالاً منك ، وهذه النصيحة تصدق بصحبة الشيخ والإخوان ، وإن كان ابن عطاء الله إنما قصد بها الشيخ ، والله تعالى أعلم .

ثم تأسف على ذهابهم وانقراضهم فى زمانه ، فقال :

وا أسفا يا فتية الوصول ... على انصرام حبلها الموصول

قلت : الأسف هو التحسر ، والفتى هو من كسر صنم نفسه ، قال تعالى فى شأن الخليل - قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم[1] .

وفتية الوصول : هم العارفون بالله ، لأنهم أهل الوصول والتمكين ، والانصرام هو الانقطاع . وكان طريق العارفين كانت فيما سلف موصولة بحياة أربابها ، مرتبطة بتحصين ثم انصرمت وانقطعت بموت أربابها وانقطاع موادها وأسبابها ، وهذا كما قال الناظم :

أهل التصوف قد مضوا ... صار التصوف مخرقه
صار التصوف ركوة ... وسجادة مرقعه
صار التصوف سبحة ... وتواجداً ومصلقه
كذبك نسك ليس ذى ... سنن الطريق الملحقه[2]

فأسف الشيخ وتحسر على انقطاع هذا الطريق بانقطاع أهلها وناداهم وإن كانوا ميتين زيادة فى التحسر ، فكأنه يقول يا أسفى يا أولياء الله على انقطاع طريقكم بعد وصلها .

---

(١) الآية : ٦٠ من سورة الأنبياء .
(٢) هذا فى زماننا ، فكيف بزماننا الذى استباحوا فيه المساجد ودور العبادة بشرب الدخان والتنباك والمزمار والطبل والرقص والفجور بدون حياء ولا أدب .

بعد ظهورها ، وقد تقدم له(١) هذا المعنى فى أول الكتاب .

ثم شوق إلى اللحوق بهم ومشاركتهم فى مقاماتهم ، فقال :

لو أبصر الشخص اللبيب العاقل ... لم يعتقل عن هذه المعاقل

قلت : الاعتقال هو : الربط والحبس ، وهو عقال البعير ، والمعاقل هى المراتع التى يعقل فيها الخيل لترتع ، ولا يكون إلا خصبا ، كالروض ونحوه .

يقول رضى الله عنه : لو أبصر العاقل بنور بصيرته ونظر ما خص الله أولياءه من معرفته ، وما منعهم به من النزهة فى معرفته ، لم يعتقل ويحابس عن هذه الرياضات ، والمراتع التى يرتع فيها الذاكرون وتتنزه فى رياضها العارفون ، ولم يقنع بخيالات الدنيا التى لا حقيقة لها ، وشهواتها الدنية التى لا بقاء لها ، قال تعالى :

أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون[1] .

قال فى التنبيه : وحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس إليها ، وهى لا تفى بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها ، فتجاذبوها بينهم ، فتكدر عيشتهم ، ولم يحصلوا على كفاية أغراضهم ، كما قيل :

أرى أشقياء الناس لا يشبعونها ... على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت قليلا كأنها ... سحابة صيف عن قريب تقشع

وقال سهل رضى الله عنه للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول اسم منه فى الدنيا .

وقال الحسن رضى الله عنه : كيف يسمى عاقلا وهو يصبح ويمسى فى الدنيا ومباهاة بعضها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب ، أولئك هم الخاسرون ، أولئك هم المفسدون ، أولئك هم الجاهلون

قلت : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض مواعظه « إن من علامات العقل التجافى

---

(١) قوله « له » أى للشيخ رحمه الله
(٢) الآيات من ٢٠٥ - ٢٠٧ من سورة الشعراء .

من دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور[1] .

وقال أبو على الثقفى رضى الله عنه أفى من أشغال الدنيا إذا أقبلت وأنى من حسراتها إذا أدبرت ، والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شغلا وإذا أدبر كان حسرة ، وقد قيل فى معناه :

ومن يحمد الدنيا لشىء يسره ... فسوف لعمرى عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثير أهمومها

وقيل لأبى القاسم الجنيد رضى الله عنه : متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل ؟ فقال : « إذا كان للأمور ميزاً ولها متصفحاً ، ولما يوجبه عليه العقل باحثاً ، يلتمس بذلك طلب الذى هو أولى ليعمل به ، ويؤثره على سواه ، فإذا كان كذلك فمن صفة العقلاء وكوب الفضل فى كل أحواله بعد إحكام العلم بما فرض عليه ، وليس من صفة العقلاء إغفال النظر لما هو أحق وأولى ، ولا من صفتهم الرضى بالنقص والتقصير ، فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله ترك التشاغل بما يزول ، وترك العمل بما يفنى ويتقضى ، وذلك وظيفة كل ما سوت عليه الدنيا ، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسهو حائل ، يصده التشاغل به والعمل به عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها وتمها ويأبد سرورها ، ويتصل بقاؤها ، وذلك أن الدين يدوم نفعه ، ويبقى على العامل حظه ، وما سوى ذلك زائل مردود ، مفارق موروث ، يحاف مع تركه سوء العاقبة فيه ، ومحاسبة الله عليه ، وكذلك من صفة العاقل تصفحه للأمور بعقله ، والأخذ منها بأوفره ، ذلك قوله تعالى — الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب[2] —

---

(١) وفى لفظ آخر رواه مسلم وابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » ، قال ابن مسعود : قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام — وذكر الحديث إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل : يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال : نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله .

(٢) الآية ١٨ من سورة الزمر

ذلك وصفهم الله تعالى ، وذوو الألباب هم ذوو العقول ، وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها ، وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعا فى العاجل والآجل ، وإلى ذلك ندب الله من عقل فى كتابه » .

انتهى كلام الجنيد رضى الله عنه ، وهو فى غاية الحسن لتفسير العاقل ، من الله علينا باستعماله آمين :

وإلى هذا العاقل وجه الناظم الخطاب بقوله :

يا صاحب العقل الحصيف الوافر ... إياك أن تصدمك الحوافر

قلت : الحصيف بالمهملة والفاء المروسة هو : المحكم المتقن ، وثوب حصيف أى محكم النسج ، وهو ضد الخفيف ، والصدم هو الرطم بلغتنا .

يقول رضى الله عنه : يا صاحب العقل الكامل لا ترض لنفسك بالغفلة والتوانى والتقاعد عن مراتب الرجال أهل المعانى ، فتقعد فى طريق السير حتى تزحم فيك الرجال ، ويسبقوك إلى رتبة الكمال ونيل كرامة الوصال ودخول جنة الكمال ، فتندم حيث لا ينفع الندم ، وقد زلت بك القدم ، وأنشدوا :

السباق السباق قولا وفعلا ... حذر النفس حسرة المسبوق

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وجد بسيف العزم سوف فإن تجد ... تجد نفساً فالنفس إن جدت تجد

والتنافس فى الطاعات ونيل المراتب محمود قال تعالى — وفى ذلك فليتنافس المتنافسون[1] — ولا ينبغى أن يجعل الإنسان مجاهدته فى مقابلة هذا الحرف ، بل يجاهد نفسه فى تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، ولا يلتمس بذلك حظا ولا حرفاً ، فبذلك يتحقق الإخلاص ويلحق بدرجة الخواص ، والله تعالى أعلم .

(ثم) ينبهك على ارتحال الدنيا عنك إن لم ترحل عنها بقلبك فقال :

لقد غدا الكون لديك سافر ... إن لم تكن فيه كما المسافر

---

(١) الآية ٢٦ من سورة المطففين

قلت : غدا بمعنى : صار ، والسافر الخالى من الشىء ، وقد يراد به المسافر ، يقال سفر فلان فهو سافر ، ويجمع على سفر كراكب وركب .

يقول رضى الله عنه : لقد صار الكون مسافراً عنك بموتك إن لم تسافر عنه بهمتك .

قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل(١) » ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح(٢) » .

يقول لقد صار الكون خالياً عندك من الخير إن لم تزهد فيه وتسافر عنه بهمتك وتشتغل فيه بطاعة ربك .

والحاصل أن الإنسان والكون يتسابقان ويتصارعان ، فمن سبق الكون وغلبه برفع همته عنه والغيبة عما فيه ، والزهد فيما اشتمل عليه خدمه الكون بأسره ، وصار عوناً له على السير إلى ربه ، بل يصير عبداً له ، يتصرف فيه بهمته كيف شاء ، قال الشاعر :

لك الدهر طوع والأنام عبيد ... فعش : كل يوم من أيامك عيد

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وفى سكرة منها ولو عمر ساعة ... ترى الدهر عبداً طائعا ، ولك الحكم

وقال فى الحكم (أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك) .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى « يا دنيا اخدمى من خدمنى وانصبى من خدمك(٣) » .

---

(١) رواه البخارى عن عبدالله بن عمر ، وزاد أحمد والترمذى وابن ماجه . « وعد نفسك من أهل القبور » ، ورواه بتمامه أيضاً البيهقى فى شعب الإيمان ، والعسكرى .

(٢) هذا حديث رواه عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظه : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك ، فإنك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدا » (رواه البخارى وابن حبان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « الدنيا طالبة ومطلوبة ، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستكمل رزقه(١) ، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه(٢) » .

ومن سبقه الكون وغلبه بالرغبة فيه والحرص على ما اشتمل عليه ، بقى فى يده أسيراً ، وفى سجنه رهينا ، وعن ربه بعيداً ، فإذا مات صار فى قبره فريدا ، وبسبب ذلك عدم العلم والفهم وانقياده للحدس والوهم ، كما قال الششترى رضى الله عنه :

تقيدت بالأوهام لما تداخلت ... عليك ونور العقل أورثك السجنا

ولا يتخلص الإنسان من سجن الأكوان حتى يخلع نعله عن الكونين ، ويتخطى بهمته حظوظ الدارين ، كما قال القائل :

وعن الكونين كن منخلعاً ... وأزل ما بيننا من بيننا

وقال بعضهم : « طالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير ، فإذا تحرر العبد من رق الحظوظ ، فقد تحقق سفره إلى ربه وظفر بوصله وقربه حققنا الله بمنه وكرمه وإلا بقى موثقاً بحبل هواه ، مكبلا فى قيد حظوظه ومناه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

يا موثقاً فى موثق المماليك ... تزهو أراك اليوم زهو المالك

قلت الموثق : المحبوس ، والوثائق ما يحبس به ، والزهو الترفع والتكبر .

يقول رضى الله عنه : يا محبوساً فى وثاق شهواته وحظوظ نفسه ، لقد كنت حراً وهى مملوكة لك ، لو غبت عنها فى محبة خالقها لخدمتك ، فلما شغفت بحبها وخدمة نفسك فى طلبها صرت مملوكا لها أسيراً فى يدها ، فابك على نفسك بكاء الثكلى ، واضرع فى فكاك نفسك بين يدى مولى ، فعسى أن يفك أسرك ويصلح أمرك ويردك إلى أصلك . فتصير مالكا والهوى مملوكا ، وتصير مخدوماً والهوى خادمك ، كما قال الشاعر :

كنت عبداً والهوى مالكى ... فصرت حراً والهوى خادمى

وقال آخر :

العبد حر ما عصى طمعاً ... والحر مهما طاعه عبد

---

(١) لأن من كان فى خدمة الله سخر الله له الدنيا وكل شىء فيها .

(٢) لأنه صار عبداً للدنيا ، فهو خادمها إلى أن يخنقه الموت ، لا هو عمل لله ، ولا الدنيا بقيت له . ونسأل الله السلامة .

وفى الحكم :

أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع .

وقال أيضاً : ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً .

وقال بعض الملوك لبعض الأولياء : اطلب منى شيئاً نعطك ؟ فقال له وكيف أطلب منك وأنت عبد لعبدى ، فقال له : وكيف ذلك ؟ فقال له : أنا زهدت فى الأشياء خدمنى وأنت أحببت الأشياء فملكتك ، أو كلاماً هذا معناه لطول العهد به .

وإذا كنت أيها الراغب فى الدنيا أسيراً فى يدها ، كيف يمكنك أن تزهو وتترفع على غيرك وهو المالك ، وإنما أنت مملوك ، فتنبه لمصيبتك واعرف قدرك ، ولا تتعد طورك . واسأل الله تعالى أن يفك أسرك ، وبالله التوفيق .

ثم وبخ المخاطب على قلة الاستماع ، فقال :

يا من أعاتبه على الدوام حتى م أجفان الدوا دوام

قلت : المعاتبة : اللوم والتقريع و « حتى » بمعنى « إلى » الغائية ، و« ما » نافيه حذف ألفها للوزن ، وأجفان الدوا مبتدأ ، ودوام : خبره مخصوص مقدر رفعه ، ودوام جمع دامية : أى سائلة بالدم ، والمجرور بحتى محذوف ، والتقدير إلى أى زمان تستمر مريضة ، وليس أحدث عينك التى فى بكائها شفاؤك سائلة بالدم .

يقول رضى الله عنه : « يا من تعاتبه على الدوام ، وهو يسمع عتابى ويفهم خطابى ، ومع ذلك لم ينكف عن العناد ولم يرجع عن الانقياد ، إلى متى تبقى عليلا ، وقد أمكنك الدواء ، فكيف لا تبكى على نفسك وقد تشعب فى باطنك داء الهوى ، فإذ كان الدواء فى سكب دمعك ، فكيف لا تبكى الدم فى طلب شفاء نفسك ، وفى الحكم (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال ، لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق) اهـ .

فلا يخرج الداء من القلب إلا وارد قوى يأتى من حضرة قهار لا يصادم شيئاً إلا دمغه إما بنفحة إلهية أو بسبب واسطة شيخ كامل عارف محقق .

واعلم أن من صدق فى الطلب يبلغه الله ما طلب ، كن طالبا تجد مرشداً ، فمن طلب وجد وأنجز بالوفاء وعده ، فإذا تضرع وبكى على نفسه كما قال الناظم ، أخذ الله بيده ومنه على ولى من أولياته حتى يوصله إلى ربه ، والله أكرم من أن يلتجىء العبد إليه ويسأله إليه ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفى بعض النسخ :

يا من أعاتبه على الدوام حتى متى جفنك فى منام

وهو يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام « الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا[1] » .

وقال بعض الشعراء :

إلى كم تمادى فى غرور وغفلة وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى بملء السما والأرض أية ضيعه
أنفق هذا فى هوى هذه التى أبى الله أن تسوى جناح بعوضة[2] ؟
ورضى من العيش السعيد بعيشة مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة

ثم ذكر سبب إعراض المعاتب وعدم انزجاره ، وهو البلادة والجهل ، فقال :

كما أنت ذو وسائد عراض لاه عن الجوهر بالأعراض ؟

قلت : « كم » اسم استفهام ، يستفهم بها عن العدد ، وهى هنا الأزمنة والأوقات ، ووسائد جمع وساده ، وصرفا للوزن ، والمراد به هنا : الكناية عن عدم الفهم ، يقال « فلان عريض الوسادة » ، وعريض القفا ، إذا لم يفهم ولم يفطن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فى حاتم حيث لم يفهم قوله تعالى وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر - لحمله على ظاهره فجعل خيطين تحت وسادته وجعل ينظر بهما ويأكل حتى تبين أحدهما من الآخر ، فلما قال ذلك النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنك لعريض القفا » وفى رواية « إن وسادك إذن لعريض » على بعض التأويلات ، والجوهر

---

(١) فى المقاصد الحسنة : أنه من قول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .
(٢) إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » رواه الترمذى والضياء عن سهل بن سعد .

ها كناية عما يبقى، والأعراض كناية عما يفنى، لأن العرض لا يبقى زمانين ، يقول رضى الله عنه : كم تمكث أيها المعاند من السنين والأوقات ، وأنت فى سكرة الغفلات غبى جاهل ، لا تسمع الخطاب ولا ينفع فيك العتاب، مشتغل بالعرض الفانى عن النعيم المقيم أما تسمع قوله تعالى ـ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم[1] ـ إلى كم تبقى غليظ الطبع عريض القفا معتنياً بإصلاح جسمك الذى هو معرض للفناء ، لاهياً عن إصلاح جوهر روحك وقلبك الذى هو سبب النعيم على الدوام والبقاء ، فبادر أيها الجاهل إلى دواء قلبك قبل أن يهجم عليك الحمام ، وأنت على حبك من الأمراض والسقام ، فانهض أيها الغافل إلى خلاص نفسك بالتوبة والندم قبل أن تندم ولا ينفعك الندم ، وقد زلت بك القدم ، وأنشدوا :

أما آن للنفس أن تخشعا ... أما آن للقلب أن يقلعا
تمنى أمانى ولا مطمع ... لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى أمانى فى حسرتا ... لما فات منه وما ضيعا

وقال آخر :

وما هى الا ليلة ثم يومها ... ويوم الى يوم ، وشهر الى شهر
عطايا يقربن الجديد إلى البلا ... ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره ... ويقسمن ما يحوى الشحيح من الوفر

وقال فى الحكم (العجب كل العجب من يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

والذى لا بقاء له معه هو شهواته وحظوظه الفانية ، والذى لا انفكاك له عنه هو حكم الله وقضاؤه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر سبب حجاب الناس عن الله ، فقال :

مهما تحدث عن الأجسام ... أبصرت نور الحق ذا ابتسام

---

(١) الآيتان : ٨٨ – ٨٩ من سورة الشعراء .

قلت : قد تقدم قريباً عند قوله ، لم يتصل بالعالم الروحانى ، الخ .

الفرق بين العالم الروحانى والعالم الجسمانى ، فالعالم الجسمانى هو محل ظهور حكمته تعالى، لأن من أسمائه تعالى الحكيم ، وهو أيضاً محل لظهور آثار تصرفات الأسماء والصفات ، من إعزاز وإذلال ، وقبض وبسط ، وإحياء وإماتة ، وغير ذلك من اختلاف الآثار ، وهو أيضاً محل لظهور العبودية التى بها كمال سر الربوبية ، ومن مقتضى العبودية : الفقر والذل ، والعجز ، والضعف ، والجهل ، وهو أيضا محل ارتباط الأسباب بمسبباتها واقتران العلل بمعلولاتها ، وبهذا وقع الحجاب عن شهود مسبب الأسباب ، فوقف الناس مع الأسباب والعوائد ، وعموا عن تحصيل المواهب والفوائد ، وانهمكوا فى طلب تحصيل هذه الأسباب لتحصيل مسبباتها ، وارتبطوا معها حتى ظن أهل الجهل أنه لا بد منها ، فقد خلهم ذلك هم الرزق وخوف الخلق لضعف إيمانهم وحجابهم عن ربهم ممن أراد الله عنايته رفع الحجب عن قلبه ، فأعرض عن هذا العالم بأسره . ورفع همته إلى ربه . فلاحت له الأسرار ، وضحكت فى وجهه الأنوار ، فمهما تحدث أيها الإنسان بهمتك عن عالم الأجسام ، وحصلت لك الغيبة عنه على التمام ، أبصرت نور الحق فى وجهه مبرك ذا ابتسام ، وهى أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وما حجبك عنها إلا شغل قلبك بأمر نفسك ، فلو بعتها لربك يعوضك منها شهود أنوار قدسه ، وما حجبك أيضا عن شهود تلك الأنوار إلا وقوفك مع خيال الحس ورؤية الأغيار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

مهما ارتقيت عن قبيل الحس ... أدركت فى نفسك معنى النفس

قلت : من اصطلاحات الصوفية أنهم يعبرون بالحس عما يدركه البصر من الأجسام الكثيفة ، وبالمعنى عما يدرك بالبصيرة من المعانى اللطيفة القائمة : بالأجسام ، وهى أسرار الذات ومعانى الصفات ، فالوجود كله دائر بين حس ومعنى : الحس ظاهر ، والمعنى باطن ، فالحس كأنه ظرف والمعنى مظروف ، والحس لا ينفك عن المعنى ، ومثال ذلك الثلجة : ظاهرها ثلجة وباطنها ماء ، فالظاهر الجامد حس ، والباطن المائى معنى ، فالكون كله كالثلجة ظاهره كثيف ويسمى حسا ، وباطنه لطيف ويسمى معنى ، وفيه قال الجيلى رضى الله عنه :

وما الكون فى التمثال إلا كثلجة ... وأنت لها الماء الذى هو نابع
فما الثلج فى تحقيقنا غير مائه ... وغير أن فى حكمه عنه الشرائع

ثم ان الحق سبحانه جعل أحكام الحس مضادة لأحكام المعنى مع تلازمهما ، فأحكام

الحس أحكام العبودية ، وهى النقائص ، وأحكام المعنى أحكام الربوبية وهى الكمالات ، فمن أراد أن يطهر بالمعنى بنامها فليعب عن الحس وأحكامه ، وهذا معنى قوله « متى ارتقيت عن قبيل الحس أدركت فى نفسك معنى النفس » أى أدركت فى ذاتك معنى الروح . والروح لطيفة نورانية قائمة بالبدن ، وهى من قبيل المعانى « ومن عرف نفسه عرف ربه[1] » ولا يفرق بين روحانيته وبشريته الا من ترقى من عالم الحس الى عالم المعانى .

والحاصل : أن الحس ما أظهره الله تعالى إلا لتقبض منه المعنى ، وهى معرفة الحق سبحانه وتعالى ، فلولا ظهور الحس ما قبضت المعنى ، ولولا وجود المعنى ما قام الحس ، وهو معنى قول الشيخ أبى مدين رضى الله عنه « الحق مستبد ، والوجود مستمد ، والمادة من غير الجود ، فإذا انقطعت المادة انهد الوجود » .

فالحق تعالى مستبد[2] ، أى قائم بنفسه ، والوجود ، وهو الحس الظاهر « مستمد » من المعنى الباطنية ، فلو انقطعت مادة المعانى التى تمد الحس « انهد » الوجود أى اضمحل وتلاشى . لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته — إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا — ومعانى تضيق عنها العبارة ، وعلمنا كله إشارة ، وفيما ذكرته كفاية ، والله تعالى أعلم .

ثم عاتب من وقف مع الحس ولم ينفذ إلى المعنى ، فقال :

يا من على القشر غدا يحوم ... حتى متى عن اللب متى تصوم ؟

قلت : القشر هو ظاهر الشىء ، ويسمى الصوان بكسر الصاد ، لأنه يصون ما فى داخله ، واللب هو باطن الشىء وقلبه ، فالحس قشر والمعنى لب .

يقول رضى الله عنه : يا من وقف مع قشره الظاهر فاعتنى بإصلاح ظاهره وتدبير أمر بدنه أكلا وشربا وملبسا ومنكحا ومسكنا أو اعتنى برفعته وعزه وطلب رئاسته وجاهه ، أو اعتنى بإصلاح جوارحه الظاهرة ولم ينفذ إلى إصلاح باطنه ، وغدا ، أى صار يحوم ويدور حول القشر الظاهر « متى » تستمر صائما عن حلاوة المعانى الباطنية ، وهى

---

(١) الآية : ٤١ من سورة فاطر .

(٢) فى المختار : استبد بكذا : تفرد به قال أبو المظفر السمعانى فى « الكلام على التحسين والتقبيح من القواطع » إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ من قوله : ومعناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء (انظر المقاصد الحسنة) .

حلاوة الشهود ولذة معرفة الملك المعبود ، ولم تذق منها ما ذاقت الرجال ، ولم تزاحم على مراتب الكمال .

قال إبراهيم بن أدهم أو مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا شيئا ، قيل : وما هو يا أبا فلان ؟ قال : حلاوة المعرفة ، فكل من وقف مع الرسوم الظاهرة لا يطمع أن يذوق حلاوة المعانى الباطنية ، وكل من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق حلاوة شهود الحق تعالى ، وكل من اشتغل بحلاوة العبادة الحسية لا يذوق حلاوة المعانى القدسية ، وقد درى لشترى حيث يقول :

جميع العوالم رفعت عنى ... وضوء قلبى قد استفاق

ترانى غائبا عن كل أين ... كأس المعانى حلو المذاق

وقال ابن العريف رضى الله عنه :

ولو خطرت يوما على خاطر امرىء ... أقامت به الأفراح وارتحل الهم

واحاصل أن كل من اشتغل بالحس علما أو عملا لا يذوق حلاوة الشهود المعنى أبداً ، ولا يطمع أن ينتقل من شغل الحس إلى شهود المعنى إلا بصحبة أهل المعنى . وإلا بقى ممنوعا فى عبادة الحس على الدوام ، منكراً على أهل المعانى على الدوام ، إلا من عصم الله ، والله تعالى أعلم .

ولما ذكر المعنى (أى دوام الإنكار ممن لم يصحب أهل المعانى) أشار بقوله :

يا من إذا قيل له تعال ... لمنهج التحقيق قال : لا لا

قلت . تعال فعل أمر يعنى أقبل ، ومنهاج التحقيق هو طريق الوصول الى معرفة الحق معرفة حقيقية عيانية لا برهانية .

يقول : رضى الله عنه لهذا المنكر لطريق الخصوص : هلم إلى طريق التحقيق ، طريق أهل العناية والتوفيق ، طريق أهل الجمع بين التشريع والتحقيق .

قال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : — اهدنا الصراط المستقيم[1] — « هو الجمع بين الشريعة والحقيقة المفهومة » من قوله تعالى — إياك نعبد وإياك نستعين[2] — فلما دعا هذا المنكر إلى

(١ و ٢) الإيتان : ٤ ، ٥ من سورة الفاتحة .

منهاج التحقيق أجاب بأنه ليس من أهل هذه الطريق ، لأنها طريق الأبطال ، لا يسلكها إلا فحول الرجال ، فقال مستمراً على إنكاره لا ، لا أجيبك إلى ما دعوتنى ، إذ لا طريق أفضل مما أنا عليه ، قال تعالى — كل حزب بما لديهم فرحون(١) .

وسبب إنكار هذه الطريق مع أنها مؤسسة على التحقيق ، أمران : أحدهما أنها مبنية على قتل النفوس وخرق العوائد ، وهذا الأمر ثقيل على النفوس ، لا يقبله إلا من أراد الله وصوله إليه ، وأهلها ثقيلون على النفوس الحية ، لأن الميت لا يأوى إليه إلا مثله .

الثانى : أن عمل أهلها خفى ، محله باطنى ، بين فكره ونظره ، فكل من ينظر إلى أعمالهم الظاهرة استحقرها فى عينه ، فلا يقع بطريقتهم .

قال ابن ليون التجيبى رضى الله عنه : المنكرون على الفقراء ثلاثة أصناف : أرباب مذهب وأتباعهم ، والجامدون من الفروعية وأتباعهم ، والمتعمقون فى الأعمال المتنسون وأتباعهم(٢).

فأما أرباب الدنيا فلأن الفقراء أضداد لهم ، لرثة ثيابهم وقلة جاههم ، والنفس تبغض ضده ، والدنيا تورث القساوة وطول الأمل ، وأتباعهم يتشوفون فى غرضتهم .

وأما الجامدون من الفروعية (وهم علماء الظاهر) فإنهم يعتقدون الإحاطة بالشريعة ، وينكرون على من ترك طريقهم ، وتتبعهم العوام على ذلك ، والإحاطة بالشريعة متعذر ، ثم قال : وحقيقة الفقه ما أدى إلى ترك الدنيا وطلب الآخرة .

وأما المتعمقون فى الأعمال المتنسون(٣) فقتلهم الشيطان بكثرة الأعمال ، وجعلهم يزيدون أعمالا قد نهوا عنها ، فعظمهم الناس ، فهم ينقصون الفقراء ، لأن الفقراء لا يتصنعون ، والفقير إذا رأى أعماله أشرك ، وإذا رأى أنه قد أخلص احتاج إلى إخلاص يخلصه من شرك نفسه ، ثم قال : وقد ذهب الفقراء والصوفية مذهب أهل القرآن والحديث ، وعلومهم مكارم الأخلاق التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم ليكملها ويتممها ، وعامة الخلق محجوبون بها ، انتهى المراد منه .

ثم ضرب مثلا لمن جهل قدر نفسه وهى بين جنبيه ، فقال :

يا جاهلا من داره سكناها ... وهو يؤدى أبداً كراها

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٣ .

(٢و٣) فى المختار : الناموس : ما يتمسك به الرجل من الاحتيال ، والمقصود هنا — والله أعلم — هم أصحاب الحيل والمراوغة والمكر .

قلت : قد تقدم قوله :

ولم تزل كل نفوس الأحيا ... علامة دراكة للأشياء

أصل الروح قطعة نور جبروتى ، انظر قوله تعالى — ونفخت فيه من روحى(١) — ركبت فى هذا الهيكل نسبت أصلها وجهلت أمرها بحكمة الحكيم العليم ، فجعلت تعشق إلى أصلها وتجتهد فى معرفة خالقها ومظهرها ، وتتعب نفسها فى الخدمة الحسية طلبا للوصول ، يقال لها إلى كم تتعبين نفسك والشىء أقرب إليك منك ، اعرفى أصلك تعرفى ربك .

قال يحيى بن معاذ الرازى : « من عرف نفسه عرف ربه(٢) » ، فلما انكشف عنها حجاب الوهم وجدت نفسها فى الحضرة ، وهى الدار التى جهلت سكناها ، فاستراحت من تعبها ، ووجدت الدار التى كانت تسكن فيها ، كانت لها وهى لا تشعر ، فهى كانت مولاة الدار ، ولكن لم تشعر ، فهى بمثابة من كان يسكن داراً يظنها لغيره وهو يؤدى كراها ، فلما علم بحقيقة الأمر ترك الكراء ، كذلك الإنسان كان قبل الوصول : يظن أن المطلوب بعيد عنه ، فلما زال حجاب الوهم وجد نفسه فى الحضرة وهو لا يشعر .

وفى ذلك يقول بعض المشارقة :

قبل اليوم كنت مقيد بقيود البين ... محجوب بالوهم تحسب مفردى اثنين

لما تبدى جمالك زال عنى العين ... شاهدت عينى بعينى وصرت عين العين

وقال : بعض التلامذة لشيخه : أين الله ؟ فقال له : أسحقك الله وأبعدك ، هل تطلب مع العين أين ؟ اهـ .

وقال التشترى : فى هذا المعنى .

أنا شىء عجيب لمن رآنى ... أنا المحب والحبيب ليس ثم ثانى

---

(١) سورة ص ، الآية ٧٢ .

(٢) سبق تخريجه .

وقال غيره :

يا قاصداً عين الخبر غطـــاه أينك
الخبر الخمر منك والخبر والسر عندك
أرجع لذاك واعتبر ما ثم غيرك

وقال غيره :

كم ذاتموه بالشعبين والعلم — والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسئل عن نجد وأنت بها — وعن تهامة ، هذا فعل متهم

وقال فى الحكم (وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به ، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شىء ، أو يتصل به بشىء) .

وقال أيضاً (لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) .

فمن من قوله « من داره » ابتدائية ، وسكناها مفعول بجاهل ، والمراد بالدار ذاته الحسية ، والسكنى الخمرة الأزلية التى قامت بها ، فهو ساكن فى الحضرة وهو لا يشعر ، أى يا جاهلا بسكنى الحضرة من ذاتها وهو يطلبها ويؤدى كراءها ، والله تعالى أعلم .

ثم وبخه على جهله بنفسه الذى كان سبباً فى جهله بربه ، فقال :

أتدرى من أنت ؟ وكيف تدرى — وأنت قد عزلت والى الفكر

قلت : « والى الفكر » هو العقل ، لأنه هو الذى يلى الفكر ويستعمله ، عزله عن ذلك ، هو اشتغاله بحظوظه وهواه ، حتى بعد عن حضرة مولاه ، وهذا منه رحمه الله تنبيه وإيقاظ للغافل ، وتقريع وتوبيخ للجاهل ، يقول له : أتدرى من أنت أيها الإنسان ؟ ولماذا خلقت ؟ وما المراد منك ؟ أنت نخبة الأكوان ، وأنت فى الأصـــل قطب الزمان ، أنت المقصود الأعظم من هـــذا الكون ، فلو تفكرت فى أمر نفسك لعلمت عظمة ربك فسارعت إليه بجسمك وقلبك ، لكن عزلت عقلك عن الفكر والاعتبار ، وشغلت نفسك بالفضول والاغترار ، فلا جـــرم أنك هوت نفسك فى دار البوار ، فلو تفكرت فى عجائب نفسك لتحققت بمعرفة ربك ، قال تعالى — وفى أنفسكم أفلا تبصرون(١) — فتأمـــل فى أول

(١) الآية : ٢١ من سورة الذاريات .

نشأتك ، وفى تركيب صورتك : « فانظر رحمك الله إلى أصلك حين كنت نطفة مهينة فقلب الحق تعالى عرق دم الحيض مدداً لك فى رحم أمك ، ثم صرت علقة ، ثم مضغة ، ثم فصل سبحانه تلك المضغة إلى العظم واللحم والعصب والعروق والدم والجسد والظفر والشعر ، ووضع كل واحد منها لحكمة لولاها لاختل الجسد ، بحسب العادة ، فالعظام منها هى عمود الجسد ، فضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال من العضلات والعصب ، ربطت بها ، ولم تكن عظماً واحداً لأنه إذ ذاك يكون مثل الحجر أو الخشبة ، لا يتحرك ولا يقوم ولا يجلس ولا يركع ولا يسجد لخالقه الحى القيوم ، وجعل سبحانه العصب على مقدار مخصوص ، ولو كان أقوى مما هو ، لم تصح فى العادة حركة الجسم ولا تصرفه فى منافعه ، ثم خلق تعالى إلخ .

فى العظام لين فى غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام وشدتها ، وتتقوى العظام برطوبته ، ولولا ذلك لضعفت قوتها وانخرم نظام الجسد بحسب جرى العادة ، ثم خلق سبحانه اللحم وأعفاه وعلاه على العظام ، وسد به خلل الجسد كله ، فصار مستوياً لحمة واحدة . واعتدلت هيئة الجسد واستوت ، ثم خلق سبحانه العروق فى جميع الجسد جداول لجريان الغذاء فيها إلى أركان الجسد ، لكل موضع من الجسد عدد معلوم من العروق صغاراً وكباراً ، ليأخذ الصغير من الغذاء حاجته ، والكبير حاجته ، ولو كانت أكثر مما هى عليه أو أنقص أو على غير ما هى عليه من الترتيب ما صح شىء من الجسد عادة ، ثم أجرى الدم فى العروق سيالا خاثراً(١) ولو كان يابساً أو أكثف مما هو عليه لم يجر فى العروق ، ولو كان ألطف مما هو عليه لم تتغذ به الأعضاء ، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد : ستره كله كالوعاء ، ولولا ذلك لكان قشراً أحمر ، وفى ذلك هلاكه عادة ، ثم كساه الشعر وقاية للجلد ، وزينة فى بعض المواضع وما لم يكن فيه شعر جعل له اللباس عوضاً منه ، وجعل أصوله مغروزة فى اللحم ليتم الانتفاع به ، ولين أصوله ولم يجعلها يابسة مثل رؤوس الإبر ، إذ لو كانت كذلك لم يهنأ عيش ، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعينين ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقيط(٢) ، وجعلها سبحانه على وجه ليتمكن بسهولة من رفعها على الناظر عند قصد النظر ، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر إلى ما تؤذى رؤيته ديناً أو دنيا ، وجعل شعرها صفاً واحداً لينظر من خللها ، ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم يصونان الحلق والفم من

(١) الخثورة : ضد الرقة ، يقال لبن خاثر ، يعنى غير مائع ، والله أعلم .
(٢) السقيط : الثلج والجليد ، اهـ . مختار ، وفى الأصل والسقط ، فأصلحناه إلى ما ترى .

الرياح والمطار ، ويمتحان بسهولة عند الحاجة إلى الانفتاح ، ولما فيهما أيضاً من كمال الزينة وغيرها ، ثم خلق سبحانه بعدهما الأسنان ليتمكن بها من قطع مأكوله وطحنه ، ولم يخلق له الأسنان من أول الخلقة لئلا يضر بأمه فى حال رضاعه ، ولأنه لا يحتاج لها حينئذ لصغر فمه كثف من الأغذية ، فعوضه الله منها برأفته لين أمه دافئا فى الشتاء بارداً فى الصيف ، على قوى وصلح للغذاء الخشن خلق له الأسنان ، لأن الطعام لو جعل فى الفم وهو قطعة واحدة لم يتيسر ابتلاعه ، فيحتاج إلى طاحونة يطحن بها الطعام ، فخلق اللحيين من عظمين وركب منهما الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى ، لتطحن بهما الطعام طحنا ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة يحتاج إلى القطع ، ثم يحتاج إلى الطحن بعد ذلك ، فجعل سبحانه الأسنان على ثلاثة أصناف : بعضها عريضة طواحن كالأضراس ، وبعضها حادة قواطع تصلح للقطع كالرباعية ، وبعضها صلبة تصلح للكسر كالأنياب .

ثم جعل سبحانه مفصل اللحيين متحللا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر ، حتى يكون على الفك الأعلى على ، دوران الرحا ، ولولاهما لم يتم اضراب أحدهما على الآخر ، مثل تصفيق اليدين ، ثم جعل الفك الأسفل يتحرك حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابت لا يتحرك ، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى ، فإن رحى الحلق الأعلى يدور ، والأسفل ثابت ، ورحى الله تعالى معكوسة الأسفل يتحرك والأعلى ثابت ، ثم هب أنك وضعت الطعام فى الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان ؟ وكيف تستجره الأسنان إلى نفسها ؟ وكيف يتصرف باليد فى داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان يطوف فى جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ؟ كالمجرفة ترد الطعام إلى الرحا ، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على ابتلاعه ، إلا بأن يرتق إلى الحلق بنوع رطوبة أنبع الله تعالى فى الفم عيا نباعة على الدوام ، أحلى من كل حلو ، وأعذب من كل عذب ، فيحرك اللسان الغذاء ويمزجه بذلك الماء فيعود زلقا فيجدر فى الحلق بلا مؤنة ، ولهذا إذا أعدم الله تلك العين من خلق المريض لم يمض على الخلق شيء ، وإن مضى فبمشقة عظيمة .

ومن عجب هذه العين أنها مع عدم انقطاعها لم يكن ماؤها يملأ الفم فى كل وقت ، حتى يتكلف الإنسان طرحها ، بل جرت على وجه أبلغ فيه أن تتعدى وجه منفعتها ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم لما كنت تحتاج إلى مباشرة الطعام ، وجعله فى الفم خلق الله لك اليدين ، ولم يجعلك كالبهيمة تأكل على فمك[1] ، فأنعم عليك باليدين ، وهما طويلتان فتمتدان إلى الأشياء متصلتين على مفاصل كثيرة ، لتتحرك فى الجهات فتمتد وتنثنى إليك ، فلم تكن كالخشبة بمنزلة ، ثم جعل رأس اليدين عريضاً فخلق الكف ، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام ، هى : الأصابع ، وجعلها فى صفين بحيث يكون الإبهام فى جانب يدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجتمعة لم يحصل بها تمام غرضك ، ووضعها وضعاً إن بسطتها كانت مجرفة ، وإن جمعتها وثنيتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت آلة الضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة القبض ، ثم خلق الله سبحانه أظفاراً وأسند إليها رءوس الأصابع لتشتد بها أطرافها لكثرة حركتها والتصرف بها فى الأمور حتى لا تتفتت ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تأخذها الأصابع ، ولتحك بها جسدك ، ولما كان الشعر والظفر مما يطول ، ما فى طولهما من المصلحة لبعض الناس ، وفى بعض الأوقات . وكان ضررهما مما يحتاج إلى قطعه فى بعض الأوقات ، لم يجعلا كسائر الأعضاء فى تألم الإنسان بقطعهما ، فانظر إلى دقائق حكمة صانعك .

ثم إذا نظرت إلى الطعام كيف تجذبه الحجرة وتبلعه ؟ ثم إلى المعدة كيف تطبخه بالحرارة التى فيها ؟ ثم إذا طبخ كيف يأخذ القلب اللباب الذى صعد على وجه المعدة ؟ ثم كيف يجرى فى العروق المتصلة به من قرنك إلى قدمك ، ثم إلى نعمة الرجلين ، كيف تمشى بهما إلى حاجتك ؟ وجدت نفسك مغموراً بالنعم ، قال تعالى — وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[2] — هذه كلها نعم حسية ، فكيف بالنعم الباطنية ، كنعمة الإسلام والإيمان والمعرفة ، والعلم ، وغير ذلك مما لا يحصره العقل ولا يعده النقل — فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون[3] — ولذلك كانت عبادة التفكر قدرها عند الله عظيماً ، إذ لا يتوصل إلى هذه المعارف إلا بالتفكر .

---

(١) « على » هنا بمعنى الباء ، إذ فى كثير من الأحيان يوضع حرف عن حرف .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٤

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٦٩

ففى الحديث : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة[1] » .

وقال كعب : « من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر من التفكر » .

وقال الجنيد : أفضل المجالس مجلس الفكرة فى ميدان التوحيد .

وقال فى الحكم : « الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له » .

وفضائل الفكر كثيرة وقد شنف الغزالى فى « الإحياء » فيها الغيل ، والله تعالى أعلم .

ثم بين شرف الإنسان وعظيم قدره إن استقام مع ربه ، فقال :

يا سابقا فى موكب الإبداع ... ولاحقا فى حلبة الاختراع

قلت : « الموكب » هو الجمع العظيم ، « والاختراع » هو الإيجاد ، أشار رحمه الله إلى أن الإنسان له وجودان : أحدهما سابق فى الأزل ، والآخر لاحق فيما لا يزال ، فيحسن أن يشير بالسابق إلى الوجود الأصلى ، وباللاحق إلى التجلى الفرعى ، أو إلى أصل ظهور القبضة أولا ، ثم ظهور الفروقات ثانيا ، وهذا يناسب قوله « موكب الإبداع » ، وحديث القبضة مروى عن جابر رضى الله عنه[2] قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول شىء خلقه الله ؟ فقال : نور نبيك يا جابر ، خلقه ثم خلق منه كل خير ، وخلق بعده كل شىء ، وحين خلقه أقامه قدامه[3] فى مقام القرب اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم ، والكرسى من قسم ، وحملة العرش وخزنة الكرسى من قسم » .

وأقام القسم الرابع فى مقام الحب اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، فخلق القلم من قسم ، واللوح من قسم ، والجنة من قسم .

وأقام القسم الرابع فى مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء ، والشمس من جزء ، والقمر والكواكب من جزء .

---

(١) لم أجد فيما عدى من الكتب إلا ما روى ابن حبان فى كتاب العظمة أو ... والله صلى الله عليه وسلم قال : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

(٢) رواه عبد الرزاق فى مسنده .

(٣) أى فى مكانة التقديم والإعزاز ، وقوله « فى مكان القرب » تفسير له ، لا تحديد ، والله تعالى أعلم .

وأقام القسم الرابع فى مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، فخلق الفهم من جزء ، والعلم من جزء ، والحلم والعصمة والتوبة من جزء .

وأقام الجزء الرابع فى مقام الحياء اثنى عشرة ألف سنة ، ثم نظر الله تعالى إليه فرشح النور عرقا فقطر منه مائة ألف وأربع وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله من كل قطرة روح نبى أو رسول ، ثم تنعمت أرواح الأنبياء ، فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء ، والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة ، فى حديث طويل .

وهذا الحديث وإن كان ضعيفا ، فله شواهد تعضده .

منها حديث عمر رضى الله عنه ، قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر أترى من أنا ؟ أنا الذى خلق الله تعالى أول كل شىء نورى فسجد له[1] ، فبقى فى سجوده سبع مائة عام ، فأول شىء سجد له نورى ، ولا فخر ، يا عمر أتدرى من أنا ؟ أنا الذى خلق الله العرش من نورى ، والكرسى من نورى ، واللوح والقلم من نورى ، والشمس والقمر من نورى ، ونور الأبصار من نورى ، ونور العقل الذى فى نفوس الخلق من نورى ، ونور المعرفة فى قلوب المؤمنين من نورى ولا فخر » .

وذكر الورتجبى فى تفسير قوله تعالى ـ قل إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين[2] ـ عن جعفر الصادق : قال : أول ما خلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل كل شىء ، وأول من وحد الله فى خلقه عز وجل ذرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول ما جرى به القلم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم .

وقال فى تفسير الآية : فيها إشارة إلى أولية عليه الصلاة والسلام فى عبودية الله ، وإشارة إلى عدم وجوده فى إتيانه من العدم بنور القدم ، وانقياده فى أول تجلى جلاله .

قلت : وعلى هذا المنوال من الصوفية ، وانظر قول العارف القطب الكبير الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه فى تصليته المشهورة « اللهم صل على من منه الشقت الأسرار وانفلقت الأنوار » .

ثم قال : « ولا شىء إلا وهو به منوط » إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط » .

وقال فى بردة المديح .

وكيف تدعوا إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم[3]

---

(١) فسجد هذا النور لله رب العالمين .

(٢) الآية : ٨١ من سورة الزخرف .

(٣) لما اقترف آدم الخطيئة ، وكان قد رأى على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله =

وقال أيضاً :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ولا يعترض مثل هذا إلا جاحد محجوب ، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم حض على التفكر والاعتبار ليعرف ما عليه من النعم الغزار ، فقال :

اعقل فأنت نسخة الوجود ... لله ما أعلاك من موجود

قلت : ذكر أهل التأريخ أن الوجود كله خلقه الله على صورة الآدمي ، من عرشه إلى فرشه ، ولعل تلك القبضة النورانية النبوية كانت على صورة الإنسان ، ثم تفرعت منها الأكوان كلها ، فاختصر الله الوجود بأسره من هذا الآدمي ، فهذا دليل على شرفه على الكون ، هذا معنى قوله « فأنت نسخة الوجود » أي مختصر منه ، ويقال : الولد نسخة أبيه .

وقال الجيلي رحمه الله :

ونفسك تحوي بالحقيقة كلها ... أشرت بحد القول ما أنا خادع

وقال الششتري رضي الله عنه :

« وأنت مرآة للنظر ... قطب الزمان وفيك يطوى ما انتشر »

من الأواني . . . . . .

وقوله « لله ما أعلاك من موجود » تعجب من شرفه ، كقولك : لله دره ، أي أمرك ما لا يفهمه غيره ، ما أعلا قدرك عند الله ، إن عرفت أصلك وفصلك ، وقمت بواجب ذلك ، وإلا فأنت في أسفل سافلين .

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : قرأت مرة « والتين والزيتون » إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى — لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين[1] — ففكرت في معنى الآية فكشف عن اللوح المحفوظ ، فإذا فيه مكتوب — لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم — روحاً وعقلاً ، — ثم رددناه أسفل سافلين — نفساً وهوى اهـ .

= محمد رسول الله ، فسأل ربه : بحق محمد أن يغفر له ؛ فقال الله تعالى : إذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، رواه الحاكم والبيهقي .

(انتهى من النفحات الشاذلية جـ٣ صـ٥٦ للشيخ العلامة سيدي حسن العدوي) .

(١) الآية : ٤ ، ٥ .

ثم بين وجه كونه نسخة الوجود ، فقال :

أليس فيك العرش والكرسي ... والعالم العلوي والسفلي

قلت : اشتمال الإنسان على العالم العلوي والسفلي ، يحتمل أن يكون ذلك من جهة معناه ومن جهة حسه ، أما من جهة المعنى فلا شك أن الروح أصلها ملكوتية ، لا يحصرها كون ، كما قال في الحكم :

(وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) .

لكن الإنسان لما جهل نفسه وتركها محجوبة بهواها ، انحجبت روحه ، وانحصرت في هذا الكون ، فإذا عرفها وخرق عوائدها انخرقت له العوائد وخرجت روحه عن الكون بأسره ، فلم يحجبها عن الله أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسي ، فحينئذ تستوي روحه على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ، فيطوى في جوفه العرش والكرسي والأفلاك وغير ذلك ، وهو الذي قصد الششتري رضي الله عنه بقوله :

أغمض طرفك ترى ... وتلوح أسرارك

وافن عن الورى ... تبدو لك أخبارك

ويصقل المرا ... يه يزول أغيارك

قال :

الفلك فيك يدور ... ويضيء ويلمع

والشموس والبدور ... فيك تغيب وتطلع

فاقرأ معنى السطور التي فيك اجمع

لا تغادر سطر واحد من سطورك وادر

آش هو القمر الذي فيك يسري

وقوله « فاقرأ معنى السطور » الخ أعلم أن الصوفية رضي الله عنهم يطلقون على هذه الأجرام الحسية رسوماً وأشكالاً وسطوراً ، ووجه لإطلاق الدلالة على المعاني ، فكما أن حروف تدل على المعاني ، كذلك هذه الأجرام الحسية ، المقصود منها هو قبض المعاني اللطيفة ، وكما أن القارئ إذا حفظ المعنى محى الرسوم ، كذلك العارف إذا قبض المعنى غاب عن الرسوم ، ولا يحتاج إليها ، بل تمتحي من نظره ، قال ابن العريف رضي الله عنه في بعض كلامه : « وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم واندراس الوسم ، والإنسان لوح ،

وتفتيق صورته وتشكيلها وتسويتها وتحسينها سطور ، مكتوب فيها بقلم القدرة . سبحان البديع الصانع ، سبحانى ما أعظم شأنى ، أنا وحدى لمن عرفنى » .

فهذا معنى السطور التى فى الإنسان ، فإذا حفظ هذا المعنى محى رسمه واسمه ، وبقى معناه ، والله تعالى أعلم .

وأما من جهة حسه فقد قال بعضهم : إن جسد بنى آدم مشتمل على ما اشتمل عليه العالم بأسره ، جعله الحق تعالى نسخة الوجود ، يحاكى بصورته كل موجود ، ففيه جسم كثيف ونور لطيف ، نصفه ساكن ، ونصفه متحرك ، نصفه نور ونصفه ظلمة ، وجعل فيه العناصر الأربعة ، واستودع فيه قوة الجلب والدفع ، والضرر والنفع ، وجعل قلبه خزانة لسره ، ولسانه ترجمان ذلك ، وعيناه حارستان وأذناه مخبرتان ، ورجلاه مطيتان ، ويداه خادمتان ، وجعل رأسه عرشه ، وصدره كرسيه ، وجانباه شرقه وغربه ، وجعل حركته كحركة الشمس والقمر والنجوم ، وتركيبه على تركيب العالم العلوى ، فجعل فى ظهره أربعة وعشرين فقارة ، على عدد الساعات ، وفى جسده ثمانية وعشرين مفصلا ، على عدد المنازل ، وفى جوفه اثنى عشر معنى ، على عدد البروج والشهور ، وفيه ثلاثمائة وستة وستون عرقا نافضة ، ومثلها ساكنة على عدد أيام العام ، وجعل معدته بيت ماله ، وكبده قسامه ، وجعل لحمه كالتراب ، وعظامه كالجبال ، وشعره كالنبات ، وعروقه كالأنهار ، وجواهره معادن ، وهى تسعة : لحم ، ودم ، وعظم ، وعصب ، ومخ ، وشحم ، فهذه ستة خفية ، وثلاثة ظاهرة ، وهى : الجلد ، والشعر ، والظفر ، وفيه اثنا عشر عنصراً ، سبعة فى الرأس : العينان ، والأذنان ، والمنخران والفم ، والباقى فى الجسد : الثديان والمخرجان والسرة ، إلى غير ذلك مما لا يدرك ، كما ذكره الشطيبى ، فى الفصل الأول ، فانظره .

قال الشيخ عبد الوارث : فأنت لباب هذه العوالم كلها فإذا أطعت الله أطعته بها كلها ، وإذا عصيته فكذلك ، فلأجل ذلك عظمت المعاصى منا ، فتواعدنا عليها بالعذاب الأليم ، وعظمت الطاعة فوعدنا الله عليها بالثواب الجسيم .

قلت : وفى هذا المعنى أنشدوا :

إذا كنت كرسياً وعرشاً وجنة ... وناواً ، وأفلاكا تدور وأملاكا
وكنت من السر المصون حقيقة ... وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا
ففيم التأنى فى الحضيض تثبطاً ... مقيماً مع الأسرى ، أما آن إسراكا ؟!

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : الخلق كلهم عبيد مسخرة ، وأنت عبد مسخرة ، ثم جمع ما تقدم ، فقال :

ما الكون إلا رجل كبير ... وأنت كون مثله صغير

قلت قد تقدم أن الإنسان نسخة من العالم حسا ومعنى ، ولا يستغرب هذا ، فقد قالوا : إن الناموسة فيها ما فى الفيل ، وزادت عليه بالجناح ، فانظر كيف اجتمع فى البعوضة ما افترق فى الفيل ، مع صغر جرمها ، فكذلك الإنسان : اجتمع فيه ما افترق فى الكون ، وزاد عليه بسر الروح ، وهو العقل الأكبر ، وكون الإنسان رجلا صغيراً هو فى حق من غلبت عليه البشرية ، وأما من غلبت روحانيته فقد صار هو العالم الأكبر ، والكون العالم الأصغر ، لأن الروح تستولى عليه ، ويصير فى جوفها كشىء تافه ، بل ينمحى بالكلية ، وإلى هذا أشار ابن الفارض بقوله :

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة ... فلى فيه معنى شاهد بأبوتى(١)

والمعنى الذى فيه هو اللطيفة الروحانية السابقة فى موكب الإبداع على جيش الاختراع ، والله تعالى أعلم .

ولما عظم به أمر الإنسان : جمعه بين الضدين ، وإلى ذلك أشار بقوله :

فأنت لست من قبيل الأرض ... حتى إذا رميت فيها تمضى

قلت : قد خص هذا الإنسان بعجائب لم توجد فى غيره ، فهو سماوى أرضى ، روحانى جسمانى ، نورانى ظلمانى ، لطيف كثيف .

واعلم أن الله سبحانه لما أراد أن يتعرف إلى هذا الإنسان ، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية ، لطيفة لاهوتية مودعة فى كثيفة ناسوتية ، فمن غلبت لطافته على كثافته كان روحانياً وتحقق بالروحانيين ، ومن غلبت كثافته على لطافته كان جسمانياً والتحق بالبهائم ، ومن توسط نال شيئاً من طبع البهائم وشيئاً من طبع الروحانيين ، وكان من أهل اليمين ، فأنت أيها الإنسان لست من قبيل الأرض كالبهائم ، حتى إنك إذا مت صرت تراباً وتمضى هباء ، لكنك مركب من روح وشبح ، فإذا مات الشبح بقيت الروح ، إما فى غبطة أو حسرة ، فالموت ليس عدما محضاً ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار ، ومن حال إلى حال ، قال تعالى — فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم — الآية(٢) .

---

(١) ولعل فى هذا إشارة إلى النور المحمدى الذى سرى فى ظهور الأنبياء من عهد آدم ، وابن الفارض من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

(٢) سورة الواقعة ، الآيتان : ٨٨ و ٨٩ .

وما ينسب للحق تعالى رضى الله عنه بعد موته وجدت عند رأسه ، وقيل لغيره

قل لإخوان رأونى ميتا ... فبكونى ورثونى حزنا
أظنون بأنى ميتكم ... ليس ذاك الليت والله أنا
أنا فى الصور ، وهذا جسدى ... كان لباسى وقميصى زمنا
أنا كنز وحجاب طلسم ... من تراب . قد تهيا لفنا
أنا در قد حوانى صدف ... حرت(١) عنه . فتخلى وهنا
أنا عصفور وهذا قفصى ... كان سجنى ، فألفت السجنا
أشكر الله الذى خصنى ... بما لى فى الفضل وخص
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ... ليت ، وخلفت الكفنا
فأنا اليوم أناجى ملكا ... وأرى الحق جهاراً عن
حاكفا فى اللوح أقرا وأرى ... كل ما كان ويأتى أبدا
وطعامى وشرابى واحد ... وهو ذكر ، فافهموه حسنا
ليس خمراً سائغاً أو عسلا ... لا ، ولا ماء ، ولكن : لبنا
هو مشروب رسول الله إذ ... كان لسر من فطره فطرنا
فى ذى الدار نوم مغرق ... فإذا ما مات طار الوسنا
لا تظنوا الموت موتا إنه ... حياة وهو غاية لنا
لا ترعكم هجمة الموت فما ... هو إلا انتقال من هنا
فاخلعوا الأجساد من أنفسكم ... تبصروا الحق عيانا بينا
وخذوا فى الزاد جهداً لا تنوا ... ليس بالعاقل هنا من ونا
أحسنوا الظن برب راحم ... تشكروا السعى وتأتوا أمنا
ما أرى نفسى إلا أنتم ... واعتقادى أنكم أنتم أنا

---

(١) حرت : رجعت ، وفى الأصل الذى راجعنا عليه ، صرت ، ولعله تحريف والله أعلم .

عصر لا نفس منا واحد ... وكذا الأجسام جسم عما
فمنى ما كان خيراً فلكم ... ومنى ما كان شراً فنا
فارحمونى ترحموا أنفسكم ... وادعوا لى ربكم فى إثرنا
أسأل الله لنفسى رحمة ... ورحم الله صديقاً أمنا(١)
وعليكم منى سلام طيب ... وسلام الله بر وثنا(٢)

ثم قال :

فاحتل على النفس فرب حيله ... أنفع فى الهمة من قبيله

ولت : يقول رضى الله عنه : احتل أيها الإنسان على نفسك وسسها جهدك ، حتى ترده إلى مولاه ، عود وجهت إلى مولاها أسلك بطرائف العلوم ، وصحبت لك بحائز الفهوم ، إلى حيث أجمع فيه على أن تأخذ برمامها وتدفعها إلى شيخ التربية يفعل بها ما يشاء . وتمتثل ما يأمرك به . وأما غير هذا فتعب وعنت لا يجدى ولا يفيد . وجرب فى التجربة علم حقائق . والله ولى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فائدة . قال شيخ شيوخ سيدى على رضى الله عنه : اعلم أن البيان ، أى الأبواب كلها مغلقة بين الله وعبده إلا باب نفسه ، من لم يدخل على الله من باب نفسه لا يدخل أبداً ، ومن عادى نفسه فإنه يقابل الحق عليه ، ومن صادق نفسه فإنه يقبل مولاه عليه ، لكن بشرط هذه النفس هذه التى ذكرنا لا نكرة إلا صحبة عارف بالله بن وجده ، وأما قبل وجوده فلا ، فإذا عادى الإنسان نفسه فلا يأس به ، لأن هذه النفس خيرها ما له حصر ، لا يعلم قدره إلا الله ، وشرها ما له حصر ، لا يعلم قدره إلا الله ، ومن استشرف على خيرها هام فيه وفاته شرها ، ومن استشرف على شرها هام فيه وفاته خيرها ، ويرحم الله القائل :

وسمعت الخطاب : ما ذاق ... من مكاف قريب
يا حياتى وأنت فى ذاتى ... حاضر لا تغيب

---

(١) فى ف : آمين .

(٢) ثنا : أى ثناء ، قصرها للوزن .

هذا والله بمن دخل على مولاه من باب نفسه ، ويكفيك فى النفس شرفا قوله ﷺ « من عرف نفسه عرف ربه(١) » .

ومن كلام شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب نفعنا الله بالجميع .

من أين جيتى يا ذى الروح الهايما روحانيا
الساكنا فى انبساط أحوالها ربانيا

وقال أيضا :

راعى من النفس جهدك ومسى وصبح عليها
لعلها تدخل بيدك تعود تصاد بيها

صار الأمر كما قلنا : عداوة النفس تمكنك من نواصى الخلق ، أنت تزيد عداوة النفس والخلق يزيد إقبالا عليك ، وأنت تزيد بعداً من مولاك ومصاحبة لنفسك تجمع بينك وبين هواك ، أنت تزيد عداوة من نفسك وأنت تزيد قربا من ربك وإقبالا منه عليك ، وأنت تزيد قربا من مولاك ، وأنت تزيد بعداً من الخلق ، وذلك لأنك إذا قربت من مولاك يشم الخلق فيك رائحة لا يعرفونها ، فيحصل الإنكار منهم عليك ، لأن « من جهل شيئاً عاداه(٢) » .

---

(١) قال فى المقاصد الحسنة : « قال أبو المظفر السمعانى فى الكلام على التحسين والتقبيح العقلى من القواطع : إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى » (يعنى من قوله)

وكذا قال النووى : إنه ليس بثابت .

وقيل فى تأويله : من عرف نفسه بالحدوث : عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء : عرف ربه بالبقاء » اهـ .

وعقد له الجلال السيوطى فصلا كبيراً فى كتابه « الحاوى » فراجعه فإنه جيد جداً .

(٢) وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « العلم جهل عند أهل الجهل ، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم » .

جرت عادة الله تعالى أن الداخل إلى الله منكور ، والخارج إلى الخلق مبرور .

قال الشاعر :

من يخطب الحسناء يصبر على البذل(١)

ثم رجع إلى توبيخ من ينكر عالم المعانى ، وهو العالم الروحانى ، فقال :

يا منكر المعقول والمعانى ما الصنع فى أمثلة القرآن

قلت : مضمن كلامه فى الرد على من ينكر المعانى ويقر المحسوسات أن يقال له : لو كان الأمر محصوراً فى المحسوسات ما احتاج الله تعالى أن يضرب لنا الأمثال للأمور المعنوية بالأمور الحسية ، لنفهم بسرعة ، كضربه مثلا للعلم النافع بالماء النازل من السماء الذى يطهر الأرض وتمتلىء منه الأودية فى قوله تعالى ـ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها(٢) ـ الآية ، فإن العلم يطهر النفوس من ظلمات الجهل والشك والشرك ، ويطهر القلوب من كدر الأغيار ، والأرواح من لوث الأنوار ، وتمتلىء منه القلوب : كل على قدر وسعه ، كما أن الماء يطهر الأرض من الأدناس والأنجاس ، وتمتلىء منه الأودية ، كل على قدر وسعه ، وكقوله تعالى ـ مثل نوره كمشكاة(٣) ـ الآية ، وكقوله تعالى ـ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء(٤) ـ الآية ، إلى غير ذلك ، فدل ذلك على أن الأمر على قسمين ، منه ما هو حسى يدرك بالحس ، ومنه ما هو معنوى يدرك بالعقل والروح ، أو السر ، ولما كان قد يخفى على بعض الناس ضرب الله له الأمثال بالأمور المحسوسة ، تقريباً للفهم ، والله تعالى أعلم .

فما تقول أيها المنكر لعالم المعانى فى هذه الأمثلة التى ضربها الله فى كتابه تقريباً لفهم المعانى .

---

(١) وقال آخر :

من يطلب الحسناء لا يغله المهر

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

قلت : وهذا الذى قاله الناظم لا ينهض فى الرد على المنكر ، لأن المعانى التى يثبتها الصوفية إنما هى معانى الصفات وأسرار الذات التى قامت بها الأشياء ، لا هذه المعانى التى ضرب الله لها الأمثال ، فإنما هى أمور عقلية يدركها العقل ويقرها أهل الظاهر ، ولا ينكرها أحد .

نعم عندنا آيات تشهد بظاهرها لعالم المعانى ، كقوله تعالى — الله نور السموات والأرض(١) — إن الذين يبايعونك(٢) الآية — قل انظروا ماذا فى السموات(٣) — الآية — هو الأول والآخر والظاهر والباطن(٤) — إلى غير ذلك من الآيات الدالة على غوامض التوحيد وأسرار التفريد ، ومن لم يبلغ فهمه هذا فشأنه التسليم ، وإلا وقع فى الإنكار على أولياء الله ، فيصبح من الصم البكم الذين لا يعقلون .

والحاصل : أن عالم المعانى لا يدرك إلا بصحبة أهل المعانى ، ولا يؤدى بالعبارة ، وإنما يرمز إليه بالإشارة ، فمن لم يفهم الإشارة فلا سهم له فيه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

بعداً أرى فيك عن الإشارة هل تنكرن رواية العبارة

قلت : يقول رضى الله عنه لهذا المنتقد : أرى فيك بعدا عن فهم الإشارة ، فكيف تفهم المعانى وهى لا تؤدى إلا بالإشارة ؟ وإذا بعدت عن فهم الإشارة فقد وردت رواية العبارة بإثبات ما تنكر من المعانى ، هل تنكر رواية العبارة بعد أن بعدت عن فهم الإشارة ، فما تقول فى آيات وأحاديث تدل على ثبوت المعانى والعالم الروحانى ، وكأنه يشير إلى الآيات التى قدمنا آنفاً من قوله — الله نور السموات والأرض — إلخ .

والحديث القدسى : «يقول الله تعالى : عبدى مرضت فلم تعدنى(٥)» الحديث ففيه ثبوت عالم المعانى ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٠١ .

(٤) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

(٥) رواه مسلم فى آخر صحيحه (باب عيادة المريض من كتاب البر والصلة) .

ثم وبخه على وقوفه مع عقله فقال :

يا جاهلا أقصى الكمال وقفا على عقول وهمها لا يخفى

قلت : عقول بنى آدم ضعيفة محصورة ، لا تدرك من التوحيد والمعرفة إلا افتقار الصنعة إلى صانعها ، ثم تستدل على صفات هذا الصانع بما تدرك من المصنوعات ، كوحدانيته وقدمه وبقائه وقدرته وحياته ، إلى سائر صفاته المعلومة ، وهى لا تأمن الخطأ ولا تسلم من الوهم والخواطر ، لأنها فى محل البعد ، ومآلها إلا الإيمان بالغيب ، فمن وقف مع عقله وجعل ما أدركه به هو أقصى غاية الكمال ، فهو مغبون ، وبالجهل المركب مفتون ، قال تعالى — وخلق الإنسان ضعيفاً(١) — وهو عام يصدق بضعف العقل وغيره ، أى ضعيفاً من كل شىء ، وقال ابن الفارض :

فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

بخلاف ما أدركته الروح أو السر من المعانى اللطيفة والأسرار القديمة ، فإن ذلك أذواق وكشوفات ومشاهدات ، لا يبقى معها وهم ولا ظن ولا خاطر ، وقال المجذوب :

طلع النهار على قلبى حتى نظرت بعينيّا
أنت دليلى يا ربى أنت أولى منى بيّا

واعلم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر : تطورات للروح اللطيفة النورانية كما تقدم ، وكل واحد من هذه التطورات له حد من العلم والإدراك لا يتجاوزه

أما النفس فحد إدراكها : زينة ظاهر السكون اغتراراً بمتعة ظاهره ، وغفلة عن عبرة باطنه ، لاشتغالها بحظوظها وهواها ، فهى لا تلتفت إلى خالقها ومولاها ، فإذا نبهت أقرت حينئذ ، ثم رجعت إلى نومها ، كمن طرش قائماً فأفاق ، ثم رجع إلى نومه

وأما العقل فحد إدراكه وعلمه : افتقار الصنعة إلى صانعها على ما تقدم : معقول عن غير ذلك

---

(١) سورة [illegible]

وأما القلب فحد إدراكه تعشقه وتوجهه إلى خالقه بترك الأغيار وطلب الأنوار، أعلى من العقل فى طلب الكمال، ولكنه من وراء الحجاب، لم يفتح له الباب.

وأما الروح فحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت، طالبة أسرار الجبروت. قد استراحت من تعب السير، لكنها لم تتمكن من السر:

وأما السر فمنتهى إدراكه أسرار الجبروت، قد تعدت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت، وهذا منتهى السير، قال تعالى — وأن إلى ربك المنتهى(١) —.

ثم يبقى الترقى فى المكاشفات والمشاهدات والعلوم والأسرار، إذ لا نهاية لها — وقل رب زدنى علما —.

قال فى العوارف: واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو فى رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون:

فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، فيفنى عن فعله وفعل غيره، لوقوفه مع فعل الله ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة فى الوصول.

ومنهم من يترقى إلى مقام الفناء، مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، محيا فى شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة فى الوصول وفوق هذا مقام حق اليقين، ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح ودو: سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه، حتى قالبه، وهذا من أعلى رتبه الوصول، وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنزل فأين الوصول، هيهات، منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى؟ انتهى.

وذكر الناظم للإنسان تطوراً آخر، فقال:

أول أطوارك منذ أول ... الحس والتمييز والتخيل
والعقل والذكر معاً والفكر ... هيهات، بل وراء ذلك طور

(١) سورة النجم، الآية: ٤٢.

قلت: الأطوار هى الأحوال التى ينتقل إليها الإنسان من أول نشأته، كطور جنينه وطور طفوليته، ثم شبوبيته، ثم كهولته ثم شيخوخته، قال تعالى — وقد خلقكم أطوارا(١) — هذا باعتبار الذات الحسية، وأما باعتبار المعانى الباطنية فأول ما يدرك الإنسان حسه، فيحس بألم الجوع وأضراره والبرودة وغير ذلك من الأمور الضرورية، ثم التمييز بين أمه وغيرها، وبين القريب والبعيد، ثم الخيال، وهو أول منشأ الخوف والوهم، وخاف من أمور يعتقد أنها تضره، ويحب أموراً يعتقد أنها تنفع.

ثم يخص التمييز بين ضار ونافع حقيقى، والمراد بالعقل: نهايته، لأن هذه الأمور كلها أطوار العقل، لكن لما كان ضعيفاً جعل يتطور هكذا، وأول خلق العقل عند حمل الولد فى بطن أمه، ثم لا يزال ينمو حتى يكمل، وهو نور يخص به هذا الآدمى من بين الحيوانات شرفا له، وهو يتفاوت فى النور بحسب القسمة الأزلية.

ثم بعد العقل: القلب، وهو محل الذكر.

ثم بعد القلب: الروح، وهى محل الفكر، وهو التفكر فى عجائب المصنوعات.

هذا غاية ما أدركه العامة، وبقى مرتبة السر، وهى محل الشهود، والنظرة، وهو الذى يحجب عن العوالم، وهو الذى أشار إليه بقوله، هيهات، بل وراء ذلك طور، وهو مقام السر، وهو خارج عن مدارك العقول، لا يناله إلا أفراد الفحول، وإلى ذلك أشار بقوله:

ما ناله الجهود والوراد ... وإنما يناله الأفراد

قلت الوراد: جمع وارد، وهو الذى يقصد الماء للشرب، يعنى أن هذا السر الذى هو وراء العقول والأفكار الكثيرة ما ناله جمهور الناس، ولا كل من قصده وأراده، وإنما ناله الأفراد من الرجال، ولهم الحق تعالى أولا على أوليائه من أهل هذا السر، وأطلعهم على ما أودعهم من خصوصيته اصطفاه، فسلموا إليهم أنفسهم، وانقادوا إليهم بكليتهم، حتى قالوا لهم: ها أنتم وربكم، فهؤلاء هم الذين أطلعهم على مكنون سره، وأسرار غيبه، وبوأهم بما أبيحت دماؤهم غيرة عليه من مولاهم، كما تقدم، وهو الذى أشار إليه الشيخ أبو مدين بقوله:

(١) سورة نوح عليه الصلاة والسلام، الآية: ١٤.

وفى السر أسرار دقيق لطيفه تراق دمانا جهرة لو بها نحا

ثم قسم العقل على ثلاث مراتب على اصطلاح القدماء ، فقال :

منقولا يدعى ومستفاد وعقل تخصيص لمن أراد

قلت : هذا اصطلاح القدماء ، جعلوا العقول ثلاثة : عقلا يسمى منقولا ، هو العلم الغريزى المجعول فيه من غيرا كتساب ، وعقلا يسمى مستفاداً وهو المكتسب بالمجاهدات والرياضات والتجريبات ، ولذلك يقول العامة : كل محنة تزيد عقلا . وعقلا يسمى عقل التخصيص ، وهو : الذى خص الله به أنبياءه ورسله . وقد ينمى إلى بدايته العمل الصالح بالرياضة ، وهو عقل أكابر الأولياء . فنهاية كمال عقل الأولياء بداية عقل الأنبياء ، ولذلك كانت نهاية الولى بداية النبى ، كما أشار إلى ذلك بقوله

وحيث فيه ينتهى الولى فى هذا يبتدى النبى

قلت : فنهاية الولى بداية النبى ، ونهاية النبى بداية الرسول ، وهو به أعلم ، وبه (كذا) فى [illegible]

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من اليم

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فأول قدم النبى : الجمع بين الحقيقة والشريعة ، لأنه لا سير له ، لأن السير فى هذين الفنين ، وهم مطهرون منها ، فقد خاضوا بحر التحقيق ، ثم رجعوا إلى الشريع ، وأما قول أبى يزيد : خضنا بحرا وقفت الأنبياء بساحله(١) ، فإنه أراد بحر التوحيد والعلم

---

(١) والله فى الغريب الذى يفهمه أكابر الناس وأصاغرهم من أهل العلم أن سيد الأنبياء والخلق جميعاً بحر التوحيد ، الأنبياء واقفون على ساحل منه يدعون الناس إلى دين الله .

فالأولياء خاضوا هذا البحر أول الناس ، استجابة لدعوة الأنبياء إياهم .

وهذا معنى من المعانى ، والله أعلم .

والذين خاضوا فى أعراض الأولياء ، وأولوا هذا الكلام تأويلا فاسداً لم يتعدوا من آداب الدين شيئاً ، ولم يعرفوا لكبراء المسلمين وأوليائهم واستباحة أعراض الذين كانوا يعتون الله ركعا وسجودا وما طعموا لذة النوم مدة حياتهم : إرضاء لله .

ساحل بر الشريعة ، فهو إقرار منه بالتقصير ، لأنه قال هذا فى حال الجذب ، والمجذوب يمضى حتى يصحو من سكره ويرجع إلى البقاء ، بخلاف الأنبياء عليهم السلام ، فقد عرفوا البحر وحاصوه ، وخرجوا إلى البر ليسلكوا الناس .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تأويله : أعنى وقفت الأنبياء بساحله من الجانب الآخر ، على ساحل الفرق ، يدعون الخلق إلى الخوض فيه ، أى فلو كنت كاملا لكنت حيث وقفوا .

قال فى لطائف المنن : وهذا الذى فسر به الشيخ هو اللائق بمقام أبى يزيد ، وقد قدمنا عنه أنه قال : جميع ما أخذ الأولياء كرق علوه عسلا ، ثم رشحت منه رشاحة ، فما فى باطن الأنبياء ، وتلك الرشاحة هى للأولياء ، والمشهور عن أبى يزيد هو التعظيم لمراسم الشريعة والقيام بكمال الأدب . انتهى .

وأما قول من قال : إن دائرة الولى أوسع من دائرة النبى ، فمراده بذلك أن الأنبياء عليهم السلام لشدة قربهم من الحضرة مشدد عليهم فى الأدب والحضور والهيبة والتعظيم والإجلال ، فأقل شىء يصدر منهم يعاتبون عليه ، بخلاف الأولياء فدائرتهم أوسع من جهة حسن الأدب والحضور ، فهم موسع عليهم من جهة الأدب ، وكذلك دائرة الشهداء ، وهم محمودون لتوسعهم فى طلب الحق ، دائرتهم أوسع ، وبعدهم دائرة الصالحين ، وبعدهم العوام .

وهذه صورة الدوائر فى الحس ، فالنقطة هى الحضرة مثلا ، والدائرة الأولى للنبيين ، والثانية للصديقين ، وهم الأولياء ، والثالثة للشهداء ، وهم السائرون ، والرابعة للصالحين ، ومن ورائهم عموم المسلمين :

وكلما كثر القرب وقع التضييق فى الطلب للقيام بحسن الأدب ، وبقدر التضييق فى الطلب يقع التوسع فى العلوم ، لأن المدد على قدر القرب ، واعلم أن ترق الأنبياء محجوب عن الأولياء ، كما أن ترق الأولياء محجوب عن العوام .

قال الغزالى رضى الله عنه : اعلم أن منازل السلوك لا غاية لها ، ولا يعرف السالك منها إلا ما ورق عنه ، ولا يعرف ما بين يديه إلا بطريق الإيمان بالغيب ، كما أخبر الله به ، وكما أن الأجنة لا تعرف أحوال الطفولية ، والطفولية لا تعرف أحوال العقـــلاء ، والعقلاء لا يعرفون أحوال القضايا الربانية ـ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ـ والله تعالى أعلم .

ثم كمل الـكلام على عقل التخصيص الذى اختص به الخواص ، فقال :

وفيه تجلى جمل المعارف فمن رآها قيل له عارف

قلت : الضمير لعقل التخصيص ، أى وفى عقل التخصيص تظهر وتجلى جمل المعارف الربانية والعلوم اللدنية ، لأنه ما سمى عقل التخصيص حتى تظهر من الأغيار وتهذب من الرعونات والأكدار ، إما بالأصالة أو بالمجاهدة ، فإذا تطهر من الأغيار علم بالمعارف والأسرار ، فالمعارف هى العلوم ، والأسرار هى الأذواق ، فمن رآها وذاقها يقال له عارف ، ومن لم يصل لهذا المقام وكان من أهل الدليل يقال له : عالم .

والفرق بين العالم والعارف : أن العالم دون ما يقول ، والعارف فوق ما يقول .

العالم يصف الطريق بالنعت ، والعارف يصفها بالعين ، لأنه سار معها وعرفها ، والعالم إنما نعتت له فقط .

العالم محجوب ، والعارف محبوب .

العالم من أهل اليمين ، والعارف من المقربين .

العالم من أهل البرهان ، والعارف من أهل العيان .

العالم من أهل الفرق ، والعارف من أهل الجمع .

العالم من أهل قوله تعالى ـ إياك نعبد ـ والعارف من أهل قوله تعالى ـ وإياك نستعين .

العالم يدلك على العمل ، والعارف يخرجك عن شهود العمل .

العالم يحملك حمل التكليف ، والعارف يروحك بشهود التعريف .

العالم يدلك على محافظة الصلوات ، والعارف يدلك على ذكر الله مع الأنفاس واللحظات .

العالم يدلك على الأسباب ، والعارف يدلك على مسبب الأسباب .

العالم يدلك على شهود الوسائط ، والعارف يدلك على محرك الوسائط .

العالم يحذرك من الوقوف مع الأغيار ، والعارف يحذرك من الوقوف مع الأنوار من ذلك فى حضرة الجبار .

العالم يحذرك من الشرك الجلى ، والعارف يخلصك من الشرك الخفى .

العالم يعرفك بأحكام الله ، والعارف يعرفك بذات الله .

العالم يدلك على العمل لله ، والعارف يدلك على العمل بالله .

العالم يدلك على العمل خوفاً وطمعاً ، والعارف يدلك على العمل محبة وشكراً .

والحاصل : أن من لم يسعده الله بملاقاة العارف ، فلا شك أنه فى هو نفسه تالف ، ولله در صاحب بداية السلوك ، حيث يقول :

إن لم تلاق عارفا فى مدتك لا عاش عمر عيشه كعيشتك

وحقيقة العارف هو : الذى فنى عن نفسه وبقى بربه وكل غاه فى قلبه ، لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، والله تعالى أعلم بغيبه .

وهذا المقام الكريم لا يناله إلا من له حظ عظيم ، كما أبان ذلك بقوله :

هذه ميادين الابطال ليست لكل جبان بطال

قلت : الميادين جمع ميدان بالفتح والكسر ، وهو مجال الخيل ، استعير هنا الخروج من مضيق الأشباح ـ إلى عالم الأرواح ، وهو فضـــاء الشهود والتنزه فى حضرة الملك المعبود ، لأن فيه تتسع دائرة العلوم ، وتجرى نتائج الفهوم ، فيه تجول الأفكار فى عظمة الواحد القهار .

والأبطال : جمع بطل ، وهو الشجاع ، والجبان ، هو : الخواف .

يقول رضى الله عنه : هذه العلوم والمعارف التى تتجلى فى قلوب العارفين ، وتجول فى سعة من أفكار المقربين ، هى ميادين الأبطال ، ومجارى أسرار الرجال ، لا ينالها البطالون ولا يدخل فى هيجائها الخوافون ، بل ما نالها إلا أهل الحزم ، وما طلب جهادها إلا أولو العزم ، وفى ذلك يقول الجيلى رضى الله عنه :

وإياك جزعا لا يحولك أمرها فما نالها إلا الشجاع المقارع

وقال آخر :

أيها العاشق معنى حسنا مهرنا غال لمن يخطبنا

جسد مضنى وروح فى العنا ... وجفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا ... فإذا ما شئت أد النمنا

وفى التحقيق : ما ثم إلا سابقة التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

ثم قرر ما تقدم ، وهو أن دخول الميدان لا يصلح للجبان ، فقال :

هل يصلح الميدان الجبان ... أو يكمل الزرع بلا إبان

قلت : الإبان هو : الوقت ، يعنى أن ميادين القتال لا يدخلها إلا أبطال الرجال ، فحق لا يتركه الفزع أن يدخل الميدان .

قال شيخ شيخنا رضى الله عنه : ثلاثة أصناف من الناس لا ينالون من هذا الطريق شيئاً الخواف ، والمستحى ، والمتكبر ، وإذا شجع نفسه ودخل فى طريق الخصوص فلا يستحق الفتح قبل إبانه ، لئلا يعاقب بحرمانه ، فمن غرس شجراً أو زرع زرعا فلا يطمع أن يثمر قبل وقته ، كذلك شجرة المعرفة تنبت فى قلب المريد حين ملاقاته بالشيخ ، فلا تزال تنمو شيئاً فشيئاً حتى تثمر فى وقتها المعلوم . لكن إن كان يحرسها ويخدم عنها ويسقيها ، طلعت متناهية فى الخضورة والبهجة ، وأطعمت سريعاً ، وإن فرط فيها أبطأت ، وربما ماتت ، وحرسها هو : العزلة وعدم خلطة العوام ، وخدمتها هو : الذكر والفكر ، وسقيها هو الجلوس بين يدى الأشياخ واستعمال الأحوال والواردات ، ونهاية إطعامها هو التمكين بالله والتمكين فى المعرفة بالله ، والفنى بالله عن كل شىء ، فحينئذ يكون من الأبطال ، ويصلح لدخول الميدان ، فتربية الشيوخ إنما هى لهذه الشجرة التى هى شجرة المعرفة ، فما دام صحيحا يفتقر إلى من يسقيها له ، فلا بد من مدد الشيخ ، فإذا أثمرت واشتدت عروقها استغنت عن ماء غيرها ، وبالله التوفيق .

ثم تعجب من إنكار الناس ما لم يحيطوا به علماً ، فقال :

ما أنكر الناس لما لم يعرفوا ... ما أهجر الولاف لما لم يألفوا؟!

قلت : ما تعجبية مبتدأ بمعنى شىء ، والجملة بعدها خبر ، والولاف جمع والف ، من ألف الشىء إذا أولع به ، أى شىء عظيم صير الناس منكرين ما لم يعرفوا ، وهاجرين ما لم يألفوا ، تعجب رضى الله عنه من إسراع إنكار الناس على أهل هذه الطريق ، مع أنهم

لا معرفة لهم بها ، ومن إسراعهم فى هجران أهلها لتعاطيهم أموراً لم يألفوها ، ولا غرابة فى ذلك ، إذ الإنكار على الخصوص سنة ماضية ، فإن ثلث القرآن كله فى الإخبار عن تكذيب الصادقين ، وكذلك إنكار ما لم يؤلف فإنه هو السبب فى تكذيب الرسل ، قالوا ـ مع ما هدا فى آبائنا الأولين[1] ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون[2] ـ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا[3] ـ فكل من أتى بخرق العوائد التى اعتادها أهل زمانه لا بد من الإنكار عليه : سنة ماضية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وفى لطائف المنن : واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ، ليرفع بالصبر على أذاهم مقاديرهم ، وليكمل بذلك أنوارهم ، ولتحقيق الميراث فيهم ليؤذوا كما أوذى من قبلهم فيصبروا كما صبر من قبلهم ، ولو كان من أتى بهدى أطبق الخلق على تصديقهم هو بكل فى حقهم ، لكان الأولى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صدقه قوم هداهم الله بفضله ، وحرم من ذلك آخرون حجبهم الحق عن ذلك بعدله ، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومنتقد ، ومصدق ومكذب ، وإنما يصدق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم ، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل ، لغلبة الجهل وسقوط الهمة على العباد ، وكراهة الخلق أن يكون لأحد منهم شفوف فى منزلة واختصاص منه ، ألم تسمع قوله تعالى ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون[4] ـ ومن أين لعموم العباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه ، وشروق نوره فى قلوب أصفيائه ، انتهى المراد منه .

قلت : واحتجاب الأولياء عن العامة لطف كبير من الله بأوليائه ، واعتناء عظيم منه بأسرار أحبائه ، فإن إقبال الناس على الولى قبل التمكين فتنة كبيرة ، وانظر ما قال الشيخ أبو الحسن : أسألك اعوجاج الخلق علىّ حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك ، ولله در القائل :

ستار الرجال فى كل أرض ... تحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضر الهلال فى حندس الليـ ... ـل سواد السحاب ، وهو جميل

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ ، والقصص ، الآية : ٣٦ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ .
(٣) سورة لقمان ، الآية : ٢١
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٧ ، وهى كثيرة فى القرآن الكريم .

وفيه أيضاً لطف كبير بعامة عباده ، إذ لو أظهر سرهم لعامـــة الناس لكان كل من آذاهم حارب الله ورسوله ، لقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى : يقول الله عز وجل من آذى لى ولياً فقد آذنى بالحرب(١) ، فقد قيد الحديث بعد معرفتهم . فالحمد لله لطفاً بخلقه .

وقد ضرب بعضهم مثلا لهذا ، فقال : مثل إذاية العامة لأخفياء أولياء الله كمثل الأعمى إذا رمى بعكازته على رجل صاحب بصر فأوجعه ، فإنه يقوم إليه حتى إذا وجده أعمى كف عنه وعذره ، ولم يبق فى قلبه حرج عليه ، وربما أخذ بيده ودله على الطريق

وقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم على العمران ، فدله على المقبرة ، فضربه حتى شجه . فلما قيل له هذا إبراهيم بن أدهم ، فجعل الرجل يقبل يده ورجله ، ويقول له : عذرنى فإنى لا أعرفك ، فقال له إبراهيم : والله ما رفعت يديك من ضربى إلا وأنا أسأل لك المغفرة .

ثم دعاهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، فقال :

أليس قد جبلت العقول على الذى جاء به التنزيل

قلت : جبل على الشىء : طبع عليه وألفه ، ولا شك أن العقول مجبولة على تصديق ما جاء به القرآن ، وهو قد جاء بالحقيقة والشريعة ، إلا أن التشريع فيه كثير ، وذكر الحقيقة قليل ، لأن أهلها قليلون ، وإذا تأملت فى القرآن وجدته يشرع ، ثم يحقق ، يقول سبحانه أفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ، حتى يظن الجاهل أن الأمر بيد الخلق ، ثم يقول — ولو شاء ربك ما فعلوه(٢) — ولو شاء الله ما اقتتلوا ولـكن الله يفعل ما يريد(٣) — ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين(٤) — وما تشاءون إلا أن يشاء الله(٥) .

فقوم وقفوا مع ظاهر الشريعة ، فحجبوا عن الحقيقة ، وهم أهل الحجاب ، وقوم نفذوا إلى شهود الحقيقة وأنكروا الحكمة ، وهم أهل الجذب ، وقوم جمعوا بينهما ، وهم أهل الكمال .

---

(١) رواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر .
(٢) الآية : ١١٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ٢٥٣ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ١١٨ من سورة هود .
(٥) الآية : ٣٠ من سورة الدهر .

علم الحقيقة هو علم الباطن ، وهو علم العالم الروحانى ، وعلم عالم المعـــانى الذى يذكره المتكلمون ، وليس ثم شىء غير هذا .

فثبت أن القرآن ورد بما أنكروا ، فقامت الحجة ، وتبينت المحجة ، وبالله التوفيق .

ثم ضرب مثلا للحقيقة والشريعة فى الحس ، فقال :

هل ظاهر الشرع مع الحقيقة إلا كأصل الفرع فى الحديقة

قلت : الشريعة عمل الجوارح ، والحقيقة معرفة البواطن ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، فالشريعة من وظائف البشرية ، والحقيقة من وظائف الروحانية ، الشريعة قوت البشرية ، والحقيقة قوت الروحانية ، وما نقص من أحدهما يزاد فى الآخر ، وهم ، وما مثل الشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنية ، إلا كأصل شجرة فى بستان ، وهو حديقه ، فأصل الشجرة المغروز فى الأرض مثل الحقيقة ، والفرع الظاهر على وجه الأرض ، مثل الشريعه ، فلا قيام للشريعة إلا بالحقيقة الباطنة ، ولا ظهور للحقيقة إلا بالشريعة ، فمن نظر إلى الباطن ووحد الله وجد كل شىء قائماً بالله ، ولا فاعل سواه ، ومن نظر إلى الظاهر للعبد وجد له اختياراً فى الجملة ، يقوم إذا شاء ويجلس إذا شاء ، ويفعل ويترك باختياره فى الظاهر ، وعلى هذا وقع التكليف ، وهو للشريعة ، ويسمى الكسب عند المتكلمين .

فالحقيقة أن العبد مجبور ، لـكن فى قالب الاختيار ، فمن نظر للجبر الباطنى سماه حقيقة ، ومن نظر لقالب الاختيار سماه شريعة .

أو تقول : من نظر لعالم القدرة وجد الحقيقة محضة ، ومن نظر لعالم الحكمة وجد الشريعة محضة ، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينان : إحداهما تنظر لعالم القدرة فيوحد الله ، والأخرى تنظر لعالم الحكمة فيتأدب مع الله ، وليس اسمه القادر بأولى من اسمه الحكيم ، فمن أهمل إحداهما سقط من عين الله ، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق لإهماله الحكمة ، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تخشب لقصور نظره عن شهود القدرة ، فلا يخلو من شرك خفى ، وإنما لم يكفر ، لأنه يقر بوجود القدرة ، لـكنه لم يعمل بما علم ، فهو كعالم غير عامل ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : قد يبلغ الوالي إلى مقام في الوصول يقال له « افعل ما شئت فقد غفرت لك(١) »

ومعنى ذلك : أن الله تعالى يتولاه ويأخذه عن نفسه ، ويغطي وصفه بوصفه ، ونعته بنعته ، فيكون محفوظاً من شهود نفسه ، فيكون فعله كله بالله .

وفي القوت في « كتاب المحبة » — إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب(٢) — .

وفي البخاري : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم(٣) » .

وفي كتاب « القصد » للشاذلي : يبلغ الوالي مبلغا يقال له أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عنك الملامة ، افعل ما شئت اهـ .

وليس هذا قولا بإسقاط التكليف ، فما دامت البشرية موجودة فلا بد من التكليف ، فإذا انهدمت البشرية ، وتخلصت الروحانية إلى مولاها ، سقط حينئذ التكليف ، فافهم .

قال في نوادر الأصول « من حظه من أهل التقريب الحلال والجمال ، وقد أمن في الهيبة والأنس ، قد غاب عن العقوبة . ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط لما ركب في نفوس بني آدم من الشهوات ، فهي أبداً تهوي بصاحبها إلى الإخلاد والبطء ، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلص إلى الفردانية ، وتحقق بالوحدانية ، لتلاشي الهوى منه والشهوة بكشف الغطا ولا يذهب خوف ذلك وإن سكن ، لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء ، أما الأنبياء فلم يبق لهم ظل الهوى فبشروا بالنجاة ، فلم تضرّبهم البشرية لأنهم لم يبق لهم نفوس فتستند وتحرز إذ أمنت السقوط ، ومن بعدهم بقي لهم في نفوسهم شيء ، فنعوا البشرى وأنهم عليهم الأمر صنعاً لهم ، لتكون نفوسهم مقمعة بخوف الزوال . هذا هو

(١و٣) كما قيل لأهل بدر . في الحديث الصحيح : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » رواه البخاري ، ومسلم ، والإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن علي ، وأبو داود عن أبي هريرة ، وأحمد عن ابن عباس ، وعن جابر رضي الله عنهم .

(٢) هذا لفظ حديث شريف نصه : « عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » ذكره الديلمي ولم يخرجه ولده في مسنده .

الأصل فافهمه ، هذا بعد أن قرر أن الشوق وخوف القلق من حبه لا يذهب على المجذوب المحدث ، وأن كان بينه وبين مولاه من الأسرار ما يسكن عنه خوف التحويل ، وإنما يتوهم ذلك من وقف في الجلال والجمال ، فسكن شوقه بلذة ما نال من القربة ، فانظره اهـ .

ثم ضرب مثلا آخر ، فقال :

والشرع جار وصحيح العقل ... كحذوك النعل معاً بالنعل

قلت : حاصل كلامه أن ظاهر الشريعة وباطن الحقيقة كتطبيق النعل على النعل ، بحيث لا يفوت أحدهما على الآخر ، كذلك الحقيقة الباطنية مع الشريعة الظاهرة ، متلازمتان ، لا تفوت إحداهما الأخرى ، فما ظهر على العبد من عمل الشريعة ، فإنما هو من مدد الحقيقة قال تعالى — وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة(١) — وقال تعالى — وما تشاءون إلا أن يشاء الله(٢) .

أو نقول : ما ظهر على العبد من عمل الحكمة ، فإنما هو من فعل القدرة . فالقدرة باطنة والحكمة ظاهرة .

وسأذكر لك شيئاً من بحر القدرة وشيئاً من بحر الحكمة ، ليظهر لك الفرق بينهما مع اتحادهما محلا ، فنقول وبالله التوفيق :

بحر القدرة بحر زاخر وأمره قاهر ، ليس له أول ولا آخر ، يظهر ويبطن ، ويحرك ويسكن ، ويقبض ويدفع ، ويعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، بيده مقادير الأمور ، وعلى قطب دائرة الأفلاك تدور ، وتطير إليه قلوب المشتاقين ، وتعوم في طرف لجته أرواح السائرين ، وتخوض في وسط لججه أسرار الواصلين ، ولا تعرف كنه عظمته قلوب العارفين ، غاية منتهاها الدهش والحيرة ، ثم العكوف في الحضرة .

وأما بحر الحكمة فهو أيضاً بحر زاخر ، وأمره ظاهر ، يظهر الأسباب ، ويبدل الحجاب ، يربط الأحكام بالعلل ، ويقرر الشرائع والملل ، يعطي ما يبرز من عنصر القدرة بردائه ، ويستر ما يبدو من أسرار الربوبية بعز كبريائه ، ينور الطريقة ، ويصون الحقيقة ،

---

(١) الآية : ٦٨ من سورة القصص .

(٢) الآية : ٢٩ من سورة التكوير .

يظهر العبودية ، ويبطن الحرية ، من وقف معه كان محجوباً ، ومن نفذ منه إلى بحر القدرة كان واصلا مجذوبا . ومن نظر إليهما معاً كان كاملا محبوبا ، وبالعناية مصحوبا .

واعلم أن القدرة والحكمة : كل واحدة تنادى على صاحبتها بلسان حالها ، أما القدرة فتقول للحكمة : أنت تحت قهرى ومشيتى ، لا تفعلى إلا ما تشاء ، ولا يصدر منك إلا ما أريد ، فإن أردت خلافى رددتك ، وإن سبقتينى أدركتك .

وتقول الحكمة للقدرة : أنت تحت حكمتى وعند أمرى ونهيى ، فإن عصيتنى أدبتك ، وربما قتلتك ، ثم إن اتفق فعلهما كان ذلك الفعل طاعة وحقيقة نورانية ، وإن اختلف فعلهما ، بأن أظهرت القدرة خلاف ما تريد الحكمة ، كان معصية ، وهى حقيقة ظلمانية ، فتبين أن الحقيقة لا تفارق الشريعة ، إذ لا قيام لها إلا بها ، والشريعة لا تخرج عن الحقيقة ، لأنها ستر لها ورداء يصونها .

فإن قلت : ظهور المعاصى والذنوب حقيقة بلا شريعة ، فأين التلازم الذى ذكرت ؟

قلت : النهى عن فعلها وتسميتها معاصى هو من جهة الشريعة ، فلولا الشريعة ، ما سميت معاصى ، وانظر ما قاله صاحب العينية :

فإن كنت فى حكم الشريعة عاصياً ... فإنى فى حكم الحقيقة طائع

فلولا الشريعة لم تتميز الطاعة من المعصية ، فالشريعة صادقة بالواجبات والمباحات والمحرمات ، فمهما صدر شىء من هذه الثلاثة فهو شريعة ، فثبت التلازم ، وهو معنى قول الناظم « والشرع جار » و « صحيح العقل » إلخ وهو على حذف مضاف ، أى : ومدرك صحيح العقل ، والمراد بالعقل : عقل التخصيص المتقدم ، الذى اختص به الأنبياء ، وينتهى إليه عقل الأولياء . لأنه هو الذى يدرك علم التحقيق ، لا مطلق العقل كما تقدم ، ويحتمل أن يريد الناظم : أن ما أتى به الشرع كله موافق لإدراك العقول ، كما قال البوصيرى رضى الله عنه :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصاً علينا ، فلم ترقب ولم تهم

فمسائل الشريعة كلها موافقة لما يقتضيه العقل ، فما حرم الله تعالى شيئا إلا لحكمة ، وهى ما فيها من البعد عن الله ، وما أوجب شيئا إلا لحكمة ، وهى كونه يقرب إلى الله ، ومسائل الفقه كلها لحكمة ، فمنها ما أدركه الناس ، ومنها ما لم يدركوه ، ويقولون فيه :

إنه تعبدى ، لكن هذا الاحتمال وإن كان ظاهر الناظم ليس فيه رد على المنكر لإثبات علم الحقيقة ، لأن هذا الأمر يثبته أهل الظاهر ويقررونه ، وسياق الكلام إنما هو فى الرد على أهل الحقائق فتأمله ، والله أعلم .

ثم ضرب أيضا مثلا للشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنة باليواقيت التى تكون فى البحر ، فقال :

ما مثل المعقول والمنقول ... إلا كدر زاخر مجهول

حتى إذا أخرجه الغواص ... لم يكن للدر إذن خلاص

وإنما خلاصه فى الكشف ... عن الغطاء حيث لا يستخف

فالصدف الظاهر ثم الدر ... معقولة والجهل ذاك البحر

قلت : المراد بالمعقول ما هو علوم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، وتسميتها معقولا مجاز ، لكنه قد توسم أن عقل التخصيص الذى هو للحواص يدرك علم الحقيقة ، فيسمى حينئذ ما أدركه معقولا بهذه النسبة ، وحاصل هذا المثال أن الروحانية التى هى محل علوم الحقائق مثلها كالدرة ، وهى الياقوتة الكبيرة ، والبشرية التى هى محل العلوم النقلية كالصدف لتلك الياقوتة ، والجهل الذى عم الناس وأحاط بهم كالبحر ، فمن دوخه بحر الجهالة لم يلتفت إلى در ولا صدف ، بل غرق فى بحر الجهالة وأتلف ، ومن أيقظه الله من دوخته ، ونبهه من غفلته ، خاض بفكره يمينا وشمالا فاستخرج ياقوتة سوداء مستورة فى صدفها ، لا يظهر منها إلا الصدف وهى نفسه ، فإذا قنع بالاغتناء بظاهرها ولم يذهب إلى من يخلصها ويكشف له عن باطنها ، بقى فقيراً على الدوام ، وإن أراد أن يخلصها بنفسه بقى ممنوعا منها على الدوام ، وربما أفسدها ، وكذلك إن ذهب بها إلى غير عارف ماهر بتصقيل اليواقيت أفسدها له أيضا ، وإن ذهب بها إلى عارف ماهر غواص فى البحر عارف بتصقيل اليواقيت كشف له عنها فى أقرب ساعة ، فصار غنيا موسعا عليه ينفق منها كيف يشاء ، قال تعالى - لينفق ذو سعة من سعته (١) .

قال فى الحكم فى تفسيرها « لينفق ذو سعة من سعته » الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه ، السائرون .

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ٧ .

هذا حاصل كلام الناظم مع ما فى حله عليه من التعسف ، لكن بهذا الحل يجرى على نسق ما قبله ، ويمكن حمله على ظاهره ، فتكون الألفاظ كالصدف ، والمعانى كالدر ، والجهل بذلك كالبحر ، لكن هذا الأمر لا نزاع فيه بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، والكلام إنما هو فى المعانى التى هى ضد المحسوسات ، وهو الذى شرحنا به .

فقوله : « وما مثل المعقول والمنقول » ، هو على حذف مضاف : أى محل المعقول ومحل المنقول .

وقوله : « لا" كدر زاخر » يقرأ بالإضافة لزاخر على حذف مضاف ، أى كدر بحر زاخر وقوله « مجهول » : نعت لدر ، لا زاخر . وقوله : لم يكن الدر إلخ ، معناه أن الدر حين يخرجه الغواص لم يكن مستخلصا من صدفه ، وإنما خلاصه بالكشف عنه من عارف به كما تقدم ، بحيث يصير ظاهراً لا يستخفى ، وباقى الكلام ظاهر .

ثم قال رحمه الله :

وإنما المعقول فى شكل الحروف كما يكون الدر فى جوف الصدوف

قلت : هذا البيت من تتمة ما قبله ، والمراد بالحروف رسوم البشرية الظاهرة ، وقد تقدم أن اصطلاح الصوفية يطلقون الحروف والرسوم والأشكال على صور الأكوان الحسية ، والمعنى : وإنما المعقول الذى هو المعانى اللطيفة فى شكل الرسوم الحسية كالدر فى الصدف .

أو تقول : وإنما المعانى فى رسوم الأوانى كالياقوت فى أصدافها ، فالأوانى أصداف ، والمعانى ياقوت ، فمن وقف مع الحروف ، الأشكال ، وقنع بتحسين خطوطها وتزيين أشكالها ، فاته الاطلاع على جواهر العلوم ويواقيت الفهوم ، وبقى جاهلا مضيقاً عليه فى أرزاق العلوم ، ومفتراً عليه فى نتائج الفهوم ، ومن نفذ إلى ما فى باطنها من الدرر والجواهر الحسان كان من الأغنياء : أهل الشكر والإحسان .

ويحتمل أن يريد بالحروف معناها الأصلى ، وهى الألفاظ الدالة على المعانى ، والمراد بالمعقول علم الباطن ، فإنه موجود فى القرآن ، لكنه باطنى خارج عن ظاهر ما تؤديه الحروف .

قال سيدنا على كرم الله وجهه : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وحداً ومطلعاً » قالوا : فالظاهر للنحاة والقراء ، والباطن للمفسرين وأصحاب المعانى ، والحد للفقهاء والعلماء ، والمطلع لأرباب الكشف والتحقق » اهـ . والمطلع بفتح اللام هو محل الاطلاع ، كأن القرآن

حكاية يطلع منها على أسرار فيه تعالى ، وبالله التوفيق .

ثم ضرب مثلا آخر للعلم الظاهر والباطن ، فقال :

هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن

قلت : ظاهر الشرع هو العلم الظاهـــر ، وهو العلم المنقول ، والعلم الباطن هو العلم الموهوب .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم الحكمة ، والعلم الباطن هو علم القدرة .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم البشرية ، والعلم الباطن هو علم الروحانية .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم العبودية ، والعلم الباطن هو علم الربوبية ، فالأول : علم الأذواق ، والثانى : علم الأذواق ، وعلم الربوبية هو : علم البقاء والبقاء والسكر والصحو والجمع وجمع الجمع ، وغير ذلك ، وهذا العلم لا يؤدى بالعبارة ، وإنما يرمز إليه بالإشارة ، لأنه ذوقى لا علمى .

فإن قلت : علم الطريقة متعلق بالقلوب ، وهى باطنية ، فكيف لا يكون من علم الباطن ؟

قلنا : لما كان يؤدى بالعبارة ، والعبارة تظهره وتوضحه ، صار من قبيل علم الظاهر ، وهو تصوف أهل الظاهر ، وأما تصوف أهل الباطن فلا يدرك بالعبارة ، وقد تقدم قول الشيخ :

إياك أن تطمع أن تحـــوزه من دفتر أو شعر او أرجوزة

وهذا هو علم الباطن عند المحققين .

وقال الشيخ عبد الوارث : العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن ، كما أن الإنسان له ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن . اهـ .

فجعل علم الشريعة ظاهراً ، وعلم الطريقة باطناً ، وعلم الحقيقة باطن الباطن ، وهو حس ، إلا أن الجمهور حصروا العلم فى القسمين ، والأمر قريب .

فمثال : العلم الظاهر مع العلم الباطن ، كجسم فيه روح كامن ، فالجسد لا يقوم بغير روح ، والروح لا تظهر من غير جسد ، وإذا خلى الجسد من الروح كان ميتاً ، ولا عبرة به ، ولذلك كان من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، لأن أعماله أشباح بلا أرواح ، وإذا خلت الروح من الجسد بطلت ولم يظهر لها وجود ، ولذلك كان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق

لأنه تصير حقيقته غريبة بلا كسوة ، فيقتل عليها ، فإن كان محقاً وغلبه السكر كان شهيداً وإن كان مدعياً كان بعيداً ، ومن الحضرة طريداً ، والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل ، بجاه الحبيب مولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعظم وجل .

ثم ذكر أصل النزاع الذى بين أهل الظاهر والباطن ، فقال :

لو عمل الناس على الإنصاف ... لم تر بين الناس من خلاف

قلت : الإنصاف هو : الرجوع لقول الغير بعد وضوح دليله ، أو الإقرار بالحق بلا مكابرة ، فلو اتفق الناس على الإنصاف ، وأقروا بالحق أينما ظهر من غير مراء ولا جدال ، لم يبق خلاف بين الناس ، إذ الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعى قد أسمع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى كما قال البحتى ، لكن طباع النفوس لا ترضى بحط الرءوس ، ومن كان رئيساً لا يرضى أن يصير مرءوساً ، وهذا سبب الخلاف والاختلاف بين الأمم : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، واتفاق الناس كلهم على الحق خلاف الحكمة قال تعالى — ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم[1] — قيل : للاختلاف وقيل : للرحمة ، فالله يرحمنا وأحباءنا برحمته الخاصة والعامة آمين .

ثم إن الحق غريب وأهله غرباء فى كل زمان ، قال عليه الصلاة والسلام « طوبى للغرباء »[2] وإلى هذا أشار بقوله :

واعلم رعاك الله من صديق ... أن الورى حادوا عن التحقيق
إذ جهلوا النفس والقلوبا ... وطلبوا ما لم يكن مطلوبا
واشتغلوا بعالم الأبدان ... فالكل تاه منهم ودان
وأنكروا ما جهلوا وزعموا ... أن ليس بعد الجسم شىء يفهم

قلت : ذكر رحمه الله أن الخلق حادوا ، أى أعرضوا عن طريق التحقيق التى هى علم الحقيقة فى عين الشريعة ، أو علم الربوبية فى عين العبودية ، وذكر أن سبب إعراضهم عن ذلك أربعة أمور :

---

(١) ١١٨ من سورة هود .

(٢) ولفظ الحديث كاملا : « طوبى للغرباء : أناس صالحون فى أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو .

الأول : جهلهم بحال نفوسهم وقلوبهم ، فلم يدروا هل هى مريضة أو صحيحة ، وهل هى باقية على أصلها أو تغيرت ، ومن شعر بشىء أنكر وجود الطبيب ، ومن يردها إلى أصلها بقى مريضاً على الدوام والتحق بمرتبة العوام .

الثانى : انطماس بصيرتهم حتى اشتغلوا بطلب ما لم يطلب منهم ، وفرطوا فيما طلب منهم فاشتغلوا بطلب الرزق المقسوم والحرص على الدنيا وجمعها واحتكارها ، وتركوا ما طلب منهم من حقوق مولاهم والتفكر فيما أولاهم ، لحادوا عن الطريق ، وأنكروا معالم التحقيق .

وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما بال أقوام يشرّفون المتزهدين ويستحقرون بالعابدين ، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم ، وما خالف أهواءهم تركوه فعند ذلك يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض » يسعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدور والأجل المكتوب والرزق المقسوم ، ولا يسعون فيما لا يدرك إلا بالسعى من الجزاء الموفور والسعى المشكور ، والتجارة التى لا تبور » .

قال إبراهيم الخواص : العلم كله فى كلمتين « لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت » .

الثالث اشتغالهم بعالم الأشباح دون التعريج إلى عالم الأرواح ، فاشتغلوا بخدمة الحس وعلم الحس وعمل الحس ، وغفلوا عن علم القلوب وعمله ، وأنكروا ما يدل عليه ، فصارت خدمتهم حسية وعلومهم حسية رسمية ، وأعمالهم بدنيـــة حرفية ، والحق من وراء ذلك كله ، وهذا كله بعد عن الوصول إلى التحقيق إلا بسابقة التوفيق ، فكل من اشتغل بخدمة الحس فهو بعيد فى حال قربه ، منقطع فى حال وصوله ، وهذا معنى قوله : « فالكل تاه منهم ودان » أى فالكل منهم تاه أى بعيد ، وهو دان أى قريب .

وفى مناجاة الحكم : « إلهى ما أقربك منى ، وما أبعدنى عنك » إلخ .

الرابع : إنكارهم لهذا المقام الذى جهلوا ، وهو علم التحقيق ، الذى هو الوصول ، ويسمى العالم الروحانى ، وزعموا أنه ليس شىء زائد على الأجسام الحسية ، وهم معذورون فى الإنكار ، إذ لا يعرف البلد إلا من وصلها :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم هؤلاء الجهال لم يقنعوا بالإنكار حتى كفروا من قال بشىء من ذلك ، كما قال :

وكفّروا وزندقوا وبدّعوا ... إذا دعاهم اللبيب الأورع

قلت : هذا من الحرمان ، وعلامة الخذلان، إذا دعاهم أحد إلى التحقيق قالوا: إنه زنديق، وإذا خرق عوائد نفسه فى دواء قلبه قالوا : إنه صاحب بدعة ، وهذا كله حجاب وستر لأوليائه ، فإذا سمع المريد شيئاً من ذلك فليطلب نفسه ، فتلك عناية به ، نعم ينبغى أن يجرم نفسه فى ستر سر الله عنده ، وإن أفشى شيئاً من ذلك فسيف الحلاج فوق رأسه ، ثم المنكر على الصوفية فى أقوالهم وأحوالهم إن كان ذلك من عدم فهمه فقد يعذر بجهله ، لضعف مدركه وضيق عطنه(١) كما قال الخضرى رضى الله عنه فى كتابه ، صدور المراتب وتيل المراغب ، ونصه بعد كلام : والجاحد لمن يوحى إليه شيء من هذا الكلام وما يفهمه فهو معذور مسلم له حاله من باب الضعف والتقصير . وهو دون إيمان الحقانيين ، ومن يفهم شيئاً من ذلك فهو لقوة إيمان واتساع دائرة ، ومشهده مشهد واسع ، سواء كان مورد نور أو ظلمة بحسب ما فى السرائر من الودائع الموضوعة على أى صفة كانت . انتهى .

وإن كان تعصباً وتركية لنفسه ، وإرادة الترفع على غيره فهو هالك مثبور ، وعلامة الأول الوقوف على حد ما يقع به التمييز من غير زيادة ولا تشنيع ، وعلامة الثانى التشنيع واتساع الدعوى والهروب من مواطن التحقيق ، ومن رزقه الله التسليم فهو أولى .

وقد سئل النووى رحمه الله عن ابن العربى الحاتمى فقال : الكلام كلام صوفى ، — و — تلك أمة قد خلت لها ما كسبت(٢) — الآية ، وكذلك قال ابن أبى زرعة فى شأنه أيضاً، وفى ابن الفارض ، وذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ، وقال : إن يعترض على الكلام ويتركه القائل لاحتمال توبته اهـ .

قلت : وإنكار أهل الظاهر على أهل الباطن لعدم فهم مقصودهم ، ولعدم الوصول إلى مقامهم ، ولذلك كان التسليم أولى ، بل هو نصف الولاية ، والله أعلم .

ثم ذكر سبب إعراضهم عمن دعاهم إلى الله فقال :

كل يرى أن ليس فوق فهمه ... فهم ولا علم وراء علمه
عجبا عن رؤية المراتب ... هل يسمى عالما وطالب

(١) جمعه : أعطان ، وهى : مبارك الإبل .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤١ .

قلت : هذه سنة الله فى خلقه ، قال تعالى — كل حزب بما لديهم فرحون(١) — كل من كان فى مقام يرى أنه لا مقام فوق مقامه ، فإن شوّق إلى ما وراء ذلك أنكره ، وحكمة ذلك تمام الحكمة الكلمة التى سبقت له فى الأزل ، فإن كان ممن سبق له شىء من هذه الخصوصية إذا شوقته تشوق وطلب ، فيوصله الله إلى ما سبق له ، بخلاف ما إذا لم يسبق له شىء من ذلك ، إذا ذكرت له مراتب الرجال أنف وقال ، كان ذلك فيما مضى ، حرماً أن يسقط له جاهه ومرتبته من عين الناس ، فباء بالخيبة والإفلاس ، واحتجب عن مراتب الكمال ، وتحاف عن مقامات الرجال ، والعياذ بالله من مثل ذلك ، ودعواه أن أفهم فوق فهمه ، ولا علم فوق علمه ، جهل عظيم ، فإن فوق كل ذى علم عليم ، ومنتهى العلم إلى الله العظيم ، كما أخبر تعالى فى كتابه الحكيم وقال تعالى — وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(٢) — واتساع دائرة العلوم ، وفتح مغازن الفهوم إنما هى منح إلهية . ومواهب اختصاصية ، لا تنال بكسب ولا احتيال ، وإنما تنال بفضل الكبير المتعال مع حكمة صحية الرجال ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وقوله « على » أخ لعة فى « لعل » ، أى إنما أنكر لعله يسمى عالما وطالبا للعلم ، وهذه علامة الرياء أعاذنا الله منها بمنه وكرمه ، ثم استبعد العلم أن يصدر مثل هذا ممن له عقل كامل ، فقال :

هيهات هذا كله تقصير ... يأنفه الحاذق والنحرير

قلت : النحرير ، هو : الذى يحقق الأمور ويحررها ، يعنى أن الساعة يعز الناس ومدحهم مع فوات الحظ من الله بمعرفته الحقيقية لا يرضاها من كان صادقا نحريراً ، بل لا يرضاها عاقل فضلا عن العالم .

قال فى الحكم « استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك ، دليل على عدم صدقك فى عبوديتك » اهـ

ثم عرض على التفويض إلى الله تعالى ، فقال :

فمن يرد موارد المواهب ... فكيف يرضى هذه النياهب
فالعلم ما يلقى إليه حد ... بل ظاهر يخفى ، وخاف يبدو
والعلم لو كانت له نهايه ... يوقف عند حدها أو غايه

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٣ ، والروم ، الآية : ٣٢ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

ما كان أذكى مرسل وأسمى ... قيل له : قل رب زدنى علما
فعش بما لديك ما حييت ... وجنب التعنيف والتعنيت
والكل قد يعجبه الكلام ... فالزم هدى نفسك والسلام

قلت : حاصل كلامه أن من أراد أن ينهل من مـــوارد المواهب والأسرار ، وتشرق عليه شموس الأنوار ، فلا يرضى لنفسه الإنكار على أولياء الله ، فيحارب بذلك مولاه ، ولا يحصر العلم فيما عنده ، ويذكر أن يكون فوق علمه علم ، أو فوق حاله حال ، أو فوق مقامه مقام ، فلا يرضى بهذه المذاهب السخيفة إلا ذوو الهمم الضعيفة ، فالعلم لا يوجد له حد ينتهى إليه ، بل هو كالشموس والأقمار والنجوم ، لا يزال غارباً وطالعاً ومتوسطاً ما دام الدهر ، فعلوم العارفين كالشموس ، وعلوم السائرين كالأقمار ، وعلوم عامة أهل اليمين كالنجوم ، وهى فى الجميع ، تارة تظهر وتشرق بقوة الواردات ، وتارة تخفى بضعف الواردات ، ولا حد للعلوم والمعارف والأسرار ، فلو كان لها حد تنتهى إليه ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى له — وقل رب زدنى علما[1] — وهو سيد العارفين ، فدل على أن العلم لا نهاية له ، قال تعالى — وفوق كل ذى علم عليم[2] ، واعلم أن جميع العلوم الرسمية كلها يبقى معها الافتقار إلى غيرها ، أو إلى الزيادة منها ، إلا علم الشهود إذا تحقق واطمأن العبد بالله ، فإنه يحصل له الغنى الأكبر ، ولا يلتفت إلى علم آخر أبداً ، كمن عنده الفلوس أو الدراهم أو الذهب ، ثم وجد الإكسير ، فلا شك أنه يزهد فيما كان عنده ، ولا يلتفت إليه ، كذلك العارف لم تبق له حاجة إلى شىء إلا إلى مولاه .

قال سيدى عبد الرحمن الفاسى رضى الله عنه : كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما أدركت الحقيقة سرطت[3] ذلك كله ، ولم يبق لى إلا التفسير والحديث والمنطق اه فإذا حصل لك أيها المريد علم المعرفة ، فعش بما لديك منها ما حييت ، فهذه هى الحياة الطيبة التى لا يعقبها موت أبداً ، وجنب التعنيف والتعنيت ، فالتعنيف التغليظ فى الكلام ، والتعنيت

(١) سورة طه ، الآية : ١١٤ .
(٢) الآية : ٧٦ من سورة يوسف عليه الصلاة والسلام .
(٣) أى بلعت ، ومنه قولهم : الأخذ سرطى ، والقضاء ضرطى ، قوله « سرطى » بضم السين وتشديد الراء مع الفتح وإسكان الياء ، وكذلك « صرطى » بمعنى إذا أحسن ابتلع وعند الرد يتعب .

المنازعة والمخالفة ، لأن هذه الخلال من شأن الجهال ، فلا تبدى ما يفتح به عليك ، ولا تنكر ما لا ينهى إليه علمك ، ولا تنازع من نازعك ، فالحقيقة رب يحميها ، والطريقة نفس تصطفيها ، والنزاع لا يجلب إلا الشر فى الدنيا والنقص فى الدين ، وكلام القوم يعجب كل سامع إليه ، فلا يعرفك من الناس استحسانهم له ، حتى تطالبهم بحقائقه وتطمع فى سلوكهم عليه ، فإن ذلك يتعبك ويفتح لك باب الدعوى والرعونة والشهوة ، فالزم إصلاح نفسك وهداها ، ولا تلتفت إلى ما سواها ، قال تعالى — يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم[1] — الآية .

وقال الفضيل رضى الله عنه : هذا زمان احفظ فيه لسانك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك[2] اه .

ورقنا الله العمل به إلى الممات فى عافية دائمة وستر جميل ، آمين .

هذا آخر الفصل الرابع بحول الله وقوته .

تلوه الفصل الخامس ، وبه الختام ، ختم لنا بالحسنى والمعرفة على التمام .

وحاصل هذا الفصل الإنكار على بعض الفقراء ، تشبهوا بالفقر ولبسوا على الناس ، فشار فى الرد عليهم فى هذا الفصل ، فقال .

الفصل الخامس فى فقراء العصر ، ومتشبهى الوقت .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هذا الفصل فى مقابلة الذى قبله إذ ذاك فى الرد على من انتقص من المتفقهة ، وهذا فى ذم المخلطين من المتفقرة ، وهو من أهم ما يعرفه الصادق فى هذا الزمان ليحكم به على نفسه لا غير ذلك ، وذلك لما فى الوقت من الفساد والتخليط ، لسيما ، فقد ورد أن فى صحف إبراهيم عليه السلام : « وعلى العاقل أن يكون عارفا بزمانه[3] ، مقبلا على شأنه وأهله أمر مهم ، فلا بد من العلم به جملة وتفصيلا ، لأن من تعلم العلم لنفسه

(١) الآية : ١٠٥ من سورة المائدة .
(٢) وفى حديث آخر : « إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم ، وكانوا هكذا — وشبك بين أنامله — فالزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة » رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .
(٣) رواه أبو نعيم فى حديث طويل فى ترجمة أبى ذر الغفارى رضى الله عنه بلفظ « بصيرا » بدل « عارفا » .

تنور ، ومن تعلم العلم للناس تحير ، ومن لاق الناس بالسنية أفلح ، ومن لا فاهم بالاقتراض خسر ، ولكل قوم حدثة ، وهؤلاء الذين يذكر أوصافهم بعدهم : حدثة المتشبهين فارحمهم وعظهم ، ونبههم وذكرهم ، وحذر الصادقين من علمهم ، ثم إن تهدوا فلا تشغل بهم ولا تغير إلا حيث يجب عليك التغيير ، بحكم الشرع ، فهو في كل أمر بين متفق عليه تقدر على تغييره من غير أن يؤدي لمنكر آخر أعظم منه أو مثله ، وبالله التوفيق . انتهى .

ثم افتتح بتغيير الطريق الذي كان عليها السلف الصالح ، فقال :

إذا علمت كيف كان الحال ... في الشيخ والتلميذ ثم حالوا
فاعلم بأن أهل هذا العصر ... قد شغلوا بمحدثات الأمر
إذ أحدثوا بينهم اصطلاحا ... لم أر للدين به صلاحا
وصنفوا بينهم أحكاما ... أكثرها كانت لهم حراما
والتهجوا مناهج منكوسه ... وارتكبوا طريقة معكوسه

قلت : لما أخبر في كتابه ما كان حال الصوفية المحققين ، وما كان حال شيوخ التربية ، أخبرك ما أن ذلك قد حال ، أي تغير ، ولم يبق على حاله ، فلا تغتر بمن يدعي حالة مع الله حتى تختبره في حب الدنيا والميل إليها إذ أردت أن تصحبه ، وإلا فلا عليك فيه ، فحسن الظن بعباد الله ليس فوقه شيء من الخير ، وسوء الظن بعباد الله ليس فوقه شيء من الشر ، وماذا علينا إذا اعتقدنا أن الناس كلهم صالحين وأولياء ، لا والله لا يريدنا ذلك إلا قربا من الحق ، مع المحافظة على رسوم الشريعة .

وقد قال الصحابي الجليل سيدي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : من خادعنا في الله انخدعنا له[1] ، اه (وفي) الحديث «المؤمن غر كريم ، والمنافق خب لئيم[2]» ،

---

(١) وذلك أنه كان يكثر من تحرير الرقاب ، فإنه كان إذا رأى عبداً من عبيده يصلي أعتقه ، فقالوا له : إنهم يخدعونك ، فقال : « من خدعنا في الله انخدعنا له » رضي الله عنه وأرضاه .

(٢) الحديث رواه أبو داود ، والترمذي ، والحاكم .

والغر بكسر الغين هو الذي يغتر لحسن ظنه وليونته ، والخب بفتح الخاء وكسرها هو الخداع فالمذموم ، والمؤمن يلتمس المعاذير : يلتمس سبعين عذراً لأخيه المؤمن ، سيما أهل القلب ، فالواجب تعظيم الجناب حرمة لمن انتسب إليه ، فإن كان كاذبا عليه كذبه ، وإدخال ألف رجل في الولاية أفضل عند الله من إخراج ولي واحد منها ، والخلق عيال الله فرح عياله أحبه ومن تنقص عياله أبغضه .

قال في « النصيحة الكافية » : وأما الفقراء فيسلم لهم في كل شيء لا يقتضي العلم إنكاره ، قال الشارح : ما لا يقتضي العلم إنكاره على ضربين .

أحدهما ما يعرفه الناس ويعتقدونه كذلك ، فهذا لا ينكره أحد على أحد .

الثاني ما يعتقدون قبحه ونقص المتصف به لعارض غلب عليه ، وهو الذي يحتاج إلى التنبيه به والتوصية بترك إنكاره ، كترك الخوف وبعابة الأسباب ، فإن الناس ينقصون صاحب ذلك ويحملونه على الكسر والكسل ويتهمونه بالطمع والتشوف إلى ما في أيدي الناس ، وكلبس المرقعات ، فإنهم يرون أن صاحبه اتخذه شبكة يصطاد به ، وجعله بابا لتوسل ومسلكا للاغترار ، مع أنه قد يكون كذلك وقد لا ، فالسلامة في التسليم ، فمن انتمى لطريق القوم وانتسب إليهم يسلم له حاله في مثل ذلك .

ثم قال في « النصيحة » وما وجب إنكاره أنكر عليهم مع اعتقادكالهم .

قال الشارح : لأن انتسابهم لجناب الحق مقتض لذلك ، يعظم المنتسب له ، ولو كان في نفس الأمر كاذباً ، قال في « العدة[1] » لأن وجود انتسابه شاهد بتعظيمه لجناب الذي انتسب إليه في نظره ، ولذلك ما تعرض أحد قط لمنتسب بأذى إلا أصابه منه ضرر ، لأن الله سبحانه يغار لمنتسب جاه إلا بأمر منه ، وإذا وقع المنتسب في أمر فيه حق من حقوق الله - أقيم عليه الحق ، وحفظت حرمته في نسبته ، لحديث « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله »[2] الحديث اهـ .

( ) أي « عدة المريد الصادق » لسيدي أحمد بن زروق .

(٢) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة « لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم » وفي المقاصد الحسنة « ما لفظه » لا تكن عونا للشيطان على أخيك » رواه البخاري في حديث الذي أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو سكران ، وقال رجل من القوم : « اللهم العنه » فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » من حديث محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي سلمة عن أبي هريرة

قال : وبالجملة فالنصيحة لها حق عظيم :

رأى المجنون فى البيداء كلبا ... فجر له من الإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه ... وقالوا : لم أملت الكلب تيلا
فقال : دعوا الملامة إن حبى ... رأته مرة فى حى ليلى

ثم قال فى « النصيحة » : إذ لا يبعد أن تكون الولى الخصوصة والخصوصات ، والولايات ، قال الشارح . ويفهم من تعبيره بالمفرد المختوم بتاء الوحدة وبجمع قلة أن وقوع ذلك منهم نادر ، وذلك لأن الشيطان لا تسلط له على قلوبهم ، وإنما يطوف بها كالسارق .

وقال فى كتاب « الانتباه » لاسبيل للشيطان إلى دخول قلوب الأولياء التى هى معادن الأسرار ومظهر الأنوار ، فلا يحوم حولها إلا سارقا ، والسارق إنما يقضى غرضه من غافل ونائم ، وهم فى مقام الانتباه واليقظة ، فإذا استشعروا شيئا من همزاته رموه بشهب أدلة التوحيد ، فانقلب خائبا لمانع حماية الرحمن ، كما قال تعالى — إن عبادى ليس لك عليهم سلطان(١) — والتعبير بالسلطان يدل على الغلبة ، والله أعلم ، أى لا غلبة لك عليهم ، فبان بهذا أنه وإن رام القرب منهم فلا ينال غرضه . وإن توصل إلى بعض الوسوسة ، فمحلها ظاهر القلب لا باطنه الذى هو محل المعرفة بالله ، ولا يستقر لها أى الوسوسة قرار ، بنبوت يقظتهم وقوة نور بصائرهم ، فإذا استشعرها القلب كان كما أخبر الله عنهم ، بقوله — إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون(٢) — فنظر لم يثبت عنهم حكم الوسوسة ، ولكن أثبت لهم اليقظة المتضمنة نفى الإغواء الذى هو الإصرار ، كما وصف من ذكر أهل الغفلة فى الآية الثالثة اهـ .

ثم قال فى « النصيحة » : « والأولياء محفوظون » والحفظ يجوز معه الوقوع فى المعصية ، أى بخلاف العصمة ، إلا أنه لا يجوز معه الإصرار ولا يقتدى به فى مثلها ، وقد سئل الجنيد رضى الله عنه : أيزنى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وقال ابن عطاء الله

---

(١) ٤٢ من سورة الحجر .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٨ .

رحمه الله : ليت شعرى ، لو قيل له : أتتعلق همة العارف بغير الله ؟ لقال : ولا ينكر على العقراء إلا محروم مصر على تحريمه ، ولا يسلم لهم إلا فيما له صورة ، ليباح لها من الأفعال . انتهى كلام النصيحة .

وإنما نقلته مع غيره لينزل عليه ما يذكره الناظم من التشنيع على متفقرة وقته ، فقوله : إذا علمت أحوال الصوفية والشيوخ والتلامذة كيف كانت أحوالهم عما وصفت لك فى كذا ، علمت أن أهل العصر خرجوا عن طريقهم ، واشتغلوا ببدع محدثات فى أمور دينهم ، فلا تقتدهم ، ونبههم بالتى هى أحسن — إن قدرت — وإلا فشأنك بنفسك ولا تنتقده ، فإن الناظر لا يعلم ما فيها إلا الله ، وليست كل بدعة محرمة ، فإن فيها ما هو واجب ، وما هو مكروه ، وما هو مباح ، فالبدعة المحرمة هى التى تناقض قاعدة من قواعد الشرع ، كتحليل حرام ، أو تحريم حلال ، وجل أحوال الصوفية إنما هى بدع مستحسنة ، أو مباحة ، كتعليق السبحة والقيام للذكر جماعة ، وغير ذلك .

وقوله « إذا أحدثوا بينهم اصطلاحا » الخ ينظر فى هذه الاصطلاحات ، فإن كانت لا تناقض شيئاً من قواعد الدين فلا اعتراض ، وإلا فليرشدهم برفق ، وقوله « وصنفوا » إلخ أى صنفوا تصانيف فيما أحدثوا من البدع ، وأكثرها كانت حراما عند الصوفية ، ويعتبر فيها اليوم بميزان الشريعة كما تقدم .

وقوله « وانتهجوا » أى سلكوا مناهج وطرقا معكوسة ، أى غير مستقيمة ، وارتكبوا طريقة معكوسة مع طرق الصوفية ، فطريق الصوفية ترك الدنيا وأهلها ، وإيثار الزهد والخمول ، فكل من مال للدنيا وأهلها ، أو مال لحب الشهوة ، فقد عكس طريقهم وسلك طريقة معكوسة .

وفى بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليجاء يوم القيامة بأقوام معهم من الحسنات أمثال جبال تهامة ، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباء ثم صيرهم فى النار ، قيل : يا رسول الله بين لنا هؤلاء حتى نعرفهم ، قال . إنهم كانوا يصومون ويصلون ويأخذون وهنا من الليل ، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شىء من الحرام ، وفى رواية « من الدنيا » وثبوا عليه وثبة الأسد على فريسته » اهـ أعاذنا الله من النفاق ، ثم قال:

تالله قد كان طريقا قاصداً ... والآن ما نلقى إليه وارداً

قلت : يريد أن طريق التصوف ، كان طريقاً قاصداً ، أى مقصوداً مسلوكا ، والآن لا مرور عليه ، وارداً ، أى سالكا ، أو كان قاصداً أى متوسطاً معتدلا ليس فيه إفراط ولا تفريط ثم جاء قوم أفرطوا ، وقوم فرطوا ، وخير الأمور أوسطها ، ثم قال :

فهذه طريقة قد درست وشجر أغصانها قد يبست

قلت : معنى درست : ذهبت واضمحلت ، ودروسها باندراس أهلها ، وشبهها بالشجر لأنها أصل وفروع ومادة ، ويبس أغصانها يؤدى إلى عدم ثمرتها ، ولا يكون إلا بدخول على أصلها من الاختلال ، إما من جهة المريد ، لعدم صدقه ، أو من جهة الشيخ لعدم تربيته

ثم قال :

كانت إذن مواردا شريفه فاستبدلت مذاهباً سخيفه

قلت : كانت طريق التصوف مشارب ومناهل شريفة ، من شرب منها شربة المحبة لا يظمأ بعدها أبدا ، كانت إذا شرب المريد من خمرة شيخه سكر ، وصحا ، وفنى عن أوصافه المذمومة ، وبقى بأوصاف محمودة ، فاستبدلت تلك الطريقة بمذاهب سخيفة ، أى قبيحة خسيسة ، يسلكها كل سخيف خسيس ، والخير لا ينقطع إلى أن يأتى أمر الله ، وقد الله تعالى — ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها[1] — فقال :

قد أسست على صحيح النقل وأسها الآن بمحض الجهل

قلت : كانت طريق التصوف مؤسسة على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين الذين تنورت عقولهم ، وانصقلت مرآة قلوبهم ، فتجلى فيها ما كان حقاً ، وزهق منها ما كان باطلا ، فكانت طريقهم مبنية على التحقيق ، ثم صارت مؤسسة على التخمين والتقليد ، بلا ذوق ولا وجدان ، فادعاها كل جاهل ولهان يحب الدنيا سكران ، نسأل الله العصمة من مواطن الخذلان ، فقال :

يدعى الذى يمشى عليها سالك وسالكوها اليوم حزب هالك

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٦ .

قلت : السالك هو الذى يرى الخلق ويستدل بهم على الحق ، والمجذوب هو الذى يرى الحق ويستدل به على الخلق ، والسالك المجذوب هو الذى يرى الخلق بعين الجمع ، لا يحجبه خلق عن حق ، ولا حق عن خلق ، وقد تقدم فى محله ، فكانت طريق القوم يسمى الذى دخل فيها سالكا ، أى سائرا إلى الله ، قال الناظم فى زمانه :

. . . . . وسالكوها اليوم حزب هالك

ـ وأى فهم من الخلل ، ثم قال :

بها عاش القوم بخير عيشه فصيرت بعدهم معيشه

قلت : كانت طريق التصوف من دخل فيها حييت روحه بمعرفة الله ، وطابت حياته بذكر الله ، فعاش عيشة طيبة ، قال تعالى — من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة[1] — فالحياة الطيبة هى التى بالله .

وقال السرى السقطى : من عرف عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحق يندو ويروح بلاش[2] اهـ .

ثم صارت عند قوم حرفة ومعيشة ، يتمعشون بها ، ويتخذونها شبكة يصطادون بها الدنيا والجاه[3] ، والعياذ بالله ، ثم قال :

وكانت تضاهى الكوكب المنيرا والآن أضحت حائطا قصيرا

قلت : كانت طريق القوم رفيعة القدر ، عالية الشأن ، « تضاهى » أى تشابه وتحاكى الكوكب المضىء فى الرفعة والإشراق ، لما يظهر على أهلها من شروق الأنوار ، وابتهاج الأسرار ، فكان لا يدخلها ولا ينتسب إليها إلا الأخيار من الزهاد والعباد ، الذين علت همتهم ، وصلح قصدهم ونيتهم ، والآن صار ينتسب إليها الأشرار والفجار ، فتجد فيها هذا فائداً وهذا باشا ، وهذا حرصى ، وغير ذلك ، فمنهم من يتخذها حصنا يتحصن بها من عوائق علمه ، يظن ذلك يشفع بزعمه ، ومنهم من يتخذها حرفة ، فصارت كالحائط القصير[4]

(١) ٩٧ : من سورة النحل .

(٢) أى بلا شىء ، ولفظ « من عرف عاش » : هكذا هو بالأصل الذى بين أيدينا ، ولعله « من عرف الله عاش » .

(٣) هذا فى وقته وزمانه ، أما الآن فنعوذ بالله من الفجور واستحلال الحرام .

(٤) فإن الحائط القصير يشب عليه كل من هب ودب .

يتخطاه القوى والضعيف ، وسبب ذلك عدم سقوطهم على شيخ التربية ، إذ لو وجدوه لأمرهم بخرق عوائد أنفسهم ، فيفرون منه ، لكنهم اعتبروا للأموات ، ووجدوا راحة قلوبهم ، فبقوا مع عوائدهم ، فازداد حجابهم والعياذ بالله ، ثم قال :

إذ صار لا يعلم منها إلا أكلا ورقصا وغنى وسؤلا

قلت : الحصر فى قوله ، لا يعلم منها ، الخ يقتضى أن الطريق الموجودة فى زمانه ليس فيها علم ولا حال ، ولا ذوق ، ولا معرفة ، ولا شهود ، وإنما يعرف منها الأكل والرقص والغناء والسؤال .

وقال الشيخ عبد الوارث : لم يبق منها إلا الأكل بلا صيام ، والرقص دون أحوال والتواجد بلا وجد ، والتملق لأنفسهم وهواهم وسلاطينهم اهـ

وإنما كانت طريق القوم مقصودة لتهذيب القلوب ورياضة النفوس ، والتخلص من أوصاف البشرية ، والتحلى بأخلاق الروحانية ، ومعرفة الشهود والأدب مع الملك المعبود ، وقد يوجد فيها ما ذكره الناظم ، لكنهم لم يكن مقصوداً ، وإنما كان دواء ولعل الناظم تحقق ذلك من فقراء زمانه بأمارة ، وإلا فالتسليم لأهل النسبة أولى كما تقدم ، ثم قال :

وكانت على الإنصاف والنصيحة (١) فهى على الإسراف والفضيحة (٢)

قلت : كانت طريق القوم مبنية على الإنصاف ، فكان أربابها ينصفون من أنفسهم ، ويرجعون إلى الحق ، ويقبلونه من قائله كائنا من كان ، وكانوا يتناصحون : ينصح بعضهم بعضاً ، ويصح جميع المسلمين ، كل من يلقاهم أرشدوه ، وعلى الله دلوه ، ثم صارت مبنية على الإسراف فى الكلام ، وفى كل شىء ، ترى أحدهم يتكلم فى كلمة يقضى منها واحدة ، وصارت فضيحة ، إذا نصح أحدهم عبس وغضب وجهه ، وأعنف فى القول ، حتى يصح

---

(١) قديماً .

(٢) الآن ، وذلك كما قلنا فى زمانه ، فكيف يكون وصفه لتصوفة زماننا لو رآهم ! الذين ما هم لهم إلا الأكل والرقص كرقص اليهود حول عجلهم . وسر أن التصوف علم وسلوك وأدب .

من يصحه ، وقد قالوا : « من نصحك وحدك فقد نصحك ، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك » والله تعالى أعلم ، ثم قال :

تعرف بالخلق والإيثار والآن بالحقد ، وبالإقتار

قلت : كانت طريق القوم يعرف أهلها بالأخلاق الحسنة ، كالحلم والسخاء والإيثار ، وهو الإعطاء من الإقتار (١) كما قال الشاعر :

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

وكان من أخلاقهم أيضاً التواضع ، وسلامة الصدور ، وحسن الخلق مع كل مخلوق ، ثم بدلت هذه الأخلاق بالحقد ، والحسد ، والكبر ، والبغض ، والغضب ، والقلق ، والشح ، والبخل ، والترفع ، وهو الاشار (٢) ، فصار المنتسبون يبغض بعضهم بعضاً ، ويحسد بعضهم بعضاً لتمكن حب الجاه والدنيا من قلوبهم ، نسأل الله السلامة من الجميع ، ثم قال :

وكانت أجل غبطة وخطه والآن فهى بدعة وخلطه

قلت : كانت طريق القوم أجل ما يغتبط ، أى يفرح بها ويتنافس فيها ، لأنها كانت طريق الوصول إلى العطاء الأكبر ، قال تعالى — وفى ذلك فليتنافس المتنافسون (٣) — وكانت أجل خطة ، أى حرفة وأرفع رتبة ، إذ لا طريق أرفع منها ، فصارت بعد ذلك بدعة وتخليطا بأيدى أهل الصفا ، وبالله التوفيق ، ثم قال :

كانت على مجرد الصيام والآن فى مجرد الطعام

قلت : كانت طريق التصوف مبنية على تصفية القلوب ورياضة النفوس بحرق عوائدها وتعكيس مألوفاتها ، فمن كان طبعه نهمة الطعام أمروه بالصيام ، ومن كان مولعاً بالكلام أمروه بالصمت ، ومن كان مولعاً بجمع الدنيا أمروه بالزهد ، ومن كان مبتلى بالجاه أمروه بالخمول ، وهكذا ، وليست طريقهم محصورة فى الصيام ولا فى غيره ، بل الشيخ كالطبيب يعمل كل واحد بما فيه دواء نفسه والسلام ، ثم قال :

---

(١) أى مع القلة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة جهد المقل ، وابدأ بمن تعول » رواه أبو داود والحاكم .

(٢) الاشار : صاحب الأشرة ، وهى : البطر .

(٣) سورة المطففين ، الآية : ٢٦

فى السماع كان غلق الباب والآن عند جفن جواب(١)

الجفنة هى : القصعة الكبيرة ، والجوابى جمع جوبة ، وهى حفرة كالمهريج ، شبهت بها القصعة الكبيرة .

وقد : قد تقدم أن السماع إنما هو رخصة ، ويشترط فيه الإخوان والزمان والمكان . فإذا كان وقت السماع أغلقوا الباب لئلا يدخل معهم من ليس بأهله ، وتقدم أيضاً أن الأولى أن يبنى فيه مع الباب ليدخل من يحتاج إلى الأكل ، وفى ذلك الدلالة على الكرم وسماحة النفس وغنى القلب وعدم الشح والحرص .

وقال الناظم فى فقراء وقته : إنهم عكسوا الأمر ، ففتحوا الباب عند السماع ليجمعوا عليهم الناس ، وأغلقوها عند الطعام حرصاً وشحا ، نعوذ بالله من ذلك ، ثم قال :

وقولنا الشيوخ والإخوان هم الذين سلفوا وبانوا
ماتوا ولما يتركوا من وارث إذ هؤلاء القوم كالبواعث

قلت : قد تقدم أن الأرض لا تخلو عمن يقوم الله بحجته ، وراجع ما تقدم لنا عند قوله

« إن الذى سألت عنه مات . . . . . »

قال الشيخ زروق رضى الله عنه . وشبه هؤلاء بالبراغيث من وجوه .

أحدها : ما هم عليه من الرقص والتطاير كالبراغيث .

الثانى : ما هم فيه من الإذاية والتنغيص لمن جاوروه ، تارة بالغيبة وتارة بغيرها .

الثالث : خساسة همتهم باعتبار سكنى المواضع المزيلة(٢) والاشتغال بالأكل دون غيره مع ظهورهم بالضعف والمسكنة(٣) . انتهى .

---

(١) ومنه قوله تعالى ـ يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، الآية : ١٣ من سورة سبأ ، والجفنة ، هى ما يوضع فيه الطعام ، والمقصود أنهم الآن لا يتبعون الدين ، وإنما يتبعون الجفان المليئة بالطعام ، وأسأل الله السلامة .

(٢) المزيلة : المتفرقة والبعيدة والمقصود : أنهم يسوا بمجتمعين ، إنما هم متفرقون فى كل شئ وإن كانت بالباء ، الموبلة ، فالمقصود أنهم يسكنون الأماكن القذرة ، وذلك لإثم ، العامة وشكاية الخالق للخلق ، والعياذ بالله تعالى .

(٣) قال الشاعر :

قد : وقد تقدم ما فى الرقص فى باب السماع مجرداً وتعظيم أهل النسبة مطلوب ، وحسن الظن واجب أو مندوب ، والتسليم وقاية ، والانتقاد جناية ، وتأمل ما وقع لابن هرون من القراد حيث نقصه فى باطنه ، فسلبه من ساعته ، وفقد ما كان عنده من العلوم والأنوار حتى تاب إلى الله وذهب إليه وتحلل منه ، والقصة مذكورة فى طبقات الشعرانى ، وكذلك قصة الفقيه الملقينى مع بائع الحشيش ، حيث اعترض عليه بقلبه : فعقد عليه وحاله حتى تاب وأمره أن يجلس معه ويأتى بخبز ولحم ، حتى كل من اشترى الحشيش أطعمه الفقيه اللحم والخبز ، وهذا كله وبال الإنكار على أهل النسبة ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

فكل ما اليوم عليه الناس من مدعين الفقر فيه باس

قلت : هذه الكلية لا تسلم له ، لصحة نقيضها ، وهى الجزئية السالبة ، وهو بعض ما عليه الناس من الفقر لا بأس به ، قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله(١) » .

قال المحققون من العلماء : إن هذه الطائفة مؤلفة من ثلاث فرق : أولياء ، وعلماء ، ومجاهدين ، فهؤلاء الفرق لا تنقطع حتى يأتى أمر الله ، وكأن الناظم لما رأى كثرة التخليط عمم الأمر .

وقال الشيخ عبد الوارث : كل ما هم عليه من محدثات الأمور ففيه بأس ، أى عيب ، فالباس من غير همز ، هو : العيب ، وبالهمز هو الحديد انتهى .

لكن : ما قاله فى تفسير الباس غير صحيح ، إذ الباس هو الحزم والشدة ، بهمز وبغير همز ، ثم ذكر العلة ، فقال :

إذ نقضوا الأصول والأركانا وصيروه فى الورى مهانا
وهدموا بنيانه المشيدا وصيروه محلا ومخدا

= صوفية اليوم فيهم من البراغيث قرب
فيهم صفات ثلاث أكل ورقص ودب

هذا الذى قصده الشيخ زروق رحمه الله ورضى عنه .

(١) رواه البخارى ، والحديث عدة طرق وروايات ، وهو موجود فى أغلب كتب الحديث .

قلت : نقض الأصول والأركان هو : إهمالها والعمل بأضدادها .

وأصول التصوف خمسة :

تقوى الله فى السر والعلانية .

واتباع السنة فى الأقوال والأفعال .

والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار .

والرضى من الله فى القليل والكثير .

والرجوع إلى الله فى السراء والضراء .

هكذا قال الشيخ زروق فى بعض تآليفه ، وقال فى شرحه لهذا المحل : «وأما نقضهم الأصول فبإثبات ما ليس منها فى محلها ، كاستبدالهم الزهد بالحرص ، والورع بالطمع ، والتقوى بوقعة الربانية ، (أى ما فيه ربا) ، والأركان كالأصول ، مثل الجوع ، والسهر ، والصمت ، وكثرة الأعمال فنقضوا ذلك بوجود : البطالة ، والكسل ، وجعلهم لكل ما أثبتوه تأويلا ووجها ، يرونه عين الهدى والصراط المستقيم ، نسأل الله العافية ، وإنما صيروه مهانا ، أى الطريق ، بما أظهروا فيه من خلاف الحق الذى لا يعرف به أحد إلا استخف بطريقه ، وهذا أمر واضح من هذه الأزمنة ، حتى لا يكاد أحد من المعترضين فى هذه الأزمنة يعتقد أحداً ، بل ولا طريقة صحيحة ، ويحتج لذلك بأن فلانا مستظهر بكذا ظهر منه كذا ، وفلانا وقع منه كذا ، وهذا من أولئك ، فالله حسيب المغيرين وفاتحين الباب بأعمالهم ، وإلا فالمنكر يستحق الإنكار معذور ، بل مأجور ، فاعرف ذلك» انتهى كلامه .

وقوله : «وصيروه مخملا ومخمدا» أى لما هدموا أصوله وضيعوا حقوقه ، صار عند الناس مخمولا لا يعرف ، ومخموداً لا يظهر لما أدخلوا فيه من التخليط ، والله تعالى أعلم ثم تمم أوصافه ، فقال :

ونثروا الفروع والأصولا وجعلوا معلومها مجهولا

قلت : النثر هو الطرح ، يعنى أنهم لم يأخذوا بأصل ولا فرع ، لم يتمسكوا من الطريقة بشىء إلا مجرد النسبة ، فصيروا ما كان معلوما منها عند أهلها مجهولا عندهم ، حيث لم يعرفوه .

وقال الشيخ زروق : معناه أنهم لم يأتوا بالطريقة بأصل ولا فرع ، بل هملوا منها ببعض وتركوا بعضاً ، فاشتبهت أمورهم على من ينظر إليهم ، لأنه يجد من الطريقة شيئا يدعوه للاعتقاد ، ويجد من مخالفتها أشياء يدعوه للانتقاد ، وهو من أعظم المصائب ، ثم قال :

واحتسبوا فيها بغير حسبه صيروها ضحكة ولعبه

قلت : الاحتساب الأول من الحساب ، يعنى أنهم حسبوا من الصوفية من غير حسبة ، أى نية صادقة .

وقال الشيخ زروق : معناه أنهم عدوا منها ما ليس بقربة ، واعتقدوا أنه قربة ، كالرقص ونحوه من توابع السماع والاجتماع ، وهو عين الضلال . انتهى .

وفيه مقال عند أهل الذوق .

وقال الشيخ عبد الوارث : أى نسبوا إليها من غير أن يظهر عليهم شىء من آثارها الدالة على صدق نسبتهم ، فصيروها بذلك ضحكة ولعبة ، وأما الطريقة فعلو شرفها وعلو مرتبتها باقية ، ثم قال :

وجعلوها للغنى مغرما والفقير نهبة ومغنما

قلت : لما لم تكن لهم نية صادقة فى طلب مولاهم ، صيروا طريقهم مغرما للغنى منهم ، يغرمونه ويصفونه(١) أحب أم كره يتسببون له بأدنى شىء ويأخذون منه كرها وحياء مالا يعطيه طوعا وسخاء ، وصيروها للفقير منهم نهبة ومغنما ، أى ينتهب الفقير من الغنى ، ويغتنم ما يأخذ منه وليس قصده شيئاً آخر ، وهذه فى غاية خسة الهمة ، ثم قال :

وافتضحوا واصطلحوا لديها فصار ما كان لها عليها

قلت : لما لم يتحقق لهم من الطريقة إلا مجرد النسبة من غير عمل ولا صحبة ، لم تظهر عليهم نتيجة الطريقة ، فافتضحوا .

من ادعى بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان

(١) أى يشاركونه ماله .

وقوله : « وافتضحوا واصطلحوا » أى على سكوت بعضهم عن بعض ، فلا يعير أحد على أحد ، وعدّ سبب الهلاك ، قال تعالى ـ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه[1] ـ وقال بعضهم : ما زالت الصوفية بخير ما اختلطوا ، فإذا انفقوا فلا خير فيهم ، وقد تقدم تأويله والكلام عليه عند قوله :

« مذاهب الناس على اختلاف . . . ومذهب القوم على ائتلاف »

وقال الشيخ عبد الوارث فى تفسيره : قوله اصطلحوا أى : اسكت عنى أسكت عنك ، لما روى عن بعض أمثالهم أنه أتى إلى قوم جاهلين ، فقال لهم : أنا جبريل ، وناه ذوو العاهات والمرضى فسح عليهم ، ويحدون لذلك راحة ، فأقبلوا عليه بأنفسهم وأموالهم ، فسمع ببعض أهل العقول ، فأتى إليه ، فقال : إنى أريد أن أحلو بك ، فخلا به ، فقال له : يا عدو ما وجدت على من تكذب إلا على جبريل ، فقال : ما ضرك بكذبى ، اذهب أنت إلى قوم آخرين ، وقل : أنا ميكائيل ، واتركنى والقوم الجاهلين .

هذا جزء الجهلة ، ولو أنكر بعضهم على بعض لفر الناس عنهم ، وتنغصت عليهم دنياهم ، انتهى

ثم قال :

الولائم :

وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه إذا عرض أحد على أصحابه فى حضور وليمة بنفسه هو من طعامه قبل أن يحضروا الوليمة ، لئلا يظهر عليهم الشره والحرص ، فتنتقض النسبة فهذا منه غيرة على النسبة أن تتهن ، جزاه الله عن طريق القوم خيراً ، إلا إذا كانت حال غالبة ، فلا كلام على صاحبها ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

حق لمن كان عليهم منكرا إذ كل ما يبصر منهم منكرا

قوله « حق » يحتمل أن يكون خبراً عن مبتدأ مضمر ، أى الإنكار حق ، وأن يكون مبتدأ حذف خبره ، أى حق لمن أنكر على الفقراء ثابت ، والأحسن أنه خبر عن مصدر

(١) ٧٩ سورة المائدة .

من أن يفعل ، أى حق لمن كان منكراً على الفقراء أن يفعل ذلك كقولك : حق لك أن تفعل كذا وكذا ، أى فعلك كذا وكذا حق .

قلت : قد تقدم أنه لا ينكر على الفقير إلا ما كان محرماً مجمعاً على تحريمه ، ولا تأويل فيه وعلى تقدير التغيير يكون برفق ولين ، وإذا كان فيه حد أو أدب يكون المؤدب له كالعبد يؤدب ابن سيده ، ولا تسقط حرمة النسبة عنه بسبب ما صدر منه ، وهذا التغيير إنما هو لمن هو مكلف به كقضاة العدل وأهل الحسبة الذين يتقون الله ، وإلا فالسلامة فى التسليم .

وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : والمعترض على الفقراء كمن يدخل يده فى العيران : العار الأول لا يجد فيه شيئاً ، والثانى كذلك ، وقد يصادف لقمة تلدغه فيهلك من ساعته ، اهـ . بالمعنى .

وهذا من الناظم تحامل ، وفيه تسليط على الجانب ، فالصواب حذفه ، ولا سيما العارف لا يرى إلا الكمال ، والعارف وجوه من التأويلات والمحامل ، بل لا يقع بصره إلا على الكمال

يكمل نقصان القبيح كماله فما ثم نقصان وما ثم باشع
وكل قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع

لو علموا ما جهلوا ما صاروا حيث انتهوا ترمقهم أبصار

يعنى أنهم لو علموا من طريق الصوفية ما جهلوا منها ما رمقتهم الأبصار ، حيث ما انتهوا وأينما ظهروا .

قلت : وفيما قاله نظر ، لأن من خرق عوائد نفسه وخرج عن أبناء جنسه قطعاً تَرشقه الأبصار ، ويكثر عليه الصياح والإضرار ، سنة ماضية فى حق الصادقين ، نعم من بقى من الفقراء أو المنتسبين منهم فى زيهم لم ينظر إليه أحد ، وهو دليل برودته

فقد قالوا : الداخل على الله مشكور ، والخارج إلى الناس مبرور ، وقالوا أيضاً : مدح العوام للخواص حجة : أى نقص فيهم ، وتسليط الناس على الأولياء فى بدايتهم سنة جارية وما ذلك إلا لخروجهم عن عوائدهم وتحاملهم عن عالم حسهم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

لو لم يكن بعض لبعض عاكس ... ما لقبوا بعصبة الكساكس

قلت : مذهب الصوفية الألفة والموافقة قلباً وقالباً ، فقلوبهم قلب واحد ، يحب بعضهم بعضاً ، ويخدم بعضهم بعضاً وقد تقدم شروط عقد الأخوة عن الغزالى فيما تقدم ، فالصوفية على قدم الصحابة ، قال تعالى فى حقهم ـ أذلة على المؤمنين(١) ـ أى متعاطفين أذلاء على المؤمنين ـ أعزة على الكافرين(٢) ـ أى عالين عليهم شدة وغلظة ، وقال فى الآية الأخرى ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم(٣) ـ فكل من لم يكن على هذا المذهب فلا نصيب له فى طريق القوم ، وقال الناظم فى فقراء عصره : إنهم متعاكسون بعضهم لبعض ، أى متنافرون ، كل واحد بعكس رأى صاحبه ، لشدة نفرة قلوبهم ، وذلك لبقاء حب الدنيا فى القلوب ، فلو خرج منها حب الدنيا لتطهرت وصفت وتعاطف بعضها على بعض ، فلو لم يكونوا متعاكسين لاجتمعوا إلا على حظ بطونهم ، ما سماهم الناس بعصبة الكساكس . وصاروا يقال لهم « الكساكسية » .

قلت : ولأجل هذه العلة كان بعض الشيوخ يمنع أصحابه من حضور (٤).

ورزقنا الله من حسن الظن به وبأوليائه وبسائر عباده الحظ الأوفر ، بمنه وكرمه آمين . ثم هذه الكلية التى ذكرها لا تسلم له ، والله تعالى أعلم .

ثم قال رحمه الله :

عار لمن لم يرض العلوما ... ويعلم الموجود والمعدوما
ولم يكن فى بدء فقيها ... وسائر الأحكام ما يدريها
والحد والأصول واللسانا ... والذكر والحديث والبرهانا
ولم يكن أحكم علم الحال ... ولا درى مقاصد الرجال

(١و٢) ٥٤ من سورة المائدة .
(٣) ٢٩ من سورة الفتح .
(٤) هكذا بالأصل الذى راجعنا عليه ولعلها « من حضور هؤلاء » والله أعلم .

ولم ينزه صفة المعبود ... ولا درى مراتب الوجود
والنفس والعقل معاً والروحا ... ويدرى منه صدره المشروحا
وعلم سر النسخ والمنسوخ ... أن يتعاطى رتبة الشيوخ

قلت : قوله « عار » خبر مقدم ، و« أن يتعاطى » مبتدأ مؤخر ، أى تعاطى رتبة الشيوخ والمندم للشيخ نحو « عار » أى عيب على من « لم يرض العلوم » بضم الراء ، أى يتمهر فيها حتى تصير طوع يده ليكون فى أموره على بينة من ربه ، ويعلم الموجود الحقيقى ، وهو الحق الواجب الوجود ، والمعدوم حقيقة ، وهو ما سوى الله ، ولم يكن فى ابتداء أمره فقيها ، إذ لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وهو أيضاً لا يدرى سائر الأحكام ، فلا يفرق بين ما يحل له ويحرم عليه ، فقد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، وهو أيضاً لم يدر حدود الأشياء ورسومها ، وكأنه يشير إلى فن المنطق ، ولم يدر أيضاً فى الأصول ، والمراد أصول الفقه ، كمعرفة الواجب والمندوب والمكروه والحرام ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، والقياس والإجماع ، وغير ذلك مما هو مقرر فى فن علم الأصول ، ولم يدر أيضاً علم اللسان ، وهو العربية والتصريف واللغة ، وفن البيان ، ولم يدر أيضاً معانى الذكر أى القرآن العظيم ليتمكن من التدبر فيه ، ولم يدر أيضاً حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ التصوف مبنى على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين(١) .

قال الجنيد رضى الله عنه : « علمنا هذا مؤيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء لا يقتدى به فى هذا الشأن اهـ » .

ولم يعرف أيضاً البرهان ، أى علم البرهان ، وهو علم العقائد التوحيدية ، وهو علم الكلام ، فتكون عنده العقائد برهانية ، ثم تصير بعد ذلك عيانية ، ولم يكن أيضاً أحكم ، أى أتقن علم الحال والمقام ، بحيث يكون سلك طريق الأحوال ، ثم سكن فى المقامات ، وهذا هو المسمى بالسير . فمقامات اليقين ينزل فيها الفقير أولا بالحال ، ثم تصير مقاما .

قال فى الحكم : « حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق

---

(١) وإلهامات العارفين نفسها ما لم تكن مقيمة على الكتاب والسنة ، فإن العارف لا يعمل بها ، وهذا أمر مشهور بين الصوفية المتمسكين بالدين رضى الله عنهم .

فى مقامات الإنزال ، فلا بد أن يكون سلك مقام الزهد حالا ، ثم مقاما ، وكذلك : الورع والرضى ، والتسليم ، والمراقبة ، والمشاهدة ، وغير ذلك ، وهذا هو الدرق الصريح ، وأما من كان يأخذها من الكتب ويقلد فيها فلا تصح مشيخته ، وضرره أكثر من نفعه ، ولم يكن أيضاً درى مقاصد الرجال فى عبارتها وإشارتها ورموزها وألغازها ومقاصدهم ، هل إصلاح الظواهر أو البواطن ، أو هما معاً ، ولم يتره أيضاً صفة المعبود عن الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو غير ذلك من النقائص ، ولا درى أيضاً مراتب الوجود من : الملك ، والملكوت ، والجبروت ، إذ الترقى إنما يكون فى هذه العوالم ، فيترقى من شهود الملك إلى الملكوت ، إلى الجبروت ، وقد تقدم تفسير هذه العوالم عند قوله .

« وعلمـــوا مراتب الوجود » اه

ولم يدر أيضاً معنى : النفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر ، وقد تقدم لنا أن المحل واحد ، وهو الروح ، وهى التى تتطور إلى العقل وما بعده باعتبار المجاهدة والرياضة ، وقد تقدم بيان ذلك مراراً :

ولم يدر أيضاً معنى الصدر المشروح ، وما علامة شرحه ، وعلامة شرحه ما قاله عليه الصلاة والسلام : . . . التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور » اه

ويرجع إلى اليقظة من الغفلة ورفع الهمة عن الدنيا وما فيها ، وإنما اشترطت معرفة الصدر المشروح ، لأن الشيخ يشترط فيه أن تكون له فراسة يطلع بها على أحوال البواطن فيعرف المشروح من المقبوض ، وفى بعض النسخ ولم « يدر منه » أى من نفسه ، وفى بعضها « معنى » وهى أحسن ، ولم يدر أيضاً سر الناسخ من المنسوخ فى الكتاب والسنة ، وهذا من شأن أهل التفسير ، وهو مقرر فى محله .

ثم هذا الذى ذكره الناظم لا يشترط منه شئ إلا علم الأحوال أو ما يلزمه فى نفسه من العلم الضرورى ، وقد تقدم هذا المعنى مستوفياً عند قوله :

« وعند ما قال بهذا الخطب قالوا جميعاً : أنت شيخ الركب »

فراجعه ثم إن شئت ، وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم قال :

يا عجبا من جاهل مبداه فى رتبة الكون ومنتهاه

قلت : مبدأ الإنسان فى رتبة الكون ومنتهاه التقدم له والتأخر عنه فجيش الأرواح سابق على الكون ، وباق بعد طيه فهو أول الكون ومنتهاه ، فللإنسان شبه بالصمدانية الأولية ، لأن فيه الأولية والآخرية ، والظاهرية ، والباطنية ، فروحه أول الكون وتبقى بعد فنائه وهى ظاهرة بالإنسان إذ لا ظهور لها إلا به ، باطنة فيه ، وفيه سبع من صفات المعانى : القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام كما فى البخارى « إن الله خلق آدم على صورته(١) » وفى رواية غيره « إن الله خلق آدم على صورة الرحمن » أى على صفته فى الجملة ، وإن كانت أوصاف البارى عظيمة لا تشبه أوصاف العبد ، لكن لها شبه ونموذج فى الجملة .

وقال صاحب « الرموز فى فتح الكنوز » على قوله صلى الله عليه وسلم « من عرف نفسه عرف ربه » قد ظهر لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه ، وهو : أن الله سبحانه وضع هذه الروح فى هذه الجثة الجثمانية لطيفة لاهوتية مودعة فى كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته تعالى وربوبيته ، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه :

الأول : أن هذا الهيكل الإنسانى لما كان مفتقراً إلى محرك ومدبر ، وهذا الروح يدبره ويحركه ، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر .

الثانى : لما كان مدبر الجسد واحداً ، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد ، لا شريك له ، فى تدبيره وتقديره ، قال تعالى ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(٢) ـ .

الثالث : لما كان لا يتحرك هذا الجسد إلا بتحرك الروح وإرادته ، علمنا أنه لا يتحرك كائن بخير أو شر إلا بتحريك الله وقدرته وإرادته .

---

(١) سبب هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يضرب عبده على وجهه فقال له : « إن الله خلق آدم على صورته » أى على صورة هذا الإنسان ، فالضارب له كأنما ضرب وجه أبيه آدم ، وما ورد من كلام الصوفية فى معنى هذا الحديث ـ فى اعتقادى ـ أنه على سبيل الإشارة والرمز لا الحقيقة ، والله أعلم .

(٢) ٢٢ سورة الأنبياء .

الرابع : لما كان لا يتحرك فى الجسد شىء إلا بعلم الروح وشعورها ، لا يخفى على الروح من حركات الجسد شىء ، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

الخامس : لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء ، علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شىء ، ليس شىء أقرب إليه من شىء ، ولا شىء أبعد إليه من شىء ، لا بمعنى قرب المسافة ، لأنه منزه عن ذلك .

السادس : أنه لما كان الروح موجوداً قبل الجسد ، ويكون موجوداً بعد عدمه ، علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه ، ويكون موجوداً بعد عدمهم ، ما زال ولا يزال ، ويتعالى عن الزوال .

السابع : لما كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ، علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية

الثامن : لما كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ، ولا أينية ، بل الروح موجود فى سائر الجسد ما خلا منه شىء فى الجسد ، كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان(١) ومنزه عن المكان والزمان .

التاسع : لما كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس .

العاشر : لما كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر ، ولا يمثل بالصور ، علمنا أنه لا تدركه الأبصار ، ولا يمثل بالصور والآثار ، ولا يشبه بالشموس والأقمار ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

تنبيه : قد اشتهر على السنة كثير من الصوفية أن « من عرف نفسه عرف ربه » حديث ، وليس كذلك ، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازى ، جزما نص عليه الحافظ الدمياطى والزركشى ، والحافظ السيوطى فى « الدرر المنثرة فى الأحاديث المشتهرة » ونصه : حديث

---

(١) قوله « فى كل مكان » نوع من التقريب للعقل ، إذ لو قلنا « فى كل مكان » لكان له مكان ، وهو سبحانه وتعالى كما قال الشيخ نفسه منزه عن المكان والزمان ، فافهم ترشد .

« من عرف نفسه عرف ربه » قال النووى غير ثابت ، وقال السمعانى : هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازى اه .

وكل من يرجع فيه لأربابه ، والصوفية رضى الله عنهم لحسن ظنهم : كثيراً ما يتساهلون فى الأحاديث ، هكذا كما قال الشيخ سيدى مسلم فى كتابه .

وإنما تعجب الشيخ من الجهل بهذين الأمرين ، لأن هذين الموقفين هما أصل التوجه والمعاملة ، ومظهر التحقيق والمواصلة ، وبالله التوفيق .

ثم قال متمما لما تعجب منه :

وكيف يهدى وهو لم يهدى ... لقد عدى ظلما وقد تعدى

قلت : من لم يأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه ، من لم يرب لا يربى ، من لم يهد بصيره لا يهدى غيره ، من لم يسلك الطريق لا يسلكها لغيره ، بل يتلف نفسه ومن تبعه ، ولقد عدا أى جاوز الحد ظلما ، أى من جهة الظلم لقد تعدى طوره ، ولم يعرف قدره .

ثم قال :

من لم ينل مراتب الإراده ... كيف يوطى الهدى سجاده

قلت : من لم يحصل مراتب الإرادة ويسلكها جذباً وسلوكا ، كيف يوطى ، أى يبسط سجدة ويقعد عليها لهداية الناس ، فمن فعل ذلك فقد غر الناس ، من لم يصحب العارفين من أهل الكمال لا يغر بأولاد الرجال .

ثم قال :

كيف يدل طرق الأسفار ... من لم يزل فى جحره كالفار

قلت : الجحر بتقديم الجيم هو الغار ، وقد تقدم أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب ، فلا بد أن يكون عارفا بالمنازل والمراحل ، قد سلك الطريق وعرفها ، وعلم وعرها وسهلها ، وأما من كان لازما بيته قاعداً فى جحره كالفار ، فلا يمكن أن يدل على الطريق ، لأنه يتلف من تبعه قطعاً .

قال فى بداية السلوك :

أتسكتنى بالوصف فى المسير فالوصف لا يغنى عن الخبير

قال الشارح بعد كلام العلماء : إنما نبهت على ما تصح به الوجهة إلى الله ، لا عن السر الذى تمتد منه الوجهة ، الذى لا يتصور الكشف عنه إلا لمن اختفّ الحجاب عن عين قلبه ، وكان له نصيب ميراث من فراسة نبيه صلى الله عليه وسلم فى أحوال صحابته ، فهذا العلم هو الذى لا يمكن التعبير عنه بالمقال ، ولا يصح الأمر حتى يؤمر وينهى ، ويعطى ويمنع . ثم قال : أرأيت لو أن رجلا أو رجالا وصفوا لك الطريق من دارك إلى مكة ، وكتبوا لك كتابا فيه جميع المنازل والمناهل ، والمواضع المخوفة والمأمونة ، ثم نهت ، أينفعك ذلك الكتاب ، وقد أحاط بك بحر السراب ، وانقطعت عن حى الأعراب ؟ بل تتيقن بهلاك وكتابك فى يدك ، هذا فى الطريق الحسى ، فما بالك فى الطريق الباطنى المعنوى التى هى قليل خطارها ، كثير قطاعها ، اهـ . بالمعنى .

ومن هذا المعنى قالوا : « إن الميت لا يربى ، لأن من مات لا يدل على الطريق بالفعل ، وقالوا : أيضاً الثدى الميت لا يرضع الولد ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

أليس هذا كله محال لم يستقم لشخص منه حال

قلت : الإشارة تعود إلى التقدم إلى الشيخوخة(١) من غير استحقاق ، وذلك عند أهل الحق محال ، لم يستقم لمن تبعه حال ، بل ضرره أقرب من نفعه ، ليئس المولى وابئس العشير .

ثم قال :

يا قاصدا علم طريق السالف لا تقتدى بهذه الطوائف
ما منهم من علم المقصود منه ولا الوارد والمورود
لم يعرفوا حقيقة الطريقه فالقوم جهال على الحقيقه
فاحذرهم خشية يفتنوكا واترك سبيلا لم يزل مسلوكا

(١) أى إلى التقدم إلى أن تكون شيخ تربية .

قلت : هذا تحذير من منفقرة وقته ، يقول : يا قاصداً علم طريق الصوفية المتقدمين المحققين لا تقتدى بهذه الطوائف : الجهلة المبتدعين ، فليس منهم من علم المقصود من الدخول فى طريق القوم ، ولا كيفية الورود ، أى المرور عليها ، ولا موردها أى مشروبها ما هو ، إذ لا ذوق عندهم ، ولا حال ، وإنما الناس من عوام الجهال ، لم يعرفوا طريقة ولا حقيقة والجاهل لا يقتدى به ، ولا يكون إماما أبداً ، قال تعالى ـ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله : على بصيرة أنا ومن اتبعنى(١) ـ والجاهل لا بصيرة له .

فإن قلت : قد وجد كثير من الأولياء أميين ، وكانوا أئمة يقتدى بهم فى الباطن .

قلت : مثل هؤلاء كانوا منعطفين إلى الله ، جادين فى طلب الحق ، فلما علم الله صدقهم دلهم على ولى من أوليائه ، فلما كشف الحجاب عنهم ، علمهم الله ما جهلوا ، فكانوا أعلم الناس بالله ، وقد قال بعضهم : ما اتخذ الله وليا جاهلا إلا علمه(٢) وغيرهم من فقراء الوقت لم يكن لهم ذلك فبقوا جاهلين ، ثم هذا الذى قاله النظم ليس على التعميم ، إذ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته ، وشيخ التربية لا يخلو الزمان منه أبداً ، إذ لا يمكن أن يكون القطب إلا بعد التربية ، وهو لا تخلو الأرض منه ، كما هو مقرر عند أهل الفن . والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فإن غدا الأمر عليك مشكلا وشئت أن تعلمه مفصلا
فسوف ألقى لك قول الحاذق يفصل بين المدعى والصادق

يعنى إذا صار الأمر مشكلا عندك ، ولم تعلم الصادق من الكاذب ، والجاهل من العالم والمحق من المدعى ، والسنى من المبتدع ، واغتررت بظهور الكرامات ، وكثرة الاتباع ،

(١) سورة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٠٨ .

(٢) وقصة السيد / أحمد الفرغل مع ابن حجر مشهورة ، وذلك أن ابن حجر رأى الفرغل ماراً مع بعض تلاميذه ، فقال ـ فى سره ـ : ما اتخذ الله من ولى جاهل ، فكشف الله حاله للفرغل ، فلما رجع لقيه فرد عليه بقوله : اتخذنى وعلمنى يابن حجير ، بالتصغير ، فرجع عن إنكاره عليه . وفضل الله واسع . والله تعالى أعلم .

و كثره الطعام ، ولم تدر بمن تقتدى . فها أنا أخبرك وألقى إليك قول اللبيب الحاذق يحكم بين المدعى والصادق ، ثم ذكر ذلك القول الفاصل ، وقال .

قول الفقير : إنى فقير فللظهور أبداً يشير

قلت : كون قول الفقير : « أنا فقير يشير للظهور » ليس على إطلاقه، بل فيه تفصيل .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : أما قول الفقير : أنا فقير فهو إشارة للظهور كما قال ، وذلك محمود ومذموم بحسب قصده ، وهو على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يقصد به التبرى مما كان عليه من الجهالة والغفلة ، ليكون له عوناً على عدم العود لما كان عليه ، وهذا أمر لا بأس به إن وقف على حده .

الثانى : أن يقوله يستجد به من عسى أن يرجو فيه خيراً أو عاصيا متمرداً ، أو متذكراً يقظان . أو مريداً متوجها ليكون له عوناً على البر والتقوى ، فهذا أيضا لا بأس به إن دام بعد به نحله ، وعلامة صاحب هذين الوجهين : أن يقول ذلك مع انكسار وتعر واستغفار وحمد واستبشار .

الثالث . أن يقول ذلك بقصد التبجح والاستتباع ، وإظهار المزيد ، والتعزز بالنسبة والانتساب ، وطلب الرياسة وإشاعة الأمر فى العموم ، والتعرض لكل أحد . والتعريض به ، وشاهد الحال لا يخفى إلخ .

قلت : ودم من هذا وصفه لا يخفى ، وهو الذى يعسر به الناظم ، والله تعالى أعلم

ثم قال

وبسطه وليس غير عارف سخافة ليست من المعارف
وقبضه وليس ذا إرادة فهو على غير طريق السادة

قلت : الغالب على العارفين البسط فرحا بالله وبالوصول إليه ، والغالب على المريدين القبض . لأنهم فى محل المجاهدة والمكابدة ، فإذا رأيت الفقير انبسط وانشرح من غير وارد قبل تحصيل المعرفه بالله فبسطه وانشراحه سخافة وحمق ، ليست من المعارف ، إذ لا يليق بحاله إلا القبض ، إذ لا حظ للنفس فيه ، وإذا رأيته مقبوضا ولم تظهر عليه أحوال الإرادة فاحذره ، فهو على غير طريق السادة المتقدمين ، ولا يلزم من الحذر الاستحقار ، فتعظيم النفس مطلوب .

ثم قال :

وأخذه مما بأيدى الناس دون اضطرار فهو ذو إفلاس

قلت : أخذ المريد من أيدى الناس ، وسؤاله لهم من غير ضرورة ، تدل على إفلاسه ، وأنه فقير بطنه ، يريد جمع الدنيا ، المهم إن كان قصده إعانة شيخه أو فقير مثله ، فلا بأس به ، والحاصل أن الفقير لا يقبض لنفسه إلا ما كان مضطراً إليه وإن قبض شيئا بلا ضرورة أخرجه عنه سريعا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

ولبسه ما كان ذا اشتهار فسره عار عن الأسرار

قلت : لبس الفقير ما فيه الشهرة عند الناس ، إن كان بإذن من شيخه فلا عليه ، فإن الشيخ طبيب ، وإن كان بغير إذن فلا يخلو من حظ ، فإن النفس تحب أن تعرف ، وقد قالوا . حالموا تعرفوا ، فلعلها تريد ميل القلوب ، فمن فعل ذلك فاحذره ، فإن سره زال من الأسرار والعياذ بالله ، لأن الصادق لا يحب أن يذكر ولا يظهر ، والسر لا يكون إلا مدفونا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال .

وأكله من سائر المآكل دون انتهاء فهو غير واصل

قلت : الناس على ثلاثة أقسام :

قسم عوام ، لا توجه لهم ، فهم يأكلون كل ما تبيحه الشريعة .

وقسم عارفون واصلون ، تحقق فنازهم وبقاؤهم ، فهم يأخذون من يد القدرة ، فهؤلاء أيضاً لا كلام عليهم .

وقسم مريدون متوجهون ، فهؤلاء ينبغى لهم ألا يتعاطوا كل ما تشتهى نفوسهم ، بل ينبغى لهم مخالفتها فى ذلك ، إذ لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، فإذا رأيت الفقير يأكل من سائر المآكل ، شهوات وشبهات ، ولا يتحاشى من شىء ، وهو دون انتهاء فى المعرفة ، فهو غير واصل ، لا يأتى منه شىء ، ولا يحصل على طائل ، إلا أن يتوب ، والله تعالى أعلم .

ثم قال .

وسمعه مواقع الألحان بغير موت النفس فهو عان

قلت : قد تقدم الكلام على السماع ، وحاصله : أن الفقير إذا حصل له الفناء في الذات ، وعرف كيف يسمع ، فالسماع في حقه مطلوب ، لما فيه من زيادة الحمرة ، فإن النفس لما ماتت لا تميل إلا إلى الحضرة ، ولا تسمع إلا منها .

قال : بعض من صح سماعه : أنا لا أسمع من النغم إلا أنا أنا ، أو أنت أنت .

وقال الششترى : « أنا بالله أنطق ، ومن الله أسمع ، فمثل هذا يزيد بالسماع ما لا يزيد بغيره ، ومن لم يبلغ هذا المقام فالسماع عليه مكروه أو حرام ، فمن رأيته يسمع الألحان ولم تمت نفسه فهو عان(١) أى فى عناء وتعب ، لا يزيده ذلك إلا بعدا » والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحبه السماع لا محاله بقية فيه من البطاله

قلت : السماع إنما هو دواء ورخصة للضعفاء تقوية لحالهم ، فإذا حصل الشفاء استغنى عن الدواء ، فإذا رأيت الفقير يحب السماع ، ويميل إليه على الدوام ، فاعلم أن فيه بقية من البطالة ، والبطالة ضد المجاهدة ، ومن لا مجاهدة له لا مشاهدة له ، ومن لا سير له لا وصول له . والله تعالى أعلم .

ثم قال :

ورقصه فيه بغير وارد يسلبه عنه فقير وارد

قلت : قد تقدم الكلام على الرقص والتحرير فيه عند قوله فى السماع « والرقص فيه دون هجم الحال » إلخ ما يغنى عن إعادته .

فرقص الفقير بغير وارد يسلبه عن الشعور بنفسه ، فهو غير وارد ، أى غير شارب من شراب القوم ، إلا أن يكون تواجدا أو مساعفة لمتواجد ، فلا بأس به ، ولا يعترض على صاحبه .

أو تقول : رقص الفقير أو زعقه أو صراخه من غير وارد ، فهو بدعة غير وارد فى الشرع ، والله تعالى أعلم :

(١) العانى هو : الأسير ، والقصد هنا أنه أسير شهواته والشيطان ، والله تعالى أعلم

ثم قال :

وأخذه الخلع بغير الخلع بعد عن الحق بعين الجمع

قلت : قد تقدم الكلام على الخلع ، فإذا رأيت الفقير يأخذ ما خلع عنه من الثياب عند ورود الأحوال بعد أن طرحها عنه ، فهو عائد إلى صدقته ، كالكلب يعود فى قيئه(١) ، فهو بعيد عن الحق بعين الجمع ، أى حيث يظن الجمع ، يعنى أنه بعيد من حيث يظن القرب ، ففيه جهل مركب ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحطه الراس بغير جرم على أخيه غير فعل القوم

قلت : قد تقدم أن حط الرأس عند فعل ما لا ينبغى : ليس من شأن الصوفية ، ولا عمل عليه ، فإذا فعله الفقير فقد أخطأ ، إذ ليس نص من الشارع ، فهو قريب من البدعة .

ثم قال :

وقد ذكرنا حكم الاستغفار أعنى القيام ليس عرفاً جارى

قلت : قد تقدم أيضاً حكم الاستغفار ، وأنه لم يجر به عرف .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هذه الثلاثة ، يعنى أخذ الخلع ، وحط الرأس ، والقيام للاستغفار ، ليس من مطلب الطريقة ، ولا من موجبات الحقيقة ، ولا من أحكام الشريعة ، وإن كان لها وجه من التأويل ، فتركها أولى ، والتسليم للعامل بها لازم لمحل الاشتباه ، والله تعالى أعلم ، اهـ .

ثم قال :

وميله للعرب والأعاجم علة نفس ، وهو فيه آثم

قلت : من شأن الفقير فى بدايته الفرار من الناس والاستيحاش منهم ، حتى يتمكن الحضور فيه على التمام ، وحينئذ لا بأس أن يخالطهم بجسمه ويفارقهم بقلبه ، وأما ميله للناس وحب مخالطتهم فهو دليل على إفلاسه ، إذ الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس .

(١) أخذها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه » .

وقال بعضهم : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم ماراهم ، ومن ماراهم وقع فيما وقعوا ، فهلك كما هلكوا ، وقد دور الشيخ الحضرمي حيث قال :

عش خامل الذكر بين الناس وارض به فهو أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم دياته ولم يزل بين تحريك وتسكين

وقال بعضهم : من خالط الناس وظن السلامة من الإثم ، فقد رام المحال . كمن خالط النار بالحطب وظن سلامته من الاحتراق .

ثم قال :

سفره إن لم يكن إليه منه فلا حقيقة لديه

قلت : سفر المريد إن كان بالله لله ، فانيا عن نفسه ، خاليا من حظوظه ، فهو في غاية الكمال ، وإن كان بالنفس للنفس ، فهو في غاية النقصان ، وجلوس هذا أفضل من سفره ، وإن كان بنفسه لله ، فهو متوسط ، وسفره أفضل من جلوسه ، ليتحقق بحاله ، فحاصل أن السفر على ثلاثة أقسام : سفر بالله إلى الله ، وسفر بالنفس للنفس ، وسفر بالنفس لله .

فالأول محمود قطعا ، والثالث ملحق به ، والثاني مذموم قطعاً

ومطرق الناظم هو : الثاني والثالث ، ومفهومه هو : القسم الأول ، لكن الثالث ملحق بالأول ، كما تقدم ، خلافا لظاهر كلام الناظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإن أشار للمرام الأول وجهل العقل فصه فاعدل

قلت : لعله أراد بالمرام الأول : عالم القدرة ، وأراد بالعقل : عالم الحكمة ، فيها من مدركات العقل ، فإذا أشار المريد إلى الحقيقة الأولية ، وجهل ما أدركه العقل من الأكوان التي وقع بها التجلي فاعدل عنه ، لأنه إن كان بجذوبا فهو ناقص ، وإن كان مدعيا فهو ساقط ، فالأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته ، فلا بد من إثبات الواسطة والموسوط ، ونفي عالم الحكمة يؤدي للزندقة ، لإبطال الأحكام ، والله تعالى أعلم .

وقال : الشيخ زروق رضي الله عنه : إشارته للمرام الأول تنبيه على من قال بقوله الفلاسفة من اعتبار العقل الأول ويسمونه : الفعال ، وهو مذهب فاسد خارج عن حدود المعقولات ، لما تضمنه من قدم العالم ، والقول بموجبات لا أول لهـــا ، وإليه أشار بقوله ، جهل العقل ، أعني جهل حقيقته ، حتى سماه بغير اسمه ، وحكم له بحكمه اهـ .

ثم قال :

أو قال بالظهور والحلول فبدعة يقدح في الأصول

قلت : مراده بالظهور : ظهور الذات العالية لبصر الحس ، حتى تدرك بالبصر الحسي ، وقد قال تعالى ـ لا تدركه الأبصار(1) ـ وإنما تدركه البصيرة ، فإذا انفتحت وقوي نورها استولت على البصر ، فصار الحكم لها ، فالبصر لا يرى إلا الحس ، والبصيرة لا ترى إلا المعنى ، وقد يتلطف الحس فيصير كأنه معنى ، فيكون ما تراه البصيرة في عين العيان ، وهو محل الشهود ، إذ الحس لا يفارق المعنى ، وأما الحلول فمعناه إثبات السوى ، وحلول الألوهية فيه ، وهو كفر صراح ، فمن ادعى شيئاً من الظهور أو الحلول فارفضه ، فقد أتى ببدعة تقدح في أصول إيمانه ، والعياذ بالله من الزلل .

ثم قال :

وقوله : أنا الذي أهواه قبل الفنا عنه فما أفتاه

قلت : إذا قال الفقير : « أنا من أهوى ومن أهوى أنا » قبل تحقق فنائه ، فما أبعده عن الصواب ، وإذا تحقق فنائه فلا يقول ذلك إلا مع من يصدقه في حاله ، وإلا تعرض لقتله .

ثم قال :

أو يدعي في علمه اللدني بلا تقي ، فذاك غير سني

قلت : متى ادعى الفقير أن له علمـــا لدنيا ، ولم تظهر عليه تقوى ولا مجاهدة ، ولا رياضة ، وإنما ذاك خرافات لا طائل تحتها ، ومن ادعى ذلك فهو غير سني قال تعالى :

---

(1) ١٠٣ من سورة الأنعام .

ومن لا علم له فهو جاهل ، والجاهل يقود الجاهل ، كالأعمى يقود الأعمى : إلى أين المصير(١)، وإن لم يأذن له شيخه فهو ذو دعوى ، ومبتلى بهوى ، والهوى شعبة من الجنون ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

أو قال صوفي أنا ، ولما ... يدر حدود النفس فهو أعمى

قلت : إذا قال الفقير : أنا صوفي ، ولم يفرق بين حدود النفس وحدود العقل، والقلب والروح ، والسر ، فهو أعمى .

أو تقول : لم يفرق بين الروحانية والبشرية ، فهو أعمى عن طريق الخصوصية .

أو تقول : لم يعرف ما فيه ضرر نفسه فينكفه عنه ، وما فيه نفعها فيبادر إليه ، ولا شك أن من كان هكذا فهو أعمى عن طريق السير ، إذ السير إنما هو في فعل ما ينفع النفوس ، وترك ما يجني به ، ومن لم يعرف ما ينفعه وما يضره فلا بصيرة له . فهو أعمى ، وهذا أقرب لشرح النظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحبه القوم بلا اتباع ... ليس له فيه من انتفاع

قلت : محبة القوم فيها خير كثير ، من أحب قوما حشر معهم(٢) ، لكن لا ينتفع بها في طريق التصفية والتهذيب إلا باتباع ما أشاروا إليه به ، وأما الحرمة والبركة فتحصل بحول الله : عمل بعملهم أو لم يعمل للحديث(٣) ، والله تعالى أعلم .

---

(١) إلى حفرة من حفر جهنم يتردیان فيها سويا : القائد الجاهل بالطريق والمقود ، نسأل الله تعالى السلامة .

(٢) هذا نص حديث شريف رواه مسلم ، والمروزي في زوائده على كتاب الزهد لابن المبارك، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام :

« من أحب قوماً حشره الله في زمرتهم » رواه الطبراني ، والضياء المقدسي عن أبي قرصافة .

(٣) قال رجل للنبي ﷺ : يا رسول الله ، يحب الرجل القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال له النبي ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه البخاري ، ومسلم ، والإمام أحمد ، والثلاثة عن بن مسعود .

- واتقوا الله ويعلمكم الله(١) - فمن لا تقوى له لا يعلمه الله شيئا ، وقد قال القائل(٢) :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصي

والمراد بوكيع الفقيه المحدث الضابط من أشياخ الإمام الشافعي(٣) .

وفي الحكم ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ، اهـ .

ثم قال :

وحكمه إن كان فوق الحال ... فذاك مقطوع عن الرجال

قلت : ينبغي للفقير أن يكون حاله فوق مقاله ، وقدمه أكبر من صيته ، فإذا كان يدعي مراتب الرجال ويحكم على نفسه بها قبل وصوله إليها بشهادة أهل الفن ، فهو مقطوع عنهم والعياذ بالله من الدعوى .

ثم قال :

أو قال أنا الشيخ فاتبعوني ... بغير علم فهو ذو جنون

قلت : الفقير لا يدعي الشيخوخة حتى يأذن له شيخه ، فإذا أذن له فلا بأس أن يعرف بنفسه لقصد الاتباع به ، وأما إذا لم يؤذن له ، أو لم يكن له شيخ، وقال أنا الشيخ فاتبعوني فهو أحمق مجنون ، سواء كان له علم أم لا ، إذ من لا شيخ له : لا علم له بطريق السير أصلا ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

(٢) هو للإمام الشافعي رضي الله عنه ، والنص الذي نحفظه :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

والله تعالى أعلم .

(٣) في الأصل : من أشياخ الإمام البخاري ، وهو خطأ ، لأن وكيعاً توفي عام ١٩٦ هـ والبخاري ولد عام ١٩٤ هـ فالبخاري لم يره ، رحم الله الجميع .

ثم قال :

وفعله ما فى عموم الشرع يمنعه النص فعمل بدع

قلت : فعل ما يمنعه النص فى عموم الشريعة حرام ، لا لضرورة ، فإن الضرورات تبيح المحظورات(١) ، وإن فعل الفقير شيئاً من ذلك فهو مدعى . وأما ما لم يرد نص فى تحريمه ولا تحليله ، فإن فعله بنية القربة فهو بدعة أيضاً لتغييره أحكام الشريعة (٢) ، وإن فعله استراحة للنفس ، أو جلبا لحال ، أو لدواء مرض أصابه فهو مطلوب ، فقد سئل الجنيد عن السماع ، فقال : كل ما يجمع العبد بالله فهو سماع اهـ .

وبيت الناظم فيه تقديم وتأخير ، أى وفعل الفقير ما يمنعه النص فى عموم الشرع فعمل بدعى ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإن تشيخ بغير إذن من شيخه باء بكل غبن

قلت : الفقير إذا تشيخ ، أى صير نفسه شيخاً ، وتقدم لمرتبة الشيوخة من غير إذن من شيخه فقد باء ، أى رجع بكل غبن وخسارة ، إذ لو رآه شيخه أهلا لها لقدمه لها ، وأما انتقاله عنه إلى غيره فهو أقبح (٣) وهو إفساد لبذرة الإرادة ، وهذا فى حق شيخ التربية ، وأما غيره فلا يضره الانتقال عنه ، إذ المريض إذا لم يشف على يد طبيب انتقل إلى غيره وهذا ، أى انتقال المريد لم يذكره الناظم ، وتقدم فى محله ، والله تعالى أعلم .

---

(١) قاعدة فقهية ، ولكنها ليست على إطلاقها ، وإنما هى مقيدة بقيود ، وتستعمل فى أضيق الحدود ، وإذا لم تصادم نصاً شرعيا ، فليرجع فى شروطها وقيودها إلى كتب الفقه .

(٢) كل ما لم يرد فيه نص بالتحريم ولا بالتحليل فهو مباح ، والغناء والرقص وما إلى ذلك من أفعال المجان ، محرم بنص الحديث الشريف ، الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع ، رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر ، وخصوصاً فى هذا الزمن الذى اتخذوا فيه التصوف تجارة وطبلا ومزماراً ، وتركوا العمل بالكتاب والسنة ، كفانا الله شرهم .

(٣) لأنها طعن فى شيخه الذى أخذ عنه الطريق ، والشقاق بدون مبرر .

ثم قال :

فهذه وشبهها موانع وهى على الطريق كالقواطع
هل هى إلا عائل فى الفقر جالدها كل جليـــد صقر

قلت : الإشارة تعود إلى كل ما قدمه من الفصل إلى هنا من مساوىء متفرقة الوقت : يعنى أن هذه الأمور التى قدمنا وشبهها هى فى طريق القوم : موانع تمنع المريد عن الوصول إلى مقصوده ، وهى على طريق التصوف ، كالقواطع ، وما هى أيضاً إلا عائل فى طريق الفقر ، فمن جالدها وجادلها فهو كالصقر ، أى البازى فى الشجاعة والزعامة ، والمجالدة هى المضاربة بالسيوف ، والرجل الجليد هو الصبار ، أى جالد هذه العائل وصرفها عن نفسه ، صبار شجاع زعيم ، يفوز بالخير الجسيم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

حتى إذا جدلها(١) صريعة لم يتوقع بعدها وقيعـــه

قلت : التجديل هو الصرع والإسقاط ، يعنى أن الفقير إذا غلب نفسه وجالدها حتى غلبها وصرعها وقتلها ، أمن حينئذ من غوائلها ، ولم يتوقع منها بعد ذلك وقيعة ، ولا فتنة البتة ، وبالله التوفيق .

ثم قال :

يا صاح لا يفتنك الزمان فيما لديك الشرح والبيان

قلت : لما نصحك وحذرك قال لك : يا صاحبى لا يفتنك الزمان وأهله ، فقد شرحت لك أحوال الناس وبينتها حتى تركتك على بينة تعرف منها الصادق والكاذب ، فلا تغتر حتى يأكلك من والاك ، ولا تسىء الظن حتى تسد باب رحمة مولاك ، وابتغ بين ذلك سبيلا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فالحق لا يعرف بالرجال والعين لا تصلح بالمحال

---

(١) جدله : ألقاه على الجدالة : أى الأرض .

قلت : هذا مثل مشهور، وهو أن «الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق» أي باتباعه ، فمن عرف الحق بالرجال أصبح في غاية الضلال ، اعرف الحق تعرف أهله .

وقد قال علي كرم الله وجهه : « لو عرفت الله بمحمد ﷺ لما عبدته ، ولكن الله عرفني بنفسه فعرفته ، ثم عرفت محمداً بالله » .

فانظر هذا المقام الذي لم يحجبه عن الله ولا عن رسوله ﷺ .

وقوله : « والعين لا تصلح بالمحال » أي ما شاهدته العين وتحققه لم يتطرق إليه محال ولا ريب ، فليس الخبر كالعيان ، فلا بد من السماع حتى ترى بعين ، وتتحقق ، وحينئذ تعلم أو تأخر ، وفي بعض النسخ : « والعين لا تصلح بالكحل » بالكاف، ولعل معناه أن العين فالكحلاء غنية عن الكحل . فهي جميلة لا تحتاج إلى أن يصححها الكحل[1] ، وكذلك الحق معروف لا يتوقف على معرفة الرجال ، بل معرفة الرجال متوقفة على معرفة الحق ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

والحق في كل الأمور أولى لو رآه الباطل لاضمحلا

قلت : لا شك أن متابعة الحق والأخذ به في كل الأمور أولى ، ومن جاء الحق رفق الباطل وصحل . قال تعالى ـ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق[2] ـ إذ الباطل لا يقوم للحق أصلا

قيل لسهل رضي الله عنه ، من أين تأكل ؟ قال : من عند الله ، قال : أيأكل عيسى من السماء ؟ قال : لو لم تكن الأرض له تنزله من السماء .

قال : أتم لا يهتم أحد لكم حجة ، فقال : الحق لا يقوم له شيء .

---

(١) وقد يكون « بالكحل » بتشديد الحاء بصيغة الماضي ، وهو ما استقام المعنى ووضح أكثر ، فإن العين لا تصلح بالكحل (أي التي يحاول إصلاحها) ، وإنما تكون كحلاء خلقتها هكذا ، والله تعالى أعلم .

(٢) ١٨ من سورة الأنبياء .

وقيل المسئول حاتم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

إذا علمت سنن الأقوام إذن فهمك القوس والمرامي

وفي نسخ السنن بالفتح الطريق ، وبالضم جمع سنة ، يقول لما أخبرك سنن الصوفية فقد أعطيتك أقواسهم ، وكشفت لك عن مناهج مرامهم ، وحيث تنتهي سهامهم فلا تعتبر بجهال سهم وفرعون وأعصيتهم الباطلة ، وتدع الميل إلى عصو موسى التي هي « تلقف ما يأفكون » فتمح الحق وتبطل ما كانوا يعملون . فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ـ[1] وكذلك المتشبهة مع سادات الصوفية ، قاله الشيخ عبد الوارث .

ثم قال :

هذا هو الطريق فاقصد نحله فقد جمعت لك فيه جمله

يعني أن ما ذكرته في كتابي هذا هو أساس الطريقة، فابن عليه يستقم دينك ، وارفض ما سواه تنجح . فاقصد العمل بما فيه أو جله ، فقد جمعت لك من سنن القوم جملة صالحة ، وبالله التوفيق .

ثم قال :

وقد ذكرنا كل ما اشترطه وها على آخره أتيا

قلت : أخبر رحمه الله أنه أتى على ما شرطه في أول كتابه من بيان سنن الصوفية ، وقد أتى على آخره ، فنسأل حبيبه وسوله الخلة ، فجزاه الله عن المسلمين خيراً

وفي أمثاله ما التمس :

جزى الله عنا آل جراد حين في كل ما أسهو وما زلت راشدا

لقد عظمت فضائلهم علينا لنا للمؤمنين هدوا وأهدوا

ثم ختم كتابه بالدعاء ، فقال :

وفقنا الله إلى التوفيق وقادنا لقادة التحقيق

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١١٧ ـ ١١٩ .

قلت : التوفيق هو خلق القوة على الطاعة ، وقادة التحقيق هم العارفون بالله ، سأل من الله التوفيق ، وأن يسوقه إلى شموخ التحقيق ، إذ [illegible] التوفيق [illegible]

ثم ختم بالصلاة على رسول الله ﷺ ليقبل دعاؤه ، ويقبل على كتابه ، فقال :

وبعد هذا فصلاة الله ... تترى على الهادى العظيم الجاه

ما غردت [illegible] فى الأغصان ... [illegible] مشتاق إلى الأوطان

قلت : تترى أى يتبع بعضها بعضاً ، [illegible] الحمامة ذات النقط فى ريشها .

وقوله : العظيم الجاه ، أشار به إلى حديث عنه صلى الله عليه وسلم : « توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم » .

وفى حديث آخر ومكتوب تحت ساق العرش : من اشتاق إلى رحمتى رحمته ، ومن سألنى أعطيته ، ومن توسل إلى بمحمد ﷺ لم أخيبه » .

اللهم إنا توسلنا إليك بجاه حبيبك مولانا محمد ﷺ أن تمتع أسرارنا بمعرفتك ، وتنزه أفكارنا فى رياض قدسك ، وأن تحفظ قلوبنا من الميل إلى غيرك ، نحن وأحباؤنا ومن تعلق بنا آمين .

ثم أيد هذه الصلاة بشيئين أحدهما فان ، والآخر باق .

فالأول : تغريد الحمام فى الأغصان ، والثانى حنين المشتاق إلى الأوطان فإن الأرواح تحن إلى أوطانها على الدوام ، ولو بعد الحمام ، ولو اتصلت بالنعيم الروحانى المقيم ، فلا بد أن يبقى معها الاشتياق إلى الترقى ، والنظر أبداً ، والفرق بين الشوق والاشتياق ، أن الشوق يزول بالملاقاة ، بخلاف الاشتياق ، فلا يزول بالوصول ، وإلى ذلك أشار ابن الفارض بقوله

وما بين شوق واشتياق فنيت فى ... تول بحظوة أو تجل بحضرة

ثم ختم بالحمد كما بدأ ، ليكون الكتاب مكتنفاً بالحمد ، فيعظم خطره ، ويرفع قدره ، فقال :

والحمد لله الذى ختمنا ... بحمده كما به بدأنا

قلت : حمد الله على توفيقه الحمد لله فى البداية والنهاية ، وذلك من علامة بلوغ الأمل والمرام ، وقد تقدم الكلام عليه فى أول الكتاب فلا نعيده .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر التعليق المبارك ، نسأل الله سبحانه أن يتقبله بأحسن قبول ، وأن يبلغ به من طالعه أو سمعه كل مقصد ومأمول ، بجاه الحبيب الأعظم والرسول الأفخم سيدنا ومولانا محمد سيد العرب والعجم ﷺ وعلى آله وأصحابه أولى النزاهة والفضل والكرم .

ووافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الخميس ، أوسط شهر رمضان سنة إحدى عشرة ومائتين وألف .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

تقـديم

١ مقدمة المؤلف
٢ الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم
٣ كيف كان يقرؤها المازرى خروجا من الخلاف
٣ الكلام على حديث «كل امر ذى بال»
٣ من اراد أن يحيا سعيدا
٣ من لم يستعن بالله ، كيف هو ؟
٣ من تبرك باسم الله لا يلحقه خلل
٤ الكلام على الحمد لله
٤ الحمد لغـة
٤ الحمد عرفا
٤ الفرق بين الحمد والشكر
٥ احسن ماقيل فى الشكر
٥ النهج ، ما هو ؟
٥ الكلام على الصلاة على النبى ﷺ .
٦ اقسام المصلين على النبى ﷺ .
٦ معنى قوله صلى الله عليه وسلم « كل الصيد فى جوف الفرا »
٦ الكلام على قول سيدى أبى العباس المرسى : لو غاب عنى رسول الله ﷺ طـرفة عـين ما عـددت نفسى من المسلمين .
٧ معنى السنن (بضم السين) والسنن (بفتحها)
٧ معنى الصوفى ، والفقير .
٧ سنن الفقير
٧ شروطه
٨ آدابه
٨ القصد الصحيح
٨ الاحوال الزكية
٩ اوكان التصوف فى اربعة اشياء
١٠ صحبة العارفين ومكانتها فى الطريق
١١ كيف يقبض الله العلم ؟
١٢ هل بقى احد من محققى هذه الطائفة
١٣ طريق القوم ، وهل هى باقية الآن ؟
١٦ معنى الرسوم والحدود
١٦ هل يؤخذ التصوف من الكتب أم من أهل الاذواق ؟
١٧ معنى « مسالة معتاصة »
١٧ معنى قوله صلى الله عليه وسلم « ان من العلم كهيئة المكنون »
٢٠ معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من سئل عن علم نافع فكتمه »
٢٠ من سلك مسلك الجنيد رضى الله عنه
٢١ برنامج الكتاب وانه محصور فى خمسة فصول :
اصله ـ فضله ـ احكامه ـ الرد على من رده ـ كيف صار .
٢١ الكلام على اصله ، موضوعه ـ ثمرته ـ نسبته ـ اسمه ـ استمداده ـ حكم الشارع ـ مسائله ـ فضله ـ حده

الفصل الاول : فى اصله من ٢٤ ـ ٥٦

٢٤ طريقة الصوفية ، ما هى ؟
٢٦ معنى إن الله خلق آدم على صورته .
٢٩ قدر الانسان من السر
٣٥ تطورات الروح
٣٦ عوائق عن الله سبحانه وتعالى
٤١ البطالون وبساتين العارفين
٤٢ المدعون واهل الطريق الحق
٤٣ المدعى : سارق
٤٥ جنة الزخارف وجنة المعارف
٤٦ الانس بالله هل يحويه البطالون ؟

٤٧ أهل التصوف من جهة دليل الشرع
٤٩ أهل الصفة والتخلق باخلاق النبى صلى الله عليه وسلم
٥١ أهل الصفة تركوا اموالهم وديارهم وخرجوا عنها لمرضاة الله
٥٢ شأن الصوفية ليس محدثا ، انما هو الاقتداء بالصحابة رضى الله عنهم

الفصل الثانى : فضله من ٥٧ ـ ٨٢

٥٨ شرف التصوف وفضله وفضيلته
٥٨ حجة من يرجح الصوفية
٥٩ من خصائص رسول الله ﷺ التى لا يشاركه فيها احد
٦٠ طريق القوم واحدة
٦١ اختلاف الامة رحمة
٦٣ المنازل الثلاثة : الاسلام ، والايمان ، والاحسان
٦٥ عالم الأشباح وعالم الأرواح
٦٨ قواطع الطريق
٧٠ قوة اليقين أصل كل عمل صالح
٧١ اختلاف الفرق فى المجاهدة
٧٣ الذكر مصقلة القلوب
٧٤ معنى قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من امتى ظاهرين »
٧٥ التربية المصطلح عليها بين القوم ، متى ارتفعت ؟
٧٦ نور النبوة فى الزيادة لا فى النقص
٧٩ الذرة من اعمال القلوب افضل من أمثال الجبال من اعمال الجوارح
٨٠ الصوفى اجتمعت فيه كل عناصر الخير
٨١ فضل علم التصوف لا ينكره الا اعمى لا يرى النهار

الفصل الثالث : احكامه من ص ٨٣ ـ ٢٦٨

٨٣ ما المراد بالاحكام ؟
٨٣ مذهب الصوفية الاخذ بالاحسن
٨٤ مذهب المحدثين احسن المذاهب فى فضائل الاعمال
٦٨ السفر المعنوى
٧٨ من لا شيخ له فى الطريق
٩٠ المريد على قسمين
٩٠ مريد مجازى
٩٠ مريد حقيقى
٩٠ المجذوب
٩٢ يشترط فى الشيخ ان يكون ماهرا بالطريق
٩٣ المواضع المأمونة فى طريق القوم
٩٥ علامات الشيخ
٩٥ من الذى يقتدى به والذى لا يقتدى به؟
٩٦ ما شرطه الشيخ الشريشى فى شيخ التربية
٩٧ من شروط الشيخ ان يعرف ما لا بد منه من الكتاب والسنة
٩٧ الشيخ الكامل يمد تلميذه ولو كان بعيدا عنه فى الحس
٩٧ من اقوال اهل الطريق فى الشيخ الموصل الى الله
١٠٠ دوام السير يوجب الملل
١٠٠ اريحوا القلوب : ساعة فساعة
١٠٠ من حسن سياسة الشيخ إعانة النفوس
١٠٢ السفر المطلوب هو سفر القلوب
١٠٣ متى يبرىء الطبيب اذا كان مريضا
١٠٤ كان رسول الله ﷺ يعرف اوضاع النامن وما يصلح لها

١٠٥ من أوصاف الشيخ (الطبيب) العلم والعمل
١٠٨ علم تشريح الابدان ، والكلام على الطب عموما
١١٥ علم طب القلوب
١١٦ حكم الاجتماع
١٢١ الألفة فى طريق القوم
١٢٢ صحبة الجهال اذى صرف
١٢٧ لبس النبى ﷺ كل الالوان
١٣٠ لم لبس القوم المرقعات ؟
١٣٤ البطون حرب الشيطان
١٣٩ ما كان النبى ﷺ يدخر شيئا
١٤٠ خبايا الصوفى خزائن الله
١٤٣ ما هو الورع
١٤٥ وجوب اجتناب طعام الظلمة جميعا
١٤٥ انظر كلام الشيخ العارف بالله زروق على طعام اهل الجور والظلمة
١٥٢ كراهة البطنة
١٥٤ فوائد الجوع
١٥٧ آداب القوم فى الأكل
١٦٠ الزهد عند القوم : ما هو ؟
١٦١ للطريق ظاهر وباطن
١٦٢ آداب اللسان
١٦٢ آداب السماع
١٦٣ آداب القلب
١٦٤ الاخلاق عند القوم ، ما هى ؟
١٦٥ لم سمى الحال حالا
١٦٦ أدب الظاهر عنوان أدب الباطن
١٦٨ المؤدد
١٦٨ الأدب مع الأشياخ
١٦٨ الأدب مع المسلمين
١٧١ متى ينفع الوعظ
١٧٥ الانصات عند المذاكرة
١٧٧ الفقراء لا يداهن بعضهم بعضا
١٧٩ آداب الاخوة
١٨٣ الكلام على السماع عند القوم
١٩٠ الحال الربانى كالمطر
١٩٢ حكم الرقص ، وانه مرذول عند
٢٠٤ حكم السفر للقدوم على المشايخ وآ
٢٠٥ الكلام على الاستخارة
٢٠٨ سنة الفقراء فى بدايتهم
٢٠٨ أول سنة الفقراء : زيارة الشيوخ
٢٠٩ ثانيها : زيارة الاخوان
٢١٠ ثالثها : اقتباس العلم النافع
٢١١ رابعها : اقتباس الاثر
٢١١ خامسها : رد المظالم
٢١٢ سادسها : الاعتبار
٢١٣ سابعها : الخمول
٢١٣ ثامنها : نفى الجاه
٢١٣ تاسعها : السفر لزيارة رسول الله
٢١٣ عاشرها : زيارة البيت الحرام
٢١٦ عقوق الوالدين واقسامه
٢٢٠ آداب القوم فيها
٢٢٥ السؤال
٢٢٩ المسائل كدوح
٢٣١ السؤال عند الفاقة
٢٣٤ الاشتغال بالعبادة من أعظم أسباب القرب
٢٣٦ درجات التوكل ثلاثة
٢٣٦ الأولى : أن يكون فى حق الله ثم والثقة بكفالته وعنايته كحاله با بالوكيل
٢٣٦ الثانية : أن يكون حاله مع الله ك الطفل مع امه

الثالثة : ان يكون بين يدى الله تعالى
مثل الميت بين يدى الغاسل
من هو المريد ؟ وما معنى الارادة
فائدة الشيخ
الناس ثلاثة : طالبون ، ومريدون ، ومرادون
اصل اخذ العهد وشروطه
الانقياد الى طلب الافادة
متى يسمى المريد مريدا
الصمت وفوائده
اعمال الباطن
ماذكره السلمى رضى الله عنه عن اخلاق النفس
الرضا عن النفس اصل كل البلايا
موت النفس وكيف يكون ؟
عمل اهل الاستشراف
ثمرة الزهد
العواذل والرقباء ، من هم ؟
ما قاله ابن خلدون فى قتل الحلاج
معنى قولهم خضت بحرا وقفت الانبياء ساحله .
معنى « مقام البقاء »
الانكار على الاولياء سنة ماضية
علة هذه الطريقة
الكلام على حديث « انا مدينة العلم »
الفصل الرابع من ص ٢٦٨ - ٣٣٨
تبيح من انكر على الطريق
تفضيل العارفين بالله على العارفين باحكام الله .
الكلام على قول إن العمل المتعدى افضل من القاصر

٢٧٤ اسباب انكار العوام على الخواص
٢٧٨ الجهال بهائم فى صور رجال
٢٧٨ اصل الروح
٢٨١ معنى قول الامام الشاذلى رضى الله عنه « غب عن اصلاح ظاهرك ان اردت فتح باطنك »
٢٨٤ كل ما يشغل عن الترقى فهو فضول
٢٨٩ الابصار بنور البصيرة
٢٨٩ حال اشقياء الناس
٢٨٩ حال من يحمد الدنيا لشيىء يمره
٢٩١ من هو صاحب العقل ؟
٢٩١ التنافس فى الطاعات
٢٩٢ معية الاكوان لك ، ما هى ؟
٢٩٢ مسابقة الانسان والكون
٢٩٣ معنى حديث « الدنيا طالبة ومطلوبة »
٢٩٤ ملوك الدنيا واولياء الله تعالى
٢٩٤ من يخرج الداء من القلب
٢٩٥ معنى حديث « الناس نيام »
٢٩٥ سبب اعراض المعاتب وعدم انزجاره
٢٩٧ الفرق بين العالم الروحانى والعالم الجسمانى
٢٩٧ من اصطلاحات الصوفية
٢٩٧ احكام الحس مضادة لاحكام المعنى
٢٩٩ من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق حلاوة الشهود
٣٠٠ سبب الانكار على اهل الطريق
٣٠١ اصل الروح (وقد مر الكلام عليه ص ٢٧٨) .
٣٠١ كلام الششترى فى هذا المعنى
٣٠٢ تنبيه وايقاظ للغافل
٣٠٣ تفصيل جسم الانسان وما فيه من العجائب

٣٠٦ موكب الابداع - الكلام على نور النبى صلى الله عليه وسلم
٣٠٧ مما قيل فى معنى قوله تعالى - فانا اول العابدين - سجود نور النبى ﷺ لله رب العالمين
٣٠٨ خلق الله الوجود كله على صورة الآدمى
٣٠٨ معنى اشتمال الانسان على العالم العلوى والسفلى
٣١١ معنى قول ابن الفارض « وانى وان كنت ابن آدم صورة »
٣١٤ عداوة النفس تمكنك من نواصى الخلق
٣١٦ العلم يطهر النفوس من ظلمات الجهل والشرك والشك - المنتقد على الصوفية وبعده عن فهم الاشارات
٣١٧ ضعف عقول بنى آدم
٣١٧ لا فرق بين النفس والعقل والقلب والروح والسر
٣١٧ النفس وحد أدراكها
٣١٧ العقل وحد ادراكه
٣١٨ القلب وحد ادراكه
٣١٨ الروح وحد علمها
٣١٨ السر وحد ادراكه
٣٢١ معنى قولهم : « دائرة الولى أوسع من دائرة النبى »
٣٢٢ الفرق بين العالم والعارف
٣٢٣ حقيقة العارف
٣٢٤ ثلاثة اصناف لا ينالون من هذا الطريق شيئا
٣٢٥ ابتلاء الصوفية بالخلق
٣٢٥ احتجاب الاولياء عن العامة لطف كبير من الله تعالى

٣٢٧ التحقيق فى مسألة الجبر والاختيار
٣٢٩ بحر القدرة وبحر الحكمة
٣٣٠ مناداة الحكمة والقدرة كل منها على الاخرى
٣٣١ معنى قوله تعالى - لينفق ذو سعة من سعته - فى علم الاشارات
٣٣٣ المعانى رسوم الأوانى
٣٣٣ تعلق علم الحقيقة وعلم الشريعة
٣٣٥ معنى قولهم : العلم كله فى كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت
٣٣٥ الكلام على تكفير الصوفية
٣٣٨ من أراد ان ينهل من موارد المواهب
الفصل الخامس من ص ٣٣٩ - ٣٧٥
٣٣٩ فقراء العصر ومتشبهوا الوقت
٣٣٩ احوال محققى الصوفية واحوال شيوخ التربية
٣٤١ ما لا يقتضى انكاره على الصوفية قسمان
٣٤٢ لا سبيل للشيطان على دخول قلوب الاولياء
٣٤٣ ما هو طريق الصوفية ؟
٣٤٤ طريق التصوف مشارب ومناهل
٣٤٤ طريق الصوفية مؤسسة على الكتاب والسنة
٣٤٥ من دخل الطريق حببت روحه
٣٤٧ لم يبق من الطريق الآن الا الاكل والرقص والزمارة (الغناء) وهو حرام بلا كلام
٣٤٧ طريق القوم مبنية على تصفية القلوب ورياضة النفوس
٣٤٨ خساسة الهمة

٣٤٨ نقض الاصول والاركان
٣٤٩ اثبتوا فيها ما ليس منها
٣٥٢ الكلام على الولائم
٣٥٤ مذهب الصوفية الالفة والموافقة قلبا وقالبا
٣٥٥ من لم يكتب الحديث ويجالس العلماء لا يقتدى به
٣٥٦ علامة شرح الصدر
٣٥٧ معنى قوله ﷺ من عرف نفسه عرف ربه »
٣٥٧ وجه الاستدلال على معنى هذا الحديث
٣٥٨ الكلام على الحديث من حيث الثبوت وعدمه
٣٦٠ معنى ان الميت لا يرى
٣٦١ الغالب على العارف البسط
٣٦٢ هلّ الفقير ما فيه الشهرة عند الناس
٣٦٢ عوام الصوفية
٣٦٢ ما ينبغى للمريد المتوجه
٣٦٥ شأن الفقير المتوجه : ما هو ؟
٣٦٨ الفقير لا يدعى الشيخوخة
٣٦٩ محبة القوم فيها خير كثير
ينبغى للفقير الا يفتنه الزمان .
ختم المؤلف بالحمد لله تعالى والصلاة على رسول الله ﷺ كما بدا ...

تم بحمـــــد الله

كتـــــاب

(الفتوحات الإلهيـــة)